



جامعة كربلاء  
كلية العلوم الإسلامية  
قسم اللغة العربية

## المركز وَالهامش في الدراسات الاستشرافية الإسلامية برنارد لويس أنموذجاً

أطروحة مقدمة إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء  
وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في  
اللغة العربية – فلسفة لغة القرآن وآدابها

كُتِبَتْ من قبل الطالب  
علي جواد كاظم الجبوري

بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور  
صفاء حسين لطيف المسعودي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿۱﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ  
إِنَّ اللّٰهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿۲﴾﴾

صدق الله العظيم

(الطلاق ۲-۳)

## ترشيح أطروحة للطبع

نظرًا لإنجاز فصول ومباحث الأطروحة الموسومة بـ ( المركز والهامش في الدراسات  
الاستشراقية القرآنية - برنارد لويس أنموذجاً) لطالب الدكتوراه (علي جواد كاظم مرهج) فإني  
أرشحها للطبع .

التوقيع:

المشرف: أ.م.د. صفاء حسين لحيق  
مكان العمل: كركوك، كلية العلوم، 1/1/2017  
التاريخ: 1/1/2017 م

## إقرار المشرف

أشهد أن الأطروحة الموسومة بـ (المركز والهامش في الدراسات الاستشرافية القرآنية - برنارد لويس أنموذجاً) التي قدمها الطالب (علي جواد كاظم مرهج) قد تم إعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة في لغة القرآن وأدائها.

التوقيع:

المرتبة العلمية: أستاذ مساعد دكتور

الاسم: حسين بن حسين

مكان العمل: كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ٢٠١٨/١٢/٢٠

بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الأطروحة للمناقشة.

التوقيع:

الاسم: د. محمد بن محمد

التاريخ: ٢٠١٨/١٢/٢٠

## إقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة نشهد أننا اطلعنا على الأطروحة الموسومة  
بـ (المركز والهامش في الدراسات الاستشراقية الإسلامية برنارد لويس أنموذجاً) التي  
قدمها الطالب (علي جواد كاظم الجبوري)، وناقشنا فيها وفي ما له علاقة بها. وقد وجدنا أنها  
جديرة بالقبول لنيل شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها، وبتقدير (جيد جداً)

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. علي هاشم طلاب

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/

عضواً

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. حازم فاضل محمد

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/


رئيساً

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. بشرى حنون محسن

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/

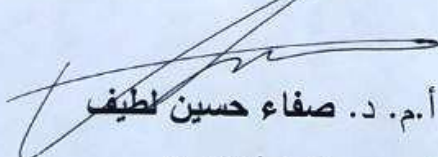
عضواً

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. محمد عبد الحسن حسين

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/


عضواً

الإمضاء: 

الاسم: أ.م.د. صفاء حسين لطيف

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/

عضواً ومشرفاً

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. علي محمد ياسين

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/

عضواً

صتق مجلس كلية العلوم الإسلامية في جامعة كربلاء القرار المذكور

عميد كلية العلوم الإسلامية

الإمضاء: 

الاسم: أ.د. ضرغام كريم كاظم الموسوي

التاريخ: ٢٠٢٣/٥/٣٥

## الإهداء

- إلى روح والدي الحبيب.. رحمه الله

- إلى والدي ، حفظها الله

- إلى صنو روحي

- وإلى عائلتي

أهدي هذا العمل



## شكر وعرفان

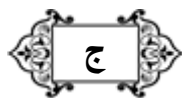
أَزْعُمُ أَنَّ لِي مِنَ الْأَجِبَةِ نَصِيْبًا وَافِرًا، إِنَّ أَحْصَيْتُ أَسْمَاءَهُمْ طَالَتْ  
سُطُورِي وَكَثُرَتْ صَفْحَاتِي، حَاوَلْتُ عُيُونُهُمْ أَنْ تَحْمِينِي، وَالسِّنُّهُمْ أَنْ  
تُرْضِينِي، وَأَنْفَاسُهُمْ دَعَتْ لِي، تَخَوَّفُوا لَخَوْفِي، وَقَلَقُوا لِقَلْقِي، وَهَمُّوا لِهَمِّي، لَمْ  
يَبْخُلُوا بِمُسْتَطَاعٍ، وَلَمْ يَتَوَانُوا عَنْ مُسَاعَدَةٍ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، أَوْ  
فِعْلٌ جَمِيلٌ، أَوْ مُحَاوَلَةٌ صَادِقَةٌ، مَنْ نَاعَمْتُ رُوحَهُ حُرُوفِي هَذِهِ فَلْيَبَيِّنْ أَنَّهُ  
مِنْهُمْ.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى السيد عميد الكلية، ومعاونيه  
العلمي والإداري وأساتيذي في القسم، لما أحاطوني به من الرعاية، والتوجيه،  
والعون العلمي سائلًا المولى (عز وجل) أن يبقِيهم منارًا يهتدي به طلبة  
العلم، والشكر موصولٌ للأساتذة الأفاضل، رئيس وأعضاء لجنة المناقشة  
الموقرين، ممتنًا لجهدهم في قراءة هذه الأطروحة، وتسجيل ملاحظتهم  
التصويبية عليها، حفظهم الله تعالى وجزاهم خير ما يجزي محسنًا على  
إحسانه.

وخالص شكري، وامتناني، ومحبتني، لعائتي جميعًا على تحملهم  
انشغالي عنهم طيلة مدة البحث، كما أتقدم بوافر الشكر لأصدقائي، وزملائي

الباحث

الذين دعموني وساندوني..



## الخلاصة

يقعُ هذا البحث ضمنَ حقلِ النقدِ الثقافي، القائم على قراءة المُضمر في الخطاب، وهجرة المنهج الكلاسيكي في نقد النص، فالنقد الثقافي يعمل على تحويل القارئ الناقد من مجرد صنيعة ثقافية تتحكّم فيها الأنساق المغلقة وتوجّه حركتها، إلى عنصرٍ فاعلٍ وفاحصٍ لكلّ نص وفق ضوابط منهجية صارمة.

ويسعى هذا البحث إلى كشف قضايا (المركز) و(الهامش) في الفكر الاستشراقي، وإبراز تجلياتها في مؤلفات المستشرق الأنجلوأميركي برنارد لويس، وتحليل ثقافته الاستشراقية للتعرف على الجوانب الخفية وراءها، وإظهار الكامن منها، التي استهدفت الشرق عمومًا والإسلام خصوصًا، إذا ما لاحظنا أنّ المركز هو الثابت في ثقافة ما بالمعنى النسبي لمفهوم ثابت، وهو ما يتشكّل من ترسيخ للعقائد والفلسفات والعادات والتقاليد، أمّا الهامش فهو ما يقع خارج محيط الدائرة الفكرية، فهو فكر وخطاب الأقلية المعزولة خارج نطاق الثقافة المهيمنة، فهي دراسة ثقافية تحاول الإجابة عن أسئلة عديدة لعلّ من أهمها: كيف ينظر الغرب للإسلام؟

يمثّل هذا البحث خطوة نقدية تقوم الخطاب الغربي المركزي، وتواجهه بشيء من الكشف الصادم للأنساق المضمرّة وإخراجها للعلن، إذ يشتغل على عرض نسقي المركز والهامش من أجل تقويض زيف بعض الخطابات الغربية المركزية، والسرديات الكبرى التي تُسيطر على المتخيّل الغربي، والماكنة الإعلامية الاستعمارية الغربية، التي تصوّر المسلم (الآخر) بأنّه متخلف، دموي، عنيف، ذو فكر إقصائي، لا يؤمن بالحوار، والتعايش مع المقابل، خصوصًا بعد أحداث برج التجارة العالمي (١١ أيلول ٢٠٠١)، وإظهار الهامشي في الخطاب الاستشراقي وكشف ما استتر منه خلف خطابات المركز، إذ تحتدّ عملية الاستقطاب والصراع بين المركز والهامش. ويأتي البحث ردًّا على الخطاب المركزي الاستشراقي، ولإثبات أنّ الاستشراق ما هو إلّا سلاح بيد الغرب وليس علمًا فحسب، لفرض هيمنة الأنا الغربية على الآخر الشرقي.

الباحث





قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
	الآية الكريمة
أ	الإهداء
ب	شكر وعرقان
ج	الملخص
د - هـ	قائمة المحتويات
٦-١	المقدمة
٢١-٧	التمهيد
٩	المطلب الأول: إضاءة المفاهيم
١٩	المطلب الثاني: حياة برنارد لويس
٨١-٢٢	<b>الفصل الأول : تشكّل الأنساق ومرجعياتها لدى برنارد لويس</b>
٢٤	المبحث الأول: برنارد لويس بين الاستشراق القديم والاستشراق الجديد
٢٥	المطلب الأول: الاستشراق القديم
٤٠	المطلب الثاني: الاستشراق الجديد النيواستشراق
٤٦	المبحث الثاني: التشكّل
٦٤	المبحث الثالث: المرجعيات
١٩٨-٨٢	<b>الفصل الثاني : تجليات المركز (الأنساق المركزية المهيمنة)</b>
٨٤	المبحث الأول: مواجهة الإسلام
٨٥	المطلب الأول: الحرب القيمية ضد الإسلام
١٠٧	المطلب الثاني: مكافحة الإسلام والمسلمين

قائمة المحتويات

١١٢	المطلب الثالث: القرآن في نظر لويس
١١٨	المطلب الرابع: النبي الأكرم ﷺ في نظر لويس
١٢٤	المبحث الثاني: الإسلام والديانات الأخرى
١٢٤	المطلب الأول: صراع الهيمنة بين المسيحية والإسلام
١٣١	المطلب الثاني: الإسلام والديانات الأخرى
١٣٨	المطلب الثالث: المتخيل الغربي عن الشرق
١٥٣	المبحث الثالث: الثنائيات النسقية
٢٨٨-١٩٩	الفصل الثالث: تمثّلات الهامش (الأنساق الهامشية)
٢٠٢	المبحث الأول: استعادة التمركز
٢٠٤	المطلب الأول: أنساق الهامش
٢٢١	المطلب الثاني: لغة المهمشين وحضارتهم
٢٣١	المبحث الثاني: ثنائيات الهامش
٢٦٢	المبحث الثالث: النقابات والطوائف
٢٩٥-٢٨٩	الخاتمة
٣١٧-٢٩٦	المصادر والمراجع
A - B	Abstract

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين

رَكَزَتِ الدراسات الاستشراقية عمومًا على عددٍ من الأهداف، يأتي في مُقدِّمتها مُهاجمة مُرتكزات وحدة المسلمين ومصادر قوتهم، فعمدَ الكثيرُ من المستشرقين، ومنهم المستشرق موضوع البحث برنارد لويس إلى الكتابة عن الجوانب السلبية والهشّة للمسلمين، وعرض كل ما له علاقة بالانتقاص منهم، والتشكيك في عقيدتهم والإضعاف منها أمام المتلقي الغربي، بهدف الإطاحة بصورة المسلم الشرقي وتسقيطه والحدّ من منزلته، وبيان هامشية دوره في معظم جوانب الحياة واعتماده الأساسي على الغرب، فجاء هذا البحث لكشف زيف الخطاب الاستشراقي الغربي وكشف الأنساق المركزية والهامشية فيه.

#### أهمية البحث وأهدافه:

يكتسبُ البحثُ أهميته من جوانب عدّة، أبرزها: سعيه لتسليط الضوء على القضايا المركزية في الفكر الاستشراقي، وتشخيص الهامش الفكري للآخر المستهدف بالحملات الاستشراقية، وإظهار ما استتر منه خلف خطابات السلطة، وتحليل وكشف الدوافع الرئيسية التي تقف وراء حركة الاستشراق، فضلًا عن محاولة تعرية وكشف التهم والأباطيل التي كالحاها المستشرقون للإسلام والرد عليها، كما يشخّص البحث المرجعيات الثقافية للحركة الاستشراقية التي استند عليها الفكر الاستشراقي من حيث البيئة التعليمية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

ويأتي توظيفُ القراءات النصية الدقيقة والمثمرة هدفًا أساسيًا من البحث لغرض استجلاء الجدلية القائمة بين النصّ والكاتب والتشكيل الجمعي المُعقّد، كما يحاولُ البحثُ طرح الاستشراق الجديد كقضيةٍ أبستمولوجيةٍ وأسلوبٍ منهجيٍّ يعالجُ القضايا التاريخية والثقافية مستندًا على تمركز الذات،

ومنظومة قيمٍ تكرّس هيمنة ذات الكاتب، وسيطرة منظوره الحضاري والعربي، مع التركيز على كشف أنساق العلاقة بين الاستشراق والمركزية الأوروبية والسلطة الاستعمارية، وإبراز العناصر الأيديولوجية والمعرفية في الاستشراق، وإظهار تخفي المؤسسة والسلطة في الخطاب الاستشراقي، واستتطاق المٌضمر والمسكوت عنه في هذا الخطاب للكشف عن خباياه الكامنة.

### سبب اختيار الموضوع:

إنّ ما استوقفني للتفكير في موضوع هذا البحث؛ هو ملامسته لقضايا جوهرية تتعلق بهويّة الإسلام وفكره وعقيدته ومبادئه ووجوده، والدفاع عنه، وهو موضوع جدير بالدراسة والبحث، وإثراءً للمكتبة المحليّة والعربيّة بهذا النوع من الدراسات، التي تكشف عن الأنساق المركزية والهامشية في الفكر الاستشراقي الجديد؛ ضمن حقل النقد الثقافي، بغية الإفادة منها في مجال البحث العلمي، وانطلاقاً من هذه الأهمية، ازدادت رغبتني في الموضوع، نظراً لحساسيته المتعلّقة بالحياة الإسلامية، وإسقاط الأباطيل وردّ التهم التي ألصقت بالإسلام في قضايا متعدّدة ضمن تيار فكري استشراقي جديد يتزعمه المستشرق الأنجلوأميركي برنارد لويس.

### هدف البحث

يحاولُ هذا البحثُ تسليطَ الضوءِ على نسقي المركز والهامش في كتابات ومؤلفات برنارد لويس الاستشراقية ومقاربة هذين النسقين، والسياقات الثقافية والفكرية والتاريخية التي تبلور كلا النسقين في إطارها، وعرض توجّهات وأفكار الحقل الاستشراقي الجديد متمثلاً ببرنارد لويس أنموذجاً، وتقديم التحليلات الثقافية لأبرز ما كتبه من دراسات استشراقية، ويرتكز البحث على مرحلة ما بعد النصف الثاني من القرن العشرين وهي الفترة الزمنية لكتابات لويس، وهي المرحلة التي نشأ فيها ما يُسمى بـ(الاستشراق الجديد).

## منهج البحث:

إنّ خصوصية البحث في تناوله مُستشرقاً مُهمّاً وبارزاً مثل برنارد لويس استوجب التنقيب في مرجعيّاته الثقافية، وآرائه عن الإسلام والشرق والعرب، وبناءً على ذلك وقع الاختيار على منهج النقد الثقافي كمنهج للدراسة، فهو يُفيد من مناهج النقد التفكيكية، والبنوية، والاجتماعية، وما بعد الكولونيالية وغيرها، للكشف عن ملامح اللاوعي، وكشف المسكوت عنه، وإظهار الجوّاني والمُضمر، فالنقدُ الثقافي يفرّق ويميّز بين جمالية النصوص وقيمتها الأدبية، وما يقبع خلفها من أنساق مُضمرة، وخلفيات تلك النصوص الثقافية التي تؤثر في قيمتها الإنسانية، أو قيمة كاتبها، ولا بُدّ من تجاوز المناهج الشائعة في نقد وتحليل النصوص الابداعية بشتى أصنافها، واتّباع منهجية استقرائية تحليلية في قراءة الخطاب الاستشراقي بالاعتماد على أسس النقد الثقافي التي بيّنها رواد هذا النقد أمثال رايغون وليمز، وتيري إيغلتون، وستيفن غرينبلات، وعبد الله الغدّامي، ويوسف عليمات وغيرهم. وما لم يُفحص الاستشراق بعدّه لوناً من ألوان الخطاب؛ فلنْ نتمكّن مطلقاً من تفهّم الوضع الذي مكّن الثقافة الغربية من تدبير أمور الشرق في مجالات السياسة وعلم الاجتماع والمجالات العسكرية والأيدولوجية والعلمية.

## هيكلية البحث:

انتظم البحث في ثلاثة فصولٍ، سُبقت بملخص للأطروحة ومقدمة، وتمهيد، وخُتمت بخاتمة، وبثبتٍ للمصادر والمراجع، فضلاً عن ملخصٍ للأطروحة باللغة الانكليزية، ذكرتُ في التمهيد تعريفاً بالمصطلحات الواردة في عنوان الأطروحة، وسيرة المستشرق برنارد لويس، فيما عني الفصل الأول بتشكّل الفكر الاستشراقي لدى برنارد لويس ومرجعياته الثقافية، ونبذة تاريخية عن الاستشراق القديم، ودوافعه، وأهدافه، وماهيّته، وتعريف بالاستشراق الجديد (النيواستشراق)، وبيان المؤثرات،

والظروف، والأبعاد، والسياقات، التي أنتجت فيها مؤلفات برنارد لويس؛ ذلك أن تلك المؤثرات والظروف والعوامل مارست سلطة إنتاجية عليها.

أما الفصل الثاني فاختصّ بعرض تجليات الأنساق المركزية المهيمنة، ف جاء المبحث الأول بعنوان مواجهة الإسلام، فيما كان المبحث الثاني بعنوان الإسلام والديانات الأخرى، وعرض المبحث الثالث الثنائيات النسقية، في حين تناول المبحث الرابع المتخيّل الغربي عن الشرق.

أما الفصل الثالث فخصصته لتمثّلات الهامش في مؤلفات برنارد لويس، جاء المبحث الأول بعنوان استعادة التمرکز، فيما عرض المبحث الثاني ثنائيات الهامش، والمبحث الثالث تناول النقابات والطوائف.

#### الدراسات السابقة:

لا تعدّ هذه الدراسة الأولى في الاستشراق والمؤلفات الاستشراقية، لكنّها ربما تكون الأولى نوعياً ضمن حقل النقد الثقافي ومجال الأنساق الثقافية كدراسة للفكر الاستشراقي، فقد سبقتها دراسات كثيرة منها: (القراءة الاستشراقية للنص القرآني دراسة معرفية: موسى خابط القيسي)، و(في نقد الاستشراق: محمد المزوغي)، و(القرآن الكريم في دراسات المستشرقين: مشتاق بشير الغزالي)، و(الاستشراق وأثره في الحضارة العربية: سعاد بن حدو) وغيرها، أما الدراسات التي تناولت فكر برنارد لويس فمنها (الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس: مازن مطبقاني)، و(الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد).

## المصادر والمراجع

تعتمدُ الدراسة في جمع مادتها على عددٍ من المصادر والمراجع أهمّها: كتب الاستشراق ومؤلفات أبرز أعلام الفكر الاستشراقي، وكتب نقد الاستشراق؛ ولأنّها في صميم هذا المجال، فقد تكون المُعتمد في معظم مفاصل البحث، وكتب النقد الأدبي عمومًا والنقد الثقافي خصوصًا، وكتب السياسة المعاصرة، والفكر الحديث، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، بالإضافة إلى المعاجم والموسوعات والمصادر اللغوية وغيرها. ويعد:

فإنّ هذا العمل الذي بين أيديكم ثمار جهدٍ مضمّنٍ لاقيت فيه نصبًا، الله تعالى وحده يعلم مداه، فما كان فيه من صواب فهو من توفيق الله الكريم، وما وقعت فيه من خطأ وتقصير فهذا ما جُبلت عليه البشر، وما أجمل قول القائل: ((إني رأيت أنّه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه إلّا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قُدّم لكان أفضل، ولو تُرِكَ لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر)) وختامًا فإنّ الإخلاص والأمانة تقتضي أن أذكر بإكبارٍ وشكرٍ عظيمين الرعاية الكريمة التي شملني بها أستاذي المشرف الدكتور (صفاء حسين لطيف المسعودي) الذي لم يألُ جهدًا، ولم يدّخر وسعًا في رعايتي وتوجيهي ونصحي، فإلى الله أتوجه داعيًا أن يجزيه عني كل خير، كما أشكر كلّ من مدّ يد العون لي مؤازرًا وناصحًا، داعيًا الله سبحانه أن يجزيهم خير جزاء المحسنين وأن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه مقبولًا عنده.



# التمهيد

(عتباتُ القراءةِ الأولى)

المطلب الأول: إضاءةُ المفاهيم

المطلب الثاني: حياة برنارد لويس

المركز والهامش ثنائيتان ضديّتان تخدم الأولى وتُلغى الآخر، إنّ هذه الثنائيتان تجمع بين شيئين، تكوّنت بينهما علاقة تنافيريّة ضديّة شبيهة بالصراع الأزلي بين الذات والآخر، ويُعدُّ مصطلحا المركز والهامش من أكثر المصطلحات غموضًا وإثارةً للجدل، إذ يدخلان في مجالاتٍ عدّة منها: السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، إذ يكثر تداولُهُما، ولعلّ قيمة هذه الثنائية تكمن في قدرتها على جمع هذه المجالات وتكثيف عناصرها، فكأما تطرّقنا إلى مجالٍ من هذه المجالات تداخلت معه المجالات الأخرى بشكلٍ أو بآخر، ممّا يصعب الفصل بينهما في كثير من الأحيان.

تعملُ هذه الدراسة على إيضاح تجلّيات هذه الثنائية في دراسات المستشرق برنارد لويس الاستشراقية، وإبراز تمظهرات هذين النسقين في كتاباته، في ضوء النقد الثقافي الذي يعدّ ((فرعًا من فروع النقد النصوي العام، وأحد علوم اللغة وحقول الألسنية المعني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي، بكل تجلياته وأنماطه وصيغته... وكشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي - الجمالي))<sup>(١)</sup>، وفي هذا التمهيد سأعرض لمطلبين يشكّلان الحرص على الوقوف على عتبات البحث، يختصُّ المطلبُ الأوّل ببيان المصطلحات الواردة في عنوان الأطروحة، والمطلب الثاني الحديث عن سيرة حياة المستشرق برنارد لويس.

(١) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبد الله الغدامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م:

## المطلب الأول: إضاءة لمفاهيم الاستشراق، المركز، الهامش

الاستشراق لغةً: تتعدّد تعاريف الاستشراق لكنّها تتفقُ على أنّ ((لفظة الاستشراق مشتقة من مادة (شَرَقَ) يقال: شَرَقَتِ الشمسُ شَرْقًا إذا طَلَعَتْ))<sup>(١)</sup>، و((عند إضافة الألف والسين والتاء أصبحت بمعنى طلب الشيء، واستشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم، يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة))<sup>(٢)</sup>، و((الأصل في كلمة استشرق أنّه صارَ شَرِقِيًّا، كما يقال استغرب إذا صارَ غَرِيبًا))<sup>(٣)</sup>.

وَمِنَ الجديرِ بالذكرِ أنّ كلمة الاستشراق لم تردْ في المعاجم اللغوية، لكنّ التعريف العام هو: ((علم الشرق، أو علم العالم الشرقي، وهو الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بشكل عام))<sup>(٤)</sup>، فهو من المصطلحات الحديثة، وإن كان مدلولها غير حديث، فهي لفظة استعملها المحدثون ومشتقاتها من ترجمة كلمة (Orientalism)، ثم استعملوا من الاسم فعلاً فقالوا استشرق، وهي لفظةٌ مؤلّدةٌ، والمعروف لدى المحققين استعمال "علماء المشرقيات" بدلاً من "المستشرقين" لكنّ الشائع في الآونة الأخيرة هو "المستشرقون"<sup>(٥)</sup>. و((تحمل اللفظة العربية لمصطلح الاستشراق من الشحنة العاطفية أكثر من معادلها الأعجمي Orientalism))<sup>(٦)</sup>.

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور(ت ٧١١ هـ) اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، د. ت: مادة (ش ر ق). والمعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، إيران، ط٥، ١٤٢٦هـ، مادة: (ش ر ق). كذلك ينظر: مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٨م: ١٤١. كذلك ينظر: المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، جمهورية مصر العربية، ط٤، ٢٠٠٤م، ج ١٠: ٤٨٢

(٢) معجم متن اللغة: الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٨م، ج٣: ٣١١

(٣) المفصل في تاريخ الأدب العربي: احمد الاسكندري واخرون، دار احياء العلوم بيروت، ط١، ١٩٩٤م: ٤٠٨/٢٠

(٤) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م: ١٨

(٥) ينظر: فلسفة الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر: أحمد سميلوفيتش، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م: ٣٠

(٦) الاستشراق والحوار الثقافي: ناديا انجيليسكو، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ١٩٩٩م: ٧٢

وَيَظْهَرُ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ تَحْدِيدٌ وَاضِحٌ لِمَفْهُومِ الاسْتِشْرَاقِ، إِذْ يُمْكِنُ إِطْلَاقُ هَذَا الْمِصْطَلَحِ عَلَى ظَاهِرَةٍ بَعِينِهَا، فَهُوَ عَلَى قَدْرِ مَنْ الشُّمُولِ بِحَيْثُ يَدُلُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالشَّرْقِ، فِيهِ يُحْشَرُ عِلْمُ الآدَابِ وَالْآثَارِ وَيُقْرَنُ عِلْمُ الاجْتِمَاعِ بِالْعُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ وَتَجْمَعُ تَحْتَ هَذَا الْعِنْوَانِ<sup>(١)</sup>.

إِنَّ مُعْظَمَ تَعْرِيفَاتِ مُصْطَلَحِ الاسْتِشْرَاقِ لَا تَصِلُ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الدَّقَّةِ فِي تَحْدِيدِ جَوْهَرِ الْمِصْطَلَحِ وَعِنَاصِرِهِ الْأَسَاسِيَّةِ لَكِنَّهَا تَقَدَّمُ عَدَدًا مِنَ الشُّرُوحِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْفَائِدَةِ، فَالاسْتِشْرَاقُ يُوْخَذُ بَعْدَ مَفَاهِيمٍ مُتَدَاخِلَةٍ، فَهُوَ: ((تِيَارٌ فِكْرِيٌّ تَمَثَّلَ فِي الدِّرَاسَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ عَنِ الشَّرْقِ الإِسْلَامِيِّ، شَمِلَتْ حَضَارَتَهُ وَأَدْيَانَهُ وَأَدَابَهُ وَلِغَاتِهِ وَتَقَاتِهِ))<sup>(٢)</sup>.

أَيَّ أَنَّهُ يَخْتَزِلُ كُلَّ الْمُنْطَقَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ شَرْقَ الْخَطِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مِنَ الْعَالَمِ بِالشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ، فَهُوَ: ((مِصْطَلَحٌ يَخْصُ الشَّرْقَ كَمَا اكْتَشَفَهُ وَسَجَلَهُ وَوَصَفَهُ وَتَخَيَّلَهُ وَأَنْتَجَهُ وَاخْتَرَعَهُ الْغَرْبُ))<sup>(٣)</sup>. وَالاسْتِشْرَاقُ حَسَبَ رُؤْيَا إِدْوَارْدِ سَعِيدٍ ((نَمَطٌ مِنَ الإِسْقَاطِ الْغَرْبِيِّ عَلَى الشَّرْقِ وَإِرَادَةُ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ))<sup>(٤)</sup>.

وَفِي الْمَفْهُومِ الإِجْرَائِيِّ فَإِنَّ الاسْتِشْرَاقَ هُوَ تَصَدِّيُّ عُلَمَاءَ غَيْرِ مُسْلِمِينَ سِوَاءِ أَكَانُوا مِنَ الشَّرْقِ أَمْ مِنَ الْغَرْبِ لِدِرَاسَةِ عُلُومِ الْمُسْلِمِينَ وَحَضَارَتِهِمْ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ

(١) يَنْظُرُ: كَنَهُ الاسْتِشْرَاقَ الْمَفْهُومَ الْأَهْدَافَ الْارْتِبَاطَاتِ: عَلِيٌّ بِنُ ابْرَاهِيمَ النَّمْلَةَ، بَيْسَانَ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، بَيْرُوتَ، ط٣،

٢٠١١م : ١٨

(٢) فِلْسَفَةُ الاسْتِشْرَاقِ وَأَثَرُهُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاوِرِ: أَحْمَدُ سَمَائِلُوفِيْتِش: ٢٢. كَذَلِكَ يَنْظُرُ: الإِسْقَاطُ فِي مَنَاحِجِ

المُسْتَشْرِقِينَ وَالمُبَشِّرِينَ: شَوْقِي أَبُو خَلِيلٍ، دَارُ الْفِكْرِ الْمَعَاوِرِ، بَيْرُوتَ، ط١، ١٩٩٨م : ٥

(٣) الاسْتِشْرَاقُ قِرَاءَةُ فِي الْمَنْهَجِ وَقِصْدِيَّةِ الْخُطَابِ: فَارِسُ عَزِيزِ الْمَدْرَسِ وَ زَاهِدَةُ الشَّيْخِ، مَجَلَّةُ آدَابِ الرَّافِدِينَ، الْعَدَدُ ٦٠،

٢٠١١م : ٩

(٤) الاسْتِشْرَاقُ الْمَعْرِفَةُ، السُّلْطَةُ، الْإِنْشَاءُ: إِدْوَارْدُ سَعِيدٍ، تَرْجَمَةُ: كَمَالُ أَبُو دَيْبٍ، مَوْسَسَةُ الْأَبْحَاثِ الْعَرَبِيَّةِ، بَيْرُوتَ، ط٧،

٢٠٠٥ : ١٢٠

وآدابهم وتقاليدهم شعوبهم وعاداتهم وآثارهم<sup>(١)</sup>، يقول أحمد حسن الزيات: ((يراد بالاستشراق دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمه ولغاته وآدابه وعلومه ومعتقداته، ولكّنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم، بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقاً في غياهب الجهل والبربرية))<sup>(٢)</sup>.

إنّ الاستشراق علمٌ واسعٌ يختلط ميدانه أحياناً بميادين العلوم الأخرى لأنّ المستشرق قد يشترك في أبحاثه مع علماء الفنون واللاهوت والأصوات والاشتقاق والحفريات والفلسفة وما شابهها، وإنّ المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق<sup>(٣)</sup>، أمّا المستشرق فهو: ((الباحثُ الغربيُّ الذي يحاول دراسة الشرق وتاريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته))<sup>(٤)</sup>. وجاء في موسوعة المنجد أنّ المستشرق هو: ((العالم باللغات والآداب والعلوم الشرقية))<sup>(٥)</sup>. فهو إذاً حقل من حقول المعرفة الأكاديمية التي تنتمي إلى المؤسسات التعليمية الغربية، وهو مرهون بمدى تمكّن الباحث الغربي من اللغات الشرقية وتبحّره في علومها وآدابها، وحينئذٍ يمكن عدّه مُستشرقاً.

(١) ينظر: مستشرقون في علم الآثار : محمد الأسعد، الدار العربية للعلوم، بيروت ، ٢٠١٠م: ٢٤٦

(٢) تاريخ الادب العربي: أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة. د.ت.: ٥١٢

(٣) ينظر: ردود على شبهات المستشرقين بحوث ودراسات: يحيى مراد كتاب منشور في موقع كتب عربية على شبكة الانترنت <https://www.kotobarabia.com> / : ٢٧

(٤) المستشرقون والدراسات القرآنية: محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ١١

(٥) المنجد في اللغة والاعلام : لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٣٣: ١٩٩٢م: ٣٨٤.

## المركز والهامش\*

**المركز لغةً:** ((من رَكَزَ، الرَكَزُ، وهو غَرَزُكَ شيئًا مُنتصبًا كالرُّمَحِ ونحوه، والمَرَكَزُ هي منابتُ الأسنان، ومَرَكَزُ الجند هو الموضعُ الذي أمروا أن يلزموه ولا يبرحوه، ومركزُ الرجل هو موضعه، يقال أخلَّ فلانٌ بمركزه، ومركزُ الدائرة هو وسطها))<sup>(١)</sup>، وقد تمَّ اشتقاق كلمات من هذا الجذر اللُّغوي ليدلَّ على معانٍ أخرى، من ذلك: ((مركزي: الذي تتشعبُ منه فروعٌ وترجعُ إليه، مركزية: جمع السلطة في مركز واحد، فكل هذه المعاني تتصل بالقوة والتحكم في الملك والسمو، وترتبط بالتكثيف والاستحواذ، والقدرة على أخذ القرارات ولهذه المعاني اللغوية علاقة بالاصطلاح))<sup>(٢)</sup>.

**المركز اصطلاحًا:** يدخل مصطلحا المركز والهامش في مجالاتٍ عدة منها: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية إذ يكثر تداولهما، فالمركز في الثقافة هو: ((الثابتُ في ثقافةٍ ما، بالمعنى النسبي لمفهوم ثابت، وهو ما يتشكّل من ترسيخٍ للعقائدِ والفلسفاتِ والعاداتِ والتقاليد))<sup>(٣)</sup>، والمركزُ: ((عند المهندسين نقطةٌ في وسط الدائرة أو الكرة، بحيث تتساوى جميع الخطوط الخارجة منها، أي من تلك النقطة إلى محيط الدائرة أو الكرة))<sup>(٤)</sup>، كما أنّ له معانٍ تتصلُّ بالقوة والتحكّم في

\* هناك العديد من الدراسات كتبت في تحديد هذين المصطلحين أذكر منها: خطاب المركز والهامش في الرواية الجزائرية باللغات العربية، الامازيغية، الفرنسية من منظور النقد الثقافي: ذهبية أشابوب، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي أوزو، الجزائر، ٢٠٢١ : ٢٢-٢٣. للمزيد ينظر: المركز والهامش في أدب عيسى لحليح: دليلة الباحث، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٦: ١٢-٣٠.

(١) لسان العرب: ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، مج٦ : ٢١٤ مادة (ركز). كذلك ينظر:

القاموس المحيط: محمد ابراهيم الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩: ٢٨٣/١.

(٢) المنجد الوسيط في اللغة العربية والمعاصرة: أنطوان نعمة وآخرون، دار المشرق بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ٤٣٧.

(٣) جدلية المركز والهامش: أبكر آدم اسماعيل، ط٢، منظمة حقوق الإنسان والتنمية، الخرطوم، ٢٠١٥م: ١١.

(٤) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط١،

السلطة والملك. أمّا المركز السياسي فهو ((البؤرة أو المكان الذي تتواجد فيه السلطة والإدارات التابعة لها))<sup>(١)</sup>، فهو قائم على قوّة تسيطر على باقي أطراف المجتمع، واجتماعيًا هو تعبيرٌ يستعمله علماء الاجتماع ((يدل على العلاقات القائمة بين قلب القوة والثقافة لمجتمع ما، ومناطقه المحيطة))<sup>(٢)</sup>. فهو بشكل عام يعني الملك، والقوة، والسيطرة، وقلب الأشياء ونقطة تمحورها، والمركز غالبًا هو الفاعل، والمسيطر، والمنتصر، والمتفوق، والنخبة.

**الهامش لغة:** ((الهَمْشُ والهَمْشُ كثرة الكلام والخطل في غير صواب، وأنشد: وهَمْشُوا بِكَلِمٍ غَيْرِ حَسَنٍ))<sup>(٣)</sup>، ((وامرأة هَمْشَى الحديث تُكثِرُ الكَلَامَ))<sup>(٤)</sup>. ومنه الهامش فهو الكلام غير المُجدي والخاطيء، وفي المعجم الوسيط نجد الهامش: ((حاشية الكتاب))<sup>(٥)</sup>.

أمّا اصطلاحًا: فيُقصد به كلُّ كلامٍ خارج المتن، أو الكلام الذي يوضع على حافة الكتاب قصد التوسّع أو الشرح، والهامش محيطُ الدائرة والدائرة أساسُ الأشكال الهندسية، ومحيطُ كلِّ شكلٍ هندسيٍّ قد يكون هامشًا<sup>(٦)</sup>، وتُستعمل الكلمة لتدلّ على فردٍ أو جماعة اجتماعية معزولة، أو لا تتواءم مع المجتمع، أو الثقافة المهيمنة، وتوجد على حافة المجتمع أو الوحدة الاجتماعية، وتنتمي إلى جماعة أقلية غالبًا ما

(١) المركز والهامش في المجموعة القصصية قصص خارج السياق لسعيد شمش قراءة في التجليات: غوط سعاد، رسالة ماجستير، جامعة جيجل، الجزائر، ٢٠٢٠: ١٠.

(٢) موسوعة العلوم الاجتماعية: ميشيل مان، ترجمة عادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩: ٩٩.

(٣) لسان العرب، مج ٦: ٣٦٥ مادة (همش).

(٤) المنجد الوسيط في اللغة العربية المعاصرة: ٤٣٧١.

(٥) المعجم الوسيط: ٩٩٤.

(٦) ينظر: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوي: جيجخ صورية، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة

جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر، ٢٠١٦: ١٧.

تتطوي على مضامين الاستغناء وعدم الانتفاع<sup>(١)</sup>. كما تُعرّف الهامشية على أنّها: ((وضعٌ متدنٍ في إطارِ نظامٍ للتدرّج الاجتماعي يتولّدُ عنه محاصرةٌ فئةٍ اجتماعيةٍ وعزلها كلياً أو جزئياً))<sup>(٢)</sup>.

والمهمّش هو: ((من يُقصى بشكلٍ متعمّدٍ من نسقٍ إنساني اجتماعي وثقافي غالب ومهيمن، على الفضاء المكاني والزمني الذي يتحرّك به الفرد))<sup>(٣)</sup>، فهو الذي يعيش مُنفرداً غير مُندمجٍ في المجتمع. ويُطلقُ الهامشيُّ مجازاً على ((المسائل الفكرية المتعلقة بأطراف الموضوع وجوانبه الخارجية))<sup>(٤)</sup>، فهو يندرج تحت فكرة ((الحرمان والإقصاء، واللامساواة، والمنع من المشاركة السياسية والاجتماعية، فالمهمّشون مستبعدون اجتماعياً، ولا يستطيعون التفاعل في المجتمع، فهم مجردون من كلّ قوة))<sup>(٥)</sup>، والهامشُ حالةٌ نفسيةٌ أكثر منها اجتماعية أو سياسية، حالة يرتضي فيها الفرد لنفسه الإقصاء؛ فلا يستطيع إثبات ذاته، أو تحقيق أهدافه، فينتوقع ويرتكس، ولا يعود قادراً على تحمّل المسؤولية، لكنّه يتّخذ دور المعارض للمركز؛ فهي نتيجة الثقافة المهيمنة والمسيطرة، ثقافة الغالب، ثقافة النخبة، في قبال ثقافة المسيطر عليه، ثقافة المهزوم، ثقافة المقصي.

إنّ كلّ الدلالات المطلقة على "الهامش" توحى بالدونية والوضاعة والاحتقار وقلة الشأن، إلّا بعض الاستثناءات فيما يتعلق بهامش الكتب والمخطوطات التي

(١) ينظر: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع: مجموعة من المؤلفين، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٠: ٦٩٧.

(٢) العولمة والاقتصاد غير الرسمي: ابراهيم التوهامي وآخرون، مجلة الانسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٤م: ٩٩

(٣) المهمشون في الأدب: سعاد العنزي، مقال، جريدة عمان، ٨/ فبراير / ٢٠١٤، الموقع الإلكتروني:

main. Oman daily.com

(٤) المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م. : ٥١٧/٢

(٥) الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيو ثقافية: هويدا صالح، رؤية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٥: ٤٥



تقدّم الشرح والإيضاح والتفسير<sup>(١)</sup>. ويرى الباحث أنّ كلّ قنوات البحث تؤكّد دلالةً عامةً للهامش؛ تتمثّل في الضعة، والدونية، والاستبعاد، والإقصاء، والتفاوت الطبقي، والثقافي، ويخرج عن هذه الدائرة هامشُ الكتاب.

### ثنائية المركز والهامش:

تعدّ ثنائية المركز والهامش من الثنائيات الجدليّة لدى النقاد، ونجدها في مجالات عديدة كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب، ولطالما كانت العلاقة بينهما علاقةً صراعٍ وتنافرٍ حتى وقتٍ غير بعيد، والعلاقة بين المركز والهامش تحكمها ثنائية التقاطب، علاقة تتجاذبها موازين القوى الفاعلة في المجتمع المالكة للسلطة، شجّعته على هيمنة السياسات المنتمية للمركز المستحكمة بالسلطة السائدة، لتفرض نماذجها على الآخر، إذ تتعرّض ((العديد من الفئات إلى صور المحاصرة والتهميش والاستغلال))<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من تلك الثنائية الضديّة لكن ((لا يستطيع الهامش الاستقلال عن المركز، ولا في مقدور المركز الاستغناء عن الهامش، فكلاهما مكملٌ للآخر، إلّا أنّ تبعية الهامش للمركز هي الواضحة أكثر، والهامش عادةً لا يستفيد من النظم والقوانين ووسائل الإعلام التي تساهم في الحراك الثقافي؛ لأنّها تختصُّ بمراكز المدن والعواصم، فنقاطنا تعاني من غطسة المركز، وتفضيله لنفسه على حساب الهامش))<sup>(٣)</sup>.

إنّ فكرة المركز والمركزية عميقة، وجذورها الوجودية متأصلة مع رغبة الإنسان في الهيمنة والتسيّد مهما كان تأريخه، أو مكانه أو لونه، فقد بدأت الفكرة

(١) ينظر: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوي: ١٩

(٢) المهمشون بين الفئات الدنيا في القوى العاملة: عادل عازر وثروت اسحاق، المركز القومي للبحوث، القاهرة، ط ١،

١٩٨٩: ١٥٢

(٣) المركز والهامش في المجموعة القصصية قصص خارج السياق لسعيد شمشم، غطوط سعاد: ١٧

في المجتمعات البدائية القديمة، إذ فرض أسلوب الحياة اتباع القائد، المسيطر، الحاكم أو الحكيم، فالبقاء مرهونٌ بالتزام أوامره وتوجيهاته، فهو المميّز عن غيره، والتميّز عمّن سواه، ممّا جعل ذاته مركزاً يدور حوله الآخر التابع، الضعيف "المهمّش"، غير القادر على فرض إرادته، المؤمن بعجزه نتيجة عوائق نفسية تجعل منه قابلاً للاستعمار، وتجذّرت هذه الفكرة، ليصبح الغالب في المعركة هو المركز، والخاسر هو التابع/الهامش، ليتطوّر المفهوم ويصبح تصوّراً قائماً على التمايز، والتعالي وتقديس الذات<sup>(١)</sup>.

مع تزايد هيمنة القيم الحضارية الغربية كالديمقراطية، والليبرالية، وغيرها، تعالت نبرة المركزية الغربية، فعُدَّ الغرب (المركز) صانع الحضارة ومسيرها ومبدعها، فيما مثّل الهامش التبعية والاستهلاك والركود، وكلّما زادت هيمنة المركز اختُزل دور الهامش، وأُمليت عليه الشروط وفُرضت عليه القيود، إذ حيثما يُذكر المركز كقوة مهيمنة وصانعة للثقافة لا بدّ من ذكر الهامش، فكما تقول العرب: تُعرف الأشياء بأضدادها.

ممّا سبق يمكن التوصل إلى أن ((المركز = الاستقرار + المعرفة + الثروة... في حين أنّ الهامش = كلام + حركة + فوضى + نتائج سلبية))<sup>(٢)</sup>. فالمركز هو القائد المسير، والهامش هو التابع العاجز.

(١) ينظر: إسهامات النقد الثقافي في إحلال التقارب بين ثقافة المركز والهامش: صالح جديد، مجلة كلية الآداب جامعة خنشلة، العدد ١، ٢٠١٥: ٢٤٣

(٢) المركز والهامش في أدب عيسى لحيلج: دليلة الباح، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠١٦: ١٣

## المركز اجتماعياً

يتجلى مفهوم المركز الاجتماعي في التقسيم الطبقي القديم لطبقات المجتمع، إذ تختلف طبقة الأسياد "المركز" عن العبيد "الهامش"، والأغنياء عن الفقراء، وينتج عن هذا الاختلاف عادات تتعلق بالأكل، واللبس، والجلوس، والسكن، وغيرها، فلا يمكن للطبقة الدنيا أن تمارس عادات الطبقة العليا لتمايزها الطبقي، واختلافاتها الاقتصادية، والاجتماعية، مما يضطر طبقة الهامش إلى تكوين وخلق عادات تلائم طريقة عيشهم وأوضاعهم، والمجتمع وفق المفهوم الحديث منقسم على: طبقة مهيمنة تخص دول "المركز"، وطبقة مُهيمن عليها تخص دول "الهامش"<sup>(١)</sup>.

والمركزية الإثنية مُصطلح يقصدُ به كلُّ نظرةٍ تجعلُ من الجماعة مركز الكل، وتقيس كل الجماعات الأخرى أو تزنّها وتحكم على قيمتها بالإحالة إلى ذلك المركز، ف((النزعة المركزية الإثنية هي نزعة إيديولوجية\*، تنفي الاختلاف والتعدّد الثقافي من جهة، وتشدّد على تفوق نسقها الثقافي ومنظومتها المعيارية على سائر الأنساق الثقافية والمعيارية الأخرى، بل إنّها تعمل على إرجاع كل ما لا يطابق قاعدتها المعيارية إلى عالم الطبيعة، وإخراجه من دائرة الثقافة))<sup>(٢)</sup>.

## المركز تاريخياً

ارتبطت فكرة المركز تاريخياً بالمؤسسات الرسمية المهيمنة والمسيرة لشؤون الجمهور، كما ارتبطت في الوقت ذاته فكرة الهامش بالمؤسسات غير الرسمية التي أنتجها المهتمّون، الأمر الذي ولّد صراع نفوذ وهيمنة بين المركز والهامش لفرض

(١) ينظر: المركز والهامش في أدب عيسى لحليح : ٢٦

\* الأيديولوجيا هي: علم الأفكار وموضوعه دراسة الأفكار والمعاني وخصائصها، وقوانينها، وعلاقتها بالعلامات التي تعبر عنها، والبحث عن أصولها بوجه خاص. ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة و كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤: ٧٠

(٢) موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة: محمد سبيلا ، نوح الهرمزي، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية، المغرب، ط١، ٢٠١٧: ٤٤٢

النسق الأحادي، فضلاً عن أنّ فكرة التهميش فكرة قديمة، ترتبط بأفكار القمع والاستغلال والقهر، وفي مجال الدراسات الأدبية والتاريخية نجدها واردة عند تناول ثنائية الأدب الرسمي والأدب الشعبي أو شعر الصعاليك، أو ثنائية وضع الحضرة والبدو، أو أدب الطفل والمرأة، وكثيراً ما ارتبط أدب المهمشين بالمعارضة ومشاكل الطبقات الاجتماعية<sup>(١)</sup>.

في واقع الأمر؛ إنّ المركز يسعى دائماً إلى احتكار السلطة وقمع الهامش، وتبني مختلف وسائل القهر والاحتقار لضمان السيطرة فالنظرة إلى المهمشين كثيراً ما كانت دونية، تُقلُّ من شأنهم وتقصّهم<sup>(٢)</sup>، فالمركز هو المتّهم الأول في خلق الصراع مع الهامش، اعتماداً على المثقف المتّهم بالولاء للسلطة/المركز على حساب الهامش، ليتحوّل خطاب السلطة إلى خنجر غائر في جرح الهامش العميق ممّا يزيد مأساته وهامشيته، فمتقفو السلطة لا يمكنهم أن يتجنبوا الموقف النخبوي في سعيهم لإدارة المجتمع والسيطرة عليه<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: المركز والهامش في أدب عيسى لحيلج، ٤١

(٢) ينظر: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوي: جيخ صورية: ٢٤

(٣) ينظر: إسهامات النقد الثقافي في إحلال التقارب بين ثقافة المركز والهامش: ٢٥٠-٢٤٩

## المطلب الثاني: حياة برنارد لويس<sup>(١)</sup>

برنارد لويس أكاديمي ومؤرخ ومترجم ومستشرق ومستشار أيدولوجي لشؤون الشرق الأوسط، ومخترع لأكثر المصطلحات السياسية الحديثة شهرةً في العقود الأخيرة مثل "صدام الحضارات" و"الأصولية الإسلامية"، بريطاني المنشأ أمريكي الجنسية، وُلِدَ لأبوين يهوديين ثريين، في ٣١ مايس عام ١٩١٦م، في ستوك نيونكتون إحدى ضواحي لندن، درس في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) بجامعة لندن، وحصل على الشهادة الجامعية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٣٦ تخصص بدراسة المشرق والإسلام، وهو لم يتجاوز العشرين.

حظيت أفكاره وآراؤه بالاهتمام والاحترام من قبل أوساط صناعة القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، وأعني البيت الأبيض والبنتاغون وصنّاع السياسة "المحافظون الجدد"، فهو (خبير) شؤون الشرق الأوسط، وشاهد على أحداثه.

درس في جامعة باريس سنتين تقريباً مع أستاذه لويس ماسينيون\*، ليحصل على الدبلوم في الدراسات السامية عام ١٩٣٧، ليعود بعدها إلى جامعة لندن ويحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٩ من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية عن رسالته (أصول الاسماعيلية) بإشراف المستشرق (هاملتون جب)\*\*، ثم عاد رئيساً

(١) ينظر: مقدمة أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس: برنارد لويس، تر: حازم مالك حسن، ميزوبوتاميا للطباعة والنشر بغداد، ط١، ٢٠١٣ : ١٣-١٥. للمزيد ينظر: من بابل إلى الترجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس، ترجمة وتقديم: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م : ٨٥١.

\* لويس ماسينيون: مستشرق فرنسي (١٨٨٣-١٩٦٢) أحد أكبر وأشهر المستشرقين الغربيين المعاصرين، له حضور دائم في جميع المؤتمرات الاستشراقية منذ مؤتمر ١٩٠٥، له علاقات كثيرة مع المبشرين والاستعماريين، من مؤلفاته: آلام الحلاج، التفكير الإسلامي. ينظر: المستشرقون، العقيقي: ٢٦٣/١

\*\* هاملتون جب: مستشرق بريطاني ولد عام ١٨٨٥ وتوفي عام ١٩٧١، متخصص في اللغات السامية والعبرية والعربية والأرمنية، عُين أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية، ومديراً لمركز الدراسات الشرق أوسطية في جامعة هارفرد، ومحرراً في دائرة المعارف الإسلامية، له العديد من المؤلفات والبحوث أهمها "المجتمع الإسلامي والغرب". ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، ١٧٤.

لقسم تاريخ الشرق الأدنى والشرق الأوسط (١٩٥٧-١٩٧٤م) في جامعة لندن، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل أستاذاً زائراً في عدد من الجامعات، منها جامعة برنستون وجامعة كورنل. حصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٨٢، وفي عام ١٩٨٦م عُيِّن رئيساً لمعهد الدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى، اهتم بالتاريخ الإسلامي والفرق والنقابات الإسلامية.

مؤلفاته<sup>(١)</sup>: "النقابات الإسلامية" ١٩٤٠، "أصول الإسماعيلية"<sup>(٢)</sup> ١٩٤٧، "العرب في التاريخ" ١٩٥٠، "ظهور تركيا الحديثة" ١٩٦١، "استتبول وحضارة الخلافة الإسلامية" ١٩٦٣، "الشرق الأوسط والغرب" ١٩٦٤، "الحشاشون: فرقة منظرية في الإسلام" ١٩٦٧، "سلسلة كمبرج للتاريخ الإسلامي" ١٩٧٠، "العرق واللون في الإسلام" ١٩٧١، "الإسلام في التاريخ" ١٩٧٣، "الإسلام من النبي محمد إلى الاستيلاء على القسطنطينية" ١٩٧٤، اكتشاف المسلمين لأوروبا ١٩٨٢، "اليهود في ظل الإسلام ١٩٨٤"، "اللغة السياسية في الإسلام" ١٩٨٦، "الساميون والاسلاميون" ١٩٨٦، جذور الغضب الإسلامي ١٩٩٠، "التشكيل في الشرق الأوسط الحديث" ١٩٩٤، "الإسلام والتاريخ" ١٩٩٣، "الإسلام والغرب" ١٩٩٤، "الثقافة والصراع" ١٩٩٥، "الشرق الأوسط لحظة تاريخية" ١٩٩٧، "مستقبل الشرق الأوسط تتبؤات" ١٩٩٩، "الهويات المتعددة للشرق الأوسط" ١٩٩٩، "أين الخطأ" ٢٠٠٢، "أزمة الإسلام: الحرب الأقدس والإرهاب المدتس" ٢٠٠٣، من بابل الى دراغومان ٢٠٠٤، أوروبا والإسلام ٢٠٠٧، الكلمات والأفكار السياسية في الإسلام ٢٠٠٨، عالم الإسلام الديانة والبشر ٢٠٠٩، الإسلام: الدين والناس ٢٠٠٩، العقيدة

(١) ينظر: برنارد لويس صهيينة الغرب وتترك الإسلام: جهاد سعد، ٧-٨. كذلك ينظر: المستشرق برنارد لويس ومنهجه في دراسة التاريخ الإسلامي: صبحي عبد المنعم محمد، مجلة كلية دار العلوم، العدد ١٣، يونيو ٢٠٠٨: ٤٩١-٥٠١  
(٢) في الأصل كان هذا الكتاب أطروحة دكتوراه لبرنارد لويس عام ١٩٣٩ ونشرت في العام التالي، وقد ترجمه للعربية عام ١٩٤٧ خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب وقدم له عبد العزيز الدوري عن منشورات مكتبة المنتبي ببغداد. ينظر: المستشرق برنارد لويس ومنهجه في دراسة التاريخ الإسلامي: صبحي عبد المنعم محمد، ٤٩١.

والسلطة الدين والسياسة في الشرق الأوسط ٢٠١٠، "الإيمان والقوة" ٢٠١٠، "نهاية التاريخ الحديث في الشرق الأوسط" ٢٠١١، "عن قرن تأملات مؤرخ للشرق الأوسط" ٢٠١٣.

فضلاً عن عددٍ كبيرٍ جداً من البحوث التي نشرت في الدوريات المتخصصة ومنها: الشيوعية والإسلام، الديمقراطية في الشرق الأوسط، عودة الإسلام، المفاهيم الإسلامية للثورة، الدولة والفرد في المجتمع الإسلامي، الحضارة الغربية: نظرة من الشرق، الشرق الأوسط: نظرة جديدة، والكثير من البحوث والمقالات والمحاضرات المطبوعة والمنشورة.

تقاعدَ أستاذاً من جامعة برنستون بولاية نيوجيرسي الأمريكية عام ١٩٨٦، ثم عُيِّن مديراً لمعهد انبرج للدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى وهو معهد لدراسة ما بعد الدكتوراه في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا الأمريكية<sup>(١)</sup>.

يحتلُّ برنارد لويس صدارة قائمة المستشرقين في العالم المعاصر الذين تناولوا الدين الإسلامي عقيدةً وثقافةً، وبعدهُ برنارد لويس المؤلف الحقيقي لنظرية صدام الحضارات، قبل عامين من ظهور كتاب صامويل هنتنغتون الذي حمل العنوان نفسه، وقد أشار إليها في مقالةٍ نشرت عام ١٩٩٠ في مجلة (ذا أتلانتيك) بعنوان "جذور الغضب الإسلامي"، تنبأ فيها بحتمية الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب. توفي برنارد لويس في ١٩ مايو ٢٠١٨ عن عمر ١٠٢ عام بولاية نيوجيرسي الأمريكية<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: من آفاق الاستشراق الأمريكي : مازن صلاح مطبقاني، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ: ١٣  
(٢) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ١٣-١٥، كذلك ينظر: الإسلام الأصولي: برنارد لويس: ٥-٨. ينظر أيضاً: أين الخطأ؟: ١١، وينظر أيضاً: برنارد لويس: سياف الشرق الأوسط: عادل الجوجري: ٢٠. ينظر أيضاً: برنارد لويس صهيينة الغرب وتترك الإسلام: جهاد سعد: ٧-٨.

# الفصل الأول

## تشكّل الأنساق ومرجعياتها

### لدى برنارد لويس

المبحث الأول: برنارد لويس بين الاستشراق القديم

والاستشراق الجديد

المبحث الثاني: التشكّل

المبحث الثالث: المرجعيات



### توطئة:

استمرّ التساؤل في الغرب حول كيفية فهم ودراسة الإسلام والمجتمعات التي يغلب عليها المسلمون، والتي أثارت الجدل حتى أوائل القرن الحادي والعشرين، الأمر الذي يرجع إلى حدٍ كبير إلى التطوّرات في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، التي تتصل مباشرة باهتمامات ثقافية وسياسية، وبصناعة السياسات المعاصرة، لذا كان على الباحثين أن يواجهوا استمرار أهمية الإسلام في الشرق الأوسط والمجتمعات الإسلامية الأخرى المعاصرة<sup>(١)</sup>، فانبرى لويس متصدياً لتلك المسؤولية انتصاراً لديانته اليهودية أولاً، ولانتمائه الغربي ثانياً، لي طرح للمتلقي الغربي رؤاه وانطباعاته عن الإسلام.

برنارد لويس هو الوجه الذي تصدره الماكنة الإعلامية الغربية الكبيرة، والمنابر الأكاديمية المتخصصة كصاحب الامتياز في الحديث عن الإسلام، وقد اهتم بالقرآن والعقيدة الإسلامية ضمن توظيف متحيّز، يخدم أفكاره المسبقة عن الإسلام والمسلمين، وخالصة تلك الأفكار هي عدم توافق الإسلام مع الحداثة وعدم إمكانية تأقلم الإسلام مع متطلبات الديمقراطية، وانغلاق الفكر الإسلامي ضمن دوائر ضيقة، تميل نحو التعصّب والتطرّف.

لقد مثلت كتابات لويس عن الإسلام انعطافة تاريخية في مسار العلاقة بين الغرب والشرق، في هذا الفصل سأستعرض دور برنارد لويس كحلقة وصل بين الاستشراق الكلاسيكي والاستشراق الجديد في المبحث الأول، وتشكّل الأنساق الثقافية لدى لويس في المبحث الثاني، ومرجعيّاته الثقافية في المبحث الثالث.

(١) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لوكمان، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م: ٣٤٥

## المبحث الأول

### برنارد لويس بين الاستشراق الكلاسيكي والاستشراق الجديد

#### مدخل:

اهتمَّ الباحثون العرب في القرن الماضي بدراسة الاستشراق، فظهرت لنا العديداً من الدراسات المتخصصة بهذا المجال، وكانت معظمها دراسات وآراء فردية، لم يُجمع الرأي فيها في مؤتمرٍ علميٍّ منظمٍ لمعرفة النافع من الضار؛ لذلك بقيَ الموقفُ من دراسة حركة الاستشراق غير واضحٍ المعالم<sup>(١)</sup>، إذ تأرجحت دراساتهم بين الذم والمدح، والتثاء والقده، فرأى بعضهم أنّ الاستشراق حركة خطيرة لم تقدّم لتاريخنا الإسلامي ولتراثنا العربي أيّ خدمةٍ أو منفعة، فيما يرى آخرون أنّ حركة الاستشراق كانت لها مساهمة كبيرة لا يمكن تجاهلها، أو التغاضي عنها في إغناء الدراسات العربية والإسلامية في مختلف حقولها وآفاقها، في حين ذهبَت مجموعة أخرى من الباحثين إلى الوقوف من حركة الاستشراق موقف الحياد<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من ذلك بقيت ظاهرة الاستشراق موضع بحثٍ وجدل، لذلك فإننا لا نجد تحديداً واضحاً لتعريف الاستشراق، كما صنّفت دوافع الاستشراق متداخلةً بعضها مع بعض، ولم يكن هناك وضوح في تحديد الأهداف، فوقع خلط بين الأهداف والدوافع<sup>(٣)</sup>.

يمكن القول إنّ الاستشراق ((خطابٌ مركّبٌ، معقّد، ومضللٌ، يُظهر عكسَ ما يُبطن، ويورّي عكس ما يخفي، لا كما نظرت إليه كثيرٌ من الدراسات العربية التبسيطية، الاختزالية، بصفته فكراً متهافتاً، وخطاباً مفكّكاً، متناقضاً لا

(١) ينظر: الاستشراق في الأدبيات العربية: علي إبراهيم النملة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مجلة المشكاة المغربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، العدد: ٢٩ : ٩ .

(٢) ينظر: الاستشراق وبواعثه وما له وما عليه: يوسف عز الدين ، مقال منشور في مجلة المشكاة المغربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، العدد ٢٩ : ١٤ .

(٣) ينظر: الاستشراق في الأدبيات العربية: علي إبراهيم النملة، ص ١٣ وما بعدها.

تمايز فيه))<sup>(١)</sup>. فهو يعكس النزعة الغربية المركزية في السيطرة على الشرق، التي بُنيت على الفكرة الصليبية الأساسية في جعل نفسها مركز العالم، بعد توحيد الكنيستين (روما والقسطنطينية)، وإخضاع العالم لسلطة روما، وقد نما الاستشراق في حوض هذه المركزية<sup>(٢)</sup>.

ويعدّ الباحث هذه الدراسة جزءاً من الدراسات التي تعالج هذا الموضوع وتتنظر للاستشراق نظرة مختلفة، بما يتناسب وخطر هذا الفعل لإنتاج فعلٍ معاكسٍ له.

### المطلب الأول: الاستشراق القديم

#### أ- لمحة تاريخية عن الاستشراق:

اختلفت الدراسات حول بداية الاستشراق لكن الأمر ((الذي لا يقبل الشك أنّ بدايته كانت تحت إشراف الكنيسة وإشراف مباشر من كبار رهبانها))<sup>(٣)</sup>، ويرى بعض الباحثين أنّ بدايات الاستشراق كانت بسبب الحروب الصليبية، حين بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية الغربية في فلسطين، حين لقوا الهزائم الواحدة تلو الأخرى هناك على أيدي المسلمين الذين هزموا الصليبيين شر هزيمة في سلسلة معارك، مما ولّد لدى الصليبيين دافع الانتقام من خلال شن حملات قوية لتشيويه صورة الإسلام بمختلف التهم والوسائل<sup>(٤)</sup>.

ومن العلماء والباحثين من يُرجع تاريخ الاستشراق إلى القرن العاشر للميلاد، بعد أن بلغ العرب الحظ العظيم من العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية؛

(١) صناعة الآخر، المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا: المبروك الشيباني المنصوري، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٤: ١٦

(٢) ينظر: فلسفة الاستشراق في ضوء فكر القرن الواحد والعشرين: جمال الدين فالج الكيلاني، مراجعة: كمال مظهر أحمد، مكتبة المصطفى للنشر، القاهرة، ٢٠١١: ٨-٩

(٣) تراثنا بين ماضٍ وحاضر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، معهد البحوث والدراسات، ١٩٨٦م: ٥٢.

(٤) ينظر: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، قاسم السامرائي، الرياض، ط١، ١٩٨٣م: ٢٠.

الأمر الذي شهده الغرب بانبهار، وهم ينظرون إلى الحضارة وآثارها على حياة العرب، ممّا دعاهم للانبعاث في طلبها والانتفاع بعلمها، وتقليب النظر فيها، فأقبل الغربيون على دراسة العربية ليتهيأ لهم ذلك، وبدأوا يترجمون كتب العرب إلى اللاتينية التي كانت لغة العلوم والآداب آنذاك. بعد قرنين من ذلك التاريخ أصبحت الأندلس هدفًا لطلاب العلم من الغربيين بين دارسٍ وناقلٍ ومترجم، حتى تمّ لهم نقلُ المئات من المصنفات العربية أو المترجمة إليها من بقية اللغات كالإيونانية، في مختلف الاختصاصات كالمنطق، والفلسفة، والحساب، والهندسة، والطب، والفلك، والكيمياء، وغيرها، ونقلوها إلى بلدانهم لينبثق نور الدراسات الاستشراقية، لذلك يمكن القول: ((إنّ الدراسات الاستشراقية بدأت منذ العصر الوسيط))<sup>(١)</sup>.

إنّ ((القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلًا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابًا صادقًا حول الشرق، فهو ليس خيالًا غريبًا متوهّمًا عن الشرق، بل هو كيان له وجوده النظري والعملية أنشأه من أنشأه وأستثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر أجيال عديدة))<sup>(٢)</sup>، فهو استثمار استعماري قبل أن يكون الهدف منه علميًا فحسب.

إنّ إقبال الغربيين على دراسة الشرق، وانتقائهم للغة العرب وفهم كُنْهها، كانت أهدافه: الانتفاع من العلوم التي تحتويها كتب العربية، ومنها الغايات الاقتصادية، ومنها غايات تبشيرية بالنصرانية<sup>(٣)</sup>، ولطالما شكّل الإسلام مشكلة بالنسبة لأوروبا منذ ظهوره وحتى اليوم، خصوصًا عندما انتشر في أرجاء العالم، ومنها قلب الديانة النصرانية المتمثلة بالأندلس وشمال أفريقيا وصقلية، ممّا دفع المتحكمين بالمسيحية إلى إشعال جذوة الحرب (الصليبية) مع المسلمين في أزمنة

(١) الإسلام والمستشرقون: عبدالجليل شلبي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٧م : ٢٧.

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦ : ٥٠.

(٣) ينظر: المفصل في تاريخ الأدب العربي: احمد الاسكندري واخرون، دار احياء العلوم ببيروت، ط١، ١٩٩٤م: ٦٢٥

عدّة، فتصاعد وتطوّر ذلك العداء مع حملات التشويه، والتسقيط للدين الإسلامي من خلال حملات منظّمة، خطّطت لها الكنيسة، رافق بعضها تلك الحروب، وتلاها في البعض الآخر، ولذلك كانت الدعايات الكنسية التي رافقت الحروب الصليبية تعمّق الصور العدائية للإسلام<sup>(١)</sup>.

لقد كانت غاية الجهود الاستشراقية الأولى إعطاء تصوّر واضح وفهم دقيق لهذا الدين الذي ملأ الدنيا واكتسح النصرانية، فمعرفة الأعداء كانت غاية تلك الدراسات بغية تفنيد هذا الدين بوصفه مزيفًا، وهرطقة باطلة، فكانت هذه الدراسات تتجه لعكس الصور المشوّهة والعدائية عن الإسلام، فهي دراسات ((تريد حماية أتباعها من الكفر والزندقة))<sup>(٢)</sup>، وهي تُظهر أنّ تداول الصور المسيئة للإسلام ناجمة عن سوء النية أكثر منه عن الجهل، فقد ((كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن الكريم واللغة العربية))<sup>(٣)</sup>، وهي أهداف استراتيجية يراد منها التعرّف على فكر الآخر (المسلم)، وحماية أتباع الديانة النصرانية من الدخول فيه.

ولمّا كانت الحركة الاستشراقية قد بدأت أولى خطواتها في رعاية الكنيسة، فقد كان الجيل الأول من المستشرقين من الرهبان والقساوسة، إذ اتّجه بعض الرهبان إلى الأندلس، وتنفّقوا في مدارسها، ودرسوا لدى معلميها من علماء المسلمين في مختلف العلوم كالطب، والرياضيات، والفلسفة، ومن أوائل هؤلاء

(١) ينظر: الإسلام في الفكر الأوروبي : ألبرت حوراني، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤م. : ١٧

(٢) ينظر: الشرق المتخيل رؤية الغرب الى الشرق المتوسطي: تييرى هنتش، دار الفارابي، ٢٠٠٤: ٨٤.

(٣) تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين: يوهان فوك، نقله عن

الالمانية: عمر لطفي العالم، دار المدار الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١: ١٦

الرهبان الفرنسي جريوت\*، وبطرس المبجل\* وجيرارد دي كريمون\*، ثم توالى طلائع المستشرقين الكنسيين بالتوافد إلى الأندلس إبان القرن العاشر الميلادي، ليعودوا إلى بلدانهم محمّلين بالترجمات اللاتينية للكتب العربية، والعلوم، والمعارف، ليشرعوا بنشرها، والإفادة من تلك الثروة الفكرية، توالى بعدها الحملات والمحاولات لتشجيع دراسة اللغة العربية والإسلام، ولعلّ أهم تلك الأحداث ما قام به الأب بطرس المبجل رئيس دير كلوني عام (١١٤٣ م) بترجمة القرآن الكريم<sup>(١)</sup>، معتقداً بأنه لا يمكن تدمير الإسلام ما لم تُفهم أخطاؤه، إنّ فكرة بطرس في مواجهة الخصم تقوم على عدم ((جدوى مكافحة "هرطقة محمد" بالسلاح والعنف الأعمى، وإنّما يتم ذلك بقوة وتأثير الكلمة، ودحضها بمنطق الحكمة وروح المحبة المسيحية، ولن يتحقق ذلك إلا بالمعرفة العميقة لرأي الخصم))<sup>(٢)</sup>.

حين عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم عملوا على نشر ثقافة العرب ومؤلفات علمائهم، وأسست معاهد للدراسات العربية من قبيل مدرسة (بادوي) العربية وصارت الأديرة تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية، وهي لغة العلم حينها

\* سلفستر جريوت دي أورلياك (٩٣٨-١٠٠٣م) قصد الأندلس وتعلّم في مدارسها في قرطبة واشبيلية حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافةً بالعربية، أختير حبراً عظيماً لروما فكان أول بابا فرنسي عام (٩٩٩م) ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣: ١٧٨-١٧٩، ينظر أيضاً: المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٤ م: ١/١٢٠

\* بطرس المبجل (١٠٩٢-١١٥٦م): راهب فرنسي تولى رئاسة دير كلوني عام ١١٢٢م جنوب شرق فرنسا، وأهتم بأحوال المسيحيين الذين يعيشون تحت حكم المسلمين في الأندلس، ترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية وألّف كتباً عديدة في الرد على الإسلام، ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي: ١١٠-١١١

\* جيرارد دي كريمون (١١١٤-١١٨٧م) مستشرق إيطالي تعلم في مدارس اسبانيا وبرع في العربية، وعكف على مصنفاتها فترجم أكثر من ٨٧ كتاباً في علومها المختلفة فساهم في انتشار العلوم العربية إلى أوروبا وتوثيق الصلة بين الغرب والشرق، ينظر: المستشرقون: نجيب العقيقي، ١/١٢٦-١٢٧

(١) ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: رودى بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي،

٢٠١١: ٩

(٢) تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك: ١٧

في جميع بلدان أوروبا وظلّت الجامعات تعتمد على كتب العرب، وتعدّها المراجع الأصلية في الدراسة لقرون عدّة<sup>(١)</sup>.

استناداً إلى ما سبق فإنّ الباحث يتفق مع الرأي الذي توصل إلى<sup>(٢)</sup>:

١. إنّ الاستشراق علمٌ يهتم بدراسة الشرق وحضارته وما يتعلّق به من علوم.
٢. إنّ المعنى الأصلي لكلمة الاستشراق: صار شرقياً، والمستشرق: الذي يشتغل بدراسة العقليات الشرقية عامّة، والسامية خاصة والعربية بشكل أخص.
٣. إنّ الاستشراق علمٌ قائمٌ بذاته، له خصائصه ومميزاته.
٤. إنّ لفظة الاستشراق حديثة الولادة والمفهوم<sup>(٣)</sup>.

#### ب- نشوء المصطلح وإشكاليته:

تبدأ الإشكالية من التسمية وهي "الاستشراق" التي تعطي انطباعاً عن وجود نوعين من البشر في هذا العالم (الغربي/الشرقي) وأفضليّة الغربي على الشرقي، وهو ما يقرّ به كلود كاهين\* بقوله: ((في الحالة التي وصلنا إليها ينبغي علينا أن نحذف كلمة استشراق من قاموسنا، فليس هناك نوعان من البشر، الأول شرقي والثاني غربي، وإنّما البشرية هي واحدة في جوهرها، العلم واحد للشرقي كما للغربي))<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت، ط٢، ١٩٧٩م: ١٨  
 (٢) ينظر: المستشرقون والقرآن الكريم: محمد امين حسن، دار الامل للنشر، الاردن، ط١، ٢٠٠٤: ١٦. كذلك ينظر: من قضايا الاستشراق ردود على شبهات المستشرقين: يحيى مراد، بحوث ودراسات: ٣٣-٣٤.  
 (٣) المستشرقون والقرآن الكريم: محمد امين: ١٦. كذلك ينظر: من قضايا الاستشراق، يحيى مراد: ٣٣  
 \* كلود كاهين: مستشرق ومؤرخ فرنسي معروف ولد ١٩٠٩، وتوفى عام ١٩٩١، متخصص في تاريخ الشرق الأدنى والتاريخ الإسلامي، ورئيس الجمعية الآسيوية في فرنسا، له العديد من الكتب منها: الإسلام ١٩٧٠، تركيا ما قبل العثمانية ١٩٦٨. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي: ٤٦٠-٤٦١.  
 (٤) الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، مجموعة من المؤلفين، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م: ٣٦

ويرى مكسيم رودنسون\* بأن الاستشراق كلمة ((ولدت في اللغة الانكليزية عام ١٧٧٩ ودخلت معجم الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨، وتجسّد فكرة نظام خاص مكرّس لدراسة الشرق<sup>(١)</sup>).

فيما يقول مالك بن نبي: ((إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية))<sup>(٢)</sup>. وهو مفهوم قديم إذ ((إنّ مفهوم الشرق قد تعرض لتغيير في معناه، فالمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط بل إلى العصور القديمة، والشرق الذي يختص به الاستشراق هو بالقياس للبحر المتوسط الذي كان يقال عنه أنّه وسط العالم))<sup>(٣)</sup>، فالشرق هو ((ذلك المكان الذي يمثّل بالنسبة للغرب بلاد السحر والفن ومسكن الروح ومنبع الخيرات والثراء والكنوز، فهو تلك الأرض التي تحتاج إلى مستثمر، ولا يوجد مستثمر غيره فهو من يمتلك العقلية والتقنية، بينما الشرق جاهل يعيش على السحر والشعوذة))<sup>(٤)</sup>، يمكن الاستنتاج ممّا سبق بأن مصطلح الاستشراق مصطلح جدلي يقسم العالم من حيث الجهات الجغرافية، مُعلّناً عن نسقٍ ثقافيٍّ غربيٍّ يُضمّر التعالي والفوقية للغرب على حساب دونية الشرق وفق ثنائيتة (الدارس-الفاعل / المدروس-المفعول).

في عام (١٣١٢م) تم عقد مجمع (فيينا) الكنائسي في جنوب شرق فرنسا، وهو الحدث الذي يعدّه أغلب الباحثين والمختصين تأريخ نشأة الاستشراق العلمي

\* مكسيم رودنسون: واحد من أهم المستشرقين في فرنسا، ترجمت معظم كتبه للعربية، وحاضر في الكثير من الجامعات العربية، من أشهر كتبه الإسلام والرأسمالية ١٩٦٦، والماركسية والعالم الإسلامي ١٩٧٢، وكتاب محمد ١٩٧٩، وكتاب العرب ١٩٧٩، وجاذبية الإسلام ١٩٨٠، كما كتب العديد من البحوث باللغتين الانكليزية والفرنسية. ينظر: الاستشراق بين دعائه ومعارضيه: ٣٩

(١) الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، مجموعة من المؤلفين : ٨٨

(٢) انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي: ٥

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودى بارت: ١٧

(٤) ينظر: موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي: مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحرير: عامر عبد زيد الوائلي وطالب محييس الوائلي، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥: ٥١٧



القائم على واقعة علمية<sup>(١)</sup>، فهو ((بداية الاستشراق اللاهوتي))<sup>(٢)</sup>، وصل المجتمعون في ختام الاجتماع إلى نتيجة مفادها: ((لا يمكن تحويل المسلمين عن دينهم لأنّ قلوبهم قست، فهم يحتقرون الكتب المقدّسة... وبناءً على ذلك طالب المجمع بإقامة كرسي للغة العربية والعبرية واليونانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وسلامانكا\*))<sup>(٣)</sup>.

وأنشئ ((أول كرسي للغة العربية في (كوليج دو فرانس) عام ١٥٣٩))<sup>(٤)</sup>، وهي التي تعدّ أول دراسة منتظمة للإسلام وتاريخه في أوروبا الغربية<sup>(٥)</sup>. وفي هذه المرحلة من مراحل تأريخ الاستشراق ((نشأ التحالف بين اليهود والنصارى للقضاء على المسلمين والإسلام، وفي العام (١٥٠٥م) كتب أحد اليهود مشروعاً لذلك التحالف وقدمه إلى البابا وضمّنه النقاط الآتية:

١- احتلال العالم الإسلامي ٢- انتزاع الأرض المقدسة ٣- احتلال اليهود لفلسطين.

وبهذا دخل اليهود ميدان الاستشراق وقدّموا إلى الدول الأوروبية النصرانية كل ما عرفوه عن المسلمين من مواطن الضعف والقوة، ومن ثمّ كانوا عوناً لهم على احتلال البلدان الإسلامية لتحقيق الحلم الصهيوني باغتصاب فلسطين، كما أنّهم

(١) ينظر: موسوعة الاستشراق: ٥٢٢ . كذلك ينظر: كنه الاستشراق المفهوم الاهداف الارتباطات: علي إبراهيم النملة،

دار بيسان للنشر والتوزيع بيروت، ط٣، ٢٠١١م: ٥٤ كذلك ينظر: المستشرقون: نجيب العقيقي، ١٢٢/١

(٢) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٦.

كذلك ينظر: موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمرکز الغربي : ٥٢٢

\* أقيمت الكراسي في جامعات باريس-فرنسا، وأكسفورد-بريطانيا، وبولونيا-إيطاليا، وسالامانكا-إسبانيا.

(٣) الاستشراق صور الشرق في الآداب والمعارف الغربية: ضياء الدين ساردار، ترجمة فخري صالح، هيئة ابوظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، ط١، ١٤٣٣هـ : ٥٤

(٤) جاذبية الاسلام: مكسيم رودنسون، ترجمة الياس مرقص، دار التنوير، ط٢، ٢٠٠٥ : ٤٣. كذلك ينظر: الاستشراق في التاريخ الإشكاليات الدوافع التوجهات الاهتمامات: عبد الجبار ناجي، المركز الاكاديمي للأبحاث، بيروت، ط١،

٢٠١٣: ١٥٣

(٥) ينظر: الإسلام في الفكر الأوروبي، ألبرت حوراني: ٢٢، كذلك ينظر: كنه الاستشراق: علي النملة، ٤٢-٥٧

فاقوا المستشرقين النصارى في إذاعة الافتراءات حول الفكر الإسلامي<sup>(١)</sup>. وقد برز مفهوم الاستشراق في أوربا نهاية القرن الثامن عشر تقريباً، إذ ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي سنة ١٨٣٨م، أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية<sup>(٢)</sup>.

ويرى البعض أنّ ميلاد الاستشراق هو حينما التقى الأوروبيون بالثقافة العربية الإسلامية المتفوّقة على حضارتهم، وظلّت حركة الاستشراق تنمو وتزدهر حتى استطاعت تكوين صرحها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر<sup>(٣)</sup>. وبعد القرنين التاسع عشر والقرن العشرين عصري الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية، ففي شهر اذار ١٧٩٥م، أنشأت الحكومة الفرنسية مدرسة اللغات الشرقية الحية.

بدأت حركة الاستشراق في فرنسا تأخذ الطابع العلمي على يد سلفستر دي ساسي\* الذي أصبح إماماً للمستشرقين في عصره، وإليه يعود الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية يقصدها الباحثون والعلماء من مختلف أوروبا ليتعلموا على يديه<sup>(٤)</sup>.

ويرى باحثون أنّ بداية الاستشراق الفعلية ((كانت مع حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م، حينما قدم معه عدد كبير من العلماء في جميع فروع المعرفة، كما جلب معه مطبعة باللغة العربية ساعدت هؤلاء العلماء في القيام بأبحاث

(١) الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه : محمد الدسوقي، ٤٩

(٢) ينظر : الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، مجموعة من المؤلفين : ٨٨

(٣) ينظر : الاستشراق بين النشأة والاهداف، اعداد: اسماعيل عبد الفتاح مصطفى، جامعة الازهر الشريف: ١٥. نقلا عن

فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر: أحمد سمايلوفتش : ٧٠

\* سلفستر دي ساسي: شيخ المستشرقين الفرنسيين (١٧٥٨-١٨٣٨) متخصص في الدراسات العربية والشرقية، كما درس اللغات السامية الأخرى، أتقن اللغات الأوروبية الإسبانية والإيطالية والألمانية والإنكليزية، أكمل دراسة الحقوق، كما شغل منصب أستاذ كرسي اللغة الفارسية في الكوليج دي فرانس، منحه نابليون لقب بارون، كما نال الكثير من الألقاب والأوسمة الشرفية، وذاع صيته في انحاء أوروبا، له العديد من المؤلفات والبحوث، له كتاب في النحو العربي، ومقامات الحريري، وديانات الدروز، وحقّق وترجم الكثير من الكتب العربية القديمة. ينظر موسوعة المستشرقين: عبدالرحمن بدوي ، ٣٣٧-

(٤) ينظر : الاستشراق بين النشأة والاهداف: إسماعيل عبد الفتاح مصطفى، ١٥

متعدّدة، فيما يذهب آخرون إلى أنّ ميلاد الاستشراق حينما التقى الاوروبيون بالثقافة الاسلامية المتفوقة على حضاراتهم، وظلّت حركة الاستشراق تنمو وتزدهر حتى استطاعت تكوين صرحها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup>، ثم أخذ المستشرقون ((يعملون على جمع شملهم وتنسيق جهودهم وهو ما تجلّى في المؤتمر الاستشراقي الدولي الذي عقد لأول مرة عام ١٨٧٣م، وكان بعد ذلك يعقد كل عامين ثم كل ثلاثة أعوام او أربعة في بعض الأحيان))<sup>(٢)</sup>.

ليس هذا فقط بل قامت الجامعات الغربية بإنشاء كراسٍ للدراسات الاستشراقية في العلوم الإسلامية وآدابها وحضارتها، وقد تخرّج على أيدي أساتذتها المستشرقين عدد من المستشرقين الجدد، وعدد لا يستهان به من طلاب العالم الإسلامي، وممّا يؤسف له أنّ بعضهم أصبحوا معاول هدم في بلدانهم الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

### ج- أهداف الاستشراق ودوافعه: وأبرزها:

١- **الدافع الديني:** يتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأنّ الهدف الديني كان الأساس وراء نشأة الاستشراق، وإنّ العقل الأوروبي قد اتجه لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك، هي مؤسسة الاستشراق وأصبح يشتغل باتجاهين فكريين يعملان بالتوازي هما:

(١) فلسفة الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر: ٧٠

(٢) الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه : محمد الدسوقي، ٥٧ . كذلك ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي: ١٩

(٣) ينظر: مقالة بعنوان لماذا يخوفون الغرب بالإسلام؟، مازن مطبقاني، مجلة المسلمون، عدد ٣٠٧، ٢١/١٢/١٩٩٠، كذلك ينظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير-الاستشراق-الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري: عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، ط ٨، ٢٠٠٠: ٨١

أولاً : محاربة الإسلام بصفته الخطر الأبرز على المسيحية، وإيقاف انتشاره، ومحاولة تشويبه والانتقاص منه، من خلال تصويره تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها عليه، وتحطيم عقيدة المسلمين وفكرهم<sup>(١)</sup>.

ثانياً: التبشير<sup>(٢)</sup> وتنصير المسلمين ولعل الشواهد التاريخية تثبت ذلك ومنها: إصدار مجمع (فيينا الكنائسي) قراراً في سنة (١٣١٢ م)، يقضي بإنشاء كراسٍ علمية في عددٍ من الجامعات العالمية، لدراسة اللغة العربية ومنها جامعة (كمبردج)<sup>(٣)</sup>، وتأسيس مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١١م، من قبل (صمويل زويمر) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط<sup>(٤)</sup>، وإنشاء دائرة المعارف الإسلامية...وما هذه الأحداث إلا شواهد على العمل لخدمة الهدف الديني للاستشراق<sup>(٥)</sup>.

بدأ الاستشراق ((بتشجيعٍ من الكنيسة ورجال الدين النصارى))<sup>(٦)</sup>، فالاهتمام الديني يعدّ أول وأهم أهداف الاستشراق<sup>(٧)</sup>، ولا نحتاج إلى استنتاج وجهد كبيرين في البحث لنتعرّف إلى الدافع الأول للاستشراق عند الغربيين، فقد بدأ بالرهبان واستمر كذلك حتى عصرنا الحاضر، وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام

(١) ينظر: موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديميين: ٢٤

(٢) ذهب المستشرق رودري بارت إلى أنّ الهدف الرئيس من جهود المستشرقين في بدايات الاستشراق في القرن الثامن عشر الميلادي وفي القرون التالية له، هو التبشير، وعرفه بأنه: (أفناع المسلمين بلغتهم ببطان الإسلام ، واجتذابهم الى الدين المسيحي) ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: رودري بارت، ١١

(٣) ينظر: المستشرقون والتنصير: علي النملة، ٢٢

(٤) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق، ٧٢

(٥) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق: ٧٥-٧٦، كذلك ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن الميداني: ٩٤-١٠٠، وينظر أيضاً: الاستشراق والمستشرقون: مصطفى السباعي، ٣٨-٤٤ ، موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي: ٣٩-٤٦.

(٦) الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية: أبي الحسن الندوي، مطبعة التقدم، ط٣، ١٩٧٧م: ١٧

(٧) ينظر: موسوعة الاستشراق: ١٥٥

والقرآن<sup>(١)</sup>، ويشوِّهوا محاسنه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية ((أنَّ الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأنَّ المسلمين قومٌ همجٌ لصوص وسفَّاكو دماء، يحنُّهم دينهم على الملذَّات الجسدية، ويبعدهم عن كلِّ سموٍّ روحي وخلقِي))<sup>(٢)</sup>، والهدف الأساسي هو الجانب النصراني بغية تحطيم الإسلام، وإخراج المسلمين منه وتتصيرهم، والتشكيك في أسسه وعقائده<sup>(٣)</sup>، وتوجيه المطاعن له، وتشويه التاريخ الإسلامي وحضارة المسلمين، وتنفير المسلمين من دينهم وحملهم على كراهيته، ووصم الفقه الإسلامي بالاقْتباس من القانون الروماني، وتزيين المسيحية<sup>(٤)</sup>.

وكانت من أولويات تطبيق الهدف الديني من الاستشراق هي التشكيك في صحَّة رسالة النبي (ﷺ)، وبالتالي صحَّة القرآن والطعن فيه، وإرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية، والعمل على تتصير المسلمين، واعتماد الأحاديث الضعيفة، والأخبار الموضوعية، لتدعيم آراء المستشرقين وبناء نظرياتهم، فقد أولى الاستشراق اهتمامًا مبالغًا به تجاه الصوفية وبعض الفرق المقصية كالإسماعيلية وغيرها من الفرق المهمشة<sup>(٥)</sup>.

٢- **الدافع الاستعماري:** إنَّ دور المستشرقين قد ((مهَّد السبيل للاستعمار لكي يحتل بلاد المسلمين بأيسر السبل وأقصرها معًا، فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر إلَّا وقد احتل الغرب معظم البلاد الإسلامية والعربية خصوصًا...، وبدأ الاستعمار يتعامل بأسلوب جديد مع شعوب هذه المناطق، إذ عمل على إضعاف روح المقاومة في نفوس المسلمين، ليجعل منهم شعوبًا قابلة للاستعمار فكريًا وثقافة وعقيدة، وهذا

(١) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن الميداني: ٩١-٩٥

(٢) الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ١٥-١٦

(٣) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية: محمود زقزوق: ٧٢

(٤) ينظر: الاستشراق بين النشأة والأهداف: إسماعيل عبد الفتاح مصطفى: ١١٦٣-١١٦٤. كذلك ينظر: موسوعة

الاستشراق، ٥٢٦

(٥) ينظر: موسوعة الاستشراق، ٥٢٧-٥٢٨

أخطر ما أصيب به العالم الإسلامي، قابليته للاستعمار بأشكاله وأساليبه الحديثة والمعاصرة<sup>(١)</sup>، ونجح في العمل على ارتقاء الشعوب المسلمة في أحضان الغرب الاستعماري، والإقبال على الأفكار والثقافات الغربية المادية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الاستشراق في بدايته كان محكومًا بالنوازع الدينية والعلمية فالكنيسة ومؤسساتها المختلفة هي الوعاء للاستشراق في هذه المرحلة، ومنها يتحرّك وبإمكانياتها يعمل، وحين اجتاح الفكر الاستعماري أوروبا انطلاقًا من بعض النظريات العرقية التي قادها (رينان)\* وأمثاله، وتطلّعت الدول الأوروبية إلى استعمار العالم الشرقي احتاج هؤلاء إلى الكثير من المعلومات التي تساعدهم في تحقيق تطلعاتهم الاستعمارية، وقد وجدوا في آراء المستشرقين قوالب جاهزة ذات علاقة قوية بالشرق، وعلى دراية كافية بالكثير من المعلومات التي تمهّد لحركة الاستعمار<sup>(٢)</sup>.

لقد كان لانهازم الغرب في الحروب الصليبية وقع مؤثّر وكبير، دفع الغرب إلى ضرورة إعادة حساباته، والتخطيط لاحتلال الشرق مرة أخرى بطرائق أخرى، فعمد إلى تأسيس مراكز البحوث والدراسات المختصة بالشأن الإسلامي والشرقي، وخصص الأموال واللوازم لتقديم الدراسات والبحوث الاستشراقية الحديثة، التي تمكّن من إيجاد نقاط الضعف، ومنافذ الولوج للتغلغل والسيطرة على الشرق من جديد<sup>(٣)</sup>.

**٣- الدافع الاقتصادي:** نظرًا لما تمتلكه بلاد المشرق من مصادر للطاقة (البتروال)؛ فقد كانت الدوافع الاقتصادية والتجارية من أشدّ الدوافع التي حرّضت كثيرًا من

(١) الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة: محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩: ٢٠-٢١ (\* رينان: مستشرق فرنسي (١٨١٢-١٨٩٢) عاش في لبنان وتضلع في علوم العربية ودراسات الشرق، ساهم في الدراسات الأنثروبولوجية التي أدت إلى ظهور النظريات العرقية بشكل فعال، استفاد الغرب من نظرياته كثيرًا، للمزيد ينظر: المستشرقون، نجيب العقبلي: ٢٠٢/١

(٢) ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله: محمد فتح الله الزيايدي، دار قتيبة، ط١، ١٩٩٨: ٣٨-٣٩

(٣) ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٢٢

الغربيين على الدراسات الشرقية، رغبة بغزو البلاد الإسلامية غزواً اقتصادياً، بهدف الاستيلاء على الثروات واستغلال الموارد وإماتة الصناعات المحلية، وتحويل بلاد المسلمين إلى بلاد استهلاكية لما تصدره لها المصانع الغربية، وغير قادرة على إنتاج احتياجاتها، ولهذا وجَّهت المؤسسات الاقتصادية الغربية المهتمين بالدراسات الاستشراقية ليكونوا وسطاءهم ومستشاريهم والمترجمين لهم في مهماتهم ومطالبهم الاقتصادية<sup>(١)</sup>، وقد كانت الحاجة إلى المواد الأولية والأسواق التجارية لتصرف البضائع دافعاً مهماً إذ كان الشرق الإسلامي ودول أفريقيا أسواقاً تلبى تلك الحاجة الغربية المتنامية.

٤- **الدافع السياسي:** بعد استقلال الدول العربية والإسلامية وتحزُّرها من الاستعمار، ظلَّ هاجس السيطرة متغلغلاً في النظام السياسي للغرب وهو ما عمل عليه عبر تواجد ما يعرف بالملحق الثقافي في سفارات الدول الغربية في البلدان الإسلامية، فهو مندوب يجيد اللغة العربية ولديه معرفة جيدة في الدراسات الاستشراقية، وعلى دراية تامة بشؤون البلد وتاريخه واقتصاده وموارده ونظامه الاجتماعي، كان الغرض من وجوده الاتصال بالسياسيين والتفاوض معهم، والاتصال برجال الاعلام والفكر وبتِّ أفكار الغرب من الفتن والدسائس في المجتمع الإسلامي<sup>(٢)</sup>، وقد تعاضدت السلطة مع المعرفة من أجل التعرّف على الآخر والسيطرة عليه، بسبب ضعف الوعي السياسي في البلاد الإسلامية، ممَّا جعل من الخطاب الاستشراقي خطاباً واسع الانتشار، حتى بلغت أعداد مراكز البحوث والدراسات عدداً كبيراً، ففي القارة الأمريكية وحدها، هناك خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي، وظيفتها متابعة ورصد كل ما يجري، ودراسته، وتحليله، ومناقشته مع صانع القرار السياسي، ومن المهام التي يرمى إليها الهدف السياسي:

(١) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن ميداني: ١٣٠

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٢٤ كذلك ينظر: أجنحة المكر الثلاثة: ١٣١

إضعاف روح الإخاء والوحدة بين المسلمين، والعمل على فرقتهم، والعناية باللهاجات العامية، ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات<sup>(١)</sup>.

٥- **الدافع العلمي:** ولج قليلٌ من المستشرقين ميدان الاستشراق بدافعٍ علميٍّ بحت، فكان حب الاطلاع والرغبة في معرفة عالم الشرق هي من جعلتهم يدخلون هذا المجال، فعمدوا إلى الدراسات الاستشراقية العلمية الصادقة بلا تحريف أو زيف، ومنهم المستشرق (توماس ارنولد) الذي أنصف المسلمين بكتابه الدعوة إلى الإسلام، ومنهم من دخل الإسلام وانتفى إلى هذا الفكر كالمستشرق الفرنسي (دينيه) الذي ألّف كتابًا بعنوان (محمد رسول الله) فقد أسلم وعاش في الجزائر ودفن فيها، وكذلك المستشرق المجري (عبد الكريم جرمانوس) الذي ألّف أكثر من ١٥٠ كتابا عن الإسلام، ومنهم المستشرق الفرنسي (موريس بوكاي)<sup>(٢)</sup>، وهؤلاء قلة نادرة يمتازون بالقدرة المالية التي تمكّنهم من الاستغناء عن الدعم الكنسي أو الحكومي الغربي، على الرغم من أنّ كثيرًا منهم تعرضوا للمضايقة من رجال السياسة والدين في بلدانهم، ولم تخلُ دراسات البعض من هؤلاء من الزلل ومجانبة الحقيقة لأسباب تتعلق بعدم معرفتهم الكاملة بالعربية وأساليبها وجهلهم بتاريخ الإسلام وأجواءه وظروفه<sup>(٣)</sup>، فضلًا عن عددٍ من المستشرقين الذين حققوا الكثير من الكتب العلمية واللغوية والفلسفية العربية القديمة وسلطوا الضوء على إنجازات العرب والمسلمين العلمية والأدبية من خلال التحقيق والكتابة عنها، أمثال (بروكلمان) صاحب سلسلة تاريخ الأدب العربي، و(رينالد نيكلسون) الذي اهتم بالتصوّف وكتب الكثير عن التصوّف في الإسلام، وأمثال هؤلاء ممن أفادوا البحث والدراسات العربية.

(١) ينظر: موسوعة الاستشراق، ٥٢٥ . كذلك ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٢٤-٢٥.

(٢) ينظر: موسوعة الاستشراق، مجموعة من الأكاديميين: ٦٨.

(٣) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، ١٣٢.



بالإضافة للهدف الثقافي الذي يتلخَّص في السعي لنشر الثقافة الغربية عبر انتشار اللغات الأوروبية، ومحاربة اللغة العربية، وإحاطة المجتمع الشرقي بطابع ثقافي غربي قائم على الانفتاح والحرية المطلقة.

### د- وسائل الاستشراق<sup>(١)</sup>:

- ١- تأليف الكتب والدراسات والبحوث في عديد الموضوعات الإسلامية وإصدار المجالات والدوريات الخاصة بالدراسات القرآنية والإسلامية وإنشاء المؤسسات التعليمية ومعاهد الدراسات الشرقية والكراسي الجامعية.
- ٢- إرسال الحملات التبشيرية تحت غطاء العمل الإنساني.
- ٣- إلقاء المحاضرات في الجامعات الإسلامية والتجمعات العلمية، ونشر مقالات التبشير والاستشراق في الصحف المحلية الإسلامية وإنشاء المطابع ودعم ترجمة الكتب الإسلامية وإصدار الموسوعات العلمية.
- ٤- عقد المؤتمرات والندوات واللقاءات الاستشراقية الدورية الهادفة لإحكام السيطرة الغربية.
- ٥- إنشاء (دائرة المعارف الإسلامية) بعدة لغات وهي موسوعة مليئة بالأباطيل والأكاذيب يعمل عليها كبار المستشرقين المعادين للإسلام.

### مراحل الاستشراق:

مرَّ الاستشراق بأربع مراحل مركزية تحدّدت معالمها انطلاقاً من اعتماد مبادئ علم تاريخ الأفكار<sup>(٢)</sup>، وهي: الاستشراق الاستكشافي، الاستشراق الاستعماري، الاستشراق ما بعد الاستعماري، الاستشراق الجديد (النيواستشراق).

يحظى الاستشراق بمكانة مهمة ومحترمة في الجامعات، كلندن واكسفورد وكمبرج وادنبرة وجلاسكو وغيرها، ويشرف عليه أساتذة يهود استعماريون وإنكليز

(١) ينظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، ٣٣-٣٤. كذلك ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة

ونقد: عمر بن إبراهيم رضوان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٢: ٤٩ - ٥٩

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي: ٦٥-٦٦

مبشرون، يحرصون على أن تظلّ مؤلفات (جولدتسيهر)\*، و(مرجليوث)\*، و(شاخت)\*، هي المراجع الأصلية لطلبة الاستشراق وللراغبين في حمل الدكتوراه عندهم من العرب والمسلمين<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: الاستشراق الجديد (النيواستشراق)<sup>(٢)</sup>:

بدأت المرحلة الجديدة من الاستشراق، وهي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، وهي امتداد متطور للمراحل السابقة، وإن كانت السمة الغالبة عليها هي استمرار المواقف المعادية للإسلام والمسلمين<sup>(٣)</sup>. عُقد في العاصمة الفرنسية باريس مؤتمر كبير في العام ١٩٧٣، بمناسبة الذكرى المئوية لبدء عقد المؤتمرات

\* إجنس جولدتسيهر: (١٨٥٠-١٩٢١) مستشرق يهودي مجري، درس في بودابست وبرلين، وحصل على الدكتوراه وعمل أستاذا في جامعة بودابست، اشترك في معظم مؤتمرات المستشرقين وله من البحوث ما يزيد عن الخمسة بحث، له كتاب من أخطر كتب الاستشراق هو "دراسات إسلامية" ١٨٨٩. ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، ١٩٧-٢٠١.

\* دافيد صمويل مرجليوث (١٨٥٨-١٩٤٠) مستشرق انكليزي، درس اللغات السامية، وعمل أستاذا في جامعة أكسفورد ١٨٨٩، ونشر العديد من الدراسات عن الإسلام، منها "محمد ونشأة الإسلام"، ونشرة تحت اسم "معجم الابداء"، وله الكثير من البحوث والمقالات عن الإسلام. ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي: ٥٤٦.

\* شاخت (١٩٠٢-١٩٦٩) مستشرق الماني، متخصص في الفقه الإسلامي، درس الفيلولوجيا الكلاسيكية واللاهوت واللغات الشرقية، أكمل الدكتوراه في جامعة برسلو ١٩٢٣، عمل أستاذا في جامعة فرايبورغ جنوب غرب المانيا، وانتدب للتدريس في الجامعة المصرية جامعة القاهرة حاليا، ثم انتقل إلى لندن، ومنها إلى ليدن في هولندا ليشراف على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية، له كثير من المؤلفات في الفقه الإسلامي والقانون والشريعة. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي: ٣٦٦-٣٦٨.

(١) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي: ٧٣-٧٥

(٢) النيواستشراق: يعكس هذا المصطلح مذهباً ثقافياً جديداً ذو طبيعة أخلاقية، بمعنى، طريقة لأشكلة المجال الإسلامي والعلاقات بين الهوية الإسلامية والهوية الغربية، يقوم على تجديد افتراضات الاستشراق الكلاسيكي ومتطلبات الدفاع عن الديمقراطية والحداثة، يعدّ هذا المذهب فعلا ودوافع الفاعلين يتم تفسيرها حصرا عبر قيم المجتمع المنتمين إليه، وتعكس الهوية الإسلامية مجموعة متخيلة في جزء منها، وهي متناقضة وثابتة نسبياً من المواضيع والعلاقات والممارسات والخطابات التي تقتزن بانتمائها للمجال الإسلامي، بالمثل تحيل الهوية الغربية إلى كل ما يجسد الوجود والفعل الغربي، والاستشراق الجديد ابن لعوامل ثلاثة: التراث الذي خلّفته افتراضات الاستشراق القديم، واستمرار لمكتسبات تاريخ لا يزال ينظر إلى الإسلام بعين النقص، ومناخ فكري جديد لمرحلة ما بعد الحرب الباردة يمتاز بالجوء إلى (ماهويات ثقافية) لأجل تفسير الأحداث التي تمس المجتمعات العربية والإسلامية مع بداية التسعينيات. ينظر: تيار الاستشراق الجديد والإسلام من الشرق الشيوعي إلى الشرق الإسلامي: أوليفيه موس، تر: عومرية سلطاني، مكتبة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٠ : ٥

(٣) ينظر: الاستشراق بين النشأة والأهداف: اسماعيل عبد الفتاح مصطفى، ١١٦٠

العالمية للاستشراق التي كانت تعقد دورياً كل ٣-٥ سنوات، وتمّ في هذا المؤتمر التصويت على إلغاء تسمية "الاستشراق" وتغيير اسم المؤتمر إلى "المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشرقية"<sup>(١)</sup>، ثم استبدل اسم المؤتمر بعد دورتين ليصبح (المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية)<sup>(٢)</sup>، وهكذا ((ألغى مصطلح الاستشراق، ورُمي في رُكام مزلة التاريخ))<sup>(٣)</sup>.

لم يزل الاستشراق يعمل، على الرغم من أنّ بعضهم قد أدلى بتصريحات أعلن فيها أنّه قد انتهى زمن الاستشراق، ولكنّه ظهر بشكل مُغاير نوعاً ما للاستشراق الكلاسيكي، ولعلّ وجود بعض العناصر دفع باتجاه ولادة الاستشراق الجديد وهي:

أولاً: اتّسع معنى الشرق الجغرافي ليشمل العالم غير الإسلامي، وثانياً: المجابهة التاريخية إذ اندفع المؤرخون الغربيون إلى مقارنة الحضارة الغربية بحضارات أقدم، وثالثاً: التعاطف الوجداني مع الموضوع المدروس متمثلاً في النظر إلى الثقافات جميعها على أنها متناسقة ومترابطة، ورابعاً: التتميط أو التصنيف فقد نزع الفكر الغربي إلى تصنيف الطبيعة والإنسان على أنماط<sup>(٤)</sup>.

لقد صنعت مراكز الأبحاث والمؤسسات الأكاديمية الغربية من خلال الترويج في وسائلها الإعلامية الدولية، وبمساندة السياسات العالمية موجة المضامين الاستشراقية الجديدة بعد أن خدمتها وسائل الاتصال وشبكات التواصل الحديثة، تزامناً مع انتشار وتغلغل حالة التغريب في البلاد العربية، وشيوع سياسات محاربة الإرهاب، في ظل نمط جديد من الاحتلال الثقافي، للدفع باتجاه تطبيع

(١) ينظر: الاستشراق في التاريخ الإشكاليات الدوافع التوجهات الاهتمامات، عبد الجبار ناجي: ٧٠

(٢) ينظر: حول الاستشراق الجديد، عبد الله الوهبي: ١١

(٣) الاستشراق المعاصر في منظور الاسلام، مازن مطبقاني: ١٢، كذلك ينظر: الاستشراق في التاريخ: الإشكاليات الدوافع التوجهات الاهتمامات: عبد الجبار ناجي، ٥٤٢

(٤) ينظر: الاستشراق: إدوارد سعيد، ١٤١-١٤٢

المضمون السلبي والنمطية العدوانية عن المسلمين عمومًا والعرب خصوصًا من أجل خدمة مشاريع الهيمنة.

إنّ ما يميّز الاستشراق الجديد عن الاستشراق الكلاسيكي، هو عدم اقتصاره على الغربيين وحسب، وإنّما شملَ كثير من الباحثين والدارسين العرب والمسلمين، الذين يكاد يقتصر واجب بعضهم على دعم التصورات، والأفكار المنتجة سابقا عن الإسلام، لقد أضحت الوظيفة الحقيقية لمعظم مؤلفات، وكتابات النخب العربية العاملة في حقل الاستشراق الجديد، هي أن يُعاد عن طريقها عرض المجتمع العربي كموضوع دراسي، وتشريحي قابل للمعاينة من جانب اختصاصيين آخرين، بوصفه مجتمعًا "شاذًا وغرائبيًا"<sup>(١)</sup>، فهو يصوّر العرب كمتوحشين، جاهزين للقتل والاعتصاب، فهم ببساطة "بدوّ ذوو لحيّ طويلة"، وهم نسخة عن الأسطورة القديمة للعدوّ الأزلي ذاته<sup>(٢)</sup>.

يرتكز نقد المستشرقين الجدد للمجال الإسلامي على الافتراضات النيواستشراقية المسبقة، على الرغم من اختلاف أشكالها ودوافعها وأهدافها، فالعداء للإسلام، أو الخوف منه ليس إلّا إمكانية يمكن أن تتطافر مع دواعي أكثر أهمية، كما يمكن أن تعكس حساسيات محيطية تجاه الإسلام، حين تتعضد برواية نيواستشراقية. كما يمثّل الاستشراق الجديد تجديدًا وإعادة تهيئةٍ للأطروحات الاستشراقية الكلاسيكية، في سياق يتميّز بأدلجة متنامية للعلاقات بين الشرق والغرب، تعمل على تشجيع العودة إلى قراءة ماهوية للمجال الإسلامي<sup>(٣)</sup>.

يتوارى الاستشراق التقليدي وراء هذا التوجه الجديد، من دون أن يعني أنّ هناك إغفالا تامًا للقضايا الاستشراقية التقليدية في دراسة العلوم الإسلامية، كالقرآن

(١) ينظر: حول الاستشراق الجديد: عبدالله الوهبي: ٨-٩

(٢) ينظر: ما بعد الاستشراق - الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء: فاضل الربيعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧: ١٧

(٣) ينظر: تيار الاستشراق الجديد والإسلام: أوليفيه موسى: ٥

الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتاريخ الإسلامي والفقہ الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، إلا أنّ حضور هذه القضايا في الاستشراق المعاصر لا يكون بأبحاث جديدة وإنما بتبني ما ذهب إليه الاستشراق التقليدي.

إنّ ((الاستشراق الجديد والمتطرّف هو على أحسن تصوير لا يعدو كونه نسخةً محدّثةً من الاستشراق القديم، لكن بمنظومة أهداف خبيثة، وخلفيات فكريّة حاقدة، وفجاجة خطابٍ متعالٍ ومتطرّفٍ عمل على تقديم صورة نمطيّة للشرق، لا تعكس سوى الجهل والهمجيّة وعبادة الشهوات))<sup>(١)</sup>، إنّ التاريخ المتقل بالإنساقطات والشبّهات غير البريئة على الإسلام والشرق والحضارة والتراث العربي، سيُنتج بشكلٍ طبيعيٍّ ظاهرة العداة والتطرّف تجاه الآخر بينيته الفكرية والدينية، وهو ما أتحنفا به الاستشراق الجديد، والمستشرقون المتشدّدون بخطابهم الاستشراقي المعاصر الذي يجاهر بعداوتة للإسلام مجاهرة صريحة لا غموض فيها. وأكثر ما يميّز هذا الخطاب معلّمين، الأول ديني، والآخر ثقافي عرقي.

كان وراء هذا الانتقال من الاستشراق الكلاسيكي إلى شكله الجديد شخصيتان هما: الكاتب برنارد لويس، الذي نهل من تراث الاستشراق القديم والذي ساهم مقاله [أين الخطأ] الذي أصبح كتابا فيما بعد، في أنثقة أو أسلمة أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأستاذ العلاقات الدولية صامويل هنتنغتون، الذي صاغ كتابه (صدام الحضارات) المفردات والأسلوب المناسب لقراءة هذه الأحداث<sup>(٢)</sup>.

وتساهم الأفكار التي طوّرها برنارد لويس غالبًا كمرجع لدى دوائر الغرب من دون أن يتم ذكر مصدرها الأيديولوجي، فرويته للعلاقة بين الغرب والإسلام، تأخذ

(١) الاستشراق والتطرّف: حسن أحمد الهادي، مجلة دراسات استشرافية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد

٢٧، السنة ٢٠٢١ : ٩-١٠

(٢) ينظر: تيار الاستشراق الجديد والإسلام: أوليفيه موس، ١٢

شكلاً مقبولاً بين أوساط المعادين للإسلام، والدوائر الفكرية المختلفة التي تتغذى على الموارد الخطابية التي يقدمها كتاب الاستشراق الجديد.

لا يزال الاستشراق حياً ولكن بصورة مغايرة عن صورته القديمة المعهودة له، إذ أنّ الاختلاف كان في طريقة عرض وتقديم صورة الشرق والإسلام، فالاستشراق الكلاسيكي ينسب للإنسان الشرقي الجهل، ويحاول التقليل من شأنه واحتقاره، فيما يضيف الاستشراق الجديد للمسلم عنواناً جديداً من عناوين الظلم والشر والفساد هو الإرهاب<sup>(١)</sup>، وهو ما نجده واضحاً في خطاب برنارد لويس. وقد سارت أجيال المستشرقين بعد الحرب العالمية الثانية على الدرب نفسه الذي سلكته الأجيال الماضية في تضليل وتمويه الحقائق والبعد عن المواجهة الصريحة.

لقد ارتبط اهتمام العالم الجديد بالإسلام بانهيار الكتلة الشيوعية، إذ توجّهت أنظار الباحثين والمفكرين إلى صناعة آخر يكون مخالفاً للحضارة الغربية في معظم أسسها ومقوماتها، وإن لم توجد هذه المخالفة، يمكن إيجادها عبر عمليّات الصناعة الفكرية والثقافية المعقّدة، وتزعّم برنارد لويس هذا الاتجاه أواخر القرن المنصرم، منذ تاريخ إلقاءه لمحاضراته "الأصولية الإسلامية" التي أرجع عن طريقها أسباب الصراع بين الغرب والإسلام إلى جوهر الدعوة الإسلامية المعادية للسلام، حسب رأيه، كانت الغاية إفراغ الإسلام من محتواه العقائدي والأخلاقي، وعرض الإسلام بالصورة التي يريد هو أن يُريها للعالم، وهنا تتدخل تقنيات الانتقاء والتشويه لتحقيق المبتغى الدعائي التشويهي للإسلام، لتركز عليها وتستشهد بها التوجهات

(١) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢١: ٤٦

الإسلاموفوبية\*، لأنها مادة دسمة لها، ومنها تنشأ نظريات من قبيل صراع الحضارات وغيرها<sup>(١)</sup>.

يُبرز إدوارد سعيد في دراسته لتكوين مؤسسة الاستشراق ارتباطها بالمصالح السياسية الغربية، من حيث أنّ ازدهار الاستشراق جاء مواكبًا للتوسع الاستعماري والإمبريالي الغربي، فهو "معرفة تنتج القوة"، كما تشير إلى ذلك عبارة حُفرت على مبنى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن [الكلية التي تخرج منها برنارد لويس]، وقد وظّف كثير من المستشرقين عملهم بالشرق لخدمة المصالح السياسية لبلدانهم بشكل معلن أحيانًا وخفي أحيانًا أخرى<sup>(٢)</sup>.

---

\* الإسلاموفوبيا: اصطلاح مركب من كلمتي إسلام وفوبيا، وتعني "فوبيا" الخوف المرّضي غير المبرر من شيء ما، وبذلك فالإسلاموفوبيا هي حالة من الهلع تنتاب بعض الغربيين من الإسلام، وهي حالة غير مبررة تغذيها وسائل الإعلام الغربية، وهي مشاعر تجاه المسلمين تنطوي على كراهية وخوف لا أساس لهما، ولا يقتصر ذلك المفهوم على الخوف النفسي أو الفردي، بل يعني القلق والخوف الاجتماعي من الإسلام والمسلمين. ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، ١٧. كذلك ينظر: خرافة الإسلاموفوبيا: الدراجي زروخي، منشورات مخبر الدراسات الأنثروبولوجية، ط١، ٢٠٢١: ١٠-١١

(١) ينظر: صناعة الآخر، الميروك الشيباني، ٢٠٦-٢٠٧

(٢) ينظر: إدوارد سعيد ناقد الاستشراق قراءة في فكره وتراثه: خالد سعيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت،

ط١، ٢٠١١م: ٨٧

## المبحث الثاني

### التشكُّل\*:

لأبْدَ لأيِّ ناقدٍ للدراسات الاستشراقية أن يكونَ له معرفة وتصورٌ عن تشكُّل وتخلُّق الأنساقِ الثقافيةِ عندَ المستشرقين، وخلفياتهم المؤثرة في إنتاجِ نصوصها، ومعرفةِ مرجعيّاتهم الثقافية التي أنتجت هذه المؤلفات، انطلاقاً من فهم البيئة المحيطة بالمستشرقين وظروفهم الاجتماعية والسياسية.

عندَ قراءةِ نصوصِ المستشرق برنارد لويس لأبْدَ أولاً من ملاحظة الوعي القرائيِّ القادرِ على تحليلِ النصِّ واكتشافِ خباياه، لأنَّ القراءة الثقافية للنصِّ تتركز بالدرجة الأولى على الوعي الثقافيِّ للقارئ، الذي يمكنه من تحليل الأنظمة الثقافية التي أبداع فيها النصِّ، وينظرُ إلى الوعي في هذا السياق على أنه مرحلةٌ تُعبّرُ عن منطقة النضج في نمو الفكر الإنسانيِّ، وهو وعيٌّ على صعيد الأنظمة وناتجها الخطابِيِّ، والثقافة التي تستوعبها هذه الأنظمة، أي مجموع الخبرات والمعارف والاعتقادات والممارسات وبشكل عام<sup>(١)</sup>. من أجل الوصول إلى هدف النقد الثقافي في قراءة الخطاب عبر دلالاته النسقية في لحاظ أن الدلالة النسقية: هي النوع الثالث من الدلالات، يضاف إلى الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية، وهي قيمة مخبوءة في المضمرة النصي في الخطاب اللغوي، فهي تقبع في المضمرة وليست في الوعي، وتحتاج لكشفها إلى أدوات نقدية مدققة تأخذ بمبدأ النقد الثقافي<sup>(٢)</sup>.

ويرى الباحث أن ذلك لا يتحقّق إلا ببيان المؤثرات، والظروف، والأبعاد، والسياقات، التي أنتجت في ظلّها هذه النصوص؛ إذ إنّها تمارس سلطة إنتاجية

\* التَّشكُّلُ هُوَ: "النَّمْتَلُ وَ التَّصَوُّرُ". ينظر: لسان العرب: ٣٥٧/١١ مادة (شكل)، كذلك ينظر: المعجم الوسيط، ٤٩١.

(١) ينظر: قراءة النص وسؤال الثقافة استبداد الثقافة ووعي القارئ بتحويلات المعنى: عبد الفتاح أحمد يوسف، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩: ١١.

(٢) ينظر: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: سمير الخليل، مراجعة: سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤: ١٧٢.



عليها، فمؤلفات المستشرقين ذات أنساق دينية/ثقافية، تعلن عن تواصل بين الموقف الديني والموقف الثقافيّ عبر الكاتب الذي يمثّل قناة الاتصال، وصاحب الفاعليّة في إنجاز النص، لذا لا مناصّ من الإحاطة بالسياقات المنتجة للنص، فالنصّ ليس بمعزلٍ عن بقية المؤثرات وسياقاتها وظروفها، فالنصوص ((تنتج في سياقٍ ثقافيّ ما، وعند قراءتها في سياقٍ ثقافيّ مُغاير تعطي معنىً آخر، وهكذا كلّما تعددت السياقات التي تُقرأ فيها النصوص، تعددت معاني هذه النصوص))<sup>(١)</sup>، فالسياق ((يُمثّلُ مناخاً ضرورياً لأيّ نتاجٍ ثقافيّ، فهو الذي يهيئُ للمساهمين في أيّ ثقافة ما شروط الإمكان من وسائل إنتاجٍ مختلف أشكالها، وكذلك وسائل الاستهلاك))<sup>(٢)</sup>. والسياق هو الصورة الكلية الشاملة التي تصطفّ بداخلها الصور الجزئية، ولا يمكن فهم كلّ جزء من الأجزاء منفردة من دون معرفة موقعها من الكل، فالصورة متكوّنة من مجموعة كبيرة من النقاط الصغيرة، تؤلف بمجموعها الصورة الكلية، وعند البحث في جدليّة العلاقة بين النسق الثقافيّ والسياق في النصّ الديني نجدُ أنّ سياق الحال، أو سياق الموقف هو السياق الخارج عن النصّ "السياق الاجتماعي"، في حين أنّ ((النصّ الإبداعيّ يحيل إلى نسق وسياق، وبين النسق والسياق علاقة جدليّة تفاعليّة، فالنسق متّصل بالتشكّل عبر التراكم التاريخيّ لمنظومة الأفكار والعلامات، والتشكّل يحدث في ضوء سياقات والسياقات متّصلة بأنساق دينية وقيميّة وثقافيّة))<sup>(٣)</sup>.

في الحقيقة إنّ حياة العقل وبنيته لا تأتي من فراغ، بل هي متأثرة سلبيّاً وإيجاباً، بما يحيط به من مؤثرات ومشكلات ثقافيّة، فإذا كانت هذه المؤثرات والعناصر الثقافيّة غنيّة وجيدة، فسيكون المردود إيجابياً وهو الارتقاء بمستوى

(١) استراتيجيات القراءة في النقد الثقافيّ: عبد الفتاح أحمد يوسف، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٢٠٠٧، ٣٦: ١٨١.

(٢) الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النصّ الرحليّ: بو شعيب الساوري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧: ١٩.

(٣) قراءة النسق والسياق، مُحمّد زيان، مقال، <https://www.djazairress.com/djazairnews/51234>.

العقل، وجعله على مستوى الأحداث والتحديات، أمّا إذا كانت العناصر والمؤثرات رديئة فحتماً ستكون النتيجة انحطاط مستوى العقل وضياعه<sup>(١)</sup>، فالثقافة لأيّ مجتمع تعمل على صياغة العقل وبنائه، والعقل البشري لأيّ عرقٍ انتمى، وعلى أيّ أرضٍ وُجِد، فهو متأثرٌ بهذه الثقافة في تشكُّله وبنائه، بغضّ النظر عن طبيعة هذا التشكُّل أو التكوين، أهو إيجابيٌّ أم سلبي. وانطلاقاً مما سبق سأستعرض العوامل التي ساهمت في تشكُّل الأنساق الفكرية والدينية والثقافية لدى برنارد لويس.

### تعليم لويس:

شكّل تعليم لويس مؤثراً مهماً في إنتاج نصوصه، إذ كان لاهتمام مدرسته الابتدائية بتعليم تلاميذها اللغات الفرنسية واللاتينية منذ سن مبكرة دوراً كبيراً في زيادة شغفه إلى متابعة إتقانها والاهتمام بما سواها من اللغات، وكان هذا حافزاً للويس في متابعة دراسة أسفار التوراة على يديّ معلمه، ممّا رسّخ في ذهنه كثيراً من القيم والطقوس اليهودية، كما قادته اهتماماته بالأسفار التوراتية إلى الاهتمام بتاريخ الشرق الأوسط القديم ولغاته الآرامية ومن ثم العبرية والعربية، يصف لويس أحد أساتذته: ((كان عندي معلم عرف كيف يستجيب إلى حماسي الطفولي، وهو فعلاً كان وراء فتح الأفاق أمامي نحو الشغف باللغات حتى أصبحت مهنتي لاحقاً))<sup>(٢)</sup>.

ويذكر لويس أنّه اهتم باللغة العربية أكثر من غيرها كما عمل على دراسات مقارنة بين العربية والفارسية، والعربية والتركية، إذ يقول: ((وقد قادنتني سلسلة قراءاتي لسفر اللاويين إلى دراسة الآرامية ومن ثم العربية، إلّا أنني لم أتابع دراسة الآرامية))، ليوفر جميع جهده لتعلم العربية أيضاً كونها تشكل المقدمة الطبيعية لفهم

(١) ينظر: العقل العربي وإعادة التشكيل: د. عبد الرحمن الطريبي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، ط١، ١٩٩٣: ٦٧.

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس، ترجمة وتقديم: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧: ١٠.

التاريخ التوراتي، واستمرت تلك الاهتمامات حسب قوله حتى في الجامعة، وأضاف لها اللغات اللاتينية والإغريقية، وحتى بعد تخرجه لم يدع فرصة إلا واستثمرها لتطوير إمكاناته في اللغة العربية، وقرنها بالفارسية والتركية<sup>(١)</sup>.

أكمل لويس دراسته الإعدادية، وتعدّدت موارد معارفه ومنابع أفكاره، وزاد شغفه بالقراءة، ويعود ذلك إلى الكتاب الأول في التاريخ اليهودي الذي كان هدية عيد بلوغه ( Out Line of Jewish History)، كانت الهدية ذات أهمية في خلق ركيّزة أساسية في توجه لويس إلى التاريخ، وبشكل خاص تاريخ اليهود، ومن ثم الشرق، إذ ذكر: "إنّ قراءتي المثلثة والفورية لذلك الكتاب قادتني إلى ذلك السحر والأماكن الغربية مثل قرطبة، وبغداد تحت حكم الخلفاء واسطنبول العثمانية"<sup>(٢)</sup>. كما كانت له قراءات أخرى قد اطلع عن طريقها على حضارة الشرق وثقافته، ولم يبتعد عن الثقافة السياسية لعصره، وما أفرزته الحرب العالمية الأولى من توجهات جديدة تجاه الشرق الإسلامي، وبالتحديد تركة الدولة العثمانية. لقد زادت قراءات لويس التوراتية التي ظلّ ملتزماً بها، فضلاً عن قراءة التاريخ بمرور الزمن رغبةً منه في التعرف على أحداث تاريخية لها صدى في الثقافة الرسمية والشعبية الأوربية، كما كان لها ارتباط بالتاريخ اليهودي مثل الحروب الصليبية والمسألة الشرقية، وأراد الوصول إلى فهم العلاقة بين الشرق والغرب، وهذا يعدّ تطوراً في وعي لويس للتاريخ، كما يبيّن أثر الاتجاهات السياسية في تلك المرحلة وأثرها في خلق مناخات جديدة تجاه الشرق بعد الحرب العالمية الأولى.

### اهتماماته:

يؤكد لويس أنّ اهتماماته بتاريخ الشرق الأوسط وإن كانت متأخرة إلا أنّها من تداعيات المعلومات التي استلهمها من التوراة والتاريخ اليهودي، وهذا واضح

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: ١٠

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط، برنارد لويس: ٤٢-٤٣

فيما ذكره: ((إنّ هذا بلا شك الأساس الذي قادني إلى مهنتي بوصفي مؤرخا للشرق الأوسط))<sup>(١)</sup>.

إنّ تأكيد لويس على قراءته للتوراة وتاريخ اليهود وجعلهما الأساس في تخصصه الأكاديمي، يمكن فهمها على ضوء محاولته التأسيس لمرحلة من حياته العلمية، وكذلك فيها الكثير من الإيحاء إلى أنّ هويته اليهودية تمنحه صفة القرب من الشرق انتماءً وتاريخًا ولغةً، وإنّ قدرة اليهود على فهم الدراسات الإسلامية تفوق غيرهم، لأنّهم أقرب إليها من غيرهم، كما أنّهم مؤهلون بحكم معرفتهم باللغات السامية، ويؤكد لويس اطلاعَه بشكل تفصيلي على الحروب الصليبية والمسألة الشرقية لأنها تشكّل الخلفيّة الأساسيّة للثقافة الشعبية والرسمية لعلاقات الشرق بالغرب وهي محور الاستشراق الحيوي<sup>(٢)</sup>.

تتامي وعي لويس التاريخي من مرحلة الطفولة والمدرسة، حتى دخوله مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، وفي هذه المرحلة دخل لويس قسم التاريخ بوصفه اختصاصًا أكاديميًا يعتمد منهجًا خاصًا يهدف إلى تحقيق أغراض مرسومة سلفًا تتناسب والمصلحة السياسية للدولة، وتوجهاتها الداخلية والخارجية المبنية على التنافس بين الدول الأوروبية، وقد ارتبطت المدرسة بواقع عصرها ولم تنفلت عن جذور الوعي الأوربي للشرق في دراسة التاريخ الإسلامي، واللغة العربية، كونها امتداد لأفكار وأطروحات وآراء متراكمة عبر قرون متتالية تفاعلت خلالها علاقات أفرزت أسلوبًا للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي، والعقلي، والتاريخي، والعرقى، بين الشرق والغرب<sup>(٣)</sup>.

(١) من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: ٤٣

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس: ٤١-٤٦، ٤٣

(٣) ينظر: تطور الصراع الغربي مع الإسلام: محمد الفيومي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣: ٤٤١.

ولعه باللغات:

يؤكد (لويس) أنّ معرفته باللغات كانت أحد أهمّ الأسباب في اختياره لجامعة لندن، كما كانت سبباً في وصوله إلى مهنته بوصفه مؤرخاً، وهي المهنة التي يعتز بها<sup>(١)</sup>. وقد وجد لويس في نفسه المؤهلات الكافية للولوج إلى هذه الأكاديمية، فضلاً عن تتاغمها مع تطلعاته المستقبلية، فهو مجهّز ببعض اللغات السامية وبشكل خاص العبرية والعربية، اللتين كانتا من أهمّ الأدوات التي يتسلح بها من يريد الخوض في دراسة الشرق، ويبرز سبب تركيز لويس على اهتمامه المبكر باللغات السامية؛ كونها حجر الأساس لفهم وتفسير النص الديني المقدس، ولأهمية العبرية بشكل ملازم للعبرية عند محاولة فك بعض العقد في تفسير النصوص العبرية، بحكم انتمائها لشجرة لغوية واحدة<sup>(٢)</sup>.

إنّ درجة الشرف التي حصل عليها لويس من المدرسة تؤكّد قدرات لويس العالية وإمكاناته المتميزة، وطموحاته الكبيرة، فضلاً عن اهتمام استاذة هاملتون جب بالطلبة المتفوقين، وتكريس جهده المستمر من أجل رفع مستواهم وتوجيههم بما يتناسب وقدراتهم<sup>(٣)</sup>، حظي لويس بشهرة عالمية وأطلق عليه الكثير من الألقاب، مثل عميد الدراسات الشرق أوسطية، وأرفع عالم إسلاميات في العالم، وأبو الدراسات الإسلامية، ومؤرخ الإسلام والشرق الأوسط<sup>(٤)</sup>.

مقومات نجاحه:

توفّر للويس الاهتمام سواء العلمي أم المادي، فقد كان (هاملتون جب) الراعي الأول لكل احتياجات لويس الأكاديمية في الجانب العلمي، إذ هيأ له سبل

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس: ٤٤

(٢) ينظر: أوروبا والشرق الأوسط: البرت حوراني: ١٠٧

(٣) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس: ٤٣

(٤) ينظر: برنارد لويس بطريك الاستشراق: خليل الصغير، مقالة منشورة في دراسات عربية، العدد ٤، الأحد،

الاتصال بـ(لويس ماسينيون)، عندما كان الأخير مدير مدرسة اللغات الشرقية الحية، وقد أفاد منه في مجالات علمية متعدّدة تتناسب ومؤهلات ماسينيون وسعة إطلاعه وخبرته الواسعة في الشرق تأريخه وتراثه ولغاته، فضلاً عن إشرافه على بحثه عن النقابات الإسلامية، وقد تأثر لويس بأستاذه لويس ماسينيون<sup>(١)</sup>. وجد (جب) في كفاءة وقدرة لويس ما ينسجم وطموحات المدرسة، لذا سارع إلى تقديم مقترح يقضي بأن يكمل لويس دراسته متخصصاً بالتاريخ الإسلامي وتحت إشرافه<sup>(٢)</sup>، كما حرص على إرساله إلى معقل الدراسات الاستشراقية (باريس) لمكانتها كأحد أكبر الجامعات العالمية والتي لها قصب السبق في التعرّض للدراسات الشرقية، فضلاً عن تفوقها عن سواها من مدارس الغرب الاستشراقية، إذ كانت إحدى الجامعات الأربع اللاتي أنشأن كراسي اللغة العربية بعد صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م<sup>(٣)</sup>.

إنّ تواجد لويس في باريس في تلك المرحلة الزمنية بين رواد الحركة الاستشراقية، الذين يعدّون الشخصيات المهيمنة والفاعلة في هذا المجال، مع تنوّع اتجاهاتهم المنهجية واختلافها عن الجيل الذي سبقهم، أمثال كلود كاهين، ريجي بلاشير، ليفيي بروفنسال، مكسيم رودنسون، وغيرهم، وما صنعوه من تحولات عن طريق الإفادة من تطور العلوم الإنسانية، قد أفاده كثيرًا، وصنع منه باحثًا مختلفًا ومميزًا.

(١) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية : مازن مطبقاني : ٧٥

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس: ٤٣.

(٣) ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي: ١٣٤. كذلك ينظر: الاستشراق بين النشأة والاهداف، إسماعيل عبد الفتاح: ١٤.

تأثّر بأستاذه هاملتون جب في أكثر من كتاب، ومنها (العرب في التاريخ) إذ رجع إلى عدّة مراجع من تأليف جب، ونقل عنه بعض الأفكار، وعدد من القضايا في الأدب العربي، كما رجع إلى كتاباته في تأليف كتاب الشرق الأوسط والغرب<sup>(١)</sup>. يعدّ برنارد لويس من أهم شخصيات الاستشراق الأميركي، وأعلام المدرسة الاستشراقية الأميركية التي تتميز بخصائص تختلف في الأغلب عن نظيراتها الأوروبية، فهي مؤسسة أصلاً لتحقيق أهداف دينية، وسياسية، واستعمارية، في الوقت الحاضر، ولكن بطريقة غير مباشرة، وهي في هذه الخاصية تشترك مع المدارس الاستشراقية الأوروبية، لكنها تختلف عنها في تجاوزها تناول الحركة الأدبية، واللغوية العربية التي تناولت الشرق الأوسط من حيث الأحوال الاقتصادية والسياسية والتاريخية والعلمية<sup>(٢)</sup>. كما تأثّر لويس بالمدرسة الأميركية في الاستشراق، إذ تحوّل من مستشرقٍ أوروبيٍ تقليديٍّ إلى خبيرٍ في شؤون الشرق الأوسط، ومستشارٍ لعدد من الهيئات والمؤسسات الرسمية<sup>(٣)</sup>.

### أسلوب لويس:

يتسم أسلوب لويس بالاتّساق، معتمداً التفوق المرن في الأوضاع بين الغرب والشرق، أي وضعه للغربي في سلسلة من العلاقات الناشئة مع الشرق، إذ تكون له اليد العليا في كلّ علاقةٍ منها، ولا يمكن إنكار تأثره بالظروف الرئيسة لواقعه الراهن، فهو يتصدّى للشرق والإسلام بوصفه غريباً أمريكياً أولاً، وبوصفه فرداً ثانياً، ووفقاً لهذين الاعتبارين فإنّه لا يمكن أن يكون متجرّداً من المؤثرات، ليكون حقيقة خالصة.

(١) ينظر: تصدير برنارد لويس لكتابه العرب في التاريخ، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤، ص ٥ إذ كان (جب) ممن قرأ مخطوطته.

(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢ : ١٥٧

(٣) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية: مازن مطبقاني : ٧٥

سار لويس على خطى سابقه من المستشرقين الأوائل، إلا أنه أضاف إليهم من حيث المحتوى لتشمل أبحاثه موضوعات تتعلق بالأقليات العرقية، والدينية، ومنتحلي مختلف المذاهب، والملل، والفرق كالرقيق، واليهود ممن عاشوا بين ظهرائي المسلمين، وهذا ما ميّز أعمال لويس عن بقية المستشرقين، بعدّه مساهمًا بشكلٍ حيويٍّ وفَعّالٍ في إخراج مواضيع الاستشراق من مجال القصور والبلاطات والجوامع إلى رحبٍ أوسع لتشمل مختلف مكوّنات المجتمع الإسلامي.

أثبت لويس قدرةً وتميُّزًا كبيرين بين نظرائه من المستشرقين المحدثين، كما كشف عن موسوعيةٍ هائلةٍ في البحث وجمع مواد التاريخ في العالمين العربي والإسلامي، فقد اختار المناسب منها للفكرة المطروحة والمعالجة، ثم قام بتحليلها وتشريحها وتقديمها للقارئ الغربي كمادة ثقافية جذابة، وليس كمادة أكاديمية جامدة فحسب، وذلك بأسلوبٍ من المنطق الجذاب والعرض المثير واللغة البسيطة، أو “التبسيطية” كما يتّهمه ناقدوه، محاكيًا بذلك الغريزة والعقل معاً، وجامعاً أحداث الحاضر والتاريخ في حزمة واحدة، وهو ما عجز عنه، أو لم يتجرأ على مقارنته، الباحثون الآخرون من قبله. فقد فهم لويس منذ أن وصل أميركا، أنّ الأفكار والمبادئ التي تنتجها النخب الفكرية، بذهنية ولغة أكاديمية نخوية عالية، غير قادرة على الأقل في المجتمعات الديمقراطية الحرة، على التأثير السريع والعميق في الثقافة العامة وصناعة الرأي، ومن ثمّ في صناعة القرار.

برز برنارد لويس أواسط الستينيات بتعليقاته على أمور وأحداث الشرق الأوسط، وقد مكنته تحليلاته للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني من احتلال شعبية واسعة، وأصبح شخصيّة محل جدل كبير، وتتمتع نصائحه السياسية بوزن خاص بفضل



مكانته العلمية، وقد أشار (ديك تشيني) نائب الرئيس الاميركي السابق (جورج دبليو بوش) إلى أنّ صنّاع القرار يلتزمون حكمته في هذا القرن الجديد<sup>(١)</sup>.

في مقال منشور في صحيفة (Us News World Report) كتبه جاي تولسون في العدد الصادر في ٣ ديسمبر ٢٠٠١م، بعنوان (حكيم العصر) يحتفي فيه ببرنارد لويس، ويبشّر فيه بقرب صدور كتاب (أين الخطأ) يستهله بالقول: إنّ خريف ٢٠٠١م، جعل الأضواء تتجه كلها إلى أبي الدراسات الإسلامية برنارد لويس، فهو متخصص الموسم ومستشار البنتاغون والبيت الأبيض، ويعزو كاتب المقال تنبؤ لويس بأحداث أيلول قبل حصولها بعشر سنوات في مقال ذكر فيه أنّ الغرب عامةً والولايات المتحدة الأمريكية خاصة، لا تملك دفعًا لروح العداة والحقد والكراهية والرغبة في الثأر التي تولّدت عند المسلمين منذ حسم النزاع بين الإسلام والمسيحية، عندما فشل العثمانيون في الاستيلاء على فيينا للمرة الثانية عام ١٨٦٣م، وما تلا ذلك من استعمار أوروبا لبلادهم، فهم لا يكفّون عن التساؤل حول ما حلّ بهم بعد أن كانوا الأغنى والأرقى والأقوى، إنّ ذلك يجعل منهم خطرًا يتهدّد الغرب تنفيسيًا لأحقاد تراكمت عند المسلمين على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، عجزوا خلالها عن اللحاق بركب المدنية الغربية لأسباب تتعلّق بعقيدتهم وثقافتهم<sup>(٢)</sup>.

يقيّم بعض النقاد كتابات لويس في كتبه (الإسلام والغرب)، و (اكتشاف المسلمين لأوروبا)، و (اللغة السياسية في الإسلام)، و (ثقافات متصادمة)، على أنّها كتب اتسمت بطابع مميّز بقوله: ((إنّ كتابات لويس عن تاريخ وثقافة وسياسات الشرق الاوسط محمّلة بأجندة أيديولوجية، تجمع بين المركزية الأوروبية والصهيونية

(١) ينظر: أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس: برنارد لويس، ١٩-٢٠.

(٢) ينظر: أين الخطأ؟: برنارد لويس، ٩-١٠.

مما جعلها وصاحبها مثارًا للجدل على مدى ما يزيد على الثلاثين عامًا<sup>(١)</sup>. وهو واقع الأمر، فقد ظلت كتب ومقالات لويس طوال عقود من الزمن محط اهتمام القراء الغربيين، وموضع نقاش وجدل في الأوساط الأكاديمية المتخصصة بشؤون الشرق الأوسط.

ويمكن قراءة نسق مضمَر يقبع خلف تغيّر وتيرة خطاب برنارد لويس الممتدة من تأليفه لأوّل كتابٍ له عام ١٩٤٧م، حتى تسنّمه رئاسة معهد الدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى عام ١٩٨٦م، إذ أصبحت كتاباته بعد هذا التاريخ أكثر حدّةً وأشدّ تكيلاً بالإسلام والمسلمين، لمحاباة السلطة الأميركية العليا، ومسايرة توجهاتها في التصعيد مع الشرق.

إنّ مسؤولية الاستشراق الجديد في تشكيل تصوّرات الغرب للإسلام، ورسم سياساته في البلاد الإسلامية واضحة وجليّة، والأخطر من ذلك أنّه يوجّه الرأي العام الغربي الشعبي ضد الإسلام، الذي أصله أنه جاء للناس كآفة، وضد القرآن الكريم هذا الكتاب السماوي الذي يحمل الرحمة والهداية للعالمين أجمع، ومع التطور الهائل لوسائل الإعلام والاتصال أصبح الاستشراق الجديد خصوصاً الاستشراق الإعلامي أكثر خطورةً من الاستشراق الأكاديمي الكلاسيكي الذي لم يكن يطلع على إنتاجه إلاّ المتخصصون.

يقدم لويس رؤية استشراقية نمطية ولّدت فيما بعد عن طريق طلبته، والمتأثرين بأفكاره أطروحة ثقافية، تتماهى مع رؤيته الاستشراقية التي تتلخص في أنّ الصراع العالمي لن يكون اقتصادياً، بل حضارياً بامتياز، ذلك أنّ الجماعات الثقافية سوف تحل محل كتل الحرب الباردة، وخطوط التماس بين الحضارات ستكون هي الخطوط الأمامية المركزية للصراع العالمي، فقد عدّ هنتنغتون وهو أحد

(١) أين الخطأ: برنارد لويس، ١٠

طلبتَه أَنْ الإسلام هو قوام القوة الظلامية في العالم، بسبب نزوع المسلمين نحو الصراع والعنف، ولذلك فإنّ الصدام سيكون حتمياً بين الإسلام والغرب، وأنّ الغرب بحاجة ماسّة إلى عدوٍ جديد يوحدّ دوله وشعوبه، وأنّ الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح<sup>(١)</sup>.

تصدّر برنارد لويس الاستشراق الأمريكي فأصبح ممثلاً لتيارات مؤثرة في القرار السياسي والإعلامي والأكاديمي الأمريكي، فهو منذ عقود على اتصال بالمؤسسات المهيمنة على القرار هناك، وهو ذو دور أساس في صياغة التكيف الأكاديمي لأحداث الشرق الأوسط، حتى بلغ الأمر أن تصبح أي دراسة للاستشراق الأمريكي هي دراسة لمعطيات برنارد لويس، وتعدّ الولايات المتحدة مركز هذا الاستشراق والبحث عن القرآن في مركز هذا الاستشراق لا يكون في الدراسات المستقلة الخاصة بالقرآن فقط، ولكن في ثنايا الكتب أيضاً وفي التصريحات واللقاءات الإعلامية والمحاضرات أمام الطلبة والإعلاميين وصنّاع الرأي العام وأصحاب القرار.

يحاول لويس أن يضع الاستشراق في منزلة مجال البحث العلمي البريء المنقّد حماساً، ويريد في الناحية المقابلة أن يتظاهر بأنّ الاستشراق مجال يتميز بالتعقيد والتنوع والتخصص التقني، وأنّه معقد لدرجة يصعب على أي شخص من غير المستشرقين انتقاده، بل ويضيف أن نقد الاستشراق "لا معنى له"<sup>(٢)</sup>.

### الدوافع والأسباب:

خطاب الاستشراق كأبي نوع من أنواع الخطابات له من الخصوصية ما يجعله يتجاوز الحقيقة، لتحقيق ما ينشد من حقيقته هو، ويدافع عنها باليآته

(١) ينظر: ما بعد الإسلام السياسي مرحلة جديدة أو أوهام أيديولوجية: محمد أبو رمان، مؤسسة فريديتش ايبيرت، عمان،

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد: ٥٢٠، ٥٢٣

وإمكاناته التي تحاول إخفاء البون ما بينه وبين الواقع، ((والواقع أنّ الاعتراف بأنّ للخطاب كينونته المستقلة، وحقيقته المميّزة يتم على حساب الحقيقة، يعني أنّ الخطاب يحجب الحقيقة التي يدّعي قولها، بقدر ما يتناسى حقيقته، أي بقدر ما يتجاهل أنّه منتج للحقيقة لا مجرد راوٍ لها، أو ناقل أو مترجم))<sup>(١)</sup>. وهو ما يؤكّده المفكر الإسباني خوان غويتيسولو\* أن الاستشراق لم يظهر إلاّ لخدمة مصالح الاستعمار الغربية، وتسهيل السيطرة على الشعوب المسلمة<sup>(٢)</sup>.

إنّ الاهتمام الغربي بالعرب والإسلام قد حصل بفعل تداخل سياقين مختلفين، الأول: الفحص النقدي لأساس الديانات التاريخي والاجتماعي، الثاني: نشوء تذوق علني للأدب العربي والمغامرات والأدبيات والمسرحيات الشرقية<sup>(٣)</sup>، ومع تنامي الاهتمام بالشرق توفر في أوروبا أدب شعبي ضخم عنه، فقد برزت في أوائل القرن الثامن عشر ((أعمال عديدة لخصت الشرق للقارئ الغربي على أنه: مكان للجنس والاستبداد والنزوات، فليس للشرقيين من همّ سوى الانغماس في مثل هذه التسليات))<sup>(٤)</sup>، كما ظهرت ترجمات لكتب مهمة ومؤثرة في صناعة الثقافة منها الترجمة الفرنسية لكتاب (ألف ليلة وليلة) التي انتشرت انتشاراً كبيراً وتمت إعادة طبعها لقرنين أو أكثر، فقد لقيت القصص إعجاباً كبيراً لساحريتها ولأنها تنقل صور

(١) أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر مقاربات نقدية: علي حرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤: ٦

\* خوان غويتيسولو صحفي، مفكر، أديب ومستشرق إسباني، معروف بقضاياها لمناصرة الإسلام والمسلمين والقضية الفلسطينية، (١٩٣١-٢٠١٧م)، يعتبره الكثيرون من أهم الكتاب الإسبان، تتناول كتاباته الآثار العميقة للغة والثقافة العربية في المجتمع الإسباني إلى اليوم. ويأتي كتابه المترجم للعربية (إسبانيا في مواجهة التاريخ) على رأس مؤلفاته في العالم العربي. ينظر: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) ينظر: تجليات الإسلاموفوبيا في خطابات الوسائط الاعلامية الفرنسية: رابح الصادق، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، ع٣٠، ٢٠٠٨: ١٥٩-١٦٠

(٣) ينظر: الشرق المتخيل رؤية الغرب الى الشرق المتوسطي: تيري هنتش، ١٩٠

(٤) أساطير أوروبا عن الشرق - لُقّق تسد: رنا قباني، تر: صباح قباني، دار طلاس، سوريا، ط١٩٩٣، ٣: ٤١

الحياة الشرقية وأساليبها، خصوصًا ما يتعلق بصورة المرأة المسلمة المقموعة والخاضعة، وهو الأمر الذي ظلَّ عالقًا في ذهن الجمهور الأوروبي حتى الآن<sup>(١)</sup>.

يشير (لويس) إلى نقطة جوهرية تتعلق بدافعية دراسة الإسلام والشرق ف "لا أحد يعثر عن طريق المصادفة بالإسلام، أو الثقافة الإسلامية"، بل إنّ الدوافع الاقتصادية للدول الصناعية الغربية بفضل أزمة النفط، واهتمام الإعلام بالإسلام في الغرب لأسباب أمنية واجتماعية وغيرها، كلها عوامل تدفع لدراسة الإسلام والبحث فيه ضمن قالب خاص يقع في منطقة المؤسسات الكبرى والحكومة، واللذان تؤديان دورًا كبيرًا جدًا في جعل التفسير ومعرفة الإسلام مرغوبة<sup>(٢)</sup>.

وقد ((سُخِّرَت المعرفة في الدراسات الاستشراقية لتجسيد معالم القوة التي سعى الغرب لامتلاكها، هذه القوة الاستعمارية التي لا يتأتى لها التفوق إلا عن طريق قوّة معرفية، أو بالأحرى معرفة القوة التي تصنع غريمها، وتجعله مغلوبًا ينقاد إلى الغالب))<sup>(٣)</sup>، ومن الممكن معرفة أنّ الخطاب الاستشراقي لم يُبنَ على مبادئ علمية، بل على مطامع استعمارية عنصرية، وسلطوية، فضلًا عن تراكمات وخلفيات تاريخية شكّلت تهديدًا لأوروبا آنذاك، هذا التهديد يسعى الغرب للقضاء عليه عن طريق تزييف التاريخ وتشويه حقائقه، وإنّ من وراء هذه النظرة خوف مركّب دفين يضم بقايا خوف الغرب من تهديد الشرق<sup>(٤)</sup>.

### فعل المستشرق على المجتمع الغربي:

الكتابة فعلٌ إنسانيّ قيّمٌ يمارسه المثقف والكاتبُ الحرُّ والناقدُ لمسيرة مجتمعه، نقدًا صادقًا بناءً غايته التغيير إلى ما هو أصلح، فالكتابة الحرّة تنتقدُ الخطأ، لأنّه سلوكٌ مُضر بالذات والغير كيفما كان الخطأ، ومهما كانت قيمة

(١) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته: زكاري لوكمان، ١٢٣-١٢٤

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ادوارد سعيد: ١٢٨-١٢٩

(٣) قراءة في نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني أنموذجًا: حكيمة دريسي، دار البشير، ط١، ٢٠٢٠: ٥٦

(٤) ينظر: قراءة في نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني أنموذجًا، حكيمة دريسي: ٦٠

ومرتبةً فاعله، والكتابةُ الحرّةُ تُبشّر بالخير وتزرع الفرح والمحبة والودّ والتفاؤل، وتفضح الظلم والتحيز والقهر والعدوان.

للمستشرق اليوم مكانته في مجتمعه، فهو بمثابة المركز في المجتمع الغربي يستمد منه معارف الشرق وعلومه وآدابه وأسرار ذلك المجتمع المنافس ومحل الخطر، بوصفه العالم بتلك الأسرار والمعارف والدليل في رحلة الولوج إلى ذلك العالم (الآخر)، فالسلطة الغربية تزكي بعض المستشرقين من دون غيرهم فتوليهم الأهمية، وتعطيهم الصدارة، وتخصهم بالعناية لغايات تخدم مشروعها في مواجهة الشرق.

رَكَزَت التوجهات الاستشراقية الجديدة على إعادة تركيب الأحداث التاريخية المفسّرة على ضوء أفكار المؤسسات الاستشراقية القديمة، عن طريق دراسة الثقافة، والدين، والمجتمع، فنجد "جب" وهو أستاذ برنارد لويس، الشخصية الأكثر تأثيراً في متكلمي اللغة الانكليزية في حقل الدراسات الإسلامية بين منتصف الثلاثينيات وحتى الستينيات من القرن الماضي<sup>(١)</sup>، قد ركّز كتاباته عن التفاعل بين الحضارات وتحديدًا الغربية والشرقية، كما جاء في كتابه المجتمع الإسلامي والغرب<sup>(٢)</sup>. كما كتب جولدتسيهر وهو ممن تأثر بهم لويس (دراسات محمدية) وكتب جوزيف شاخت (أصول الفقه) وكانت كتابات كارل هينرش بيكر عن تاريخ الأديان وتأثير العوامل الاقتصادية والعناصر الإغريقية والمسيحية في الحضارة الإسلامية<sup>(٣)</sup>. وما كتبه كلود كاهين في تاريخ الإسلام الاقتصادي والاجتماعي<sup>(٤)</sup>. وتعد تلك الكتابات لهؤلاء وغيرهم فاتحة لمرحلة جديدة لفهم الشرق بطريقة جديدة، مبتعدة عن نقد

(١) ينظر: هاملتون جب دراسة نقدية لتطور مواقفه من التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، ناصر عبد الرزاق الملا جاسم: رسالة دكتوراه، جامعة الموصل، ١٩٩٨ : ٨٧.

(٢) هاملتون جب دراسة نقدية ، ناصر عبد الرزاق الملا جاسم: ٩٠.

(٣) ينظر: طبقات المستشرقين: عبدالحميد صالح حمدان، دار الجيل، بيروت ، ١٩٩٩ : ٩٩.

(٤) ينظر: طبقات المستشرقين: عبدالحميد صالح حمدان: ١٧٢.

الإسلام من وجهة نظر مسيحية لاهوتية إلى النقد عبر منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية<sup>(١)</sup>. وهي كتب ومؤلفات قرأها لويس وتأثر بفكر من كتبها، وألّف فيما بعد كتبه التي تحاكي توجهاتها وتأييدها، وتدعو إلى إعادة قراءة وتحليل الأحداث، وفهم طبيعة الصراع القائم بين الغرب والشرق.

وبرنارد لويس هو ذلك ((المؤرخ المختص بالتاريخ الإسلامي، والخبير في شؤون العالم الإسلامي والشرق الأوسط، وله إسهامات متعددة في مجال الصحة الإحيائية والأصولية الإسلامية، وتصل كتاباته إلى أعلى المستويات لدى مصادر صنع القرار السياسي في الغرب))<sup>(٢)</sup>، ويعدّ من كبار المستشرقين الذين لا يحدهم اختصاص معيّن في دراسة الإسلام، فضلاً عما يميّز به من أسلوب أدبي جذاب وغزارة في الإنتاج، وكتاباته من الكثرة والاتساع والتشعب ممّا يتطلب جهود فريق عمل لدراسته<sup>(٣)</sup>.

كان أسلوب برنارد لويس السهل في الكتابة، وطريقته الممتعة للقارئ، قد أغرت الملايين من القراء لمتابعة ما يكتب واقتناء كتبه أولاً بأول ممّا أجبر دور النشر على معاودة طباعة الكتاب الواحد لأكثر من طبعة.

ينتمي برنارد لويس إلى مدرستين من مدارس الاستشراق، وهما المدرسة الإنكليزية والمدرسة الأميركية، فانطبعت كتاباته بأهم خصائصهما، فجمع بين اهتمامات الاستشراق الأوروبي الغربي، واهتمامات الاستشراق الأمريكي، ويعدّ من الحالات الجديرة بالدراسة والبحث، لأنّه يتمتّع بمكانة بارزة في المجال السياسي للمؤسسة الأنجلوأمريكية المختصة بالشرق الأوسط، ويعدّ فيها مستشرقاً علامة،

(١) ينظر: الاستشراق في أفق انسداده: سالم حميش، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الدراسات الرباط، ١٩٩١ : ٥٧.

(٢) كنه الاستشراق ، علي ابراهيم النملة: ٢١٥

(٣) الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مازن مطبقاني: ١٣-١٤

وكل ما يكتبه ينضح بالسلطة التي يتمتع بها في ذلك المجال، ولكن عمله على امتداد عقد ونصف على الأقل كان يتميز أساساً بنزعة أيديولوجية عدوانية، على الرغم من محاولاته المتعدّدة لإخفاء ذلك بالحدق والسخرية<sup>(١)</sup>.

### تشكُّل الصورة النمطية عن الإسلام:

تطوّرت صناعة صورة المسلم في المتخيل الغربي، من ذلك العدو البعيد نسبياً، إلى عدو متخيل قريب، أو عدو حقيقي يجب الاستعداد لمواجهةته. إنّ تجذّر القلق من معاودة ظهور الصورة النمطية أصبح هاجساً يومياً يراود المواطن الغربي، وهو النتيجة الحتمية لسياسات وسائل الإعلام الغربية المدعومة والموجهة من مركز القرار، فلم يعد المسلم خطراً بسبب سلاحه، بل بسبب رسالته العالمية، فهو يشكّل منافساً خطراً على المسيحية، إذن هي مواجهة فكرية وإعلامية تقوم على نفي ودحض حجج الآخر، وتضخيم الخوف منه وإثارة الشبهات حوله.

ساهم الموروث الثقافي الغربي في بلورة صورة نمطية عن الإسلام، فقد نجحت كتابات المستشرقين "المشوّهة" في إقامة جدران نفسية حول المجتمعات النصرانية لحمايتهم من التفكير في الإسلام، والبحث عن حقيقته، ونجحت في تحقيق الأهداف العدائية بصورة هادئة ومنتدّجة، وأسهمت بشكل كبير في تقديم التصورات الخاطئة عن الإسلام، حتى باتت النظرة السلبية عن الإسلام والمسلمين متأصلة ومرسخة في ذهن الغربي<sup>(٢)</sup>.

إنّ الخلفيّة الدينية والفكرية للمستشرقين في دراستهم للإسلام والشرق، هي المنبع الذي يستقون منه أفكارهم في دراساتهم، والركيزة التي ينطلقون منها في

(١) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد: ٤٨٠

(٢) ينظر: المسار الفكري للاستشراق: أصف حسين، تر: مازن مطبقاني، مجلة جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ٧٤:



مواجهة الدين الإسلامي، وكشف هذه الخلفيات والمرجعيات خطوة مهمة، ومطلب ملح قبل البدء في مناقشة آرائهم ومواقفهم.

### صورة الشرق/الشر:

تعدُّ كتابات برنارد لويس فعلاً إجتماعياً ثقافياً سياسياً محتوماً في ظل ظروف تاريخية، وسياسية، واجتماعية، عاشها المجتمع الغربي، فقد كانت المدة التي أنتجت فيها مؤلفاته تضجُّ بالصراعات الحضارية والسياسية والدينية، وعلى جميع الأصعدة ممّا دفع لويس إلى إنتاج مؤلفات تعكس توجهه وتخدم الأهداف التي يطمح إليها، وتبرر أفعال السلطة الغربية، ولأنّ لكل عملٍ مرجعيّاته المتعدّدة وخلفيّاته الفكرية التي تعدّ الدافع الأساسي في إنتاجه، سأتطرق لعرض تلك المرجعيّات.

شاعت في السنوات الخمس عشرة الماضية آراء لويس التي تدعّمت من الباحثين والصحفيين في الولايات المتحدة، فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتي وهم يعدّون الإسلام الذي أضفوا عليه صبغة الشرق إمبراطورية شر جديدة، فغمرت وسائل الإعلام صوراً نمطية تحطّ من شأن الإسلام والمسلمين، فتربط بينهم وبين الإرهاب، أو بين العرب والعنف، أو الشرق والطغيان<sup>(١)</sup>، فأضحى الإسلام محوراً للشر في كتابات الصحافة الغربية وتعبيرات الإعلاميين الغربيين.

ويرى عدد من نقاد الاستشراق أنّ الغرب (المستشرقين) قد أطروا الشرق في أربعة أطر: أولاً كونه غير عقلاني، وثانياً عقلية (السوق) الذي لا تسوده الثقة، وثالثاً أنّه نرجسي لا يقدر الآخر المتحضر، ورابعاً أنّه يعتمد لغة غير واقعية أقرب إلى التصوف<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ٥٢٥

(٢) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: ٦٠.

### المبحث الثالث

#### المرجعيّات\* :

إنّ تناول المدوّنة الاستشراقية بالدراسة، وقراءتها بروية نسقيّة ثقافيّة، تعتمد كشف المركزي والهامشي منها، بقصد سبر أغوارها، واكتشاف أنساقها، وتحليل آلياتها، واستتطاق نصوصها، واستيعاب أبعادها الثقافيّة، إذ يتطلّب قراءتها على وفق نمطين من أنماط القراءة، تكون الأولى قراءة خارجيّة برانيّة تختزل كلّ ما في السطح من علامات، والأخرى قراءة داخلية جوانية تكمن في نزع قناع المكبوت والكابت كي ترى ما هو وراء الأفتنة" على وفق مرجعيّة هذه العلامات والأنساق<sup>(١)</sup>، حتى يستطيع الخطاب الأدبي توظيف الأنساق الثقافيّة (الظاهر والمضمّر) التي تخصّ طبقة اجتماعيّة ذات خصوصيّة ثقافيّة وتاريخيّة معيّنة بما يخدم "المركز" الأنا و"الهامش" الآخر.

ومن هنا تكون المرجعيّات؛ مفاتيح ومكوّنات لشيفرات خاصّة نستطيع بإدراكها فهم النص، فالمرجعيّة هي: مُصطلح سردي يُرجع الفكرة أو الكلمة إلى أصلها، وهو شكلٌ من الدراسة الثقافيّة التي تستجلي النص الأدبي وتبحث فيه بوصفه وثيقة تاريخيّة واجتماعيّة، توضّح أسلوب المؤلف في خلق اتجاه السرد

\* المرّجِعُ عند ابن منظور: الحركة والحيزُ فهي صفةُ الانتقال في المكان والصيرورة والتحوّل: "مرّجِع: مصدر رَجَعَ ، رَجَعَ يَرْجَعُ رَجْعًا وَرُجُوعًا: إِنْصَرَفَ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (العلق ٨)، أي الرُّجُوعُ والمرّجِعُ ينظر: لسان العرب: مادة (رجع) ١١٤/٨. وتعرّف المرجعيّات اصطلاحًا بأنّها: "الخلفية الثقافيّة التي يستمدُّ منها كلّ ساردٍ ينظر: تحليل الخطاب السردية، عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥م: ١٩٠. أو هي: الجماعة التي يأخذُ منها الفردُ معاييرهُ" ينظر: مرجعيّات الجماعات - المرجعيّات وأثرها في تقرير توجهات الأفراد، محمود شمال حسن، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٠م: ١٧. "والمرّجِعُ هو النصُّ الغائبُ أو المُغَيَّبُ، وهو الأساسُ الذي يَبْنِي عَلَيْهِ أو على أنقاضهِ النصُّ الجديد، ومنهُ يستمدُّ قوّتهُ وقراءتهُ واستمراره، وهو النصُّ الذي تُعاد كتابتهُ بالتناصُ في نصٍّ جديد، وهو المصدر الذي يستقي منه المُبدعُ المادّةَ الأولىّةَ لإنتاج نصّه" ينظر: التناصُ ومرجعيّاته في نقد ما بعد البنيوية في الغرب: اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ٢٠١٠: ١٠٨ - ١٠٩.

(١) ينظر: صراع التّأويلات دراسة هيرمنوطيقية: بول ريكور، تر: منذر عياش، دار الكتاب الجديدة، طرابلس، ط ١،

وتوجيه ذهن القارئ نحو غاياته المُضمرة، لأنّ الكتابة هي تمثيلٌ لفكر الإنسان ومحاكاةٌ له، والأنساق الثقافيّة تنشأ من التراكم المعرفيِّ للأديب، فهي محرّك مُضمّر يشبك الأطراف ويؤسّس للحبكة النسيقيّة، وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو في الحكايات أو في الأمثال، مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنُكت، كلّها وسائلٌ وحيلٌ بلاغيّةٌ جماليّةٌ تعتمدُ المجازَ والتوريةَ وينطوي تحتها نسقٌ ثقافيٌّ ثاوٍ في المُضمّر، ونحنُ نستقبله لتوافقه السريِّ وتواطئه مع نسقٍ قديمٍ مُنغرسٍ فينا، وهو ليسَ شيئاً طارئاً<sup>(١)</sup>.

في ضوء علمنا أنّ الوظيفة المرجعيّة يضطلعُ بها السياق إذ يمكنُ من الإحالةِ على مرجعٍ خارجيٍّ لسانيٍّ يشكّلُ خلفيّةً لتفاعلِ الأطرافِ المتواصلةِ وفهمِ أحدهما للآخر، لأنّ ((الوظيفة المرجعيّة هي التي تُحيلُ على الأشياء التي تشكّلُ موضوع الحديث وتساعد على الحديث عنه، من منطلق أنّ المرجع هو ظاهرة تتعلّق باللغة أثناء استعمالها، لا خارج استعمالها))<sup>(٢)</sup>، والقراءةُ الراهنةُ تنظرُ إلى النصِّ الأدبيِّ بوصفه ((دالّاً على الثقافة، ويستمدُّ قوّته بحضور المدلول فيه، فهو مادةٌ ثقافيّةٌ تختزل السلوكيّات والممارسات، والمفاهيم الحضاريّة السائدة إبان عصر المبدع والعصور السابقة، إلى لغة مُراوغة لا تستقرُّ على معنى، يزداد ثراؤها، بتنوّع القراء، ويكون لاحتتمالات وعي القارئ بالثقافة وامتداداتها داخل النصِّ الأدبيِّ دوراً مهماً في تأويل المعنى))<sup>(٣)</sup>. ولملاحظة تصنيف المرجعيّات فإنّ المرجعيّات المؤثّرة، تصنّف في أيِّ مجتمعٍ إلى عددٍ من الأصناف، التي تعتمد المكان الذي تنشأ فيه، أو الفئة العمريّة، أو الدين، أو على أساس التخصص المعرفي، وهي مرجعيّات عفويّة، أو قصديّة شكّلها المؤلف عبر البحث الجادّ والدراسة الدقيقة<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: النقد الثقافيّ قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة: عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥: ٨٠.

(٢) مرجعيّات بناء النص الروائي: عبد الرحمن التمار، دار ورد الأردنية للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٣: ٤٧.

(٣) قراءة النصّ وسؤال الثقافة: ١٥.

(٤) ينظر: مرجعيّات الجماعات-المرجعيات وأثرها في تقرير توجهات الافراد: ١٨ كذلك ينظر: الأنساق الثقافيّة في كتاب

الأغاني: رائد حاكم شرار، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٣: ٢٠.

ويُبيّن المستشرق غوستاف لوبون\* أثر تلك الخلفيات في نظرته للإسلام، حين يقول: ((الحق أنّ استقلال آرائنا وتجزّدها ظاهري أكثر من أن يكون واقعياً، وإنّنا لا نكون البتة أحراراً في تفكيرنا - كما ينبغي - حيال بعض الموضوعات، فلقد تجمّعت العقد الموروثة؛ عقد التعصّب التي ندين بها ضدّ الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي))<sup>(١)</sup>. فهي مؤثر مهم وخطير في تكوين الرأي والنظرة والفكرة عن الإسلام والمسلمين. ولا يمكن فهم محتوى الحركة الاستشراقية بالشكل الذي هي عليه إلا بربطها بالخلفية الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية التي أفرزتها، وإنّ محاولة فهم وتجليّة تلك الحركة دون النظر إلى منطلقاتها الفكرية والدينية محاولة قاصرة. ويُمكن لنا أن نُشخّص عدداً من المرجعيّات التي أثّرت وساهمت في بلورة فكر وخطاب المستشرق برنارد لويس على النحو الآتي:

المرجعية الفكرية، المرجعية الثقافية المرجعية السياسية، المرجعية الاجتماعية

أولاً: المرجعية الفكرية:

من أهمّ مظاهر المرجعيّات الثقافيّة في فكر المستشرقين هي المرجعيّات الفكرية الثرائية، إذ هي بمثابة المرتكزات الأساسيّة والدعامات الحقيقيّة لهويّة منجزهم الإبداعي، التي تتجلّى تأثيراتها في ضوء المفردات، والتراكيب، والمصطلحات التي يستعملها المستشرقون استقاءً من تلك المرجعيّات، إنّ ((وجود المرجعيّات الفكرية والفنية داخل الأعمال الأدبية عموماً والكُتاب خصوصاً تحمل بُعداً فكرياً، وخصوصيةً تميّز هويّة الكُتاب ومنطلقاتهم الثقافية، فضلاً عن كونها

\* غوستاف لوبون: (١٨٤١-١٩٣١م) مستشرق وعالم اجتماع فرنسي، يوصف بالاعتدال في كتاباته عن الإسلام مع أنها لم تخلُ من الطابع العدائي للإسلام؛ من مؤلفاته: سرّ تطور الأمم، وروح الجماعات، والآراء والمعتقدات، وروح الثورات والثورة الفرنسية، وروح الاشتراكية، وحضارة العرب، وهو أشهر مؤلفاته. ينظر: شوقي أبو خليل، "غوستاف لوبون" في الميزان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م: ١٢-١٣.

(١) وجهة العالم الإسلامي: غوستاف لوبون، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م، ٣٨.

تقرّب المصطلح للمتلقّي الذي يُصبح شريكاً في هذا (الوعي الجمعي) بالثقافة التاريخيّة، والمرجعيّة التاريخيّة، والفنيّة ودلالاتها، ويكسب المصطلح منها علاقة بين الفكرين العربي والغربي وبين القديم والحديث))<sup>(١)</sup> كون المصطلح الحديث أسّس للقديم، وأنّ الحديث قد نفّض الغبار عن القديم وجعله يبني أفكاره من جديد، أو أنّ هذا المصطلح الحديث قد شقّ الطريق لنفسه بدون تأثيرات أخرى.

إنّ الموروث الثقافيّ "الدينيّ والفكريّ والفنيّ والأدبيّ"، وما يحمله داخل الخطاب الغربي المعاصر، يُبرّز الفكر الغربي بما يحتوي من ثوابت دينية واجتماعية وغيرها، كأحد أهمّ تلك المرجعيّات التراثيّة في حياة المستشرق برنارد لويس، فالخطاب الكنائسي يعدّ من المرجعيّات التي لا يمكن التغافل عنها أو تجاوزها، إذ إنّ المنبع الأول والأخير للثقافة المسيحية وكل ما سواه تبع له وفرع منه وقائم عليه، فقد كانت تعاليم الإنجيل محوراً للثقافة المسيحية والحركات الفكرية الغربية وسائر النشاطات العقلية.

ولقد مرّ تاريخ الفكر الغربي بتقلّبات حضارية وصراعات فكرية عنيفة كان لها الأثر الملموس في الإنتاج الفكري الاستشراقي؛ وبما أنّ المستشرق ابن بيئته يؤثّر فيها ويتأثّر بها، فلا يمكن فصل عرضهم للإسلام بمعزل عن الواقع الاجتماعي الذي أثار في حياة المستشرقين بما فيه من تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية.

يطرح إدوارد سعيد وبرنارد لويس في كتابهما المشترك (الإسلام الأصولي) آلية فهم وتفسير ثقافة الآخر مشيرين إلى الإسلام بالنسبة للغرب، فلا بدّ للمرء الذي يريد أن يفسّر ثقافة أخرى من توفّر ظروف مناسبة سابقة قد وضعت تلك الثقافة في متناول التفسير في الدرجة الأولى، وقد كانت هذه الظروف دائماً فيما يختص

(١) المرجعيّات ودورها في تشكيل المصطلح بين الرؤية التراثية والحداثة الغربية: شادلي عمر، بحث منشور، ٢٠١٣-١٢-

بالاهتمام الغربي بالثقافات (الغريبة) ظروفًا تجارية واستعمارية، أو في ظروف التوسع العسكري والغزو والهيمنة<sup>(١)</sup>.

ولا تقلّ الخلفيّة الفكرية أهميةً عن الخلفيّة الدينية في تكوين الهيكل المعرفي الاستشراقي، وفي تشكيل البنية الاستشراقية العدوانية للإسلام؛ إذ تتمثّل الخلفية الفكرية لبرنارد لويس في النظريات السائدة والاتجاهات الفكرية التي ظهرت في الغرب من بداية القرن السادس عشر حتى الوقت الحاضر؛ والتي اطلع عليها وقرأها وتأثّر بها، ومع أنّ الخلفيات الفكرية كانت الأبرز ظهوراً في المدة المذكورة، إلا أنّ الخلفيات الدينية لم تنفك عن بنية الاستشراق، فهناك تداخل وتكامل بين الخلفية الدينية والفكرية في تكوين بنية الاستشراق.

كما كان للخلفيّة الدينية أثرها البارز في دراسة المستشرقين للإسلام، إذ تشير الدراسات المستفيضة التي وقف عليها المستشرقون جهودهم والنتائج التي استخلصوها، إلى حقيقة واحدة، وهي أنّ الباحث الغربي عندما يتناول "الإسلام" ينطلق من مسلمّات وخلفيات ثقافية آمنَ بها من قبل<sup>(٢)</sup>.

إنّ عداة الكنيسة للإسلام يعدّ المنبع الأول الذي قامت عليه عصبية الغرب تجاه الإسلام، وهو الأساس الذي قام عليه الاستشراق، فقد ترعرع الاستشراق في أحضان الكنيسة. وقد أدّى عدم المعرفة بالإسلام، والخوف منه إلى خروج الجماعات الغربية من عزلتها، ومواجهة الإسلام بداية بالحروب الصليبية، وحروب الاسترداد في الأندلس، وما تبع ذلك من احتلال البلاد العربية والإسلامية.

(١) ينظر: الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية: برنارد لويس، ٩٨  
(٢) ينظر: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين: مصطفى المسلاتي، منشورات دار اقرأ، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٦م : ٦١، نقلاً عن (ميجل كروث إيرناندث): الأوضاع الاجتماعية التاريخية بالأندلس، محاضرات المؤتمر الدولي الأول الإسلامي المسيحي، قرطبة ١٠-١٥ سبتمبر ١٩٧٤م: ٢٠.

لقد كان لخلفيات المستشرقين الدينية الأثر البارز في توجيه الفكر الاستشراقي، وفي زرع نواة الحقد والتعصب الغربي أزاء الإسلام والمسلمين، ومن أبرز المؤثرات في خلفياتهم الدينية<sup>(١)</sup> :

- ١- الموقف الكَنَسِي من انتشار الإسلام وأثره في الفكر الاستشراقي.
- ٢- الحروب الصليبيَّة وحروب الاسترداد في الأندلس وأثرها في الاستشراق.
- ٣- الخيالات والأساطير الشعبية وأثرها في بنية الاستشراق.
- ٤- موقف الكنيسة من العلم وأثره في نظرة الغربيين للدين
- ٥- الحركات الإصلاحية وأثرها في الفكر الاستشراقي.

ولقد أدركت الكنيسة الغربية أنها بعقيدتها المتهاكمة لا تقوى على مواجهة العقيدة الإسلامية الراجحة، وأنَّ الغربيين إذا تُركوا وشأنهم فسيقبلون عليه إقبالاً شديداً، لذلك لم تألُ الكنيسة جهداً لتشويه صورة الإسلام؛ وقد جَدَّت لهذه المهمة المستشرقين المنبثقين عن الكنيسة أو المتحالفين معها، لذلك لم يكن من الغريب أن تكون طلائع المستشرقين من رجال اللاهوت المسيحي أنفسهم<sup>(٢)</sup>.

كما أيقن رجال الكنيسة أن معرفة الأوربيين للصورة الحقيقية للإسلام كفيل بإزالة هالة القداسة التي تتمتع بها الكنيسة، فعملوا جاهدين على تشويه صورة الإسلام، برسم صورة مشوهة خيالية عن الإسلام والمسلمين، وقد انفردت الكنيسة عبر رهبانها وقساوستها خلال العصور الوسطى بتشكيل الرؤى والصور الخيالية المشوهة عن الإسلام والمسلمين ما بين القرنين التاسع والسادس عشر الميلاديين، إنَّ الصورة الخيالية والمشوهة التي رسمتها الكنيسة عن الإسلام في العصور الوسطى ما زالت آثارها ممتدة حتى العصر الحالي؛ ويعترف بذلك مجموعة من

(١) ينظر: الخلفية الدينية والفكرية للمستشرقين في دراستهم للإسلام دراسة تحليلية: محمد سعيد السرحاني، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، العدد ٣، مج ٢٩، ٢٠٢١م: ٩٠.

(٢) ينظر: الخلفية التاريخية للاستشراق ومنهجه في كتابه التاريخ الإسلامي: محمد بركات البيلي، المنهل العدد ٤٧١، السنة ٥٥، إبريل ومايو ١٩٨٩م: ١٣٥.

المستشرقين ومنهم مونتغمري وات\* إذ يقول: ((على الرغم من الجهد العلمي المبذول فإن آثار الموقف المجافي للحقيقة والذي ولدته كتابات العصور الوسطى في أوروبا لا زالت قائمة ، فالبحوث الموضوعية لم تقدر على اجتثاثها كلياً بعد))<sup>(١)</sup>. ويؤكد ذلك نورمان دانيال\*؛ فيقول: ((على الرغم من المحاولات الجديّة المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرّر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجرّدوا كلياً عنها كما قد يتوهمون))<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول برنارد لويس: ((لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين فيما يكتبه الكثير من الباحثين المعاصرين مستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوفة في الأبحاث العلمية))<sup>(٣)</sup>.

وامتداداً للحقد الكنسي على الإسلام، ومحاولة وقف انتشاره وتشويه صورته، سعت الكنيسة إلى توحيد صفوف أتباعها، وحشد الطاقات والجهود لشن الحروب الصليبية على بلاد المسلمين، مستغلة مكانتها وهيمنتها على الملوك والأمراء، مستفيدة من الحالة الاقتصادية السيئة للشعب الأوروبي في ذلك الوقت، لتحقيق

\* مونتغمري وات: مستشرق اسكتلندي، كان قسا في بداية حياته، عمل أستاذاً للعربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرة، وقد أطلق عليه لقب (آخر المستشرقين) أبرز كتبه "محمد في مكة" ١٩٥٨. ينظر: المستشرقون، نجيب العقيلي: ٥٥٤/٢  
(١) الاستشراق وتاريخ العصر العباسي: فاروق عمر فوزي، سلسلة كتب الثقافة المقارنة: الاستشراق، العدد الأول، كانون الثاني ١٩٨٧م : ١٢٠.

\* نورمان دانيال Norman Daniel مستشرق انجليزي معاصر، وُلد سنة ١٩١٩م، تخرّج في جامعة أدنبرة، وعمل في عدد من البلاد العربية، وكان آخر أعماله إدارة المجلس الثقافي البريطاني في القاهرة، له عدد من الأعمال تهتم معظمها بالبحث عن العلاقة بين الإسلام والغرب، يأتي في مقدمتها: الإسلام والغرب، والإسلام، وأوروبا والإمبراطورية، والغرب وأوروبا في القرون الوسطى. ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م : ٥٨.

(٢) الاستشراق وتاريخ العصر العباسي: فاروق عمر فوزي، ١٢٠.

(٣) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٦٣.



أهدافها. ويصف مكسيم رودنسون\* الجهود الكنسية لمحاولة وقف انتشار الإسلام قائلًا: ((لقد شكّل الإسلام بنموذجه الحضاري المتميز، وهويته المستقلة وقوته المتنامية ومنجزاته العسكرية تحدياً كبيراً لأوروبا، استجابت له بعزلة وقائية. ولمّا لم تسعفها عزلتها استجابت له بزحف صليبي بهدف استرجاع هيمنتها الاقتصادية والسياسية التي اهتزت مع ازدهار الشرق الإسلامي من جهة، ولتسترد امتدادها الحضاري في الشرق كمقدمة لبسط غلبتها المتجددة عليه من جهة أخرى))<sup>(١)</sup>.

لقد واجه المسلمون في بداية القرن الحادي عشر الميلادي حرباً صليبية بلغت غايتها من القسوة والوحشية، وأظهرت الحروب الصليبية على بلاد الشام، وفلسطين، ومصر، وحروب الاسترداد في الأندلس بوحشيتها، مقدار العصبية الغربية ضد الإسلام والمسلمين، والأخطر من وحشية تلك الحروب طول مدتها الزمنية، إذ استمرت حروب الاسترجاع في الأندلس حوالي ستة قرون، شهدت خلالها الأندلس أبشع أنواع حروب التدمير والاقتلاع الثقافي والعمراني والبشري، واستمرت الحروب الصليبية في المشرق حوالي القرنين عرفت خلالها مناطق المسلمين أشد أنواع الحروب قسوة وشراسة<sup>(٢)</sup>.

ونتيجةً لذلك فقد شكّلت تلك الحروب الصليبية الخلفية التاريخية لنظرة الغرب للشرق الإسلامي بما تحمله من شدّة التعصّب والحقد والكراهية، فكان لا بدّ أن تمتزج الصورة عن المسلم بخيالات تلك المرحلة وما أفرزته من أساطير ذهنية.

كما أثّرت هذه الحروب عن ((بنية عدائية المنهج والتكوين سميت فيما بعد (بالاستشراق)، فظهر بناء على هذا الأساس بعض من المفكرين الغربيين يدفعهم

\* مكسيم رودنسون مستشرق وعالم اجتماع فرنسي من مواليد عام ١٩١٥ م، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديرها، من مؤلفاته: دانتلي والإسلام، وحياة محمد. ينظر: المستشرقون، العقيلي، ٣٢٨/١.

(١) المعرفة الاستشراقية دراسة في علم اجتماع المعرفة، مجلة العلوم الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الكويت، خريف ١٩٨٩ م، المجلد ١٧، العدد ٣: ١٨٥.

(٢) ينظر: نهاية الاستشراق: وليد نويهض، جريدة الحياة، العدد ١١٥٤٥، الثلاثاء ٢٧ أيلول ١٩٩٤ م: ١٨.

التعصب الصليبي إلى الكتابة عن الإسلام، فأفقدتهم هذا التعصب موضوعية الأمانة العلمية، وعمدوا إلى تشويه الإسلام))<sup>(١)</sup>.

وشكَّلت الروايات العسكرية الخيالية التي كان ينسجها قادة الجيوش الأوروبية في الشرق بعد عودتهم إلى مواطنهم الأصلية، المادة الأولية الخيالية لما يمكن تسميته ببداية تكون فكر الاستشراق في أزمنة لاحقة، ففي هذه المدة الممتدة من مطلع القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر، تم تأسيس الفكرة الأصلية عن المسلمين في الشرق، ومنها تم تكوين منهج معرفي متكامل<sup>(٢)</sup>.

فضلاً عن فشل الحروب الصليبية عسكرياً والذي كان له الأثر الأكبر في تحويل الجهد العسكري ضد الإسلام إلى الجهد الفكري، وذلك بالتركيز على دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي لتشويه صورة الإسلام والنيل منه، وهذا ما يؤكد محمد أسد\*، إذ يقول: ((إنَّ الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً، لقد نشأ تسميم العقل الأوروبي عمّا شوَّهه القادة الأوروبيون من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب، في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيين من أنّ الإسلام دين شهوانية وعُنف حيواني))<sup>(٣)</sup>.

لقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين آثاراً عميقة، دفعت الحركات الإصلاحية الدينية المسيحية فيما بعد إلى الشعور بضرورة إعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، ومحاولة فهمها على أساس التطورات الجديدة التي

(١) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين: مصطفى نصر المسلاتي: منشورات دار اقرأ، طرابلس، ليبيا، ط ١، ١٩٨٦م : ٢٥٥.

(٢) ينظر: نهاية الاستشراق: ١٨.

\* محمد أسد هو: لبيب فليس أشهر إسلامه، وتسمّى بمحمد أسد فليس؛ من آثاره: ترجمة لصحيح البخاري بتعليق وفهرسة؛ وأصول الفقه الإسلامي، والطريق إلى مكة؛ والإسلام على مفترق الطرق، وهو أشهر كتبه. ينظر: المستشرقون: نجيب العقيقي، ٦٤٢.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، دار العلم، ١٩٨٧: ٥٨.

تمخّضت عنها حركات الإصلاح، وهو الأمر الذي دفع للاتجاه إلى الدراسات العبرية والعربية والإسلامية واتساع الدراسات الاستشراقية<sup>(١)</sup>.

وكان من نتائج الحروب الصليبية ظهور الأساطير والقصص الخيالية عن الإسلام والمسلمين، التي تجسّدت فيها كراهية الغرب للمسلمين، فقد ((تحوّلت الهزيمة الصليبية إلى أسطورة بانتصار وتفوق غربي على الإسلام، أسطورة سوف تلعب دوراً كبيراً في تعميق سلبية الغرب تجاه الإسلام، إذ تحوّلت الحروب الصليبية، وخلال سنوات قليلة، إلى جملة من الأساطير، برع الشعراء والرواة الغربيون في صياغتها))<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الحقبة تكونت العقليّة الأسطورية الخرافية عن الإسلام والمسلمين نتيجة لما اتصفت به هذه الحروب من شدة التعصب والحقد والكراهية ضد المسلمين، ومن الملاحظ أنّ الفئة التي ابتدعت هذه الصورة المشوّهة عن الإسلام كانت تمرّ بمرحلة ازدهر خلالها هذا النوع من الخيال عن كل شيء، وخاصة ما لم يكن تحت بصرها المباشر، وظهرت القصة الشعبية عن فروسية (شارلمان)، وغرائب روما، والتاريخ الأسطوري لبريطانيا، ومما يلفت الانتباه أنّ هذه الحكايات الشعبية كلها نشأت في البيئات نفسها التي انتشرت فيها القصص الخرافية عن الإسلام<sup>(٣)</sup>.

لقد كان للخيال الأدبي في العصور الوسطى والأقاصيص الخرافية المفتعلة عن الإسلام والمسلمين الأثر الكبير في مكونات النفسية الغربية، فشكّلت الصور الخيالية المشوّهة عن الإسلام في العصور الوسطى حاجزاً نفسياً واجتماعياً حال دون الإدراك الصحيح للإسلام. كما كانت الصورة التي رسمتها الكنيسة عن

(١) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، دار الفكر للطباعة، ط٦، ١٩٧٣م: ٥٣٣.

(٢) الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي: علي الشامي، مجلة: الفكر العربي العدد ٣١، مارس ١٩٨٣م السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي، بيروت: ١٦٤.

(٣) ينظر: صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى: ريتشارد سونرن: ٦٥-٦٦.

الإسلام في العصور الوسطى مستقرة في ذهن المستشرق الذي يكتب عن الإسلام، وعن طريق هذه النظرة المشوهة أخضع العديد من المستشرقين الدراسات الإسلامية لتصوراتهم ومناهجهم.

ومن العرض السابق يتضح مدى أثر الحركة الصليبية، وما نتج عنها من خيال شعبي، وقصص، وأساطير، وأوهام خيالية، في تشكيل البنية الاستشراقية المعادية للإسلام.

إنَّ من الأسباب التي ساهمت في نفور الغربيين من الدين، ومن الخلفيات التي كان لها الأثر في توجيه مواقف المستشرقين العدائية من الإسلام ما آلت إليه العلاقة بين العلماء ورجال الكنيسة؛ فلقد وقفت الكنيسة في العصور الوسطى من العلم موقف العدا، وبدأت تفتك بمعارضيتها وكانت جبراً على العقل، وأُسِّست الجمعيات الثورية باسم الدين، وكَثُر صرعى محاكم التفتيش، وتعرض للشنق والحرمان والإعدام جماعات كثيرة لأنهم في نظر الكنيسة هرطقة<sup>(١)</sup> وكثيراً ما كانت الكنيسة تلجأ إلى ((الإعدام البطيء، مبالغةً في التتكيل؛ فتسلط الشموع على جسم الضحية وتخلع أسنانه، وكان الإعدام يُسبق بصور بشعة من التعذيب، كالكي بالنار والضرب، فهو مجرم يستحق الموت، وبلغ عدد الجماعات التي أعدمتم في أوروبا من قبل محاكم التفتيش الآلاف))<sup>(٢)</sup>

وقد احتكرت الكنيسة مجال التفكير، وحرمت كل تفكير يخالف تقاليد البابوية، طوال مدة الألف عام التي حكمت فيها الكنيسة (٥٠٠-١٥٠٠م) فظلت تتدخل تدخلاً قسرياً في كل جزئيات حياة الإنسان، وكان تتمتع كل إنسان بحقوقه الأولية في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية مشروطاً بأن يكون كاثوليكياً،

(١) الهرطقة: أطلقت الكنيسة هذا المسمى على المعارضين، والمحتجين على تعاليمها في القرن الخامس عشر، والهرطقة تعني: مخالفة رأي الكنيسة. فرأى يراه عالم في العلوم الكونية هو هرطقة، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هو هرطقة. ينظر: المسيحية: أحمد شلبي، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٨م : ٢٥٧.

(٢) المسيحية: أحمد شلبي، ٨٥

وبتبعيته للكنيسة الرسمية، فهي ذات مكانة أسمى من الملوك والأباطرة، واجتمع في يدها جميع شؤون الأسرة كالزواج والطلاق والوراثة والوصايا، وللبابا السيادة في الحكم والقضاء والإدارة، وهو المشرِّع والمفسِّر للكتاب المقدَّس، ومالك مفاتيح الرحمة وباب السماء<sup>(١)</sup>.

ساهم رجال الكنيسة بسلوكياتهم السيئة في تنفير الناس من الدين؛ فكان الفئور الديني الطابع الذي ميّز على الإجمال رجال الدين، إذ كان همهم في الدرجة الأولى السهر على مصالحهم المادية؛ ومن يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق الكنسية إذ ذاك تعثر به الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لأخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة، فالسُّكْر والعريضة يأتي في مقدمة هذه الموبقات<sup>(٢)</sup>. فكان لموقف الكنيسة المعادي للعلم، وغموض عقيدتها، وسوء سلوك رجالها الأثر الكبير في نظرهم للإسلام؛ إذ وقف الفكر الغربي موقف العداء من الدين من دون أن يميز بين النصرانية المحرّفة، وبين الإسلام الحق.

ونتيجةً للفساد الكنسي، والصراع الفكري بين طوائف المسيحية، والعقيدة المحرّفة المناقضة لمقتضيات العقل والفهم السليم، بدأت الحاجة لتغيير حال الكنيسة؛ فظهرت حركة إصلاح الكنيسة على يد مجموعة من دعاة الإصلاح وعلى رأسهم مارتن لوثر. وقد قامت دعوة لوثر البروتستانتية الإصلاحية بالاحتجاج على

(١) المسيحية: ٩٩

(٢) ينظر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: رولان موسنييه، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، المجلد الرابع، سلسلة: تاريخ الحضارات العام، إشراف: موريس كروزيه، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ص ٧٠، ٧١.

صكوك الغفران<sup>(١)</sup>، وطالب بالإصلاح في إدارة الكنيسة وفي العبادة، وعارض سلطة الكنيسة في تفسير الكتاب المقدس<sup>(٢)</sup>.

فكانت حركة مارتن لوثر بمثابة دعوة لمحاربة تعاليم الشيطان كما سمّاها، وهي تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية ومحاربة (صكوك الغفران) ونظر إليها على أنها وسائل للرق والعبودية، ونادت إلى القضاء على السلطة البابوية، ونبذ الرهبنة<sup>(٣)</sup> وحياة الفساد لرجال الكنيسة، وجاء بعد "لوثر" في طريقه "كالفن"، وبحركة "لوثر" و"كالفن" الإصلاحية تعرضت المسيحية للجدل الفكري، وأصبحت موضوعاً للنقاش العقلي<sup>(٤)</sup>. ولقد كان لظهور "لوثر" بالبروتستانتية في عام ١٥٢١م الأثر الكبير في ظهور الانشقاقات العنيفة في الكنيسة الكاثوليكية، والتي مهّدت السبيل لظهور انشقاقات لم تنته بعد<sup>(٥)</sup>.

وعن طريق العرض السابق يتبيّن مدى تأثير الخلفيات الدينية في دراسات المستشرقين، إذ كان العداء الكنسي للإسلام نتيجة لفتوحات الإسلامية ونتيجة لموقف القرآن الكريم من تحريف اليهود والنصارى لكتبهم، وانحرافهم عن التوحيد في عقيدتهم كان ذلك العداء المحور الذي قامت عليه هذه الخلفية، وما تبع ذلك من حروب صليبية على بلاد المسلمين في الأندلس ومصر والشام، وكانت كتب الجدل

(١) صكوك الغفران: من أوجه الانحراف التي دعا إليها رجال الكنيسة، وهذه الصكوك تطبع وتباع على الناس كما تباع أسهم الشركات، يغفر لمشتريه ما تقدم من الذنوب وما تأخر، وهو عبارة أخرى إذن بارتكاب الجرائم بعد أن ضمنت الجنة للمشتري - كما يزعمون - ينظر: المسيحية: أحمد شلبي: ٢٥٥.

(٢) يُنظر: الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه: محمود عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ٣٢-٣٣.

(٣) الرهبنة: مما ابتدعه رجال الكنيسة من اعتزال الناس في الأديرة والصوامع، وتعذيب الجسم بالجوع والعطش وخشن الثياب والتبتل وعدم الزواج، وهذا فيما يظهر للناس، إذ تكشفت - مع مرور الزمن - تلك الأديرة والصوامع التي يختلي بها هؤلاء الرهبان - عن كل ألوان العهر والفساد. ينظر: المسيحية، أحمد شلبي، ٢٤٤-٢٤٧.

(٤) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٢، ١٩٩١م: ٢٩٤.

(٥) ينظر: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: قاسم السامرائي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م: ٢٥.

التي وضعها مجادلو النصارى هي النواة الأولى لنقل التأثيرات النفسية والاستياء العاطفي الذي تركته آثار الفتوح الإسلامية في بلاد الشام، وكان لنفور الناس من عقيدة الكنيسة المحرفة وازدراؤهم للسلوكيات الشنيعة لرجال الكنيسة الأثر البارز في تكوين بنية الاستشراق العدائية للإسلام.

### ثانياً: المرجعية الثقافية:

إنّ الخلفية الدينية والفكرية والثقافية للمستشرق في دراسته للإسلام هي الأصل الذي يستقي منه أفكاره في دراسته للإسلام والشرق، والركيزة التي ينطلق منها في مواجهتهما، ولعلّ كشف هذه الخلفية وبيانها خطوة مهمة ومطلباً ملحاً قبل البدء في مناقشة موقفه من الإسلام، والمناقشة الجادة لإنتاج لويس تستلزم نظرة شمولية تربط بين كتابته وبيئته التي عاش فيها؛ فالمستشرق نتاج بيئته، ينظر إلى الإسلام بما تُلميه عليه تلك البيئة، ((وإنّه من المتعذّر بل من المستحيل كما يؤكد (إيتين دينيه)\* أن يتجرّد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة))<sup>(١)</sup>. فهم مرتبطون بها ارتباطاً تكوينياً لا يمكن التغافل عنه أو تجاوزه.

إنّ التوصل إلى رأي معين عن المجتمع الآخر لدى المستشرق لا يتم إلّا بعد تحليل وتمحيص علمي دقيق خاضع للمهنية، وملاحظة عدم حصول ذلك في كثير من الأحيان، إذ إنّ ((معرفة الثقافات الأخرى تخضع إلى عدم الدقة (غير العلمية) وإلى الظروف التي تكتنف التفسير، وإنّ معرفة ثقافة أخرى هي ممكنة، بل مستحبة إذا تحقق شرطان، أولهما أن يشعر الدارس أنّه مسؤول تجاه ثقافة وشعب

\* اتين دينيه: ناصر الدين (١٨٦١-١٩٢٩م) مستشرق فرنسي تعلم العربية وحذق أدبها، أمضى جانباً من حياته في بلدة (ابو سعادة) بالجزائر، وكان يقيم فيها نصف السنة من كل عام، أعلن سنة ١٩٢٧م اعتناقه للإسلام، وتسمّى بناصر الدين، ومن مؤلفاته: محمد في السيرة النبوية وترجم إلى العربية، ومن مؤلفاته كذلك: حياة العرب، وحياة الصحراء، وأشعة من نور الإسلام. ينظر: الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٤، ١٩٩٩م: ٨٣/١.

(١) المستشرقون والسيرة النبوية: عماد الدين خليل بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات)، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م: ١٣٢/١.

موضوع الدراسة، وأنّ اتصاله لا يقوم على القسر والإكراه، والشرط الآخر وهو مكمل له، هو موضوعية النتائج التي يتوصل إليها مفسر النصوص<sup>(١)</sup>. ويعترف لويس بأنّ تفسير النصوص وهو ما تقوم عليه أساسًا معرفة الثقافات الأخرى، لا يحدث في "مختبر محصن بالأمان" في إشارة إلى التأثيرات غير العلمية كالعاطفة، والعادات والأعراف والتداعيات والقيم والغايات، فـ"كل مفسّر هو قارئ" ولا وجود لقارئ حيادي أو خالٍ من القيم بحسب تعبيره<sup>(٢)</sup>.

إنّ ((كتابات لويس عن تاريخ وثقافة وسياسات الشرق الأوسط، محملةً بأجندة إيديولوجية، تجمع بين المركزية الأوروبية والصهيونية، مما جعلها وصاحبها مصدرًا للجدل على مدى يزيد على الثلاثين عامًا))<sup>(٣)</sup>، إنّ فهم الواقع الثقافيّ لحركة الاستشراق في الحقبة التي كتبت فيها المؤلفات الاستشراقية كفيلاً بإعطائنا صورة واضحة عن أساسيات بناء الشخصية الاستشراقية وما تكّنه للإسلام، ويمنحنا تخيلاً لملامح المجتمع الآخر، ويكشف لنا عن العقلية التي كتبت النصوص، ومنها عقلية برنارد لويس.

ومن جملة المؤثرات الثقافية على برنارد لويس، هو آراء وأفكار لويس ماسينيون حول الحركات الاجتماعية في المدن الإسلامية، إذ يلمس المنتبِع لبحثه (النقابات الإسلامية) مدى الاحترام والتقدير الذي يبديه لويس لآراء ماسينيون<sup>(٤)</sup>، ومدى تأثيره بفكره ورؤيته لتاريخ الإسلام، كما تأثر بفكر أستاذه هاملتون جب.

(١) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ادوارد سعيد: ١٢٦

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي: ١٢٦

(٣) صهينة الغرب وتترك العالم الإسلامي: جهاد سعد، ٢٤. نقلًا عن: أين الخطأ؟: برنارد لويس، ٢٤-٢٧

(٤) ينظر: النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة الرسالة، السنة الثامنة، العدد ٣٦٢،

١٠/مايو/١٩٤٠، القاهرة: ٩٧٥



### ثالثاً: المرجعية السياسية:

ليست الكتابة إلا نتاج ظروفٍ كثيرةٍ تحيطُ بالكتاب، والسياسةُ عاملٌ مهمٌّ ومؤثرٌ وفَعّالٌ في إنتاجِ وتشكيلِ ظروفِهِ الاجتماعيّة، والنفسية، والاقتصاديّة، كونه فرد من أفراد المُجتمع، فكما عاصر المستشرقون العهد السياسي الكنائسي، ثم عاصروا العهد السياسي الديمقراطي بجميع أنظمتِهِ المُتعاقبَةِ، كذلك عايش المستشرقون مراحل حكم الدين للمجتمع بشكل غير مباشر عن طريق المتنفذين المتشددين. وقد أفادَ فُرب برنارد لويس من الدوائر المؤثرة سياسياً في تسويق أفكاره فقد عمل مستشاراً للرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش، ورئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، عندما كان سفيراً لإسرائيل في الأمم المتحدة، فضلاً عن كونه صديقاً مقرباً لنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني وحزب المحافظين الجدد، ومن تلامذته السائرين على نهجه: توماس فريدمان و دانييل بايبس، وتنصّ بعض الكتابات أنّ تلميذه رافائيل باتاي صاحب كتاب العقل العربي، اعتمد عليه القائمون على جرائم وفضائح أبي غريب في العراق والكتاب كان أيضاً ضمن أدوات ومرجعيات التحضير لغزو العراق<sup>(١)</sup>.

ارتبط لويس بمجموعة من المؤسسات السياسية المتخصصة بدراسة أحوال الشرق، وتقديم دراسات ذات بُعد داعم للسياسات الأمريكية في المنطقة، إذ عمل استشارياً لأعضاء الكونغرس، وألقى العديد من المحاضرات على أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس الأمريكي<sup>(٢)</sup>، واستناداً إلى دوره المؤثر في صنع القرار

(١) ينظر: <https://www.alaraby.co.uk/> مقال بعنوان: "عن برنارد لويس" مروان قبلان

(٢) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد: ٤٨٠. كذلك ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس، مازن

السياسي يصفه مارتن كرامر\*، بأنّه المؤرخ الأكثر نفوذًا وتأثيرًا بشأن الإسلام والشرق الأوسط في الغرب طيلة ستين عاما<sup>(١)</sup>.

رابعًا: المرجعية الاجتماعية:

إنّ كلّ حُقبَةٍ في تاريخ الثقافة توجد منظومتها القيميّة والمعرفيّة الخاصّة، أيّ أنّها تُنتج خطابها الثقافيّ الذي يكون مسؤولًا عن تحديد كلّ القيم والممارسات، والأيديولوجيّات\*، والأنظمة ضمن المُجتمع في تلك الحُقبَة، ((فالنسق الثقافيّ السائد في كل عصر ما هو إلاّ تمظهرات الخطاب الثقافيّ المُهيمن في ذلك العصر، وهو الخطاب الذي تتبنّاه الطبقة السُلطويّة المُسيطرة وتفرض هيمنته على الخطابات الأخرى))<sup>(٢)</sup>. فكانت الهيمنة والسُلطوية صفات الغرب في حين اكتفى الشرق بالظل والهامشيّة، ولقد تحوّل الشرقيّ إلى فرد ضعيف وخامل وكسول لا يسهم إلاّ في التلقّي.

إنّ لتكوين برنارد لويس ونشأته الأثر الفعّال في مسألة تحامله على الإسلام والمسلمين، فجذوره اليهودية جعلته منحازًا للفكر الصهيوني الداعي لقيام دولة إسرائيل، وهذا ما عكسته رؤيته وأفكاره المتطرّفة للمسلمين، فضلًا عن أن وجوده

---

\* مارتن كرامر: مفكر وأكاديمي أمريكي من أصل اسرائيلي، أحد تلامذة المستشرق برنارد لويس، ومدير مركز موشي دايان للشرق المتوسط، أول من استخدم مصطلح (الإسلام السياسي) في مقال له عام ١٩٨٠. ينظر: تركة برنارد لويس الملتبسة: مارتن كرامر، نقله الى العربية: عبد الرحمن ابو ذكري : [www.nama-center.com](http://www.nama-center.com)

(١) ينظر: تركة برنارد لويس الملتبسة: مارتن كرامر، نقله الى العربية: عبد الرحمن ابو ذكري. كذلك ينظر: إسلام أون لاين <https://islamonline.net/> برنارد لويس المعرفة في خدمة الامبريالية، فاطمة حافظ.

\* الأيديولوجيا: الأحكام والاعتقادات الخاصة بمجتمع في لحظةٍ ما، والأيديولوجيا نظام يمتلك منطقه وصرامته الخاصة في التمثيل على مستوى الصورة، الأفكار، المفاهيم، بحسب حالات يحدّدها وجودها ودورها التاريخي في ظل مجتمعٍ ما. ينظر:

معجم المصطلحات الأدبية: سعيد علوش: ٤١

(٢) الأنساق الثقافيّة في كتاب الأغاني: ٣٥.

في مركز صنع القرار منحه الجرأة بالتصريح بذلك من جهة، وتلقي الدعم والقبول من مركز السلطة ذي النزعة العنصرية تجاه المسلمين من جهة أخرى<sup>(١)</sup>.

عندما نشر لويس كتابه (أصول الإسماعيلية) وهو أول أعماله عام ١٩٣٧، كانت مراكز البحوث والجامعات الغربية تشهد ولادة ما سمي فيما بعد بالجيل الثاني من المستشرقين، مثل لويس ماسينيون، وهاملتون جب، وجوزيف شاخت، الذين كانت أعمالهم متأثرة إلى حدٍ ما بأعمال الجيل الأول من المستشرقين الذين نشروا كتاباتهم ما بين عام ١٨٨٠ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨. التي ركزت على دراسة الجوانب الثقافية والدينية والاجتماعية في تفسيراتهم لكبرى المراحل التي مرّت بها مختلف المجتمعات الإسلامية معطين بذلك أهمية قصوى للأحداث السياسية على غيرها من قضايا المجتمع، إنّ الجيل الجديد من المستشرقين، ولويس منهم، حافظوا على ميادين اهتمام سابقهم وأساليب بحثهم ومناهجهم، إلّا أنهم امتازوا بتوسيع دائرة اهتمامهم، ويمكن إدراج معظم كتابات برنارد لويس ضمن خانة الدراسات الاستشراقية التي تتناول دراسة خصائص المجتمعات الأخرى ومنها المجتمع الإسلامي، فهي قابلة ليس فقط للتفسير العلمي بل وللبحث عن المكونات والخصائص الذاتية القابعة في عمق الثقافة والمجتمع الإسلاميين منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم.

(١) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢١: ٦٢

# الفصل الثاني

## تجليات المركز

(الأنساق المركزية المهيمنة)

المبحث الأول: مواجهة الإسلام

المبحث الثاني: الإسلام والديانات الأخرى

المبحث الثالث: الثنائيات النسقية

توطئة:

يختصُّ هذا الفصل بإظهار تجليات المركز في مؤلفات برنارد لويس، التي تعكس وجهة نظره ورؤيته للشرق والإسلام بالتحديد، وتسليط الضوء على الأنساق المركزية المهيمنة على كتاباته، التي تتحدّث عن الإسلام سواء عن الإسلام كعقيدة؛ أم الإسلام السياسي والعسكري، وقد تتوّعت صيغ خطاباته فكانت على شكل مؤلفات ومقالات وآراء سياسية، والتي سترد تباعاً حسب أهميتها ومدى تأثيرها في المتلقي الغربي أولاً، وفي الآخر (الشرقي) ثانياً، بلحاظ اعتماد لويس على التاريخ الإسلامي والمصادر الإسلامية الأساسية، وتركيزه على العلاقات بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وقد استعانت السياسة وخاصة في الإدارة الأمريكية بآرائه، إذ نشر أبحاثاً عدّة، وأحدها قد نشر مراتٍ عديدة، وهو (جذور الغضب الإسلامي)، الذي طوّره لويس إلى كتاب يحمل العنوان نفسه<sup>(١)</sup>، وهو من المؤيدين لفكرة أنّ صداماً وشيكاً متوقّعا بين الإسلام والغرب، بل هو صاحب هذه الفكرة، وأوّل من تحدّث عنها، وإنّ هذا الصدام بمثابة رد فعل تاريخي لذلك الصراع القديم، ومواجهة للهيمنة اليهودية والمسيحية على العالم.

ونجده في العديد من المواضيع محاولاً الانتقاص من الإسلام، ومكانته وتأثيره الاجتماعي والسياسي، عبر افتراضات تشكّك في أصالة الإسلام، وتدعم فكرة السطو الفكري، من أجل إقناع المسيحيين واليهود بالثبات على عقيدتهم، وسأستعرض في هذا الفصل تجليات الأنساق المركزية المهيمنة على خطاب لويس الاستشراقي.

(١) ينظر: الاستشراق في التاريخ: عبد الجبار ناجي، إصدارات المركز الأكاديمي للأبحاث، ط١، بيروت، ٢٠١٣م :

### المبحث الأول: مواجهة الإسلام

**مدخل:** يجسد الإسلام بحسب لويس تصوّرًا مختلفًا عن معنى الدين فهو ليس دينًا مختلفًا فحسب، فالدين عند الغربيين معني بالعقيدة والعبادة، والحرية الدينية تعني الحق في اعتناق العقيدة وممارستها دون التعرّض للتمييز في مناحي الحياة الأخرى، بالنسبة للمسلمين يعني كل ذلك وأكثر، هو يعني على نحو خاص العيش في ظل شريعة الإسلام، المعنية بسلسلة من الشؤون المدنية والجنائية<sup>(١)</sup>.

يختلف مفهوم الدين بالنسبة للمسلمين عن مفهومه لدى الغرب، فعند استعمال كلمتي "إسلام" و"إسلامي" يفترض الغربي أنّ الدين هو الشيء نفسه في العالم الغربي، فهو جزء من الحياة ومنفرد لأمر معيّن، ومنفصل أو قابل للانفصال عن غيره من أقسام الحياة، في الحقيقة الأمر ليس كذلك أبداً، الإسلام هو ما يميّز الذات عن الآخر، بين الأخ والغريب، بين الداخل والخارج، في حين يصنف الغرب وفق معيار الأمة والدولة والتقسيمات الأصغر. من الحقائق الأساسية في الإسلام عدم وجود تمييز بين المؤسسة الدينية "الكنيسة" و"الدولة"، الموجودة في المسيحية كسلطتين "الله" و"قيصر"، اللذان قد يكونان على وفاق أو صراع، ومثل هذا التمييز غير موجود في الإسلام التقليدي، فالإسلام قد ارتبط منذ بدايته بممارسة السلطة، فمارس المهام المعتادة وجمع الضرائب وأقام العدل، وشرع الشريعة وخاض الحروب، فالإسلام "سياسة أو لا شيء"، الكنيسة والدولة فيه لم تكونا منفصلتين<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٩١

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة: ٦٠٢-٦٠٣

### المطلب الأول/ الحرب القيمية ضد الإسلام:

يرى لويس أن انتشار الإسلام في بلاد العالم أوصل سلطة الدولة الإسلامية إلى قلب موطن اليهودية والنصرانية، وبلغت سلطة الإسلام مساحات جديدة شاسعة كان للديانتين السابقتين ثقلٌ فيها، وفي هذه الامبراطورية المترامية الأطراف وجد المسلمون أنفسهم في بادئ الأمر أقلية متسيّدة مزوّدة بتعاليم دينية محددة وأساسية يحكمون بموجبها السكان الخاضعين لهم، كما أورثتهم الأنظمة القديمة تقاليدًا وحلولًا وتدبيرًا، بل وقوّة بشرية أيضًا يتمكنون عن طريقها من وضع تعاليمهم قيد التنفيذ والتعديل، وهذا النظام الذي حكم به الفاتحون المسلمون خلق حالة التفوق أو السيادة لهم على بقية الجماعات لكنه أتاح قيام تعايشٍ سلمي مشترك<sup>(١)</sup>. وفي ذلك يقول لويس لقد كان ((نشوء الإسلام بحد ذاته ثورة، لقد بدأ بتحدي الرسول للزعامة القديمة والنظام القديم في مكة الوثنية، وبلغ ذروته بتقويضهما والحلول محلها معًا، إذ حلّ الرسول وصحبه محل الأول، وحل الإسلام محل الآخر))<sup>(٢)</sup>، فهو ثورة ضد النظام الوثني القديم وتغيير شامل في كل نواحي الحياة . لكن لويس لا يروق له الاكتفاء بوصفه الإسلام بالثورية، بل يعدّه تحدّي للزعامات السابقة، فيصوّر الأمر على أنه صراع سلطة، سيطر فيه الرسول (ﷺ) على زعامة مكة، فيما حلّ الإسلام محلّ النظام الوثني.

يقول لويس: ((إنّ رجال الدين المسيحي (الأكليروس) - فيما عدا استثناءات قليلة- لم يمارسوا بل لم يدّعوا السلطة العامة ، التي ما تزال طبيعية ومقبولة في أغلب البلدان الإسلامية))<sup>(٣)</sup>، وهو هنا يشير إلى ما يطلق عليه بالسلطة العامة

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ٢٧-٢٨

(٢) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٥٠

(٣) أزمة الإسلام: برنارد لويس، ٥٢

المنوحة لقيادات العالم الإسلامي باعتبار تاريخية النظام الحاكم في الإسلام، فمنذ وفاة الرسول (ﷺ) شرع نظام الخلافة، وهو نظام يتمتع بمطلق السلطة حسب تعبيره، وله صلاحيات غير محددة لقيادة الدولة سياسياً ودينياً، وهو ما يميّز به النظام الإسلامي من الحكم عمّا سواه، ويضيف في موضع آخر: ((ارتبط الإسلام في عقول المسلمين وذاكرتهم منذ حياة مؤسسه، وفي الكتب المقدسة بعدئذٍ بممارسة السلطة السياسية والعسكرية، عرف الإسلام القديم فصلاً ما بين أمور الدنيا وأمور الآخرة، بين التدين والاعتبارات الدنيوية، ولم يميّز مؤسسات مستقلة ذات هرمية وقوانين خاصة بها لتنظيم المسائل الدينية))<sup>(١)</sup>. فهو يشير إلى ما يميّز الإسلام عن غيره من الأديان باحتوائه على هذا النظام "المطلق" حسب تعبيره، في إدارة الدولة، فالحاكم الإسلامي قائد سياسي، وعسكري، وديني في الوقت ذاته، وهي إشارة ذات مغزى بعيد، مغزاها اتهام الإسلام بالشمولية والتسلط.

يُعرّف لويس الإسلام على أنه الدين الذي قام به محمد بنفسه من خلال القرآن، وامتداده ليعني العقيدة والقانون والتعاليم، وهو المقابل للنصرانية كدين، ويقسم على تقليدين إسلاميين رئيسين في الدولة الإسلامية أحدهما يطلق عليه "إسلام رسمي" يهتم بالعقيدة والشريعة ويحظى بدعم الدولة، والآخر "إسلام شعبي" يتكوّن من الطرق الصوفية والحركات الشعبية<sup>(٢)</sup>.

لم يكن لويس أول من أعطى هذا التعريف للإسلام لكنّه صاغه بأسلوبه الخاص، فالإسلام هو دين الرسل جميعاً، وهو متمّ وناسخ لها، وقد سبقه إلى ذلك هاملتون جب الذي يقول: ((إنّ الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات إنّهُ أعظم من ذلك كثيراً، إنّهُ

(١) أزمة الإسلام: ٥٤

(٢) ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الجوانب الفكرية في التاريخ الإسلامي، ١٤٥ - ١٤٧



مدنية كاملة))<sup>(١)</sup>. كما يعطي لويس معنى آخر للإسلام بمعنى الحضارة الإسلامية، ولكنه لا يُنظر إليه على أنه دين بهذا المعنى، فهو مشتمل على الفن الإسلامي المميز بصفات ثقافية وليست دينية، كما يشمل علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء، التي أنتجت في الحضارة الإسلامية، مبرراً ذلك بأن كثيراً من الفنون والعلوم من إنتاج نصارى ويهود عاشوا في البلدان الإسلامية ليصبحوا جزءاً من الحضارة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

يقول لويس: ((غالباً ما نسب هؤلاء للدين الإسلامي كعقيدة بعض المعتقدات الشائعة، والممارسات المنتشرة التي وعلى الرغم من أهميتها في الإسلام في الماضي أو الحاضر، هي بعيدة جداً عن الإسلام الأصلي كبعد الصليبيين ومحاكم التفتيش عن المسيحية الأصلية))<sup>(٣)</sup>. ويعبر لويس عن استعمال لفظه (إسلام) بأن الكلمة تستعمل بشكل شائع للدلالة على معنيين مختلفين، معنى يقابل المسيحية، أي كاسم للدين، بمعنى منظومة العبادة والإيمان، ومعنى آخر يقابل العالم المسيحي، للدلالة على حضارة كاملة تطوّرت تحت كنف ذلك الدين، ولقد حدث خطأ كبير بين المعنيين من قبل المراقبين الخارجيين لفشلهم في تلمس هذا الفرق<sup>(٤)</sup>، وهو هنا يفرّق بين المعنيين اللذين اشتبه وخلط بينهما الكثير.

يشير لويس إلى تنامي مجتمع المدينة المنورة إذ كان الرسول (ﷺ) قد انتقل في قرنٍ واحدٍ لا أكثر، إلى إمبراطورية واسعة، وبات الإسلام في هذا الوقت ديناً عالمياً، كان الفكر الإسلامي ينظر إلى الحقيقة الدينية والسلطة السياسية على أنهما وحدة واحدة، بل وتضفي إحداها القدسية على الأخرى، كما يقارن لويس بين الآثار التي أحدثها ظهور الإسلام في المجتمع العربي، وبين الديانات الأخرى،

(١) وجهة الإسلام: هاملتون جب، ولويس ماسينيون، ترجمة محمد عبد الهادي، المطبعة الإسلامية، دت: ٩

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام، برنارد لويس: ٦-٧

(٣) أزمة الإسلام، برنارد لويس ، ٤٨

(٤) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس ، ٤٨

ويخلص إلى أن الإسلام هو: دين مساواة، وهو حقًا كذلك في كثير من النواحي، وإن نظرنا إلى التبدلات التي أحدثها الإسلام بعد ظهوره في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، والتي غيرت البنية المجتمعية العربية إلى حالة أكثر تماسكًا وأكثر انتظامًا مما كانت عليه قبل الإسلام، وإذا قارنًا العالم الإسلامي وما كان عليه الوضع في العصور الوسطى في الهند ووضع المنبوذين أو الدونيين، والامتيازات الأرستقراطية في الغرب المسيحي، سيبدو الإسلام دين مساواة فعلاً<sup>(١)</sup>.

ومن تلك الإصلاحات المجتمعية شرع النبي الأكرم (ﷺ) بوضع الأسس العامة والصالحة لبناء مجتمع جديد يمثل لأوامره التي تمثل الإرادة الإلهية، وهذه بدورها تنظّم المجتمع الجديد، وتذيب الفوارق الطبقيّة بينهم، والمرتسبة من عهد الجاهلية، وجعلهم متراسين يسند بعضهم بعضاً في جو من التسامح والمحبة والأخوة. وهو ما يمثل الأساس الأول لبناء الدولة. وشرع النبي الكريم (ﷺ) بوضع الأسس العامة للمجتمع الإسلامي الجديد، فحرص على إذابة الفوارق، وجعلهم ينصهرون في بوتقة واحدة تحت راية دولة واحدة، وجعل العبادة لله وحده، وأقام حكم العدل بينهم، وفرض النظام في السياسة والاجتماع والاقتصاد.

وتطوّر الأمر بينهم إلى عقد معاهدة<sup>(٢)</sup>، تعدّ من أهم الوثائق السياسية في صدر الإسلام، وهكذا وضع الرسول الأكرم (ﷺ) نظاماً للحياة العامة يكون دعامة للوحدة بين سكان المدينة، فوضع (الصحيفة) التي تعد دستور الجماعة الإسلامية الأولى، والتي تذكر الروايات نبذاً عنها، فأطلقوا عليها تسميات عديدة منها الصحيفة والوثيقة والكتاب، والملاحظ أنّ تلك الروايات لم تذكر تاريخ وضع هذه الصحيفة أو الوثيقة ولا اسم كاتبها، ويرجح بعض

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ١٥

(٢) في إشارة إلى صحيفة المدينة وهي المعاهدة بين الرسول (ص) واليهود في المدينة . ينظر: الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان: محمود شريف بسيوني، مج ٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.

المؤرخين أنّ هذه الصحيفة أصدرها النبي (ﷺ) بعد انتصار المسلمين في بدر، ذلك الانتصار الذي كان مبعث قوة معنوية للمسلمين، في الوقت الذي زاد فيه اليهود من نشاطهم لإثارة الشغب ضد المسلمين في المدينة، فكان لابدّ من تنظيم العلاقات بين السكان، وتحديد الواجبات المطلوبة من كل جماعة في المدينة، وإلزام الجميع بجعل رسول الله (ﷺ) حكماً ومرجعاً في كل قضايا المجتمع<sup>(١)</sup>.

إنّ الإسلام من وجهة نظر لويس لا يقرّ الدونية من حيث المبدأ والشرع، كما لا يقرّ الأرستقراطية، فالطبيعة البشرية تسوّغ للدونية والأرستقراطية أن تعمداً بين الحين والآخر إلى أن تثبتا وجودهما بالعنف، ولكن حدوث ذلك مخالف لمشية الإسلام، ومثل هذا التخلّي عن المساواة مُدان من المسلمين التقليديين منهم والأصوليين على حدٍ سواء، باعتبار أنه خروج عن الإسلام أو معادٍ له<sup>(٢)</sup>.

ظلّ العالم الإسلامي قرونًا عديدة في طليعة الحضارة الإنسانية والإنجازات البشرية وهو ما يعترف به أغلب المستشرقين ومنهم لويس في مقدمة كتابه (أين الخطأ)، بل كان الإسلام مرادفًا للحضارة، ولم يكن خارج حدوده -حسب نظر المسلمين- إلا أهل الهمجية والكفر، في حين كانت المسيحية المنافس الجاد الوحيد للإسلام، فهي القوة العالمية والعقيدة العالمية، لكن تلك العقيدة قد حلّ محلها التنزيل الإسلامي المُسترشد بالهُدى الإلهي، وقد كان معظم المسلمين يرون أنّ العالم المسيحي يعني في المقام الأول الامبراطورية البيزنطية، وكانوا ينظرون إلى البقاع

(١) ينظر: الأنوار في سيرة سيد الأنام، فراس سليم الحسيني السامرائي، ط١، دار الرياحين للنشر والتوزيع، الحلة، العراق، ٢٠١٧م: ٧١ .

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ١٥

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

النائية في أوروبا نظرتهم إلى البقاع النائية في أفريقيا، فيرون أنها مجاهل قصية للبربرية والكفر، فلا يرجى منها علم ولا يستورد منها إلا العبيد والمواد الخام<sup>(١)</sup>

يتساءل لويس عن ماهية الإسلام بالقول: ((هل الإسلام ثيوقراطية\*؟ بمعنى النظر إلى الإله بصفته ملكاً أعلى، ينبغي أن تكون الإجابة نعم، بمعنى الحكم عن طريق رجال الدين، الجواب المؤكد: لا. إن ظهور هرمية دينية وادعائها أنها سلطة عليا في الدولة ابتكار حديث، وهي إسهامة فريدة لآية الله خميني إيران في الفكر والممارسة الإسلاميين))<sup>(٢)</sup>، وهي إشارة إلى نظام ولاية الفقيه، وحكم الحوزات الدينية؛ فالإسلام ليس ثيوقراطية، فلا وجود لكنيسة، ولا أساقفة، ولا بابا، ولا كرادلة، ولا فاتيكان، ولا مجالس كنسية، فالإسلام لا يعرف الكهانة مثلما في المسيحية<sup>(٣)</sup>.

يرى لويس أن كلمة الإسلام تعني أشياء مختلفة منها: ((المعنى التقليدي الذي يستخدمه المسلمون، وهو أن الإسلام هو الدين الوحيد الإلهي الحقيقي الذي علمه الرسل المتتابعون عن طريق الكتب المنزلة، وهي التوراة والإنجيل التي أنزلت على موسى والمسيح عليهم السلام، ومحمد هو آخر الأنبياء العظماء وكتابه القرآن الذي يكمل وينسخ كل الكتب المنزلة))، ويضيف لويس: ((إن الاستخدام الأكثر شيوعاً لمصطلح الإسلام يقتصر على المرحلة الأخيرة من سلسلة الرسائل السماوية وهي رسالة محمد والقرآن الكريم))<sup>(٤)</sup>، وللإسلام معانٍ عدة بحسب لويس - منها أنه الدين الذي قام محمد به بنفسه عن طريق

(١) ينظر: أين الخطأ؟ برنارد لويس : ii

\* الثيوقراطية Theocracy هي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين مدمجتين (Hose Kratos) وتعني حكم الإله، وهي نوع من أنظمة الحكم يجمع فيه الحاكم بين السلطتين الدينية والروحية، وتعد من الكلمات السياسية المهجنة في اللغة العربية والمعنى المقابل لها هو حكم الكهنة. ينظر: معجم الدخيل في اللغة العربية ولهجاتها: ف. عبد الرحيم ، دار القلم، دمشق،

١١، ٢٠١١ : ٨٨

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ٥٤

(٣) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس : ٦٠٥

(٤) الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مازن مطبقاني : ١٦٩ .

القرآن، وعن طريق فهمه وتطبيقه، وامتداداً لهذا استخدم لفظ الإسلام ليعني العقيدة والقانون والعادات التي تم تطويرها بناءً على تعاليم النبي مُحَمَّد (ﷺ)، وتلك التي نُسبت إليه خلال القرون التي تلت وفاته، وقد استعمل المؤرخون المسلمون وغير المسلمين مصطلح الإسلام مقابلًا للنصرانية كدين، وليقابل النصرانية تاريخًا وعقيدة وفكرًا وحضارة<sup>(١)</sup>.

يتطرق لويس إلى خطأ جسيم يرتكبه الغربيون بافتراضهم أن الدين يعني للمسلمين ما يعنيه للناس في الغرب، أي أنه جانب من جوانب الحياة موقوف على بعض الشؤون المعيّنة، وأنه معزول عن جوانب الحياة الأخرى، في حين ((أن في الإسلام التقليدي ليس هناك فصل بين الكنيسة والدولة، لكنّه موجود في المسيحية، وهو يعود إلى تعاليم مؤسسها الذي أمر أتباعه أن يعطوا ما "لقيصر لقيصر وما لله لله"، وهما سلطتان تتجسدان في مصطلحي الكنيسة والدولة... أما في الإسلام التقليدي فلم تكن هناك سلطتان؛ بل سلطة واحدة... وفي هذه الآونة فإن مجرد تصور سلطة دنيوية خارج إطار الدين هو المروق بعينه، لا بل والخيانة العظمى للإسلام))<sup>(٢)</sup>، إن قراءة لويس لتاريخ الإسلام تكشف نسقًا مضمراً يُحيل سبب تقدّم الغرب إلى "فصل الدين عن الدولة"، وهذه القراءة تُصيب المتلقي الغربي بخيبة أمل تجاه الإسلام في المجال السياسي، إذ إن السياسة العادلة في مفهومها الغربي أن تستمد السلطة شرعيتها من الشعب، وهو ما يُفقد في الإسلام في رأي لويس.

يتناول برنارد لويس تاريخ نمو الدولة الإسلامية منذ عهد الرسالة إلى العصر الحديث بشكل مختصر، من جانب واحد وهو؛ جانب الصراعات المسلحة والقتال بشكل عام، إذ يقول: ((لقد طال الصراع بين الأنظمة المتنافسة لمدة أربعة عشر قرناً، حيث بدأ مع تقدم

(١) ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الجوانب الفكرية في التاريخ الاسلامي: ١٤٥

(٢) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ترجمة عبد الكريم محفوض، تقديم طيب تيزيني، دار جفرا للدراسات والنشر،

دمشق، ط١، ٢٠٠١: ١٢-١٣-١٤

الإسلام في القرن السابع الميلادي، واستمر عملياً حتى زمننا الحاضر. تشكّل هذا الصراع من سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة على شكل جهاد وحملات صليبية وفتوحات مضادة، تقدم الإسلام للألف سنة الأولى، وكانت المسيحية ضحيته المهزومة... لكن منذ الثلاثمائة سنة الأخيرة وظهر الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في آسيا وأفريقيا، كان الإسلام منذ ذلك الوقت في وضع الدفاع، ونجحت الحضارة المسيحية وما بعد المسيحية لأوروبا وبناتها في إخضاع العالم كله وضمه الإسلام<sup>(١)</sup>. وهذا الاختصار الكبير لتاريخ الحضارة الإسلامية، يراد منه أدلجة المتلقي الغربي لفكرة الاستعداد، والاستعلاء على الآخر المسلم، فقد تحوّل العالم الشرقي من قائد مسيطر ومنتصر لقرون عدّة، إلى تابع خاضع مدافع، يكنّ الحقد والحسد للغرب.

ظلّ الفكر الغربي ينظر للإسلام على أنّه دين طارئ، ومنافس لدود، وخصم مسلّح، يجب النيل منه، فد<sup>(٢)</sup> ((الإسلام في التقليد المسيحي أعثبر ديناً مشوشاً وزائفاً، نُظِرَ إليه من وجهة العاطفة، لأنه ادّعى الوقوف على الأرضية ذاتها مع المسيحية، إنّ نجاحاته مهما تكن كبيرة، فهو ليس سوى قادم جديد، سيء التسلّح، بدائي، تبسيطي، إنّ نجاحاته في العالم ليست دليلاً على صحته))<sup>(٢)</sup>، بعد أن دامت رؤية المسلمين لأنفسهم قروناً طويلة على أنهم أمة ذات حضارة (عابرة للقارات)، فكان الإسلام يمثل أعظم قوة عسكرية على وجه الأرض.

فقد كانت جيوش المسلمين تغزو أفريقيا وأوروبا والهند والصين، وكان الإسلام القوة الاقتصادية الأولى في العالم، فكان التجار المسلمون يمارسون التجارة

(١) جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس، تر: عبد الباسط منادي ادريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ٢٠١٨، مصدر المقال: Lewis, Bernard. (the Roots of Muslim Rage) The Atlantic Monthly. Sep1990: 266, 3. Pp. 47. كذلك ينظر: الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، في

وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية: برنارد لويس، ادوارد سعيد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٤: ١٤

(٢) أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحدثة: هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١: ١٣

في أكثر أنواع السلع في ذلك الزمن، ووصل إلى أعلى مستوى شهده تاريخ الإنسانية في فنون الحضارة والعلوم، فقد ورث معرفة الشرق الأوسط ومهاراته، واستوعب تراث اليونان والفرس، وأضاف إليها عديد الابتكارات مثل صناعة الورق<sup>(١)</sup>.

لكن الأمر تغير بعد ذلك، إذ أنكفأ المجتمع الإسلامي وتفوق لأسباب مختلفة منها الصراعات السياسية والطائفية، والرؤية الدينية القاصرة لكثير من الفقهاء، في حين بدأ الأوروبيون حتى قبل عصر النهضة يحرزون تقدماً ملموساً في فنون الحضارة، بقدوم ما يسمى بـ "المعرفة الجديدة"، فشرعوا يتقدمون بسرعة كبيرة ليسبقوا التراث العلمي والتكنولوجي والثقافي للعالم الإسلامي بأشواط طويلة، و(( كانت الديار العربية والإسلامية تكاد لا تدري شيئاً عن النهضة الأوروبية وحركة الإصلاح الديني والثورة التكنولوجية، إذ كان المسلمون لا يزالون يميلون إلى الاستخفاف بالقاطنين وراء حدودهم الغربية باعتبارهم من البرابرة الذين يعيشون في الظلام))<sup>(٢)</sup>، إن ما نكتشفه مضمراً من خلال ثنائية "المدح والهجاء" أو كما يسميها (الغذامي) قانون الثقافة النسقي "الرغبة والرغبة"، فالهجاء هو النواة الدلالية النسقية للمديح<sup>(٣)</sup>، وهو ((القانون الذي تتبنى عليه ثقافة النموذج المعتمد في الخطاب المهيمن على ضميرنا الثقافي منذ أن تمكنت منّا لعبة نسق اللغة المدائحية))<sup>(٤)</sup>. وانعكاس تشكيل الآخر لعامل ضغط وقوة استلاب مهيمنة على الأنا، وهو ما يظهر في نصوص لويس بيّنا، فما كلام لويس إلا تعبيراً عن نسق ثقافي يمنح الغرب المكانة والعلو، بفضل العمل والنهضة الحضارية والتكنولوجية المتسارعة،

(١) ينظر: أين الخطأ؟ برنارد لويس : ٧

(٢) أين الخطأ؟ : vi

(٣) ينظر: النقد الثقافي: الغدامي : ١٨٣.

(٤) النقد الثقافي: ١٦٢.

التي يعيشها المجتمع الغربي، فيما يُلقى اللوم على الشرقيين أنفسهم في تحمل نتيجة واقعهم المتردي، إذ لا زالوا يعيشون أوهام الاستخفاف بالآخر، وحلم التفوق الواهي، غير مدركين لتفوق الآخر عليهم.

ومن متبنيات برنارد لويس في نظرتة للإسلام:

#### أ- الإسلام شمولي:

يرى لويس بأن الإسلام دين شمولي إذ يصفه بالشمولية والتسلط في إدارة الدولة، فالحاكم في الإسلام يقوم بإدارة الأمور الإدارية والمالية والعسكرية بنفسه، ((يشكل الطابع الشمولي للدين الإسلامي في مفهوم المسلمين السمة الأساسية والفارقة لهذا الدين، فلقد أسس الرسول على خلاف مؤسسي الأديان الأبرك عهداً، دولةً وحكمها كحاكم، استصدر القوانين، أقام العدالة، قاد الجيوش، شنّ الحروب، وأقام السلام، جمع الضرائب، وفعل جميع الأمور الأخرى التي يفعلها أي حاكم آخر))<sup>(١)</sup>. ويقول في كتاب آخر: ((المصدر النهائي لسلطة الحاكم في الإسلام ليس الشعب بل الله، ولما كان الله هو مصدر السلطة، فهو الذي يفوض رئيس الدولة، ويمنحه السلطة بصلاحياتها، وهو المصدر الوحيد للتشريع والقانون، وإذا كان الحاكم هو حاكم الله والقانون قانون الله فطاعته واجب ديني، وعصيانه إثم وجريمة يُعاقب عليها في الدنيا والآخرة))<sup>(٢)</sup>. إنّ المديح والهجاء ينبغي أن يُنظر إليهما بوصفهما نصّاً واحداً<sup>(٣)</sup>. وهذا ما عمل البحث على اكتشافه في النسق المُضمّر في ذم وهجاء الشرق بقيمه وعاداته واخلاقياته عبر نسق المدح المعلن والمُهيمن للغرب، فالشرق

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس، ٤٢

(٢) الإيمان والقوة: برنارد لويس، ١٢

(٣) ينظر: بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي: د. بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط



مُتقل بحمولة الشمولية الإسلامية كما يصفه لويس، فهي سلطة إلهية عليا، واجبة الطاعة.

### ب- المسلم عثماني:

يختزل لويس الإسلام في الإمبراطورية العثمانية، ويختزل المسلمين أنفسهم في ساسة وحكام ورجال هذه الإمبراطورية، وهو اختزال مبرر أيديولوجياً، فهو يعبر عن وجهة نظر لويس التي يريد أن يقدم فيها العرب والمسلمين في إطار محدد بوصفهم (الخطر) المواجه للغرب، واستغلال الصورة القبيحة المطبوعة في الذاكرة الغربية عن الدولة العثمانية ومواجهاتها مع الغرب، فالتركي العثماني في الثقافة الأوروبية عدواني دموي، قاسي في تعامله مع الأوروبي، اجتاح البلقان ووسط أوروبا، حتى وصل به الحد إلى فرض ضريبة الدم (الدو شرمه)\* على الأوروبيين، وانتزع أطفالهم الذكور الأصحاء من عائلاتهم ليكونوا عبيداً للسلطان وجنوداً له، هذا هو الإسلام في مخيال وذاكرة الغربي، وذلك شأن المسلمين مع المسيحيين، فهم لا يرون الآخر إلا عبداً لهم<sup>(١)</sup>.

يرى برنارد لويس في تركيا آخر خلافة إسلامية، لذا فقد أولاه اهتماماً خاصاً في كتاباته فألف عدداً من الكتب حولها منها (ظهور تركيا الحديثة) و(القسطنطينية والعرب) و(اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية) وغيرها من البحوث والمقالات. فقد بلغ العثمانيون أوج عظمتهم في القرن السادس عشر الميلادي في الوقت الذي شهد ضعف العالم المسيحي وانقسام مرجعياته الدينية إلى

\* الدو شرمه هي ضريبة آدمية فرضتها الدولة العثمانية على رعاياها النصارى، فكانت تقوم بجمع الأطفال النصارى، وتربيتهم تربيةً إسلاميةً تمهيداً لاستخدامهم في المناصب الإدارية والعسكرية فيما بعد، وعُرفت هذه الضريبة بمصطلح: «الديوشيرمة» أو «ضريبة الغلمان». ينظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: عبد العزيز محمد الشناوي، مكتبة

الأندلس المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ١/١٢٠

(١) ينظر: أين الخطأ، برنارد لويس : ١٤

كنائس كاثوليكية، وبروتستانتية متناحرة فيما بينها تتبادل العنف والعداء، وإراقة الدماء.. مما جعلهم ولحقة طويلة يمثلون البعج الأكبر لأوروبا فقد أثاروا مخاوفها بشكل ملحوظ<sup>(١)</sup>، وقد ساهم التصوير السلبي للعثمانيين في الأدب الشعبي الأوروبي في ترسيخ الطابع الشهواني والجنسي والغرائبي للشرق فقد تميّز بتصويرهم قومًا متعصبين قساة يتّسمون بالعنف، بطرائق تعتمد التصوير الساخر والهزلي للإسلام الذي ظلّ سائدًا لمدة طويلة، إذ تداول الغرب القصص المثيرة والشنيعة عن الجرائم والفضائح الجنسية المزعومة للأتراك والتي أثّرت على أنها في (حريم) السلطان العثماني، وهو ما أكّد صورة الجنس والشهوة للشرق في مخيلة الغرب<sup>(٢)</sup>.

في القرن السابع عشر أصبحت أوروبا أكثر مركزية وقوةً، تحت تأثير التغييرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية العميقة، وبعد نجاح القوى المدنية في إضعاف وتقويض الاستبداد والهيمنة الكنسية، الأمر الذي حثّ رجال الدولة والفلاسفة الأوروبيين إلى صياغة تصورات ورؤى جديدة للنظام السياسي، فأصبح مجتمعهم قائمًا على القانون والحرية، بعد أن أعادوا قراءة وتفسير كتب أرسطو وكثير من الكتاب اليونانيين القدماء، وتبنّوا المقابلة والمقارنة بين الحرية الإغريقية والاستبداد الآسيوي (الشرقي)، وهنا مثل العثمانيون نموذجًا لهذا الاستبداد والسلطة التعسفية<sup>(٣)</sup>.

مع شروق شمس النهضة بدأ يتلاشى حلم الكنيسة في توحيد الشعوب المسيحية برابطة موحّدة، ليحلّ محله تصوّر آخر أكثر علمانية، وهو تصوّر يرى الغرب متضمنًا لأكثر من نوع من المسيحية، ويضم دولًا لا يمثل الدين قاعدة

(١) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لوكمان، ٩٥

(٢) ينظر: تاريخ الاستشراق، لوكمان : ٩٥-٩٦ ، كذلك ينظر : الاستشراق : إدوارد سعيد، ٣٠١

(٣) ينظر: حول الاستشراق الجديد: عبد الله عبد الرحمن الوهبي، ٢٢-٢٣

شرعية لها. إذ تعد (( المرحلة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب إلى نهاية الحرب العالمية الثانية من أخطر مراحل الفكر الاستشراقي، فالاستشراق فيها فضلاً عن استمراره بتشويه الإسلام بين الأوروبيين وغيرهم استطاع أن يقوم بدوره كاملاً في خدمة السياسة الاستعمارية، وبلبلة الأفكار حول الكثير من قضايا الفكر الإسلامي))<sup>(١)</sup>.

حين يستعرض لويس تاريخ الشرق الأوسط والنزاع العثماني الغربي يتحدث عن النجاحات العسكرية الغربية في المعارك بين الطرفين وارتباطها بالمجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بقوله: (( لقد صاحب النجاحات الغربية في ساحات القتال وفي أعالي البحار تحقيق انتصارات أخرى في أسواق التجارة، وكانت هذه الأخيرة ذات أصداء جماهيرية أقل من الأولى، ولكنها كانت تفوقها في عمق تغلغلها وفي اكتسابها خطورة أكبر في نهاية الأمر))<sup>(٢)</sup>، كما يعرض إلى الإمدادات الكبيرة التي حصلت عليها (أوروبا المسيحية) من الذهب والفضة التي أمدها العالم الجديد بها، والأراضي الشاسعة الخصبة المستعمرة التي مكنتها من زراعة محاصيل جديدة كانت تستوردها سابقاً منها البن والسكر، فالشرق الأوسط ذو منافع اقتصادية كبرى للغرب.

### ج-الإسلام إقصائي:

يطرح لويس فكرة تجسد الفكر الإقصائي في الإسلام عن طريق استدلاله بعدد من آيات القرآن الكريم معتبراً دلالاتها تدعم الفكر الأحادي المهيمن بقوله: ((كان ينبغي للدين الإسلامي والخلافة الإسلامية الحلول محل نظام العالم المسيحي الذي أفسد أولو أمره غير المؤهلين مواطن وحيهم وإن كانت أصيلة ذات

(١) الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه: محمد الدسوقي، ٥٠

(٢) أين الخطأ؟ برنارد لويس : xiv

يوم، ولذلك كانت مؤهلة أن يتسيدها وحي يتسم بالكمال مجسداً بالإسلام، إذ تدين الكتابات القرآنية في قبة الصخرة ما يعده المسلمون أخطاء المسيحيين الرئيسة: (الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً) و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، كان ذلك تحدياً واضحاً للمسيحية في عقر دارها<sup>(١)</sup>، معتبرا هذه النصوص القرآنية تحدٍ للتعددية السابقة وفرض التوحيد ديناً جديداً على العالم أجمع.

كما يؤكد لويس أنّ المسلمين يعتقدون أنهم مكلفون من الله بإدخال الناس في الإسلام بالقوة، لذا فإنّ الجهاد لا يتوقف، حتى إدخال الجميع في هذا الدين، ويؤكد مدى تأثير ذلك في الثقافة الشعبية والرسمية للمجتمع الإسلامي فيقول: ((لم يعد الجنود والضباط والمؤرخون المسلمون والعامّة يشيرون إلى خصومهم بالمصطلحات العسكرية، أو القومية بل ببساطة بالكفار))<sup>(٢)</sup>. إنّ هذا النسق المكشوف جزءٌ منه من خلال كلام لويس عن المسلمين، يعبر عن وجود نسقٍ مضمّر كبيرٍ مختبئٍ وراء هذا الكلام، إذا ما علمنا بوجود أنظمة لا متناهية التشكّل والظهور، تتحكّم بعوالمنا وتؤسّس عوالم نسقيّة تُحيط بنا، وتُسيّرنا، وتتدخل في تكوّن تلك الأنظمة والأنساق موروثات كثيرة منها موروثات عقائدية واجتماعية وشعبية، والخطر يكمن في تحوّل الموروث نفسه إلى نسقٍ منظمٍ متوارث، وحلقةٍ مُحكمة لا تُخترق، فتُلزِمنا تلك الأنساق بقيود ونظامٍ قد يؤثّر سلبيّاً فينا<sup>(٣)</sup>. وهو النظام والنسق الذي تسير وفقه معظم الدراسات الاستشراقية الجديدة، ولويس ملتزمٌ بهذا النسق بشكلٍ أو بآخر.

(١) أزمة الإسلام : برنارد لويس : ٧٠-٧١

(٢) لغة السياسة في الإسلام، برنارد لويس، ١٢٤.

(٣) ينظر: قصيدة النثر العراقية دراسة في الأنساق الثقافية : هيثم كاظم صالح، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية

للعلوم الانسانية، جامعة البصرة ، ٢٠١٥ م.: ٥٢.

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساقُ المركزيَّةُ المُهميَّةُ

ويظهر تأثر لويس بآراء بعض المستشرقين ممن سبقوه أمثال فلهاوزن<sup>(١)</sup>، وماكدونالد<sup>(٢)</sup>، ولامنس<sup>(٣)</sup>، عن رأيهم تجاه مفهوم الجهاد في الإسلام وكيفية تحوُّل الحرب من دفاعية إلى هجومية، وأنَّ الإسلام لم يبقَ على تسامحه بعد معركة بدر، بل شرع في تبني سياسة "الإرهاب" داخل المدينة، وأظهر اليهود بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون سنوات أخرج الجماعات اليهودية من المدينة، أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة، تحت أسباب عديدة<sup>(٤)</sup>. كما يتطرَّق لويس إلى فكرة وسم القادة المتعاملين مع الغرب بالمرتدين الواجب مقاتلتهم، ((ترى أغلب الشعوب المسلمة - إن لم نقل كلها - أغلبية الحكّام المسلمين الذين يسرّنا في الغرب عدّهم أصدقاءنا أو حلفاءنا خونة، بل الأسوأ من ذلك، مرتدّين، وهو ما يعلنه قادة الميليشيات اليوم من جهاد مزدوج ضد ما يسمونه الأجنبي الكفرة، وضد المرتدين في الداخل))<sup>(٥)</sup>، وهو إنما يشير إلى الأفكار المتشدّدة السائدة حالياً في

(١) يوليوس فلهاوزن (١٩١٨-١٩٤٤) ألماني مسيحي، مؤرخ لليهودية ولصدر الإسلام، وناقد للكتاب المقدس العهد القديم، عمل أستاذاً ذا كرسي في جامعة جريسفلد، تخصص في اللغات الشرقية، له من الكتب "في تاريخ اليهود ونقد الكتاب المقدس"، و"نقد الاناجيل" و"تاريخ الإسلام والعرب" و"تاريخ إسرائيل" و"تأليف الأسفار الستة والأسفار التاريخية في الكتاب المقدس" وغيرها. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي: ٤٠٨-٤٠٩

(٢) دونكان بلاك ١٨٦٣-١٩٤٣ (ماكدونالد): مستشرق أمريكي الإقامة بريطاني المولد والنشأة، شديد التقوى المسيحية، صرف نشاطاً كبيراً في التبشير، واهتم بتاريخ العلوم الإسلامية، أهم كتبه "تطور علم الكلام" و"أوجه الإسلام" و"الموقف الديني والحياة الدينية في الإسلام". ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي: ٥٣٨.

(٣) لامنس (١٨٦٢-١٩٣٧): مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي شديد التعصّب ضد الإسلام، يفتقر إلى النزاهة في البحث والامانة في نقل النصوص وفهمها، ويعدّ نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين، أستاذ مادة التاريخ الإسلامي في معهد الدروس الشرقية في بيروت، كما عمل مديراً لمجلة المشرق في بيروت ومجلة التبشير التبشيرية، كتب عن السيرة النبوية وموضوعات مختلفة من العقيدة الإسلامية، له العديد من المؤلفات في العقيدة الإسلامية والسيرة النبوية، ولد سنة ١٨٦٢، توفي عام ١٩٣٧. ينظر موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، ٥٠٣-٥٠٤.

(٤) ينظر: دراسة في السيرة: عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ: ٢٩

(٥) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٩

العالم الإسلامي وهي بطبيعة الحال أقلية وغير رسمية ولا تمثل الإسلام، لكنه يعمم النظرة على المجتمع الإسلامي.

يكون لويس صورة عن الإسلام المتطرّف المتشدّد والجاهل أمام أنظار الغرب، الذين لا يمتلكون رؤية واضحة عن الإسلام، أو بالأحرى يستلمون بأي رأي يصدر عن شخص بات بنظرهم حجة في دراسة التاريخ الإسلامي<sup>(١)</sup>، كما يشير إلى أنّ عددًا من المؤلفين يشاركونه الرأي في نظرته للإسلام، ومنهم (ف. س. نيول)<sup>\*</sup> بوصفه يوضح هذا الاتجاه العدائي نحو الإسلام، والذي تحدّث في مقابلة منشورة في صحيفة (نيوزويك انترناشيونال) بتاريخ (١٨/آب/ ١٩٨٠)، قائلاً: ((إنّ المبادئ الأساسية في الإسلام تقتقر إلى المضمون الفكري، ولذلك فلا بدّ أن ينهار))<sup>(٢)</sup>. وهو بمثابة الحكم القاطع المتبئّ بمستقبل الإسلام، فهو حلم أو أمنية تظهر على شكل كلمات تعبّر عن رغبة الكاتب في زوال هذا المنافس.

#### د - الإسلام دين متناقض:

تميّز سلوك معظم المستشرقين بالانحياز، فهو مرّة يكون باتجاه التقليل من قيمة التراث الإسلامي وإظهاره مشوّهاً للمتلقّي الغربي، من خلال محاولة إظهار

(١) تغطية الإسلام: إدوارد سعيد، ترجمة سمير خوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٣: ٦٥.

\* فيدياد سوراجبراساد نيول : روائي بريطاني ولد في عام ١٩٣٢ في ترينيداد لأسرة هندوسية هاجرت من الهند، حصل على شهادة في الأدب عام ١٩٥٣ من جامعة أوكسفورد في إنكلترا، وهو يقيم منذ تلك المدة في إنكلترا ويخصّص قسطاً كبيراً من وقته لرحلات إلى آسيا وأفريقيا وأميركا، كرس حياته للكتابة الأدبية، وعمل في منتصف الخمسينات صحافياً لصالح هيئة الإذاعة البريطانية بي.بي.سي. شن هجوماً عنيفاً على الإسلام والمسلمين دعا فيه إلى إجبار المملكة العربية السعودية ودول عربية وإسلامية، كمصر والجزائر وباكستان على دفع تعويضات العمليات التي وقعت في نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وأنه يتعين على المملكة العربية السعودية دفع التعويضات عن كل عملية "إرهابية" نفذها منطرون إسلاميون على حد قوله. كما اتهم العرب بأنهم يريدون أن يمدوا صمت الصحراء إلى كل مكان، فهم أمة جاهلة لا تقرأ، وهم يقفون ضد الحضارة، وأن المسلمين بشكل عام شعوب مليئة دائماً بالحق، ويعتقدون أنه لا سبيل إلى التعايش مع شعوب أخرى إلا بالقوة. وهاجم كذلك العمليات الاستشهادية التي يقوم بها فدائيون فلسطينيون ضد الاحتلال الإسرائيلي

قائلاً: إن الأمر يتعلق بمتطرفين يحلمون بدخول الجنة. ينظر: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ٣٧

الفكر الإسلامي بأنه فكر متناقض وسطحي، ومرة أخرى باتجاه الطعن بالقرآن الكريم لضرب الإسلام، مستعينين بمختلف الوسائل والطرق لتحقيق أهدافهم<sup>(١)</sup>. وتلك هي طريقة لويس في استعراض التاريخ الإسلامي وتصويره على أنه متناقض وازدواجي فهو ينص صراحة على ذلك بقوله: ((كانت للمجتمع الإسلامي منذ عهد الرسول شخصية مزدوجة، فقد كان من جهة حكومة قبلية صارت بالتدرج دولة، فإمبراطورية، وكان في الوقت ذاته من جهة أخرى مجتمعاً دينياً أسسه النبي محمد، وحكمه ولاته الذين كانوا خلفاؤه كذلك، صُلبَ المسيح، ومات موسى دون أن يدخل الأرض الموعودة، وما زال لذكريات تلك الوقائع تأثير فاعل في معتقدات أتباعهم المتدينين، أمّا محمد فقد نال المجد في حياته ومات في مُلكٍ وعزٍّ))<sup>(٢)</sup>. فهو بذلك يقول بازدواجية الإسلام في نظرتة للحكم، بين الحكم القبلي المتدرج نحو الحكم الشمولي، والحكم الديني.

يصف لويس طابع الأمة الإسلامية بالازدواجية في عصر صدر الإسلام، بوصفها ((كانت جهازاً سياسياً من ناحية، أي نوعاً من قبيلة جديدة، محمد شيخها وأفرادها مسلمون وغير مسلمين، كان لها في الوقت ذاته معنىً دينياً سياسياً، فقد كانت جماعة دينية، أي ثيوقراطية، إلا أنّ الأهداف الدينية والسياسية لم تتضح مطلقاً في ذهن محمد وأذهان معاصريه وضوحاً يجعل من الممكن تمييزها))<sup>(٣)</sup>، ويمكن اكتشاف غاية برنارد لويس الأساسية عن طريق تحليل نصوصه، واكتناه مآربه الكامنة وراء تلك العبارات الرنانة، المختبئ وراءها هدف تسقيطي، وهو إظهار الإسلام كدين متناقض فهو يقرّ بأن الإسلام واحد من أعظم الديانات في العالم وأتته منح الحرية والطمأنينة لمعتنقيه، وأعطاهم الكرامة ومعنى للحياة، كما

(١) ينظر: إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين، عادل عباس النصراني : ٤٧-٤٨

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٤٨

(٣) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٥٧

علم شعوباً من أعراق مختلفة أن يعيشوا بأخوة وتسامح، وهو مدح جميل يُطرب له السامع، ويجعل المتلقي البسيط الذي يقرأه مُقتنعاً، يضع لويس في خانة المنصفين من المستشرقين، لتتطلي عليه حيلة لويس اللغوية، فهو يحاول إضفاء طابع الموضوعية لخطابه الاستشراقي لخداع المتلقي وتضليله، بطرحه لفكرة عظمة الإسلام، ومنحه الراحة والطمأنينة لمعتقيه، لكنّه في الوقت ذاته -أي الإسلام- ينفخ روح الكراهية الموجهة للغرب في أتباعه، أيّ أن هذا الدين قائم على التناقض، وأيّ منظومة متناقضة بطبيعة الحال لا تصلح لأن تكون ديناً. إنّ لويس حينما يصدر الحكم على الإسلام بهذه الصورة يحوّل مجتمعه الغربي إلى ضحية للعنف والكراهية التي يبثّها الإسلام في نفوس أتباعه، وهو بذلك يخلق شعوراً إسلاموفوبياً مقرّراً ولو بشكلٍ غير مباشر.

يتسّع توجيه لويس لهذا العدا فيحلل الكراهية الشرقية للغرب على أنها رفض للحضارة ككلّ، إذ تتجاوز هذه الكراهية في بعض الأحيان العدا لتتطال مصالح خاصة أو حركات أو سياسات أو حتى بلداناً، حتى أنّها تصبح رفضاً قاطعاً للحضارة الغربية، رفضاً لا يهتم الفعل العدواني فقط، بل يشمل أيضاً الرفض الكلّي لها في المبادئ والقيم التي تمارسها وتعزز بها، إلى حدّ عدّها شراً متأسّلاً لا يُطاق، ويُعدّ الدعاة إلى ذلك ومتقبّلوه (أعداء الله)<sup>(١)</sup>. وهو في هذا القول يردّ على الاحتمالات وينقض الافتراضات التي يمكن أن يطرحها القارئ، لإبعاد التهمة عن السياسة الغربية في التعامل مع البلدان الإسلامية، ولينفي المسؤولية عنها، عبر خلق صورة نمطية ثابتة وقارة، توحى للغربي بأنّ الكره والحقد الشرقي شعور متأسّس في المسلمين بما هم مسلمون، وليس نتيجة مباشرة وحتمية لسياسات الدول الغربية.

(١) ينظر: أزمة الإسلام: ٥٨، كذلك ينظر: جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس



هـ - الإسلام ينتج الإسلاموفوبيا:

الإسلاموفوبيا\* هي: ((ظاهرة استشرافية "ما بعد حداثة" لا تُدرس بمعزل عن الحركة التي تحكم العلاقة المتأخرة بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، سوى أن الأهمية المعرفية لمعاينة تلك الظاهرة تكمن في تزويد الاستشراق المعاصر بسعة أفق تجعله يتعدى إطاره المدرسي وتعريفاته الكلاسيكية المألوفة))<sup>(١)</sup>، لقد تبلور مصطلح الإسلاموفوبيا مع بداية الثمانينيات من القرن المنصرم، على إثر ما يسمّى بالصحة الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، ومعها تزايدت موجة اهتمام الغرب بدراسة أسباب الصعود السياسي لتلك التيارات الإسلامية، وتأثيرات ذلك على الغرب، فقد ارتبط مفهوم الإسلاموفوبيا بالآراء السلبية عن الإسلام والمسلمين في الكتابات الغربية<sup>(٢)</sup>.

وقد أدّى التيار الاستشراقي المعبأ بالتفسيرات العنصرية للشعوب المسلمة إلى ترسيخ مفهوم الإسلاموفوبيا في أذهان الغرب المسيحي، متكئاً على تضخيم وتغذية ما تحمله الذاكرة المسيحية المتأثرة بالفتوحات الإسلامية. ولعل برنارد لويس من هواة بل من محترفي سياسة (شيطنة الإسلام)، باعتبار الإسلام الخطر الأكبر

---

\* الإسلاموفوبيا: اصطلاح مركب من كلمتي إسلام وفوبيا، وتعني "فوبيا" الخوف المرضي غير المبرر من شيء ما في اللحظات الحرجة، وبذلك فالإسلاموفوبيا هي تلك الحالة من الهلع التي تنتاب بعض الغربيين من الإسلام، وهي حالة غير مبررة تغذيها وسائل الإعلام الغربية، وهي مشاعر تجاه المسلمين تتطوي على كراهية وخوف لا أساس لهما، متمثلة في إقصائهم والتمييز ضدهم، ولا يقتصر ذلك المفهوم على الخوف النفسي أو الفردي، بل يعني القلق والخوف الاجتماعي من الإسلام والمسلمين. ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، ١٧. كذلك ينظر: خرافة الإسلاموفوبيا: الدراجي زروخي، منشورات مخبر الدراسات الأنثروبولوجية، ط ١، ٢٠٢١: ١٠-١١

(١) استشراق مستحدث الإسلاموفوبيا بما هي أطروحة أيديولوجية ما بعد حداثة: محمود حيدر، ١٥٦  
(٢) تصويب بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في الغرب: عبدالله محمد حريري منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، الرباط، ط ١، ٢٠١٥: ٤٣٨

على الحضارة الغربية ومدنيتها، وترويج فكرة (صدام الحضارات\*) التي يعد لويس رائدها، بدلاً من طرح مفهوم التعايش السلمي، إنّ وضع لويس للغرب في معسكر الحضارة، يفرض على الشرق (الإسلام) أن يكون في المعسكر المضاد، والصراع بين المعسكرين لا محال سينتهي بسيطرة أحدهما على الآخر في النهاية.

استعمل لويس النظرة الاستعلائية الداعية بتفوق الغرب على غيره من الأمم، ووسم الأمة الإسلامية بالتخلف والعنف، عازياً ذلك للإسلام بوصفه دين الكراهية والدم، وهذه هي الصورة النمطية التي رسمها معظم المستشرقين عن العالم الإسلامي، وما زالوا يروجون لها حتى اليوم تحت ما يسمى بالإسلاموفوبيا<sup>(١)</sup>، وبتأليفه لكتب من مثيل (جنور الغضب الإسلامي، والعرب في التاريخ، وأزمة الإسلام)، بما تحمله من ضغينة وتجنّ واتهامات صريحة للإسلام بالعدوانية والحق، يكون قد روج لحنمية المواجهة بين الإسلام والغرب.

ساهم انتشار المصطلح إعلامياً في خلق ضاغط ثقافي غربي يدفع باتجاه إيجاد سبل لمواجهة هذا الخطر المُحدق، وأصبح تناول الظاهرة الإسلامية ومواجهة الغرب لها عن طريق توظيف العديد من المصطلحات ذات الدلالات السلبية

\* تتطلق هذه المقولة من الاعتقاد بأن هوية الحضارات ستغدو مهمة بشكل متزايد في المستقبل، إذ سيتشكل العالم إلى حد بعيد بسبب التدافع بين سبع حضارات رئيسية هي (العربية الإسلامية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الهندوسية، الأرثوذكسية، السلافية، اللاتينية وربما الأفريقية)، وإنّ النزاعات المستقبلية الأكثر أهمية وخطورة ستتشب على امتداد خطوط الاختلاف الثقافية، التي تفصل الحضارات عن بعضها البعض، وهي تصدر عن فرضية مفادها أن الفوارق بين الحضارات موضوعية وحقيقية ومهمة، وأن الوعي الحضاري يتزايد وأن الصراع الحضاري سيحل محل الصراعات الأخرى بما فيها الأيديولوجية. ينظر: معجم المصطلحات السياسية: ٤٤

(١) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، ٦٠

المرتبطة بالحكم على الظاهرة على أساس التطرف والراديكالية<sup>(١)</sup>، ومن هذه المصطلحات الأصولية الإسلامية، والإسلام السياسي، وغرسها في المجتمعات عبر توظيفها إعلامياً، وهو في نهاية الأمر تعبير عن الإسلاموفوبيا في الوعي واللاوعي الغربي<sup>(٢)</sup>.

إنّ المجتمعات في العصر الحديث قد طوّرت كثيراً من أسباب التنازع، لكنّ السبب الأكبر للتنازع هي النظرة المغلقة إلى نفسها وإلى غيرها، وأدى ذلك إلى زرع فكرة السمو والرفعة في الذات والدونية والانتقاص من الآخر<sup>(٣)</sup>. كما إنّ معاداة ما يسمّى بالإسلام السياسي، بل وحتى انتقاد الإسلام هو نتاج لسياقات محدّدة يجري التلاعب بها من مجموعة متنوعة من الفاعلين، لخدمة أجندات إيديولوجية أو سياسية، وانتقاد الإسلام المرتكز على الرواية النيواستشراقية لا يتعلق على نحو ما بالإسلام، بقدر ما يتعلق بأزمات الغرب الداخلية أو الدفاع عن صورة إسرائيل في الدول الغربية<sup>(٤)</sup>.

أثّرت ظاهرة الإسلاموفوبيا في واقع الحوار المسيحي الإسلامي وكانت سبباً رئيساً في رفض الآخر، الأمر الذي خلق توتراً بين الجانبين، تمّ توظيفه عبر الخلط بين العديد من المصطلحات التي تداخلت مع مصطلح الإسلام ممّا شكّل صورة

(١) راديكالية Radical: تعود الكلمة لأصل لاتيني وتعني بالفرنسية الأصل والجزر، وقد ظهرت بشكل ملفت نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وتعني التوجهات التي تنتهجها الأحزاب والقوى السياسية والفكرية باتجاه أعمال إصلاحات جذرية وتغييرات شاملة وعميقة، وقد تطلق على الحركات التي تنحو لتغيير النظام الاجتماعي والسياسي من جذوره. ينظر: موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة: محمد سبيلا ونوح الهرمزي، المركز العلمي للأبحاث والدراسات الإنسانية، الرباط، ط١، ٢٠١٧: ٢٥٧

(٢) ينظر: الأصولية المسيحية والصحة الإسلامية: يوسف العاصي الطويل، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ٢٠١٧ : ٢٦٨-٢٦٩

(٣) ينظر: حوار الثقافة والقيم والمجتمعات الثقافية: د. عبدالله ابراهيم، ثقافتنا للدراسات والبحوث، مج٥، العدد١٧، ٢٠٠٨: ١١٥.

(٤) ينظر: تيار الاستشراق الجديد والإسلام من الشرق الشيوعي إلى الشرق الإسلامي: أوليفيه موس، ١٠

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

نمطية مغلوطة عن الإسلام والمسلمين. ولا شك أنّ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية كانت سبباً مهماً في تأصيل وتجذّر استعمال هذا المفهوم في المجتمع الغربي<sup>(١)</sup>، لقد دافع لويس باستماتة عن ضرورة تحميل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ المعروفة حمولة ثقافية مؤيداً بذلك اتجاه هنتنغتون في مسعاه لشيطنة الآخر.

لم تنعكس ظاهرة الإسلاموفوبيا ((انعكاساً معنوياً فحسب على النظرة الكليّة للإسلام، بل إنّها امتدت لتصبح ذات تأثير على المسلمين، كما كانت العامل الرئيس لمعاملة المسلمين بعنصرية، واتخاذ الإجراءات المضادّة للأقليات المسلمة في الغرب...، وانعكست على الحوار بين الغرب والشرق فخرجت الكثير من الأصوات تطالب بنبذ الآخر وكراهيته ورفض التعايش معه وهو ما كان سبباً في توقف الحوار بين الطرفين))<sup>(٢)</sup>، فهي بمثابة "كره جمعي" ينتقل عبر ذاكرة المجتمع الغربي وعن طريق القصص التي يرويها الآباء، والتي تُبقي على الأحقاد والعداوات القديمة، والتي يتم إحيائها أحيانا لخدمة أهداف معيّنة في ظروف معيّنة بأيدي معيّنة لزيادة تلك التشوهات<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: الإسلاموفوبيا رؤية الآخر الإسلامي من منظور غربي: خلف محمد عبدالسلام بيومي، مجلة كلية الآداب والعلوم السياسية، جامعة السويس، مصر، ٢٥٤، ٢٠١٨ : ١٣١

(٢) ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢١ : ٢

(٣) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٤٢٩

## المطلب الثاني/ مكافحة الإسلام والمسلمين :

يبدو واضحاً أنّ الغرض الأساسي للاستشراق هو محاربة الإسلام، وانتزاع الأصالة منه، وتصويره على أنه هرطقة مسيحية، أو مقتبس من الديانات والثقافات السابقة، كما يتّضح جلياً أنّ العلاقة بين الغرب والإسلام علاقة معقدة وتراكمية، ولطالما كان الاستشراق في خدمة خطط الغرب في التعامل مع العالم الإسلامي، إذ وضع كبارُ المستشرقين أنفسهم في خدمة الكنيسة وأغراضها، وندروا أنفسهم في خدمة حكوماتهم الاستعمارية فمنذ أن رأى الغرب ظهور الإسلام وانتشاره وتوحيده لشعوب الشرق أدرك هذه المشكلة الخطيرة التي وجب عليه أن يتعامل معها، وكان تحصين المواطن الغربي وإكسابه مناعة فعّالة ضد الإسلام والمسلمين عن طريق تسميم عقله، وتلويث مشاعره ضد الإسلام والمسلمين أحد هذه الخطط الاستراتيجية التي وظّف الغرب لها عدداً كبيراً من المستشرقين.

لقد أصبح الاستشراق ((الطريق العلمي لاحتلال البلدان الإسلامية، وأصبح المستشرقون بوجهٍ عام موظفين في دوائر الاستخبارات، ووزارات الخارجية، ومستشارين لدولهم فيما يتعلق بمواقفها السياسية والحربية من الدول الإسلامية، وقام بعضهم بأدوار التجسس تحت ستار مزيف من الإسلام أو البحث الأكاديمي، ومنهم من دخل مكة وتظاهر بالإسلام))<sup>(١)</sup>، وعلى ما تقدّم فلا بدّ من إدراك وجود مقاصد (مؤدلجة) للمستشرقين، والإقرار بمناهضتهم الغريزية للإسلام<sup>(٢)</sup>.

يقول المستشرق الألماني المعاصر (ستيفان فيلد) في كلام طويل عن مخططات الاستشراق: ((والأقبح من ذلك أنّه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بدّ أن يعترف

(١) الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه: محمد الدسوقي، مؤسسة التوحيد للنشر، قم ايران، ط١، ١٩٩٦م: ٥١

(٢) ينظر: الاستشراق: إدوارد سعيد: ١١٨

به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة<sup>(١)</sup>، ومما سبق يبدو جلياً أنّ المستشرقين من القرن الثامن عشر الميلادي إلى القرن العشرين كانوا أخطر وسائل الاحتلال، وأنهم درسوا الشعوب الإسلامية دراسة شاملة، ليقدموا للقادة العسكريين كل أسباب النصر على هذه الشعوب، وهم في سبيل ذلك لا يقيمون وزناً للموضوعية ولا للأمانة العلمية<sup>(٢)</sup>.

يقدم برنارد لويس في كتاباته عن الإسلام والمسلمين، والعرب خصوصاً، تجربة متقدمة في مجال الدراسات الإسلامية، فهو يبحث عن بنية النص الإسلامي، مُنزعاً إياها من سياقها الاجتماعي والتاريخي، باتباع طريقة انتقائية في تناول المصطلحات والأحداث والمسميات التاريخية، من قبيل "الخلافة"، "الملك"، "الوطن"، "الشرع"، "الحشاشون"، "الشيعة"، "الخوارج"، وغيرها، على الرغم من اتساع رؤيته التدقيقية في تلك المصطلحات، ووفرة المعلومات والشواهد التي يستند إليها، والمنهجية الدقيقة التي يعرض بها النصوص.

فضلاً عن كونه يرى بأنّ الغرب اليوم يواجه حركة مناوئة تتمثل في الحضارة المضادة كما يسميها، فهي المنافس القديم للغرب، ويجب مواجهتها بأسلوب عقلاني بعيد عن العنجهية والتهور، بقوله: ((يجب أن يكون من الواضح اليوم أننا نواجه مزاجاً وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتبع هذه السياسات، إنّ هذا صراع لا يقل شأنًا عن صراع حضارات، لعلّه غير عقلاني، لكنّه رد فعل تاريخي لمنافس قديم ضد إرثنا المسيحي اليهودي، ضد حاضرنا العلماني وضد التوسع العالمي لكليهما. إنّهُ لمن المهم جداً أن لا تُدفع من جانبنا إلى رد الفعل على هذا المنافس؛ سيكون ردّاً تاريخياً وغير عقلاني

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية: محمود حمدي زقزوق، ٤٧

(٢) ينظر: الاستشراق بين النشأة والأهداف: اسماعيل عبد الفتاح مصطفى، ١١٥٦

أيضاً))<sup>(١)</sup>. وهنا نجد النفس المعادي والذي يوجه المتلقي، وخاصة السياسي ومن بيده القرار السياسي، لمحاربة الآخر المخالف له.

يعتمد المستشرقون الجدد في كثير من الأحيان على آراء مستشرقين سابقين لهم يكيلون التهم ويظهرون العداوة للإسلام والمسلمين، أمثال جورج سيل، الذي وضع لترجمته الصادرة عام ١٧٣٤م، مقدمة طويلة شنّ فيها هجوماً عنيفاً ومضلاً على القرآن المجيد، ولم يترك فرية إلا ورماه بها، فقد ادّعى أنّ القرآن ليس وحياً، وإنّه ليس معجزاً، وإنّه مستمد في معظمه من اليهودية، ليس في موضوعاته فحسب، بل وكذلك في تقسيمه إلى أجزاء وأحزاب، وسور وآيات. كما وصف محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه مؤلف القرآن<sup>(٢)</sup>. إذ يقول: ((أما أنّ محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح - مع ذلك - أنّ المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة))<sup>(٣)</sup>.

يحاول بعض المستشرقين أن يوهموا القارئ بما يدّعون من الموضوعية، وأنهم يناقشون الإسلام بحيادية وبأسلوب لا ينكر أية عقيدة من عقائد المسلمين، إلا أنّ هذه الحيادية سرعان ما تتبدد، حين يعمدون إلى إعادة إنتاج مقولات أسلافهم عن القرآن الكريم، إذ يشيرون في كثير من تعليقاتهم، تصريحاً و تلميحاً، إلى أنّ القرآن ليس معجزاً<sup>(٤)</sup>.

إنّ الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب، يلقي منهما كل تأييد، وإنّ الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية، من كونه أداة هدم

(١) جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس.

(٢) ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، ٣٢

(٣) الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق، ٨٧

(٤) ينظر: محمد في مكة: مونتغمري وات: ١١٢-١١٣

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساقُ المركزيَّةُ المهيمنةُ

للإسلام وتشويه سمعة المسلمين<sup>(١)</sup>، وعن التأثيرات المحيطة بالإسلام يقول لويس: ((خضع الدين الجديد والحضارة الوليدة في الوقت الذي كانا لا يزالان فيه فتيين ومطواعين، إلى تشكيلة مختلفة من التأثيرات، فالزرادشتيون في الأقاليم الشرقية والمسيحيون في الأقاليم الوسطى والغربية، فضلاً عن الأقليات اليهودية، كان لكلّ منهم قسط في تلك التأثيرات))<sup>(٢)</sup>، وهي محاولة بيّنة من لويس للانتقاص من الإسلام، ومكانته وتأثيره الاجتماعي والسياسي، عبر افتراضات تشكّك في أصالة الإسلام، وتدعم فكرة السطو الفكري، من أجل إقناع المسيحيين واليهود بالثبات على عقيدتهم، كما هو اعتراف صريح بمدى تأثير الجوار الإقليمي والدولي للشرق المسلم على صناعة فكر مضاد.

أشاع لويس نقلاً عن سبقة من المستشرقين فكرة (المحمدية\*) التي تصف المسلمين بالنتشدد لدينهم الموسوم باسم نبيهم، إذ ((يقرّر المسيو كيمون: إنّ الديانة المحمدية جذام بين الناس، أخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض ذريع))<sup>(٣)</sup>، فهو دين منسوب للنبي (ﷺ) وهو آفة فتاكة كما يصفه. والمحمدية تسمية مصطنعة يُراد منها الإساءة للإسلام، ((في حين أنّ "الإسلام" اسم لا يحتاج إلى وصف آخر، وقد سمّاه المستشرقون المحمدية كما تنسب المسيحية إلى المسيح، والبوذية إلى بوذا،

(١) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٣٦

(٢) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٩

\* المحمدية هي: التسمية الأوروبية للإسلام والمسلمين وهي تسمية تحمل عند ذكرها صورة مشوهة وغير صحيحة عن نبي الإسلام، الذي يدعون أنه وضع القرآن من عنديته، وشوّش على العالم المتحضر بدعوته الهمجية بزعمهم. ينظر: الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية: إدريس مقبول، د.ت، د. ط: والمحمديون Muhammadan كان الاسم شائعاً حتى القرن العشرين، وطبعت كتب عدّة يحمل عنوانها هذا الاسم مثل كتاب هاملتون جب، وشاخت، ودلالته دينية بخلاف دلالات الأسماء الأخرى التي هي إما عرقية، أو جغرافية، وهو مشابه للفظ المسيحيين Christians نسبة إلى المسيح (Christ) والبوذيين (Buddhist) نسبة إلى بوذا (Buddha) وفي الأدب الغربي الشعبي فُصِدَ بـ (المحمديون) أن المسلمين يعبدون محمد. ينظر: الإسلام والغرب بين أساطير الصدام وحقائق الانسجام: بشار بكور، تقديم: عبد النبي

أصطيف، ٢٠٠٨م: ٨٠. نقلاً عن Muslims and the West, John Esposito, 2002: p.137

(٣) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨: ٩



والكونفوشيوسية إلى كونفوشيوس، والتاوية إلى تاو، وكما يسمّى مذهب هيجل الهيجلية، ومذهب ماركس الماركسية<sup>(١)</sup>.

وفي هذا يقول لويس، لقد ((استمر الخوف من المحمدية حتى بعد أن دخل المجتمع الإسلامي مرحلة الانحطاط في الوقت نفسه الذي دخلت فيه أوروبا مرحلة النهضة، وربما مردّ هذا الخوف يعود إلى قرب عالم الإسلام إلى أوروبا، فالإسلام قريب جدًا وعلى تماس مباشر معها على العكس من بقية الأديان، وهو ما أثار ذكريات العداة والاحتلال والحروب الإسلامية ضد أوروبا، وقوة الإسلام الكامنة المؤهلة لإرباك الغرب<sup>(٢)</sup>))، وهو بهذا الاعتراف ينطق علنًا بنسق الخوف الذي يملأ وعي الغربي تجاه الإسلام، ذلك الخوف من استعادة مكانة الإسلام والسيطرة على العالم، ومنه أوروبا.

إنّ هدف المستشرقين من توجيه الاتهام للإسلام بأنه دين (محمدي) هو للقول بأنه دين بشري أوجده النبي محمد بنفسه، وفي ذلك يقول المستشرق موريس بوكاي: ((هدف إطلاق التسميات (الدين المحمدي) و(المحمديين) حتى في أيامنا هذه غرس الاعتقاد الخاطيء في الأذهان بأنّها عقائد منتشرة بفعل إنسان، وليس لله فيها - في مفهوم المسيحيين - أيّ مكان، وإنّ كثيرًا من مثقفينا المعاصرين يعنون بمقومات الإسلام الفلسفية والاجتماعية والسياسية ثم لا يتساءلون عن ماهية الوحي الإسلامي، إنهم يطرحون استناد محمد على ما سبق ليعيدوا بهذه الطريقة عن الذهن كل اتصال له بمسألة الوحي<sup>(٣)</sup>)).

(١) التراث والتجديد: حسن حنفي، مؤسسة هنداوي، ط٤، ٢٠١٩: ٩٠

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ٣٥

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ترجمة: حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٩٠: ١٤

### المطلب الثالث/ القرآن في نظر لويس:

يشير لويس إلى أنّ القرآن الكريم هو الكتاب المقدّس عند المسلمين، ولكنّه ليس مثل الكتاب المقدّس عند النصارى، فهو كتاب واحد بالنسبة لجميع المسلمين، ويقول: ((لو أردنا المعنى الحرفي، فهو كلمة الله أملي على النبي بواسطة جبريل، ويرى معظم المؤرخين أنّه سجل أصيل لتعاليم محمد ﷺ ونشاطاته، ويعود تاريخه إلى حياة محمد ﷺ، وجمع منقّحاً بعد وفاته))<sup>(١)</sup>، وقد جعله في تعريفه هذا مقتصرًا على تسجيل أعمال الرسول ﷺ ونشاطاته، وهو تجاهل متعمّد لحقيقة القرآن وإعجازه، القصد منه تهميش القرآن الكريم عبر التقليل من أهميته، وضرب مركزيته وهو أقدس مقدّسات المسلمين، والنظر إليه على أنّه سجل لأحداث تاريخية في زمن الرسول ﷺ، متناسيًا جوانب إعجاز هذا الكتاب المقدّس بما احتواه من لغةٍ بديعة، ونظمٍ مخالف لكلّ نظمٍ معهود على لسان العرب، ورقة الأسلوب، وجزالة التعبير، التي لا تصحّ من مخلوق بحال، والإخبار عن الغيبات وتاريخ الأمم السابقة، وتعاليم الدين والأخلاق، والأحكام الشرعية من الحلال والحرام: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣ التوبة)، والوعد بالنصر للمسلمين الذي تحقّق بالفعل في قوله تعالى: ﴿الْمُ غَلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم ١-٣).

لطالما ردّد المستشرقون المتقدمون مقالة أنّ النصّ القرآني منتج ثقافي شفوي، في حين وجد آخرون أنّ مجيء القرآن كان مذهلاً للعرب؛ لأنّه لم يكن مشابهاً لأيّ أدب آخر عرفوه من قبل<sup>(٢)</sup>، فيما رأى بعضهم مثل شاخت أنّ القرآن لم يكن قادرًا على استيعاب كل التطوّرات الإدارية والشعبية والاجتماعية، وإنّه كتاب نزل في مرحلة معيّنة وما كان

(١) الإسلام في التاريخ، برنارد لويس: ١٩٣

(٢) ينظر: الإسلام في مرآة الغرب محاولة جديدة في فهم الإسلام كارين ارسترونغ، تر: محمد الجوار، دار الحصاد،

دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٢: ٥٦.

باستطاعته أن يتجاوزها إلى مراحل متقدمة، وكان إكمال القوانين والأحكام نتيجة الأجيال اللاحقة<sup>(١)</sup>، في حين يقول رب العزة والجلال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل ٨٩).

تميّز القرآن الكريم بالتناسب في جميع ما تضمّنه القرآن ظاهراً وباطناً من غير اختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢ النساء)، فضلاً عن آيات الإعجاز العلمي الكثيرة التي دعت موريس بوكاي إلى القول عنها: ((إنه لا يتناقض موضوع ما من مواضع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية، وإن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المُعالَجة، فهناك قصة الخلق، وعلم الفلك، وعلم الأرض وعالم الحيوان وعالم النبات، والتناسل الإنساني، وقد دفعني لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟))<sup>(٢)</sup>، يقول تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف ٣)، ويشير لويس إلى أن التوراة فيها أخطاء علمية ضخمة، بينما لا نكتشف في القرآن أي خطأ، وهو اعتراف صريح من المستشرق برنارد لويس بكمال القرآن وخلوه من النقص والتحريف والخطأ كما ادعى بعض سلفه من المستشرقين، واتفاقه مع الحقائق العلمية الحديثة وقد نبأ بها وأخبر عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وهو ما جاء في الذكر الحكيم: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢).

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الإسلام: إيجناس جولدتسيهر، نقله إلى العربية وعلق

عليه: محمد يوسف موسى وآخرون، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م : ٣٦

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، القاهرة، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي بيروت، ط ٣، ١٩٩٠:

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

إنّ النسق الثقافي المركزي الذي يمكن تلمّسه بشكل واضح، هو محاولات المستشرقين ومنهم لويس تثبيت فكرة كتابة وتحرير وتنقيح القرآن الكريم بعد وفاة الرسول (ﷺ)، والهدف من ذلك هو الطعن في صحّة هذا الكتاب، وفتح الباب أمام التشكيك في آياته وأحكامه، إذا ما أثبتوا أنّه دُوّنَ في المرحلة الزمنية اللاحقة لوفاة الرسول (ﷺ)، وأنّه قد يكون تعرّض للزيادة والحذف، لأنّه جُمع من صدور حفظته وقراطيسهم، الذين مات كثير منهم في المعارك، وهذا هدف استشراقي مركزي مهم يؤثر في مركزية الكثير من معتقدات المسلمين بقديسية كتابهم ونقائه وصحته.

يتساءل لويس مفسراً غياب الدراسات النقدية للنصوص المقدّسة (القرآن الكريم) عند المسلمين بقوله: ((يعارض الأصوليون علماء العقيدة الليبراليين\* والمحدثين الذين يميلون إلى نظرة أكثر نقدية تاريخية للنصوص المقدّسة، ذلك أنّ علماء العقيدة المسلمين لا يزال ينقصهم مثل هذه النظرة الليبرالية والنقدية للقرآن، وهكذا فمعظم المسلمين يلتزمون على الأقل من ناحية المبدأ النظرية الأصولية))<sup>(١)</sup>، ويعرّج لويس بثناء على بعض الدراسات النقدية للنص القرآني\* التي ترى ضرورة العودة إلى الوحي القرآني بمنهج فكري جديد، عبر علم عقيدة وفلسفة جديدين يسعيان إلى مناقشة وخلق مبادئ أخلاقية ذات مصداقية مستقلة عن السياق الاجتماعي والسياسي الذي يظهر في القرآن<sup>(٢)</sup>.

\* الليبرالية: تقليد في الفكر السياسي يتركز في قيمة الحرية الفردية وعلاقتها بالدولة، ويقال أن الأفراد لهم حقوق غالباً ما تكون حقوق طبيعية، وجودها مستقل عن الحكومة أو عن المجتمع، مكونة قاعدة القيود الدستورية على صلاحيات الحكومة، وهي بهذا المعنى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلطة الأدنى للدولة، إذ أن الحكومة ليست سوى أداة للإبقاء على الإطار الاجتماعي والسياسي الضروري للعمل الفردي الحر. ينظر: معجم المصطلحات السياسية، معهد البحرين للتنمية: ٥٤

(١) الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مازن مطبقاني: ١١٨، نقلاً عن: اللغة السياسية في الإسلام،

برنارد لويس: ١١٨

(\* يذكر برنارد لويس دراستي محمد أراكون وفضل الرحمن

(٢) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مازن مطبقاني: ١٤٨

يسير لويس في الخط الاستشراقي الداعي إلى دراسة القرآن دراسة نقدية، كما حدث مع دراسة نصوص التوراة والإنجيل، معتمداً على مبدأ الشك في النص أو الرواية متناسياً حقيقة ((أنَّ العرب يعنون بإخراج النصوص الصحيحة الموثوقة الثابتة عناية تفوق ما يفعله محققو اليوم من العرب أو المستشرقين))<sup>(١)</sup>، وهو الأمر الذي يقف عائقاً أمام نجاح كل محاولة استشراقية للتشكيك في النص القرآني بهذه الطريقة النقدية، لقد طبَّق المسلمون الأوائل منهج المقابلة والمطابقة، وتحري الصدق والأمانة في جمع وتدوين القرآن الكريم حتى الوصول لليقين القطعي، وهي صفة الباحث الحقيقي<sup>(٢)</sup>.

إنَّ الشبهات التي يتهم بها المستشرقون القرآن الكريم هي شبهات واهية، تتبع من تعصّبهم لعقيدتهم، فقد كان لبعض المستشرقين كتابات شكّات صدئاً لأفكارهم الدينية، وتأثّرهم بعقيدتهم، وقد غلب هذا السلوك على كثير منهم، كالأب لامنس، وبارك كراوس، وبرنارد لويس، وغيرهم، الذين وصفوا القرآن الكريم بأنه نسيج من السخافات وبأنَّ الإسلام مجموعة من البدع، وأنَّ المسلمين وحوش<sup>(٣)</sup>.

ف نجد لويس يحرص على التشكيك في القرآن حينما يعبر عنه بأنه جُمع منقحاً بعد وفاة الرسول (ﷺ)، وهذا افتراء واضح يُراد منه نسبة القرآن الكريم لمؤلف بشري وهو الرسول الأكرم (ﷺ)، فالتنقيح تحتاجه الكتابة البشرية، لكن القرآن الكريم لم يحدث فيه تنقيح لا حين جُمع ولا قبل ذلك، كما إنّه يضع الإشارات التي توحى لتوجيهه للقارئ بأنَّ القرآن من تأليف الرسول، ومنها قوله : ((من عمل كاتب واحد))<sup>(٤)</sup>. ولويس يتابع من سبقه من المستشرقين

(١) علم الاكتناه العربي الإسلامي: قاسم السامرائي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠٠١ : ٧٣

(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقي : ساسي سالم الحاج، ٣٩٤

(٣) ينظر: إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين: عادل عباس النصراوي، مطبعة الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠١٦:

(٤) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، ١٣١

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

في قوله بأن القرآن الكريم قد جُمع وكُتِب وحُرر في عهد الخلفاء، ومنهم جولدتسيهر\*، ومونتغمري وات\*، وبلاشير\* وغيرهم<sup>(١)</sup>.

ينسب المستشرقون أول عملية لجمع القرآن الكريم وتدوينه إلى الخليفة الأول أبي بكر<sup>(٢)</sup>، وقد عمد أهل السنة من أجل التأكيد على هذا الرأي "جمع القرآن من أبي بكر" إلى رواية أحاديث تقول: "إنَّ أبا بكر هو أول من جمع المصحف"<sup>(٣)</sup>، وهو ما يؤكده ريجيس بلاشير من أن النبي (ﷺ) لم يعط أهمية لكتابة النص القرآني في حياته، لاسيما في العهد

---

\* جولدتسيهر: مستشرق مجري ولد ١٨٥٠، لأسرة يهودية ذات مكانة وقدّر كبير، درس في بودابست وبرلين، عمل في التدريس بجامعة بودابست، ثم انتقل إلى فيينا ولبدن والقاهرة وسوريا وفلسطين، توفي عام ١٩٢١، له (٥٢١) بحثًا وكتابًا في القضايا الإسلامية. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي: ١٩٧

\* ويليام مونتغمري وات: مُستشرق إنجليزي معاصر، وُلد في ١٩٠٩، وتوفي عام ٢٠٠٦، عمل رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدينبورغ، نال درجة الأستاذية عام ١٩٦٤، دعي للعمل أستاذًا زائرًا في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو، وكلية فرنسا في باريس، وجامعة جورج تاون بواشنطن، أصدر العديد من المؤلفات؛ منها: (محمد في مكة)، و(محمد في المدينة)، و(محمد نبي ورجل دولة)، و(الفلسفة الإسلامية والعقيدة)، و(الفكر السياسي الإسلامي)، و(تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى)، و(الأصولية الإسلامية والتحديث)، و(العلاقات الإسلامية النصرانية)، و(حقيقة الدين في عصرنا)، وكتاب: (الفترة التكوينية للفكر الإسلامي) سنة ١٩٩٨م، و(موجز تاريخ الإسلام) سنة ١٩٩٥م، وغيرها ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، ١١٥ - ١٢٦

\* ريجيس بلاشير: ولد عام ١٩٠٠ في باريس، سافر مع والده للمغرب ودرس هناك، أكمل دراسة الماجستير في الجزائر وحصل على الدكتوراه من جامعة باريس، عُين أستاذًا للغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، وشغل كرسي اللغة والادب في السوربون حتى تقاعده، له الكثير من الكتب والمؤلفات أبرزها (تاريخ الادب العربي، وترجمة القرآن إلى الفرنسية)، توفي عام ١٩٧٣. ينظر: موسوعة المستشرقين، ١٢٧.

(١) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢ : ٣٠-٣٢ .

(٢) ينظر: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ريجيس بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب بيروت، ط١، ١٩٧٤ :

٣٠-٣١

(٣) مقدمتان في علوم القرآن : العاصمي ، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٤ : ٢٣.



المكي الذي امتدَّ حوالي ثلاثة عشر عامًا، وبقي القرآن النازل بمكة محفوظًا في ذاكرة المسلمين، وأنه بدأ بكتابة النصوص المهمة خلال العهد المدني<sup>(١)</sup>.

بلا شك فإنَّ برنارد لويس تأثر بشكلٍ أو بآخر بمن سبقه من المستشرقين، وسار في طريق المدارس الاستشراقية الغربية، واستقى من تلك المصادر والمرجعيات ما يخدم أهدافه وغاياته، وإنَّ مجموع تلك المرجعيات ساعدت لويس في النظر إلى النص القرآني بوصفه كلاً لا يتجزأ، لأنَّه يسعى إلى هدفٍ واحد، وينطلق من فلسفة منسجمة متناسقة، على الرغم من سعة فضائه وتعدّد مضامينه وطول مدة تلقيه، فلويس من المستشرقين الذين يرون أنَّ القرآن قد جُمع في المدينة وبعد سنة (٦٢٢م) وهو زعم بلاشير<sup>(٢)</sup>، وهو بهذا الرأي مخالف لروايات المسلمين التي تنص على أنَّ القرآن المنزَّل كان مكتوبًا مفرقًا في الرقاع واللخاف والعسب والأكتاف، ولم يكن مرتب السور والآيات لأنَّه كتب أولاً بأول، ولم يُجمع مرتبا كاملا في صحيفة واحدة لتوقع نزول المزيد منه<sup>(٣)</sup>. ومن المسالك التي انتهجها المستشرقون أيضا، هي نسبة القرآن الكريم إلى الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) كلٌّ بحسب عقيدته وانتمائه، وهو منهج غالب باستثناء القليل منهم، وهذه الرؤية نابعة من ثقافتهم المسيحية، لفرض هيمنتهم على المسلمين، وتبعية الإسلام للمسيحية، ولغرض إفراغ القرآن من محتواه الفكري والمعرفي<sup>(٤)</sup>. متناسين أنَّ التشابه بين القرآن الكريم والكتب السابقة ناتج عن وحدة المصدر، أمَّا التشابه بين قصص الكتاب المقدس وبين القصص القرآني فمرفوضة تماما لانعدام أي

(١) ينظر: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ريجيس بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب، بيروت، ط١، ١٩٧٤:

(٢) ينظر: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ريجيس بلاشير: ٢٩

(٣) ينظر: الوحي والقرآن الكريم: محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٦م: ١٢٩-١٣٠

(٤) إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين، عادل عباس النصاروي: ٦١-٦٢

تأثير يهودي أو نصراني في الحياة الجاهلية، وهو ما أكده القرآن الكريم بقوة، وأيدته الاخبار المتواترة<sup>(١)</sup>.

### المطلب الرابع/ النبي الأكرم محمد (ﷺ) في نظر لويس:

على الرغم من أن بعض الأحداث المهمة مثبتة تاريخياً ولا يختلف عليها أثنان من المؤرخين، إلا أن لويس يحاول التشكيك فيها، ومنها ولادة الرسول الأكرم إذ يقول: ((ويبدو أن النبي ولد في مكة بين ٥٧٠-٥٨٠ ميلادية في بيت بني هاشم، وهو بيت مشهور من بيوتات قريش، وإن لم يكن أحد أفراد الأوليغاركية\* الحاكمة))<sup>(٢)</sup>، وهو في هذا الأمر يخالف معظم المستشرقين الذين يوافقون المؤرخين في تاريخ السيرة النبوية، كما يظهر تعبيره بـ(بيدو) للتشكيك في سنة ولادة النبي (ﷺ).

ويذكر أن المسلمين قد صاروا أمة وشكلوا دولة بقوله: ((أصبح المسلمون في حياة محمد (ﷺ) مجتمعاً سياسياً ودينياً معاً، والنبي رئيس الدولة، بصفته هذه حكم أرضاً وشعباً، أقام العدالة، وجمع النصوص، وقاد الجيوش، وشنّ الحروب وأرسى الإسلام))<sup>(٣)</sup>، فهو يستعرض نمو الإسلام من دويلة صغيرة إلى دولة إمبراطورية عظمى، قادها وحقق مجدها الرسول محمد (ﷺ) وختم حياته بتحقيق ما سعى إليه في حين لم تحقق المسيحية طموحاتها بعد، ولا اليهودية كذلك، وهو نصٌ يحوي من الحسد شيئاً كثيراً وواضحاً على ما تحقق للإسلام من منجز.

(١) ينظر: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق ١٩٨٥: ٢٤٦ وما بعدها.  
\* الأوليغاركية أو الأوليغارشية: وتعني حكم الأقلية وهي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع، وهي امتداد للحكم الأرستقراطي حين يفسد ويدخل مرحلة الانهيار. وكلمة ((أوليغاركية)) مشتقة من الكلمة اليونانية: أوليغارخيا. وغالباً ما تكون الأنظمة والدول الأوليغاركية يسيطر عليها من قبل عائلات نافذة معدودة تورث النفوذ والقوة من جيل لآخر. ينظر: موسوعة السياسة: عبد الوهاب الكيالي وآخرون، الجزء الأول، المؤسسة العربية

للدراستات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م: ٤١٥

(٢) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٤٩

(٣) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٤٥



يقسم لويس سيرة الرسول الأكرم (ﷺ) على مرحلتين أساسيتين، بقوله: ((تقع سيرة النبي محمد [ﷺ] وهي الأنموذج الذي يسعى جميع المسلمين حسني الإسلام إلى تقليده في قسمين، القسم الأول إبان سنيّه في مسقط رأسه، مكة (٥٧٠-٦٢٢) مناوئًا الأوليغارشية الوثنية في المنطقة، وكان في القسم الثاني بعد انتقاله من مكة إلى المدينة المنورة (٦٢٢-٦٣٢) رئيسًا للدولة))<sup>(١)</sup>، وإنّ انعكاسات هاتين المرحلتين قد ظهرت في أثناء القرآن الكريم، وهما مرحلة المقاومة ومرحلة الحكم، إذ تُفرض على المؤمنين في مواضع مختلفة منه طاعة ممثل الله وعصيان فرعون، مثال الحاكم الظالم المتجبر<sup>(٢)</sup>، وهو الأمر الذي ألهم المسلمين -بحسب لويس- اتخاذ أسلوب حياتي ذو طابع مزدوج الوجه، إذ يتم اختيار الوجه المناسب بحسب الوضع القائم فيه، فقد ألهم وجهها حياة النبي [ﷺ] وعمله هذين تقليدين إسلاميين، أحدهما يُخضع الأفراد لمصلحة الدولة بهدوء، والآخر راديكالي ناشط، انعكس كلاهما بإسهاب في تطوّر التقليد من جهة، وفي كشف الأحداث من جهة أخرى<sup>(٣)</sup>.

يصف لويس الأمة الإسلامية بالغموض وعدم وضوح الأهداف في مقولة ظالمة، ووصف غير منصف من مستشرق كبير ومؤثر مثله، وفيه من الإجحاف الشيء الكثير، فنجد في حديثه عن ثيوقراطية الإسلام يقول: ((مصدر القانون هو الله وحده، والحاكم الأعلى -يقصد الخليفة- لا يضع القانون، بل إنّه نفسه مقيدّ بالقانون الذي وُجد قبل منصبه، وبما أنّ الحاكم رقيب على القانون السماوي فإنّ إطاعته واجب ديني))<sup>(٤)</sup>، وهو بهذا النص يؤدي حركة انتقاص واضحة للإسلام ومن يمثّل الإسلام من الخلفاء العاملين بالقانون الإلهي

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٤٨

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩

(٤) استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية: برنارد لويس، تعريب وتعليقات نقدية: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر،

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

والشريعة السماوية ووجوب طاعتهم من المسلمين، وهو إنما يريد المقارنة مع الأنظمة الديمقراطية الغربية التي تضع القوانين وتتصّب الحكام.

يتحدّث لويس عن شخصية النبي محمد {صلى الله عليه وآله وسلم} في نظر المسلمين بقوله: ((محمد في نظر أتباعه خاتم الرسل وأعظمهم، بُعث ليبلغ الجنس البشري كلمة الله، وحياته ونجاحه عندهم رُسما من قبل، وتحتم حدوثهما، وقد كسا خيال المسلمين الورعين الذين جاؤوا فيما بعد شخصية الرسول الغامضة بنسيج أسطوري غني متعدّد الألوان من الخرافات والأساطير والمعجزات، غير عالمين بأنهم يسلبونه واحدةً من أهم صفاته الجذابة حين يقلّلون من قيمته الإنسانية التاريخية الحقيقية))<sup>(١)</sup>، ثم يعرّج على ذكر الغرب في العصور الوسطى لأساطير عن شخصية النبي يصفها لويس بغير المعقولة، وأنها تهجمات جدلية بذئنة وطعن ساخر، منها ما صوّره "فولتير" للنبي محمد كـ"شيطان من الشياطين أو إله دجال، يعبد عبادة عريضة في ثالوث غير مقدس"، وتصويره من (دانتي) كرئيس للهرطقة، وناشر للوشايات والفضائح والشقاق، ودجال خبيث أناني، أقدم على أثر فشله في الفوز بكرسي البابوية على ادّعاء النبوة<sup>(٢)</sup>، محاولاً لويس بذلك دس هذه الصفات على أنها اتهامات غريبة لشخصية النبي الأكرم {صلى الله عليه وآله وسلم}، وأنه غير مقرّ بها.

يمكن اكتشاف غاية معظم المستشرقين من غرس فكرة معرفة الرسول للقراءة والكتابة قبل البعثة، وهي الطعن بالقرآن الكريم وإنه ليس من عند الله، فضلاً عن الطعن في مصداقية الرسول ووقفه وراء تأليف القرآن، وأنّ القرآن موضوعٌ ومختلق. ولويس هنا في موافقته وطرحه لهذا الرأي يمارس حالة من التماهي مع النسق المركزي الذي سار عليه من

(١) العرب في التاريخ، برنارد لويس: ٦٢

(٢) ينظر: العرب في التاريخ، برنارد لويس: ٦٢-٦٣

سبقة من المستشرقين، إذ يقول لويس: ((تثير مشكلة خلفيّة الرسول ﷺ الروحانية كثيرًا من التساؤلات، فمن البين أنّه كان في ظلّ المؤثرات اليهودية والنصرانية..، وذلك لأنّ فكرة التوحيد والعناصر الكتابية الكثيرة في القرآن تثبت ذلك))<sup>(١)</sup>.

ويقول في موضع آخر: ((وتقول الأخبار الإسلامية إنّه كان لا يقرأ ولا يكتب، وقد يكون هذا الأمر وقد لا يكون، ولكنّ روايته للقصاص الكتابية تُشير إلى أنّه قد حصل على معلوماته الكتابية بطريقة غير مباشرة، ومن المحتمل أن تكون من التجار والرحالة اليهود والنصارى الذين كانت معارفهم خاضعة للتأثيرات المدراسية اليهودية والأبوكرافية\*\*<sup>(٢)</sup>). ولويس ليس الوحيد ممّن أورد هذه الشبهة فقد سبقه الكثير من المستشرقين منهم توري وبراهاام كاتش وسبرنجر ونولدكه))<sup>(٣)</sup>.

ولابدّ أن يكون لويس قد تأثر بمن سبقه من كبار المستشرقين، وسار على نهجهم، ومن هؤلاء المستشرقين جولدتسيهر الذي يقول: ((فتبشير النبي فيما يخص الدار الآخرة، ليس إلّا مجموعة موارد استقاها من الخارج يقينًا، وأقام عليها التبشير، لقد أفاد من تاريخ العهد القديم وقصص الأنبياء ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل، بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في

(١) العرب في التاريخ: ٤٩-٥٠

\*\* المدراسية: نصوص يهودية في تفسير الكتاب المقدّس في الكتابات الربانية والتفسير المدراسي لا يسعى للبحث عن المعنى الواضح للنصوص المقدّسة بقدر ما يبحث في العلاقات بين الفكرة أو القضية التي يتناولها الكتاب المقدّس والمضامين الاجتماعية والثقافية لليهود، والأبوكرافية: مجموعة من النصوص اليهودية التي استعدها اليهود من كتابهم المقدّس لأن علماءهم عدّوها نصوصًا غير موحى بها، ولذا ترى اليهودية أنّ الأبوكرافيا تعليمية وليست نصوصًا مقدّسة. ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، ١٣٢، نقلًا عن القاموس الدولي للدين، أر. كينيدي، نيويورك، ١٩٨٤.

(٢) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٥٠

(٣) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، ١٣٢.

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساقُ المركزيَّةُ المهيمنةُ

طريقهم))<sup>(١)</sup>، فهو يتَّهم النبي الأكرم(ﷺ) بأنه يستقي معارفه وآراءه الدينية من الديانات السابقة، فهو يمدح تلك الديانات عاذاً إياها جديرة بإيقاظ عاطفة الناس الدينية، ومن جانب آخر يهدم صرح الإسلام باتهامه هذا، فلا يعود له قيمة مستقلة، إذ القرآن بحسب "جولدتسيهر" نسخة مستحدثة عن تلك الديانات.

ينتقل لويس من التحليل التاريخي إلى الجوانب السياسية للحكم الإسلامي حين يمر بالسلطة المطلقة للحاكم الإسلامي، وإعمامه أن القانون الإسلامي يخول الحاكم مطلق السلطة في الأمور كلها، وعدم وجود آلية لمحاكمة الحاكم عن شرعية أو قانونية أي إجراء أو أمر يقوم به، وهو إمام غير مقبول، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق هي قاعدة فقهية ثابتة، فالخروج على الحاكم إذا تغيَّر حاله وتَقَضَّ العقد الاجتماعي الذي أُخْتِير على أساسه، مقرّة في النظام الإسلامي.

كما يذكر لويس السنّة النبوية إن معنى السنّة في بلاد العرب القديمة هو "طريقة الإسلام" و"عادة القبيلة"، وما زالت تعني في العصور الإسلامية المبكرة "التقاليد الحية والنامية للمجتمع" التي تطوّرت بأعمال وسياسات الرسول [ﷺ] والخلفاء الأوائل<sup>(٢)</sup>، وهو مقتبس من تعريف المستشرق اليهودي جولدتسيهر، وقد نبّه القرآن الكريم إلى مكانة السنّة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النساء ٥٩)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء ٨٠) وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ٤٤)، وهي آيات تؤكد مكانة السنّة في التشريع كونها تفصّل وتبيّن وتشرح وتبسّط تشريعات و أحكام وتوجيهات القرآن الكريم، وهي ((تشريعات

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام: إيجناس جولدتسيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى وعلي حسن وعبد العزيز عبد الحق، طبع الهيئة العامة للمطابع الاميرية، القاهرة، ٢٠١٣: ١٥ . منقولاً من: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، إعداد: علي عبد الحليم محمود، بحوث المؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، طباعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، الرياض، ١٩٨١: ٤٤١.

(٢) ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الاسلامي: مازن مطبقاني، ٥٥

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

مذكورة في السنة ومعروفة منذ الصدر الأول للإسلام ولم تأت نتيجة التطور والتدرج كما ذهب إلى ذلك جولدتسيهر<sup>(١)</sup>، وقد اندثرت العادات والأعراف الجاهلية وحلت محلها سنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

إننا نرى أنّ المستشرقين عندما يتناولون الحضارة الإسلامية بالدرس والتحليل، فإنهم يطبقون عليها المنهج التاريخي، ومن هنا كان تصنيفهم للتاريخ الإسلامي ومفكره على نمط العقلية الغربية، فهم إذا ما تحدّثوا عن الرسول الأكرم محمد [ﷺ] قالوا: إنّه كان تاجرًا ميسورًا، وعندما يتناولون دعوته يقولون: إنّها جاءت لانقضاء على الارستقراطية القرشية، وعندما يتحدثون عن نضاله وجهاده يقولون: إنّ لديه أغراضًا سياسية يرمي إلى تحقيقها بالقوة المسلحة للوصول إلى السلطة والهيمنة على الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>. وهو بالتأكيد تهجم وتعدّ صارخ على الإسلام ورموزه وتاريخه.

بالتالي فقد سار برنارد لويس في الطريق ذاته الذي سار فيه الكثير من المستشرقين غير المنصفين، من حيث المبالغة في إصدار الأحكام والتجني على الإسلام بعيدًا عن الموضوعية، والمغالاة في كتاباتهم عن الإسلام والسيرة النبوية، وأثاروا شكوكًا كثيرة حولهما.

(١) نقد الخطاب الاستشراقي : ساسي سالم الحاج، ٤٨٣.

(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقي، ساسي سالم الحاج: ١٦٧.

## المبحث الثاني

### الإسلام والديانات الأخرى

#### المطلب الأول/ صراع الهيمنة بين المسيحية والإسلام:

يرى لويس بأنّ المسيحيين والمسلمين قد تنبّهوا لخطر أحدهما على الآخر، فالمسلمون يدركون خطر المسيحية المباشر على الإسلام، أكثر من بقية الديانات، لتقارب الديانتين وتصارع أتباعهما، للسيطرة على العالم، فقد ((أدرك المسلمون منذ وقت مبكر اختلافات معينة بين شعوب (دار الحرب) ولم تكن معظم تلك الشعوب المشتركة أو الوثنية تمثل خطراً جدياً على الإسلام، وكان دخولهم فيه أمراً متوقعاً، كان هؤلاء في آسيا وأفريقيا بصفة أساس، أمّا الاستثناء الرئيس فكان المسيحيون الذين يعرفهم المسلمون بأنهم أصحاب ديانة من نوع ديانتهم وعليه فهم غرماؤهم الأساس في صراع الهيمنة على العالم))<sup>(١)</sup>. فهو يقرأ مُفترضاً ما فكّر فيه المسلمون تجاه الخطر الغربي المحيط بهم المتمثل بالمسيحية، وكيفية تعاملهم مع هذا الخطر، والآليات الواجب اتباعها للحد منه على أقل تقدير إن لم نقل القضاء عليه.

ويرى أيضاً بأنّ صراع الوجود بين الديانتين له نتائج مهمة ومؤثرة، إذ يقول: ((كانت المسيحية هي الديانة السابقة والإسلام الديانة اللاحقة، من حيث الترتيب الزمني، وكان لهذا نتائج هامة بالنسبة لمواقفهما المتبادلة، فراح كل منهما ينظر إلى نفسه على أنّه الوحي الخاتم لغرض الله للإنسانية))<sup>(٢)</sup>. ويمكن لنا أن نستقرأ تجليات هذا الصراع ضمن النقاط الآتية:

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ٧٠

(٢) الإيمان والقوة ، برنارد لويس: ٢٨

### أولاً/ التخوف من عودة هيمنة الإسلام:

يُبدى الكثير من المستشرقين إعجابهم بمسيرة الإسلام، وكيفية صنعه لدولة عظمى قائمة على أسس وقيم اجتماعية وإدارية واقتصادية ناجحة وفاعلة، استمرت تحكم لفترات طويلة من الزمن، هيمنت فيها على أجزاء واسعة من العالم، امتدت في أراضي آسيا وأفريقيا وأوروبا، لكن البعض منهم يبدي خوفه من عودة هيمنة الإسلام على مقاليد حكم العالم، ولويس براوده هذا الخوف، وهو ما يتضح عن طريق قوله: ((كان انفجار الاهتمام الأوروبي الحديث بالإسلام جزءاً مما دُعي به (الانبعاث الشرقي) وهي مرحلة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حين اكتشف الباحثون الشرق من جديد، وقد نُظر إلى الإسلام باعتباره جزءاً من الشرق يشاطره غموضه وأسراره وفساده وقوته الكامنة، وقد شكّل الإسلام تهديداً عسكرياً مباشراً لأوروبا على مدى مئات السنين، كما شكّل مأزقاً فكرياً للمسيحيين في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، الذين استمروا يرونه شكلاً من أشكال النفاق والردة))<sup>(١)</sup>، فهو تخوف من عودة هيمنة الإسلام، يتحرك وفق نسقٍ مُضمّرٍ من تهديدٍ عسكريٍّ مباشرٍ للغرب، ومأزقٍ فكريٍّ يحاكم مقولات المسيحية المزعومة، مع إدراكهم نتائج هذا الفكر الإسلامي على مدى قرون.

وبحسب لويس فإنّ هذا الفكر لا بدّ له من عودةٍ يوماً ما فقد ((قدّم الإسلام على مدار ما يربو من ألف سنة المنظومة الشاملة المقبولة الوحيدة من القواعد والمبادئ التي تنظّم الحياة العامة والاجتماعية، حتى في عهود ذروة النفوذ الأوروبي، في البلدان التي حكمت فيها القوة الإمبريالية\* الأوروبية أو فرضت هيمنتها عليها، وفي عهود استقلال تلك البلدان، ظلّت الأفكار والمواقف الإسلامية عميقة التأثير، واسعته، ثمّة علامات عدة اليوم على أنّ

(١) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٤٣

\* الامبريالية: هي استعمار أو احتلال أو نزعة تسلطية من بعض الدول للاستحواذ على بعض الأقاليم المستقلة أو شبه المستقلة، بالسيطرة الاقتصادية والسياسية. ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد عمر، ط١،

تلك الافكار والمواقف ربما كانت في طريقها إلى العودة مجدداً، ولو بصيغ معدلة، لاستعادة سابق هيمنتها<sup>(١)</sup>، وهو ما يثير قلق وتخوف الغرب من تلك العودة، إذ لن يهناً للغرب بال إلا إذا استحوذ على كل شيء، فالهوامش المحيطة به ترتفع تارة وتسقط أخرى، لذلك فهي تشكل خطراً مستمراً على مركزية الغرب، فإما أن يزيحها من طريقه بإبادتها، أو يجعلها منصهرة فيه كلياً، فالثقافة العربية "الهامش" من أكثر الهوامش خطورةً على مركزية الغرب، لأن الصراع بين الحضارتين أزلي<sup>(٢)</sup>.

كتب برنارد لويس محذراً من "عَوْدَةِ الإسلام"، ومنذراً باحتمال ظهور قيادة إسلامية قادرة على الأخذ بيد المسلمين إلى مركز القوة، مستبعداً، في الوقت ذاته، قابلية الإسلام للتعايش مع الآخر والتسامح مع غير المسلمين، و((انطلاقاً من الموقف الذي ينظر إلى الإسلام بصفته ينتمي إلى الشرق فقد كان قدر الإسلام الخاص أن يُنظر إليه في المقام الأول كأنه كتلة صلبة واحدة لا تمايز فيها أو تعدد، ثم أن ينظر إليه بنوع متميز جداً من العداة والخوف))<sup>(٣)</sup>. إذ يسيطر هاجس الخوف من عودة تمركز الحضارة العربية على أفكار الكثير من المستشرقين ومنهم لويس، فالتاريخ حافل بإنجازات العرب في بلاد الأندلس وغيرها من البلاد، التي فتحها المسلمون، كما تحمل ذاكرة الغرب شيئاً كثيراً عن مؤلفات العرب في مختلف المجالات، والتي عمل على تحقيقها وترجمتها مستشرقون كبار.

### ثانياً/ اختلاق الهامش:

إنَّ اختلاق الهامش انطلاقاً من ((مركزية النخبوية أو الصفوة أو الطبقة العلية، أو المركزية المتسلطة، لا ترتبط بالفكر الكولونيالي فحسب، وإنما هي ناشئة

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٤٩ - ٥٠.

(٢) ينظر: الثقافة العربية بين المركز والهامش والصراع مع الآخر: صورية جيجخ، مجلة قراءات جامعة بسكرة، الجزائر:

(٣) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٣٥



من تفكير ترانتي يري في الأعلى تفوقاً وتسلاًطاً وهيمنةً بينما يبقى السفلي والدوني طبقاتٍ وأفراداً في تصوّرات خاضعة مُهيمن عليها، إنّ فكرة التراتبية النخبوية في المُجتمع إنّما هي ركام ومخلفات الثقافة المهيمنة<sup>(١)</sup>.

حصر الإسلام في زاوية النبذ والإقصاء، وتمثيله كعدو لا يمكن التعاطف معه بأيّ حال من الأحوال، هو ديدن الخطاب الغربي بحسب لويس: ((إنّ الهامش المتاح للتعاطف مع الإسلام هو هامش ضيق جداً، سواء في ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام أو في نطاق البحث والنقاش حول غير الغربيين بشكل أخص، والمجال يضيق بالحديث أو حتى مجرد التفكير المتعاطف مع الإسلام ناهيك عن محاولة عرضه أو عرض أي شأن إسلامي عرضاً متعاطفاً))<sup>(٢)</sup>. فهو يصوّر الإسلام ككيان لا يسمح للآخرين بالتعاطف معه، نتيجة فكر الإسلام الرفض للآخر.

### ثالثاً/ أيديولوجيا \* العرق الأوروبي ونزعة الاستحواذ:

تميل هذه الإيديولوجية إلى التفكير عبر ثنائيات متعارضة، يكون الغرب فيها هو الأهم على الإطلاق، فيما ينحصر دور الآخر في زاوية من الهامش، وتتجلّى فيها حالة الصراع بين الذات والآخر، وحالة الإسلام بعده لونهاً أساسياً من ألوان "الآخر" حالة خاصة، إذ إنّ للذات "آخرين" متعدّدين، وانتقاد الطريقة التي

(١) ينظر: أدب الهامش نسق الهيمنة مركزية الخاصة وهامش العامة: جمال مجناح،

٢ : <https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html>

(٢) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٣٧

\* الأيديولوجيا: هي مجموعة من الافكار الأساسية التي تنبثق من العقائد والقيم المتصلة بتراث حضاري معين، لتصور بصفة شاملة ما هو كائن وما سيكون، وترسم بذلك حركة الجماعة السياسية وتحدد ملامح أهدافها. ينظر: الأحزاب

السياسية ودورها في أنظمة الحكم المعاصرة: نعمان الخطيب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٣: ١٦٧

يُمارس بها الإسلام، وتصوير أتباعه على أنهم مجموعة من المتشددین والجَهلة الغوغاء الذين لا يفهمون الطقوس التي يؤدونها.

يصوغ الخطاب الاستعماري "ما بعد الكولونيالي" الخلاف وكأنه ((أدوات يؤكّد بها وضعيته في المركز ويشرعن سلطته، فهو يبزرّ لنفسه غزو المستعمر، لتأسيس أنظمة للإدارة والتعليم في جماعة من الناس من أنماط منحطة على أساس الأصل العرقي))<sup>(١)</sup>، ومن الملاحظ بأن المستشرقين ((لا يهتمون إلا بالنصوص الكبرى للإسلام حيث ينقلونها كما هي إلى اللغات الأوروبية بشكل بارد، رافضين تحليلها من الداخل أو تفكيكها لكي تتجلى على حقيقتها وبكل معانيها ودلالاتها وكل ذلك بحجة الحيادية)<sup>(٢)</sup>، الأمر الذي جعل المستشرقين خاضعين لمسلّمات الأيديولوجيا العرقية المركزية الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

رسم المفكرون الأوروبيون سلسلة من الصفات التي اعتقدوا أنّ الغرب يمتلكها متميزًا عن الحضارات المجاورة الأخرى، كالحرية، والعقلانية، والعلم، والتقدّم، وروح الاختراع وغيرها، معتبرين هذه القيم والصفات قيمًا مركزية للحضارة الغربية مفترضين أنّ أصولها ترجع للإغريق القدماء، وفي المقابل تتسم تلك المجتمعات المجاورة "الإسلامية" بالاستبداد والمعاناة والانحرافات الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي يفسّر تفوق الغرب، ويبزرّ حكم الغرب للمجتمعات غير الغربية، لأن الوصاية الغربية وحدها التي يمكن أن تنتهي الاستبداد في تلك المجتمعات<sup>(٤)</sup>. وتبقى ثقافة المركز في النهاية ((ثقافة أيديولوجية تنبئ مشروعًا

(١) الآخر في الأدب العربي الحديث - نقد لنظرية ما بعد الاستعمار: كريستينا فيلبس، ترجمة: خيري دومة، مجلة نزوى:

العدد ٨٦، إبريل ٢٠١٦: ١١٥

(٢) ينظر: في نقد الاستشراق: محمد المزوغي، ١٥

(٣) ينظر: في نقد الاستشراق، ١٦

(٤) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لوكمان، ١١٦

اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا وفلسفيًا يسعى إلى الهيمنة على قدرات الدول (والشعوب)<sup>(١)</sup>.

يصور لويس حياة الأقليات المسلمة التي تعيش في الغرب على أنها تتمتع بالحرية أكثر من المتوقع، فهم ينالون الحقوق الأساسية كمواطنين وهو ما يمثل تحسنا كبيرا في أوضاعهم، لكن المشكلة الأبرز لديهم تتجسد في مشكلة وضع المرأة ونيلها الاستقلال الذاتي المجتمعي والثقافي والقانوني، الذي يعدّ مستحيلا بالنسبة لهم، وهو ما يشكل الخلاف والشد والجذب بين الموافقين والرافضين<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً/ الشرق عالم مضاد:

إنّ إصاق صفة الشر بالثقافات البعيدة يمكن أن يعدّ أحد ظواهر التعصّب الأعمى لدى أوروبا العصور الوسطى\*، فهي عندما رأت في العالم الإسلامي الخصم اللدود، أخذت تمارس طريقة الهجوم العنيف القائم على العداوة والتعصّب، من أجل تقليص أيّ نفوذ قد تكتسبه القوة المنافسة، وأصبح ينظر للإسلام على أنّه إلغاء للمسيحية، وأن رسوله محمداً هو عدو للمسيح<sup>(٣)</sup>.

لقد قسّم المستشرقون العالم إلى غرب وشرق، وأنّ لكلّ منهما خصائص ثابتة، وعدّوا الشرق غير قادر على التطور، كما أنّ الغرب لا يمكن أن يتخلف، إذ

(١) أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير: صلاح فضل وآخرون، مراجعة وتقديم: خالد الجبر، دار الفارس، عمان، الاردن،

ط١، ٢٠١٠ : ١٠٩-١١٠

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٩٢

\* العصور الوسطى: كل ما يتعلّق بتاريخ أوروبا من أوائل القرن السادس الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد، أمّا الإسلام في العصور الوسطى لدى المستشرقين هو تاريخ الحضارة الإسلامية في حدود الزمن الذي يعتبر عصوراً وسطى في أوروبا. ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة و كامل المهندس، مكتبة لبنان،

بيروت، ط٢، ١٩٨٤ : ٢٤٩

(٣) ينظر: أساطير أوروبا عن الشرق - لفق تسد: رنا قباني، ١٨-١٩

يرى ((الغرب في العالم الإسلامي عالمًا مضادًا لأوروبا، وبذلك أصبح موضع الشك والريبة، وهكذا واجهت أوروبا المسيحية الشرق الإسلامي مواجهة ثقافية ودينية وسياسية وعسكرية، فأوروبا ما بعد الحروب الصليبية لم تتخلص مطلقًا من عدائها الذي شحنت به نفسها، فتحولت رغبتها القديمة في الوقوف بوجه خصمها الإسلامي إلى تصميم على السيطرة))<sup>(١)</sup>.

يقدم لويس في مقالته (جذور الغضب الإسلامي)، التي أصبحت كتابًا فيما بعد، أسباب معاداة المسلمين للغرب وأميركا بقوله: ((ينبغي أن يكون واضحاً من الآن أننا نواجه سارية وحركة تتجاوزان مستوى قضايا السياسات والحكومات التابعة لهم، وهذا لا يقل عن تصادم الحضارات، الذي من الممكن أن يكون غير منطقي ولكنه بالتأكيد ردة فعل تاريخية للخصم القديم ضد تراثنا اليهودي المسيحي، وحاضرنا العلماني، بالإضافة إلى توسع كلتا المشكلتين على النطاق العالمي))<sup>(٢)</sup>. ويبرر عدم اكتراث المسلمين بما حصل في أوروبا من حركات إصلاحية بقوله: ((وربما كان السبب الرئيس في ذلك أنها كانت حركات مسيحية الصورة ولذلك أغلقوا المدخل بوسائل دفاع عقلية إسلامية))<sup>(٣)</sup>. فهو يرى أنّ المسلمين غير قادرين على تحقيق الإصلاح، فقد أغلقوا الباب أمام أيّ حركة إصلاحية تتسم بطابع غربي، على الرغم من أنّ معظم الأنظمة السياسية الحاكمة تستمد شرعيتها - ظاهراً على الأقل - من تطبيقها لأنظمة وأساليب حكم غربية تحاول أن تصل عبرها لل"ديمقراطية"، وتبتعد عن "الديكتاتورية".

(١) أساطير أوروبا عن الشرق - لُقّق تسد: رنا قباني، ١٩

(٢) جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس.

(٣) اكتشاف المسلمين لأوروبا: برنارد لويس، ترجمة: ماهر عبد القادر، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، ١٩٩٦: ٦٠.

## المطلب الثاني: الإسلام والديانات الأخرى:

يعقدُ لويس مقارنةً بين الإسلام والمسيحية، ويركّز على أنّ معظم البلاد الإسلامية مسلمة حقًا - حسب تعبيره - بطريقةٍ ومعنى، في حين لم تعد البلاد المسيحية مسيحيةً، على الرغم من فاعلية وقوة رجال الدين المسيحيين، فقيادات الدين في أي بلد مسيحي لا يوازي تأثيرها تأثير قوة رجال الدين في البلاد المسلمة، ولا تتمتع بالحصانة من التعليقات والمناقشات النقدية كما في المدن الإسلامية، وأنّ النخبة من رجال الدين المسيح (الأكليروس)\* لم يدعوا السلطة العامة التي تعدّ طبيعية ومقبولة في أغلب البلاد الإسلامية، مع ملاحظة أنّ مستوى الممارسة الدينية والإيمان بين المسلمين هو الأعلى إذا ما قورنَ ببقية الديانات، فالإسلام ليس محض إيمان وممارسات، بل هو ولاء وهوية<sup>(١)</sup>.

كما يعرّج لويس على جزئية أخرى في سياسة الإسلام، وطريقة تعامله مع أتباع الديانات الأخرى، بقوله: ((أدرك المسلمون منذ وقت مبكر اختلافات معينة بين شعوب دار الحرب، ولم تكن تلك الشعوب المُشركة أو الوثنية تمثل خطرًا جدّيًا على الإسلام، وكان دخولهم فيه أمرًا متوقعًا، أمّا الاستثناء الرئيس؛ فكان المسيحيون الذين يعرفهم المسلمون أنّهم أصحاب ديانة من نوع ديانتهم، وعليه فإنّهم غرماؤهم الأساس في صراع الهيمنة على العالم. البلدان المسيحية والإسلامية هما الحضارتان المعرفتان دينيًا اللتان اختلفتا بسببٍ من أوجه تماثلهما، لا اختلافهما))<sup>(٢)</sup>. فثمة مثال أكثر سلبية، وكثيرًا ما يُستشهد به ورد في الآية التي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

(\* طائفة من الكهنة تقوم بخدمة الدين المسيحي، كما تدل الكلمة على أحد أعضاء حزب سياسي يطالب بزيادة سلطة الأكليروس في الدولة، وتدعى الحركة أو الرأي المطالب بحق الكنيسة في الاشتراك في شؤون الحكم بالنزعة الأكليروسية.

ينظر: دور الأديان في السلام العالمي: د. محمد سعيد رمضان و هانز كينغ، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠١١: ١٨١

(١) أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس: برنارد لويس، ٥٢

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٧٠

بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿المائدة ٥١﴾، هذه الآية وغيرها من الآيات المماثلة تعكس بحسب لويس- نزاع النبي محمد {صلى الله عليه وآله وسلم} الذي استمر في فترات زمنية مع كلتا الديانتين، وهناك آية نزلت في وقت متأخر تتحدث عن (الجهاد) وشن حرب مقدسة ضد الكفار وفرض الجزية عليهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة ٢٩)، والكلمات الأخيرة الأربع تعني بحسب التفسير المألوف لهذه الآية أنّ الجزية لم تكن مجرد ضريبة، بل كانت رمزاً يستهدف التبعية<sup>(١)</sup>، إنّ استعمال القرآن لكلمتي (الذل، الذلة) وتعنيان الإهانة والتحقير، في إشارة لمنزلة من يتكبرون للنبي محمد ﷺ، فمن هذا المنظور تُفسّر فريضة دفع الجزية وطريقة تأديتها، وهي أنّ تؤخذ منهم باستخفاف وإهانة، لكن لويس يقول في الوقت ذاته بأنّ هذه الآيات والأحاديث تُفسّر بطرق مُلتوية أحياناً، فليس التفسير العسكري والعنفي سوى واحد منها<sup>(٢)</sup>.

بدأت الدولة الإسلامية بحسب رأي لويس- مع رسالة النبي محمد ﷺ فصلاً من العلاقات مع رعاياها من غير المسلمين من جهة، وبينها وبين جيرانها من جهة أخرى، ويقصّ القرآن الكريم كيفية تعامل النبي مع اليهود في المدينة المنورة، ويهود شمال الحجاز، ونصارى نجران في الجنوب، والوثنيين وهم يشكلون الأكثرية من سكان شبه الجزيرة العربية، فالخيار بالنسبة للوثنيين كان واضحاً: الإسلام أو الموت، أمّا اليهود والنصارى وهم أصحاب ديانات يعترف بها الإسلام، فكانت الخيارات: الإسلام أو الموت أو الخضوع. وقد نظمت الدولة الإسلامية

(١) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ٧٢

(٢) ينظر: أزمة الإسلام، ٤١

علاقتها مع جيرانها بموجب اتفاقيات منها مع نصارى نجران وبموجبها سمحت لهم بممارسة شعائرهم الدينية، وتسيير شؤونهم شريطة دفع الجزية، ومنها مع يهود خيبر إذ نصت الاتفاقية على دفع اليهود نصف ما يجنون من أموال نتيجة زراعة أراضي واحة خيبر للدولة الإسلامية، وغدت هذه الاتفاقيات أنموذجاً يُحتذى به في تنظيم شؤون الرعايا غير المسلمين<sup>(١)</sup>.

هناك بضع نقاط يصفها لويس على أنها مهمة، ويجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، في أثناء تقويم تلك المدة من حكم الدولة الإسلامية، منها أن القضاء الإسلامي كان ذا موقف أكثر واقعية وإنسانية في تعامله مع أتباع الديانتين المسيحية واليهودية، ففي الحقبة الأولى من الإسلام إذ كان هذا الدين آخذاً في الانتشار ومعتداً بذاته، في حين كتب المفسرون آراءهم في زمن كان فيه الإسلام محاصراً، وتقلص انتشاره، أي كان مهدداً في داره وفي الخارج، وأن معظم تلك الممارسات بحق أتباع الديانتين كانت ممارسات الحكام ورجال الإدارة المسلمين، وهم قد فشلوا في التعامل مع أهل الذمة وكثير من القضايا الأخرى، فالأحكام التي قضت بوجوب جباية الجزية منسوبة إلى تاريخ الأنماط الفكرية أكثر من نسبتها إلى المؤسسات<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت العلاقات الجيدة بين النبي محمد (ﷺ) والنصارى السبب وراء الإشارة لهم في القرآن الكريم بصورة أفضل من نظيرتها مع اليهود التي اتسمت بالتشنج والعداوة وترحيل اليهود من مدنهم في بعض الأوقات، فالآية الكريمة تبين الفرق بين تجارب النبي مع أتباع الديانتين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ١٨

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ٢١ وما بعدها

بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾، وتبعت مدة نهاية حياة النبي محمد ﷺ [تغييرات في طبيعة العلاقة بين المسلمين وأتباع الديانتين، فبينما يعبر القرآن والتعاليم الإسلامية عن تعاطف وموقف معتدل مع المسيحيين، أكثر مما هو عليه مع اليهود، لكن التطورات اللاحقة لا تلاحظ مثل هذا التمييز بين الديانتين الآخرين<sup>(١)</sup>].

بالنسبة إلى العديد من أتباع الديانة المسيحية في جنوب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى، كان التحول من موقع الهيمنة إلى منزلة الرعية، أكثر مما يمكن تحمله، مع ما يتضمنه ذلك من عواقب، فاضطر الكثير منهم إلى البحث عن ملجأ يحميهم من الخضوع ويجعلهم في منأى عن التعصب والاضطهاد في بعض الأحيان، فاعتنقوا الإسلام وانضموا إلى الجماعة المهيمنة والعقيدة السائدة، أمّا في بلدان الشرق الأوسط فقد حافظت الأقليات المسيحية في البلاد العربية على وجودها بأعداد كبيرة، فقد كانت أشدّ جدّاً، في حين تمرّس اليهود على المقاومة وتعودوا العدائية، فلم يكن الفتح الإسلامي أكثر من تبدل في الأسياد، وهم قد اعتادوا التكيف والتحمل في ظل ظروف معيقة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فحافظت اليهودية على بقائها<sup>(٢)</sup>.

يميل لويس إلى رأي يفترض فيه تقارب الديانات الثلاث من بعضها البعض، فقد حارب النبي محمد ﷺ عدواً رئيساً هو الوثنية، وهو الأمر الأهم من الاعتراض على المسيحية واليهودية، فقد كسب النبي من محاربة الوثنية أكثرية الذين اعتنقوا الإسلام، وبهذه الحرب مع الوثنية يكون الإسلام قد اقترب أكثر من الديانتين ذات الأصل الواحد في تصديهم مجتمعين لخصم مشترك. إذ لا تعدو

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: ١٩

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس ، ٢٦



الاختلافات بين الديانات الثلاث في رأي لويس عن آيات تتكر تجسيد المسيح والثالوث المقدس، وتختلف عن اليهودية بآيات تتحاشى التعاليم الخاصة بالأطعمة<sup>(١)</sup>.

يتعرض لويس لتفسير بعض الآيات القرآنية وكيف فسرها المؤولون على أنها تعني الرضا بالتعددية الدينية، من هذا المنطلق فإن الآية التي تقول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦)، أي ليس هناك إرغام على الدخول في دين الإسلام، تفسر هذه الآية على أن هناك تسامح مع الأديان الأخرى، وإن أتباع الديانات الأخرى يجب أن لا يُرغموا على اعتناق الإسلام، كما في تفسير الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون ٦)، المستعمل كنص مؤكّد على التعددية المذهبية والتعايش المشترك، وثمة آية قرآنية أخرى تؤول على أنها تقدم إثباتاً مكيناً وراسخاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢)، يمكن أن تبدو لأول وهلة بأنها تعامل الأديان الأربعة تعامل التوحيديين وأهل الكتاب دون تفرقة، بينما لا تأتي بعض الآيات القرآنية على مثل هذا التفسير، إن هذه الآية مفيدة في تبرير التسامح الممنوح لأهل الديانات الثلاث المتواجدين تحت الحكم الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

يشير لويس من جانب آخر إلى بعض الأحكام الفقهية الإسلامية التي يحرم الذمي بموجبها من الميراث إذا زاحمه وريث مسلم، إذ أفتى بعض الفقهاء بأن هناك ضرورة لهذا التفاوت الاجتماعي في الإرث وفي الزواج، فلا يمكن للذمي أن يرث المسلم بينما يمكن للمسلم أن يرث الذمي، وهو ما يسبب متاعب جمّة بحسب

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس ، ٢٠

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام ، ٢٠-٢١

تعبير لويس- وخصوصًا في فترات إرغام أتباع الديانات الأخرى على الدخول في الإسلام، مؤديًا إلى تدمير وشكوى اليهود، فضلًا عن الضرائب التي تُفرض على غير المسلمين وهي ثقيلة على كاهل الفقراء منهم على الأقل<sup>(١)</sup>.

يركّز لويس على أنّ الموقف الإسلامي تجاه غير المسلمين كان موقف ازدراء، وقد جرى التعبير عنه بطرائق متعددة، إذ نجد الكثير من الأدبيات العنيفة التي تهاجم اليهود وكذلك النصارى، من نعوت سلبية ترمى بها أديانهم ومقولات اجتماعية ودينية تزدرى الآخر، ولغة القذح هذه تكون قاسية جدًا أحيانًا، حتى صيغ السلام والتحية كانت مختلفة عمّا هي عليه عن المسلمين، كما اختلفت أسماء أبناء غير المسلمين عن أبناء المسلمين، فهم ممنوعون من تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية، وقد تعودّ غير المسلمين على التعايش مع هذه الفوارق من هذا النوع التي كانت تعبيرًا واضحًا للدلالة على الدونية<sup>(٢)</sup>.

بل كانت القيود المفروضة على أهل الذمة ذات اعتبارات مختلفة، منها أمنية، ومنها بقصد الإذلال، والرغبة في تذكير الآخر بدونيّته، ومن أجل معاقبته وزجره إذا ما حاول يومًا ما تناسي مكانته وماهيته، ويرأي الحكام المسلمين كان لا بدّ من تمييز أهل الذمة الذين يعيشون في البلاد الإسلامية أو التي فتحها المسلمون بثيابهم ورواحلهم وسروجهم وأغطية رؤوسهم، كما لم يُسمح لهم بحمل السلاح في مجتمعٍ كان فيه حملُ السلاح أمرًا طبيعيًا، ولم يسمح لهم بركوب الخيل بل كانوا يركبون الحمير<sup>(٣)</sup>. وفي مجال العمل كان على اليهود والنصرانيين ممارسة أعمال كان ينظر إليها المسلمون بعين الرفض والازدراء والاحتقار، منها الحرف اليدوية

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس ، ٣٥-٣٦

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ٤٣

(٣) ينظر: المصدر نفسه ، ٤٦-٤٧

والغزل والتنظيف وصياغة المجوهرات والذهب، ولم يكن لهم شأن بتربية المواشي ولا الزراعة، ولا تجارة الخيل والإبل، ولا تجارة الأسلحة، فقد كانوا يتجنبون ممارسة المهن الحساسة<sup>(١)</sup>.

كان المسيحيون واليهود يُعاملون بأسلوب واحد، أحيانًا كانت إحدى الملتين على حال أفضل، وأحيانًا تكون الأخرى على الحال الأفضل، وهذا الأمر عائد إلى الظروف لا إلى المبادئ العامة، لكن القرآن يبدي تفضيلًا للمسيحيين، ويظهر التراث الإسلامي أكثر من ذلك وهو يسرد ظروف سيرة النبي محمد، فصورة اليهود بشكل عام كما ترسمها الأحاديث الشريفة صورة سلبية<sup>(٢)</sup>.

بحسب لويس فإنّه يمكن القول إنّ الحروب التي قامت بين الشرق والغرب (الإسلام/المسيحية) كانت صراعات داخلية فهي (الإسلام، المسيحية، اليهودية) فروع مختلفة للدين نفسه، وأوجه الشبه أكبر بكثير من الاختلافات فيما بينها، ولذا فإنّ العداء المتبادل فيما بينها كان أكثر اتساعاً ووضوحاً، وعندما اشتدت الحروب ضراوة في العصور الوسطى كان كل منهما يقول للآخر: "أنت كافر وستصلى نار جهنم الحامية"، كان كلاهما يفهم الآخر، لأن كليهما كان يعني الشيء نفسه، جناتهما مختلفة، بينما الجحيم واحد تقريباً<sup>(٣)</sup>.

إنّ مهارة وثقافة الكاتب تكمن في اقترابه من فهم الصراعات والمشاكل المعاصرة لمجتمعه والغوص في أعماقها وطرح الحلول والمعالجات وفق رؤيته الخاصة. يمكن الخروج من هذا المطلب بنتيجة مفادها أنّ المستشرقين عندما وجدوا أنّ الإسلام قد هيمن على بقية الأديان والشرائع السماوية بشريعته وقوانينه، بصفته

(١) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس ، ١٠٩

(٢) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ٧٢

(٣) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٤٢٦

آخر دين سماوي، وأنه يهدّد كيانهم العقدي والديني، عملوا جهدهم على إسقاط هذه الهيمنة بحجة تبعيتها لأديان أخرى، فقالوا أنه تابع لليهودية أو للمسيحية، وهو رأي غير محايد بالطبع، وما وجود بعض القيم الاجتماعية والشعائر الدينية أو بعض القوانين والتشريعات المتشابهة مع الديانات الأخرى إلا دليل على محاكاة الإسلام للطبيعة الثقافية والدينية العامة التي يعيشها المجتمع العربي، وتفاعله مع بيئته ومحيطه، فهو دين قريب من المجتمع.

### المطلب الثالث: المتخيل\* الغربي عن الشرق:

يتمتع الموضوع المتخيل بكونه لا واقعي فهو ((يظهر في الشعور كحقيقة غريبة منفصلة عن مجرى الوعي الحاضر أو الماضي، ومن ثمّ فإنّ الوعي السلبي

---

\* المتخيل: هو اشتقاق مستحدث من الأصل (خَيْلٍ)، "خيل: خال الشيء ظنّه، وفي المثل: من يسمع يخل أي يظن، وفلان يمضي على المتخيل أي على غير يقين، ورأيت خياله أي شخصه وجاء في التهذيب: الخيال لكل شيء تراه كالظل، وكذلك خيال الإنسان في المرأة، وخياله في المنام" ينظر: لسان العرب: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ : ج ١١ / ٢٣٠، "والخاء والياء واللام أصل واحد يدل على حركة في تلون، ومن ذلك الخيال، وأصله ما يتخيله الإنسان في منامه لأنه يتشبه ويتلون" ينظر: مقاييس اللغة: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩: ج ٢ / ٢٣٥، وللجذر اللغوي لكلمة المتخيل دلالات واستعمالات منها ما يدل على الظن والوهم والكذب والتهمة والتوقع والصور الكاذبة وما يقترن بها من انعدام اليقين، وكل ما ليس حقيقة صادقة أو واقع حقيقي، ينظر: المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي: الميلودي شغموم، مطبعة فضالة، المغرب، ط ١، ١٩٩١: ٢٨٨، والخيال: "الظن والتوهم... ومرتع الأفكار كما أن المثال مرتع الأبصار... والخيال يقال للصورة الباقية عن المحسوس بعد غيبة في المنام واليقظة" ينظر: الكليات: أبو البقاء الكفوي، بيروت، ١٩٩٢ : ٤٣١، والمتخيل حسب سارتر: قوّة واعية محررة للوجود الإنساني، لأنه لا يتغذى على الاستيهامات بل على الخيال، بوصفه ملكة خلاقة للصور الذهنية وقادرة على التوليف المبدع بينها. ينظر: موسوعة المفاهيم الأساسية العلوم الانسانية والفلسفة: محمد سبيلا، نوح الهرمزي، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الانسانية، المغرب، ط ١، ٢٠١٧م: ٤٢٠. و((المخيل يتشكّل تاريخياً في الذاكرة الجماعية أو في الذهن، ويمكن استغلاله سياسياً وإيديولوجياً في اللحظات التاريخية العصبية، فهو يضرب بجذوره في أعماق اللاوعي عبر تشكّله خلال مختلف المراحل التاريخية، فنحدث عن مخيال إسلامي ضد الغرب، أو مخيال غربي ضد الإسلام، فهو شبكة من الصور التي تستثار في أية لحظة بشكل لا واعٍ وكنوعٍ من رد الفعل)) ينظر: أين هو الفكر الإسلامي: محمد اركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط ١، ١٩٩٣: ١٢.

لابدّ من أن يعمد إلى إدراجه في عالم اللاواعي<sup>(١)</sup>، فالوعي المتخيّل يطرح موضوعه كما لو كان عدماً، ويمتاز بطابع الخصب والجدة إذ لا يمكن مطابقته بالمُدرك، فهي قدرة على الخلق وملّكة تطمح للتعالي فوق الواقع، والمخيال ((ليس شيئاً آخر سوى هذه الصيرورة التي تعمل عن طريقها الأوامر الغريزية للذات على نمذجة الموضوع المعروض أمامها))<sup>(٢)</sup>.

انطلاقاً من الدلالات السابقة، يمكن القول بأن المتخيّل ذو أهمية كبيرة في الثقافة المعاصرة، فإذا كانت الدلالات السلبية للكلمة ومشتقاتها تعني الوهم والظن واللاواقع، فإنّ المتخيّل في الثقافة العربية المعاصرة ذو قيم ومعاني جديدة منها: أنّه يمنح للذات البشرية إمكانية نمذجة الموضوعات بكيفية مختلفة عن طبيعتها الحقيقية، وأنّه يجمع شتات الصور الشاذة، وأنّه يرتبط بطاقة ذهنية جموحة لا حدّ لها، كما أنّه منفتح على أعماق الإنسان الدفينة، كما يتيح للذات إمكانية تمثّل الموضوع مسبقاً، فهو ذو دور كبير في تغذية الوعي الفردي والجماعي، كما أضحى يساهم بشكل فعّال في تحريك التاريخ، فهو يجعل الفرد يتصوّر الأشياء اللاواقعية والأسطورية وكأنها أكثر مادية وواقعية من الواقع الفعلي نفسه.

إنّ المتخيّل يعبر عن أحكام وأفكار مسبقة تسيطر على الفكر بشكل قوي، وتجعل الذهن في مواجهة وصراع مع العالم<sup>(٣)</sup>، وإنّ ((الصور التخيلية المتشكّلة في أذهان المجتمعات بفعل الخلافات الدينية، والصراعات السياسية، وتباين المنظومات القيمية، والأنساق الثقافية، أدت إلى ترسيخ أفكار منقوصة عنها، تشيع فيها الصور النمطية))<sup>(٤)</sup>، كما لا يمكن إغفال حقيقة أنّ ((قوة المتخيّل الغربي عن

(١) فلسفة الفن في الفكر المعاصر: زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة ، ١٩٨٨ : ٣٠

(٢) مفهوم المخيال عند محمد أركون: محمد الشبة، دار الأمان، لبنان، ط٤، ٢٠١٤ : ١٧

(٣) المصدر نفسه ، ٢٢-٢٣

(٤) المطابقة والاختلاف: عبد الله إبراهيم، مؤمنون بلا حدود للنشر، الرباط، ط١، ٢٠١٧ : ٣٤

الإسلام أعلى من قوة المعرفة العلمية به، فهو نتاج تراكمي طويل، غدته الحقبة المعاصرة بالمزيد، نقرأ معطياته في وعي جمهور غربي مشحون بالأحكام السلبية المسبقة والعتيقة عن الإسلام والمسلمين، ويمتلك صورة ارتيازية تشتبه بهم أو لا تثق بهم على الإطلاق، إنها صورة احتقارية وغالبًا عدوانية<sup>(١)</sup>.

وبالتالي يمكن أن يقودنا الفهم الشامل للاستشراق بعد التنقيب في جذوره، لنتبين نفي الغرب للشرق وعملية إعادة خلقه وفق مقتضيات السياسة، وإنتاجه لذاته وفق ما تقتضيه المصلحة، إذ ((يقوم الاستشراق على نفي الغرب للآخر، ومن جهة أخرى يقوم الغرب عن طريق الاستشراق بإنتاج ذاته أيضًا عبر تصوراتها))<sup>(٢)</sup>، إذ تُبدي وسائل الإعلام الغربية حرصها على إظهار المسلمين بوصفهم علماء شريعة ملتحمين ومتعصبين، أو إرهابيين لا يراعون عن استخدام العنف، أو شيوخًا فاحشي الثراء، أو نساء محجبات، لإظهار الصورة القاتمة للناس في الغرب<sup>(٣)</sup>.

كما تتضمن ((الروايات الأوروبية عن الشرق تركيزًا متعمدًا على تلك السمات التي تجعل هذا الشرق مختلفًا عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة الأدنى الذي لا صلاح له، وأنّ الشرق هو مكان للفسق والملذات وأنه عالم العنف المتأصل))<sup>(٤)</sup>. وهو ما يؤكده لويس من وجود العداء بين الأقسام الناطقة باللغات السامية القديمة وما سواهم من الناطقين بالهندية القديمة، وهو في هذا الاتجاه يتماهى مع الرأي القابع في المتخيّل الغربي، القائل بأنّ

(١) قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم: محمد أركون، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت: ١٩

(٢) الاستشراق والوعي السالب: خيرى منصور، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ٢٠٠١: ٢٠

(٣) ينظر: دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠: ٨١-٨٢

(٤) أساطير أوروبا عن الشرق - لُقّق تسد: رنا قباني، ٢٠

((الشرق تسكنه الشعوب السامية البدائية، وأن الغرب تسكنه الشعوب الآرية وهي وحدها صاحبة الحضارة والتقدم))<sup>(١)</sup>

يقول لويس: ((تنبثق الصورة الموحدة عن الإسلام، وتستمد مادتها من المفهوم القديم للإسلام، لذلك يُكثر رسامو الكاريكاتير من تصوير المسلمين كموردي نפט، وإرهابيين، وغوغاء متعطشين للدماء))<sup>(٢)</sup>. ويشير بذلك إلى عدد من وسائل عرض تلك الصورة عن الإسلام سواء كانت الكتب المدرسية المقررة في مادة التاريخ والأشرطة الهزلية والمسلسلات التلفزيونية والأفلام الكوميديّة والروايات وغيرها.

إنّ تبعية الشرق للآخر "الغرب" هي بمثابة إعلان لارتباطه الدائم بعالم الهامش، والغائب والمجرّد، وحكم يقضي ببقائه في الظل والصمت، باعتبار الشرق ضعيفا يكرّس قوة الأصل، ويسهم في سطوته وإشعاعه<sup>(٣)</sup>، إن المتخيّل الغربي عن الشرق ومكونات الفكر الغربي مليئة بالصور السلبية عن الشرق، التي تمنع وتعرقل الحوار بين الطرفين، وحسب قول لويس: ((يحمل الحديث عن الإسلام في الغرب اليوم في طياته الكثير من المعاني المستقبحة غير المحببة...وقد اكتسب كلّ من مفهومي "الإسلام" و"الغرب" زخمًا حيويًا جديدًا في كل مكان، ويجب أن ننتبه إلى أنّ الغرب وليس المسيحية هو دائمًا موضع التنافس والعداء ضد

(١) ينظر: مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣،

٢٠٠٦: ١٢٩

(٢) الإسلام الأصولي: برنارد لويس: ٣٧

(٣) ينظر: الفتنة والآخر أنساق الغيرية في السرد العربي: شرف الدين ماجدولين، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٢: ١٧

الإسلام<sup>(١)</sup>. فالشرق في نظر الغرب يرمز للطرف المعادي دائماً، والمعاني غير المفضلة للغرب.

### تنميط\* صورة المسلمين:

نجحت مجموعة من المفكرين والمستشرقين وقادة الفكر الاستراتيجي ودعاتها والمروجين لأفكارها ومناهجها الفكرية الاستعلائية أمثال صامويل هنتغتون وفرانسيس فوكوياما اللذان أخذوا من (لويس) عناوين نظرياتهم (صراع الحضارات) و(نهاية التاريخ)، في أدلجة التنميط المستشري أصلاً في المجتمع الأمريكي للصورة السلبية للعرب والمسلمين، وفي إعطائه بعداً فلسفياً وفكرياً عميقاً، خاصة بعد أحداث أيلول ٢٠٠١ وارتداداتها الداخلية والخارجية، وعلى خلفية استشراء ثقافة الخوف من الإرهاب التي اجتاحت المجتمع الأمريكي منذ تلك الأحداث، انتشرت على جميع المستويات الثقافية والعقائدية، بما في ذلك تلك التي تعتدّ بليبراليتها، الكثير من التعميمات النمطية التبسيطية والمتعجرفة التي وجدت أرضية خصبة لها في الأوساط الإعلامية الأمريكية المعادية أصلاً للعرب والمسلمين<sup>(٢)</sup>.

كما يُجهد المستشرقون اليهود في أميركا أنفسهم في البحث والمتابعة لتصوير الإسلام والمجتمعات الإسلامية على أنها مُعادية للغرب، والحداثة، والتقدم العلمي، والديمقراطية، وحقوق المرأة، ويُعدّ برنارد لويس على رأس هذا المعسكر منذ ثلاثين سنة تقريباً<sup>(٣)</sup> فهو: عميد دراسات الشرق أوسطية، وشيخ الدراسات الإسلامية، وحكيم العصر كما وصفته الصحف الأمريكية "نيويورك تايمز،

(١) الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ٤٠

\* النمط: نمذجة تتوخى ترسيخ شكل معين. ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، سعيد علوش، ٢٢١

(٢) ينظر: "بطريك الاستشراق" برنارد لويس: موسوعية هائلة وتبسيط فج: عبدالقادر حسين ياسين

<https://www.al-bayader.org/2018/05/17>

(٣) ينظر: الاستشراق في التاريخ، عبد الجبار ناجي: ٢٥٢



ونيزويك"، وله عن الإسلام مؤلفات ودراسات كثيرة معتمداً على معلوماته الغزيرة عن عقيدة وفكر وتاريخ الإسلام، بهدف أدلجة الموقف السياسي إزاء العرب والإسلام<sup>(١)</sup>. ويهدف النص الاستشراقي إلى إعادة تشكيل الشرق، ليس كما هو وإنما كما يريد المهيمن، أي تشويه الشرق ونسج معرفة غير حقيقية عنه، وهو ممارسة لنوع من الفصل غير العلمي بين الشرق التاريخي الحقيقي والشرق المشكّل تشكيلاً خيالياً، بغية رسم شرق قابل لكل الاحتمالات، التي يفترضها الغرب في صراعه مع غيره من الأمم المجاورة<sup>(٢)</sup>.

لقد تكوّنت تلك الصورة الدموية للشرقي المسلم في المتخيّل الغربي بفعل العمق التاريخي للصراع بين الغرب والشرق، وما رسخ في ذاكرة الغربي من صور سابقة لما دار بين الطرفين من مواجهات عسكرية منها أو غير عسكرية، وما نتج عن تلك المواجهات من خسائر ومآسي فادحة آلمت ضمير الإنسانية ومنحت الغربي دافعاً لمعاداة الشرقي والحقد عليه، إذ شهد التاريخ فترات من المواجهة المباشرة ارتفع فيها منسوب التصعيد حدّ الاقتتال في سبيل الاحتلال والسيطرة، فكان أن انتصرت الإمبراطورية العثمانية على العالم الغربي وفرضت نفوذها وهيمنتها وبالتالي قوانينها الإسلامية على العالم.

تحكم رؤية الغرب للإسلام والمسلمين ((قواعد إجمالية تتشكّل من معايير عدة أبرزها: النظر إلى الثقافات الإسلامية على أنها كتلة واحدة متجانسة لا تتغير، وأنها مختلفة كلياً عن الثقافات الأخرى وهي بالتالي لا تستطيع التواصل والحوار معها، وإن الإسلام تهديد جسيم، وهو "دونى" بالنسبة للغربيين وبربري وبدائي وغير

(١) ينظر: الاستشراق في التاريخ، عبد الجبار ناجي: ٢٥٢

(٢) ينظر: القضايا الكبرى في كتابات إدوارد سعيد: عبد القادر بو عرفة، مجلة دراسات استشرافية، المركز الاسلامي

للدراستات الاستراتيجية، العدد ٢٩ ، السنة ٢٠٢٢ : ٦٧

عقلاني))<sup>(١)</sup>، كما يؤكد في معرض حديثه عن ثقافة الآخر إلى أن ((أول ما ينبغي الوعي به لدى قراءة نص من إنتاج ثقافة غريبة هو بعده، والشرط الرئيسي في هذا البعد الزمكاني هو وجود المفسر في زمانه ومكانه هو، وإن المقاربة التي يعتمدها الاستشراق تقوم على معادلة البعد بالسلطة وعلى تضمين غرابة ثقافة بعيدة في البلاغة السلطوية للإنشاء البحثي الذي يحتل مكانة المعرفة الاجتماعية الرفيعة الشأن، دون أي اعتراف بما تطلبته تلك الغرابة من المفسر))<sup>(٢)</sup>، مشيراً إلى أننا نفتقد اليوم أي كاتب يعترف صراحة بحقيقة أن الإسلام يعتبر "ثقافة عدوة"، وهو هنا ينص صراحةً على وجود العدوانية المكبوتة داخل ضمير الغرب تجاه الإسلام والواجب إبلاغها للمجتمع الغربي من أجل ما يطلق عليه (خدمة المصلحة الوطنية)<sup>(٣)</sup>.

فهو يعامل الإسلام وكأنه وحدة مترابطة متجانسة، من دون أدنى فرق بين فرق المسلمين، وديناميكيات داخلية وتعقيدات تاريخية، ويتهمه بـ"الديماغوجية\* والجهل المتدني"<sup>(٤)</sup>، فمعرفته منحازة كما يصفها إدوارد سعيد في مقابلة له مع صحيفة الأهرام المصرية: ((إن معرفة لويس بالشرق الأوسط كانت معرفة منحازة إلى حدٍّ يجدر معه عدم أخذها بجديّة، إن قَدَمي لويس لم تطأ الشرق الأوسط

(١) استشراق مستحدث الإسلاموفوبيا بما هي أطروحة أيديولوجية ما بعد حداثة: محمود حيدر ، مجلة دراسات استشراقية، العدد الثالث، شتاء ٢٠١٥ : ١٦٩

(٢) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ١٢٨-١٢٩

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٨-١٢٩

\* الديماغوجية هي: كلمة يونانية في الأصل تعني العمل الشعبي أو العمل من أجل الشعب، ولكن هي اليوم تأخذ معنى تجريحي، إذ تدل على مجموعة الأساليب والمخططات والحيل السياسية التي يلجأ إليها السياسيون لإغراء الشعب أو الجمهور بوعود كاذبة أو خداعة، من أجل الوصول للحكم. ينظر: معجم المصطلحات السياسية: ٣٧

(٤) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ٢٦

والعالم العربي منذ ما لا يقل عن ٤٠ سنة<sup>(١)</sup>. فهو مُنظرٌ بعيد عن الواقع الشرقي والعربي، وهو ممّا يعاب عليه رغم اطلاعه ومتابعته للأحداث وقراءته الممتازة للتاريخ.

يقول برنارد لويس: ((يتّسم المسلمون، مثل معظم غيرهم من الشعوب التي كانت مُستعمرة، بعجزهم عن قول الحق أو حتى إدراك الحقيقة، إذ أنّهم يدمنون الأساطير، شأنهم في هذا شأن المدرسة التنقيحية المزعومة في الولايات المتحدة، وهي التي تتطلّع إلى عصر ذهبي قديم تزيّنه الفضيلة الأمريكية، وتتسبب كل الخطايا والجرائم تقريباً إلى المؤسسة الاجتماعية الحالية في بلادهم))<sup>(٢)</sup>، ووفقاً لقول لويس، فهو يضع نفسه كـ(غربي) في مرتبة أعلى من مرتبة من يتحدث عنهم (المسلمين)، فهم مجرد مسلمين يؤمنون بالأساطير، وهؤلاء المسلمون يعيشون الوهم والخيال بنسب كل أخطاء زمنهم إلى غيرهم تتصلاً من المسؤولية، وتهرّباً من واجبهم كأعضاء في المجتمع، وبدلاً من ذلك فإنّهم يعيشون حلم الماضي الذهبي المخلّق أو المُبالغ فيه. إذ يرى الغرب نفسه محملاً بعبء القيام على تحضّر شعوب الشرق وترويضها فهو المسؤول عن التدخّل في تغيير ذلك المجتمع الجامد، بحكم منطق التفوّق الحضاري والعِرقي فإنّه على الغرب أن يقود الأمم الأدنى منه<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: المصدر نفسه، ٢٦

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ٤٨٣

(٣) ينظر: فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية: ديبا كومار، ترجمة: أماني فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١،

### صورة الشرقي في ذهن الغربي:

إنّ الشرق هو اختراع غربي تمت صياغته على مراحل تحولات الوعي الغربي بذاته، ويقوم إدراك الغرب للشرق على نظام الصورة التي تعكس الصراع السياسي والتاريخي في العالم الغربي.

تحمل صورة الشرقي في ذهن الغربي عددًا من الرؤى منها: أنّ الشرقي يُغلب الإيمان على العقل، وبالتالي يُغلب الدين على العلم فيعيش حالة من التخلف والجهل، وإنّه يفتقد القدرة على استثمار الأرض والخيرات نتيجة عقليته الخرافية المؤمنة بالسكر والشعوذة، وإنّه يمثّل التهديد الحقيقي للعالم المسيحي.

إنّ أدبيات القراءة الاستشرافية المعتمدة على إرثٍ خاطئٍ وملتبسٍ، شكّلت تصوّرات مغلوطة ومبالغ بها حيال الشرق والإسلام، تراكمت منذ قرون وتأثرت بالأخطاء والضغائن والتوجّسات والترسبات التي ورثها الفكر الغربي، وهي ما ساهمت في خلق وإنتاج صورة مشوّهة عن العرب والمسلمين وكوّنت فضاءً مفتوحًا قابلاً للتحويل والحرف من قبل كتّاب الاستشراق الجديد.

في الواقع فإنّ الخطاب الاستشراقي قد مارسَ ((عملية خطيرة في تحويل "الشرق" من كينونة تاريخية وثقافية إلى مجرد "ظاهرة نصيّة"، وذلك لأنّ قيمة أيّ تقرير عن الشرق كما يقول إدوارد سعيد، لا تتأتى من الشرق ذاته بل على العكس، أي عن طريق إقصاء الشرق، وإزاحته إلى شيء نافل ولا وجود له، إلّا في نصوص غرائبية تؤسس لتمثيلات هذا الشرق في المتخيّل الغربي، الذي يعتمد في عملية التمثيل على مؤسسات وتقاليده وأعراف ونظم وترميز للفهم متفق عليها من أجل تحقيق غايات حضارية وثقافية وسياسية محددة))<sup>(١)</sup>. ففي هذا الجانب نقرأ عن الإسلام : ((دين المسلمين الذي يُسمى الإسلام، بدأ في القرن السابع، وكان الذي

(١) موسوعة الاستشراق: مجموعة من الأكاديميين، ٥٠٢

بدأه تاجر غني في الجزيرة العربية يُدعى محمد، وقد زعم أنه نبي، ووجد أتباعاً له بين العرب، وقال لهم إنّ الله اصطفاهم لحكم العالم.. ويُعيد وفاة محمد جُمعت تعاليمه، وسُجلت في كتاب يُسمى القرآن، وهو الذي أصبح الكتاب المقدس للإسلام<sup>(١)</sup>، إنّ مثل هذا النص العدائي يُعلن عن حجم التشويه الخطير للتاريخ، والتزييف الكبير للحقائق، وهو بالنتيجة إيهام للمجتمع الغربي، والعمل على تكوين صورة مشوّهة عن العرب والمسلمين والدين الإسلامي.

يطرح لويس في خاتمة كتابه (أين الخطأ) رأياً يقول فيه: ((إذا واصلت شعوب الشرق الأوسط سيرها في الطريق الحالي فربما تحوّلت صورة الذي يفجّر القنبلة في نفسه والآخرين إلى استعارة للمنطقة بأسرها، ولن يكون هناك مهرب من الهبوط المتزايد في درك الكراهية والحقد، والغضب والإشفاق على النفس، والفقر والظلم، وقد يؤدي ذلك كله عاجلاً أو آجلاً إلى سيطرة أجنبية أخرى، سواء بسبب عودة أوروبا إلى عاداتها القديمة، أو بسبب نهضة روسية جديدة، أو من جانب دولة عظمى جديدة في الشرق تتشد التوسّع))<sup>(٢)</sup> في إشارة واضحة يهدّد عن طريقها الشرق بعودة الاستعمار القديم بشكل جديد، ثم يطرح رأياً ينصح فيه شعوب الشرق باللجوء للتكاتف بقوله: ((إذا استطاعت هذه الشعوب أن تطرح إحساسها بالظلم، أو بأنها ضحية وأن تسوّي خلافاتها، وتعمل على تكاتف طاقاتها، ومواهبها ومواردها، لتحقيق أهداف إبداعية مشتركة، فسوف تستطيع أن تعيد الشرق الأوسط من جديد إلى ما كان عليه في الأزمان الغابرة، مركزاً رئيسياً للحضارة، والاختيار حالياً في أيدي هذه الشعوب))<sup>(٣)</sup>. أيّ أن من الممكن للشرق أن يستعيد مكانته وفق شروط تحقق تلك العودة لموقع المركز.

(١) الاستشراق : إدوارد سعيد، ٤٤٠

(٢) أين الخطأ، برنارد لويس : ٢٤٩

(٣) أين الخطأ: برنارد لويس ، ٢٤٩-٢٥٠

رؤية لويس للمسلم المعاصر:

يبدو التجاهل المركب للإسلام والجهل به سائداً على نطاق واسع في المجتمعات الغربية (الأوروبية والأمريكية)، فالإسلام في فرنسا مثلاً ((أصبح موجوداً ويشكل الدين الثاني في البلاد بعد الكاثوليكية، ولكن أحدًا لا يعرف ما هو تاريخ الإسلام، أي الإسلام كدين وتاريخ ثقافي وعلمي وفلسفي وروحاني، كل ما يعرفونه أنّ المسلم يتزوج أربعة نساء، ولا يأكل لحم الخنزير، ولا يشرب الخمر، ويضرب أمرأته))<sup>(١)</sup>، إنّ هذا الجهل ليس حصيلة النظام التعليمي والإعلامي وسياسات الدول الغربية فحسب، إنّما هو موقف للنخب الفكرية أيضاً، فهو يمثل انحباساً لوعيهم في أطر مغلقة محكومة بمركزية ثقافية يعاد عن طريقها إنتاج أيديولوجيات منحازة ضد الإسلام والمسلمين، ولقد تحوّل هذا التجاهل الفكري الغربي للمسألة الدينية الإسلامية إلى اهتمام مبالغ فيه، حتى أن الانشغال به لم يعد هاجساً معرفياً خاصاً بالمستشرقين، وإنّما أضحي هاجساً عمومياً للإعلاميين والصحفيين، بل وقطاعاً واسعاً من الرأي العام، وليس الدافع معرفياً أو ثقافياً؛ بل الدافع أمني في المقام الأول<sup>(٢)</sup>.

يدّعي لويس بأن المسلم المعاصر يواجه معضلة ذهنية أوقعته في حالة من الغضب الشديد نتيجة فشله وعجزه وتخلفه في كافة جوانب الحياة من سياسة واقتصاد وحرب وصب غضبه باتجاه الغرب عمومًا، والولايات المتحدة على وجه التحديد وتحميلها مسؤولية هذا الفشل، لأنّ الأصولية الإسلامية، برأيه "هي التي أعطت هدفاً وشكلاً للغضب الإسلامي ووجهته صوب الغرب". فالأصولية الإسلامية لا تستطيع الخروج من إحباطاتها إلاّ بتفجير روح العداة ضد الغرب،

(١) الإسلام أوروبا الغرب رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، محمد أراكون، ٢٠٠٨

(٢) ينظر: نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية: د. عبد الاله بلفريز، مركز دراسات الوحدة العربية،

بيروت، ط١، ٢٠١٧ : ١٦٥

وهكذا فإن الإسلام سيحلّ محلّ الشيوعية في محاربة الغرب تحت عنوان (صدام الحضارات).

يتحدّث برنارد لويس في مقالته الشهيرة بإسهاب عما يعتبره "جذور الغضب الإسلامي" الحالي كما يشير عنوان المقالة، تجاه الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة، إلا أنّه ولسبب ما يتناسى التعرض للأسباب والشروط الموضوعية المعاصرة التي أدت إلى نشوء حالة الغليان وظهور النقمة والرفض للأحوال المهيمنة التي يتصف بها واقعهم.

إذ يمثّل الإسلام الأصولي حسب لويس أحد أبرز التهديدات التي ستواجهها الحضارة الغربية في مستقبلها، فما طرحه لويس في (جذور الغضب الإسلامي) يمثّل عقيدة جديدة تساهم في رسم الطريقة والكيفية التي على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعاطى بها مع العرب والإسلام.

### هل يهدّد الإسلام الغرب؟ :

يطرح لويس سؤالاً يشغل بحسب رأيه صنّاع السياسة الغربيين في الوقت الراهن، ((يمكن صياغة السؤال صياغة مبسّطة: هل الإسلام -أصولياً كان أم غير ذلك - يهدّد الغرب؟))<sup>(١)</sup>.

يعيد لويس صياغة هذا السؤال المركزي ويسرد عدداً من الإجابات البسيطة على هذا السؤال، التي يطلق عليها المضلّلة، فوفق رأي أحد المدارس الفكرية قد حلّ الإسلام والأصولية الإسلامية محلّ الاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية بعد زوالهما، ورأي مدرسة فكرية أخرى أنّ المسلمين أناس محترمون أساساً محبّون للسلام، أتقياء، لكنهم ما عادوا يطبقون صبراً بكل ما أنزلناه بهم نحن الغربيون من

(١) أزمة الإسلام : برنارد لويس، ٥٩

ويلات، لقد اخترنا معاداتهم، ثم يعلّق على الرأيين قائلاً : "في كلتي وجهتي النظر شيء من الصحة وكنيتهما مخطئة خطأً خطيراً" ليس الإسلام من حيث هو عدو للغرب، وثمة أعداد متزايدة من المسلمين ممّن لا يتمنون أكثر من علاقة صادقة وثيقة بالغرب، وتطوير المؤسسات الديمقراطية في بلدانهم، غير أنّ أعداداً مهمة من المسلمين -سيّما ممّن يُدعَوْنَ بالأصوليين- عدوانيون خطرون لا لأننا بحاجة إلى عدو، بل لأنهم هم بحاجة إليه<sup>(١)</sup>.

يبين لويس صورة الإسلام في الوعي الثقافي الغربي بالقول: ((إنّ ردود الفعل على ما جرى في إيران من احتلال مجموعة من الطلاب لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية في طهران عام ١٩٧٩، ولجوء الشاه إلى الولايات المتحدة واحتجاز الرعايا كرهائن، أعاد للذاكرة ذلك الموقف القديم من الإسلام، والعرب، والشرق بشكل عام، وهو مترسّخ في وعي الجمهور الثقافي، وهذا الموقف أسميه الاستشراق، فصورة الإسلام واحدة ثابتة لا تتغير من أي زاوية نظرت إليها))<sup>(٢)</sup>.  
مُشيرًا إلى الصورة القاتمة للإسلام، العنيف والدموي وغير المتقبّل للآخر.

### صراع حضارات أم صراع أديان؟ :

لطالما قرّنت الصراعات بين الحضارات بالطبيعة العضوية للثقافات، فالحضارات كما الإنسان تمرّ بمراحل النشأة، والنضج، والهرم، وفي الغالب فإنّ هذا الصراع ينطلق من مفاهيم التمركز، ((إنّ الحضارة تفترض على الدوام آخرًا غريبًا عليها، وندًا لها، ترسم حوله خططها ومشاريعها الآنية والمستقبلية، ووسائلها المنهجية))<sup>(٣)</sup>، إنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت بوحى الكنيسة الكاثوليكية للانتقاص من الإسلام وإهدار قيمه وتعاليمه، حرصًا

(١) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ٥٩

(٢) الإسلام الأصولي، برنارد لويس : ٣٧

(٣) تحولات الفكر الفلسفي المعاصر أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل: عبد الرزاق بلعقروز، الدار العربية للعلوم ناشرون،

بيروت، ٢٠٠٩م: ١٤٣



على الكنيسة وتعويضاً للهزائم الصليبية أمام المسلمين، ولقد كان التبشير والاستشراق طلائع الاستعمار لغزو المسلمين والسيطرة على بلادهم<sup>(١)</sup>، وإن المؤلفات الاستشراقية الأولى التي وصلت إلينا غلب عليها الطابع العدائي الحاقد على الإسلام، ونبيه الكريم محمد (ﷺ)، وما كانت لتظهر هذه العدائية لو أن هذه المؤلفات كتبت في ظل الظروف الطبيعية، فقد كتبت خلال حملات الصليبيين على الشرق الإسلامي وفي ظل احتدام الصراع المسيحي - الإسلامي مرسخاً للنظرة العدائية المسيحية للإسلام<sup>(٢)</sup>.

وفي لحاظ أنّ (( تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية عرفت فترات حوار وتفاعل، وفترات صدام وتطاحن، والغزو الحديث للأمة الإسلامية جاء بالمدافع والنهب الاقتصادي، ثم تلاه غزو فكري، ارتكز على الثالث المشهور: الاستعمار والتنصير والاستشراق ))<sup>(٣)</sup>، يظهر تحامل بعض كبار المستشرقين الذين يأخذ عنهم لويس مثل (جولدنتسيهر) تأويلهم للوقائع التاريخية وتحريفهم للحقائق، وتشويههم للنصوص، وفق أهدافهم التي سعوا إليها، واعتمادهم على مصادر لا قيمة لها في نظر العلم، وتكذيبهم للمصادر العلمية المعترف بها عند أئمة المسلمين والعلماء المحققين<sup>(٤)</sup>، وفي الحديث مثلاً عن المستشرق والراهب البلجيكي لامنس الشديد التعصب ضد الإسلام؛ الذي يفتقر للنزاهة في البحث، والأمانة في نقل النصوص وفهمها والذي يعد نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في شؤون الإسلام، فهو متحامل في كتاباته تحاملاً شديداً ويتّصف عمله بالبعد الشديد عن العلم، وأصول البحث والنزاهة العلمية، ويعتمد على تحكّمات ذهنية استقرت حسب معاني ذهنية

(١) المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الأول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية،

١٩٨٦، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الإسلامي للدراسات قسم الاستشراق: ٢٠٩

(٢) ينظر: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله وتدوينه وجمعه، مشتاق بشير الغزالي دار

النفايس سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٨ : ٢٤

(٣) الغرب والإسلام (حوار أم صراع): زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة

النهرين، بغداد، ٢٠٠٩ : ٦.

(٤) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٧٦-٧٧

سابقة، ولم يكن لديه إطلاع باحث مثل جولدتسيهر، فهو إمّا أن يشير الى مواضع غير موجودة إطلاقاً في المصادر، أو إنّه يفهم النصّ فهماً ملتويّاً خبيثاً، أو يستخرج الزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية، ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارئ على إشاراتِهِ إلى المراجع؛ فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص<sup>(١)</sup>. ومثل هذه العينة من المستشرقين كثير، لكن لويس لم يظهر عداؤه للإسلام بشكل مباشر، بل مال إلى إخفاء عقيدته وتشدده خلف ستار من العلمية التاريخية -ظاهراً على الأقل- فهو يحلّل الحوادث والمنعرجات التاريخية بموضوعية مقنعة نوعاً ما، يتماهى فيها مع الرأي السائد والرواية الرسمية.

وعن الصراع بين الحضارتين يرى لويس إنّ تعاليم المسيحية قد أنشأت مؤسستين هما الكنيسة والدولة، فكان فصل الدين عن السياسة أحد السبل التي مكّنت الغرب من التخلص من العداوة والتعصّب الذي هو سبب محاربة الأديان لبعضها البعض باسم الله<sup>(٢)</sup>. وهو هنا يشير إلى أنّ الإسلام -إن لم يقلها صراحة- لا يزال يمتاز بالتعصّب، فقد عجز عن فصل الدين عن السياسة والذي هو أساس التسامح ونبذ العنف.

(١) موسوعة المستشرقين: عبدالرحمن بدوي، ٥٠٣-٥٠٤

(٢) جذور الغضب الإسلامي، برنارد لويس.

### المبحث الثالث

#### التنائيات النسقية

#### الإنجيل/القرآن:

سعى المستشرقون منذ بدايات ظهور حركة الاستشراق إلى إبعاد القرآن عن ميدان الحياة، والفصل بين الدين والحياة الاجتماعية، والتفريق بين الدنيا والآخرة، ودأب جماعة كبيرة منهم على وصف القرآن بأنه "تسيخ من السخافات"، وأن الإسلام "مجموعة من البدع"، وسعوا إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام لتقليل أهميتهما وزعزعة النفوس عنهما، ومنهم (نيكولا دكيز، وفيفش، وفيرانتشي، وهوتجر، وبريدو) وغيرهم، كما عمد قسم من المستشرقين الألمان واليهود أمثال ( جولدتسيهر، وفيل، وبول) إلى القول بأن القرآن حُرّفَ وبُدِّلَ بعد وفاة النبي {صلى الله عليه وآله وسلم}، بهدف عزل الإسلام عن الحياة وإخراج القرآن عن المجال الذهني والقلبي والعملية للإسلامية<sup>(١)</sup>.

يُجانب الكثير من المستشرقين الموضوعية في رأيه بالقرآن الكريم بعيداً عن المهنية، ميّالاً نحو الهوى والانحياز لعقيدته المسيحية، ملصقاً التهم بالقرآن الكريم واصفاً إياه زوراً وبهتاناً، فنجد مثلاً أحد المستشرقين يقول عن القرآن الكريم: ((إنه بلبله ثقيلة ومحيرة، فهو ساذج ومجذب، يشتمل على تكرار وإسهاب وتشابك لا حدّ له، وهو جاف وغير ناضج، وباختصار هو سخف لا يطاق))<sup>(٢)</sup>، فيما يقول آخر: ((والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه، وهو محمد وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات،

(١) ينظر: القرآن الكريم في الفكر الاستشراقي المعاصر مقاربات نقدية لموسوعة القرآن (لیدن): مجموعة مؤلفين، العتبة

العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، ط١، ٢٠٢١ : ٨-٩

(٢) الإسلام في تصورات الغرب: محمود زقزوق، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ.: ١٥٤

وهو نفسه لم يكن على علم بهذه العضلات، كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته الذين نقل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله<sup>(١)</sup>.

يشير لويس إلى طبيعة القرآن التوحيدية، وعرضه لطبيعة الصراع الأزلي بين الخير والشر، فيقدمه على أنه: ((توحيدي بشكل راسخ، يؤمن بإله واحد، وقوة كونية واحدة، وهناك صراع في قلوب البشر بين الخير والشر، بين أوامر الله والإغراءات، إلا أن ذلك يبدو كأنه صراع مسير من الله ومحسوم سلفاً لصالحه، وظيفته اختبار الإنسان، وبخلاف الأديان القديمة فليس للإنسان دور في هذا الصراع لتحقيق النصر للخير ضد الشر، وعلى الرغم من ذلك فإن الإسلام -مثله مثل اليهودية والمسيحية- تأثر بفكرة وجود صراع كوني بين الخير والشر، النور والظلمات، النظام والفوضى، الحقيقة والزيف، الله وعدوه، الذي عُرف بالشيطان أو إبليس<sup>(٢)</sup>). وهو بهذا القول إنما يجعل القرآن في مصاف بقية الكتب السماوية، لكتفه يميّزه عنها بأنه يلغي دور الإنسان في الصراع بين الخير والشر، ووجود إبليس في الحياة كعنصر معاد للإنسان.

ينطلق بعض المستشرقين ومنهم لويس في مقايسة ومقارنة القرآن الكريم بكتبهم المقدسة، عن طريق تصوّرهم القبلي المستقى من كتبهم المقدسة، ذات التنظيم التاريخي ورواية قصة بني إسرائيل عبر عصور متعدّدة، أو تاريخ النبي عيسى (عليه السلام) وأقواله ومآسيه، ما شكّل صورة الكتب المقدسة في خلفياتهم المعرفية، وبناءً على ذلك ما كان ينبغي - في تصوّرهم- لكتاب سماوي أن يخرق هذا التنظيم التاريخي/الخطي، بينما يقول واقع القرآن

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، ط٨، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٥هـ: ١٩٠-١٩١

(٢) الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ١٢

الكريم بأنه كتاب هداية وإرشاد وليس كتاباً تاريخياً<sup>(١)</sup>، قال الله في محكم كتابه الكريم: ﴿طس  
تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين﴾ (النمل ١-٢).

إنّ النظرة العلمية المتّزنة للقصص القرآني وقصص الكتاب المقدّس ((تُظهر اختلافات جوهرية منها أنّ رواية القرآن لقصة يوسف عليه السلام مثلاً تتغمر باستمرار في مناخ روحاني نشعر بها في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني))، بينما تغرق الرواية التوراتية في ((وصف الشخصيات المصرية - الوثنية - بأوصاف عبرانية، كما أنّ القصة في التوراة تحمل أخطاءً تاريخية وغير ذلك))<sup>(٢)</sup>، و((لو كانت المقارنة لكتابين لتفوق القرآن الكريم لما فيه من رفعة وسموّ، بينما حفلت بعض قصص الكتاب المقدّس بأسلوب هابط بذئ لا يليق بكتاب يوصف بأنه مقدّس كما في نشيد الإنشاد على سبيل المثال))<sup>(٣)</sup>، وهو ينفي الإحالة التي يشير لها لويس في مصدر القصص القرآني، في لحاظ التحريف الذي طال الكتب السابقة، ممّا أخرجها عن طبيعتها الإلهية، وجعلها أقرب إلى تأليف البشر وصنعهم.

### الكنيسة/الجامع:

يرى لويس عن طريق قراءته للتاريخ الإسلامي، أنّ الجامع والدولة في النظرية الإسلامية هما مؤسستان غير منفصلتين، أو قابلتين للفصل، فالجامع هو مكان العبادة والدراسة معاً، في حين كانت النظرية المسيحية وممارساتها قد تطوّرت وفق مسارات مختلفة، وفق كلام مؤسس المسيحية "اعط لقيصر ما لقيصر، واعط للرب ما للرب"، وبقي هذا المبدأ أساسياً للفكر والممارسة المسيحية، فكانت هناك

(١) ينظر: القراءة الاستشراقية للنص القرآني دراسة معرفية: موسى خابط عبود القيسي، أطروحة دكتوراه، ٢٠١٢، جامعة

بابل كلية التربية للعلوم الانسانية: ١٩٨

(٢) الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ٢١١-٢٤٢

(٣) الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، ١٣٤.

سلطان: الله والقيصر، سلطتان تتعاطيان مع قضايا مختلفة، وتمارسان سلطات قضائية مختلفة، ولكل سلطة قوانينها ومحكمها الخاصة بها، وتمتلك كل منهما مؤسساتها الخاصة، فهما كما نسميهما في العالم الغربي الكنيسة والدولة، وكانتا أحياناً في حالة تعاون، وأحياناً في حالة صراع، تسيطر إحداهما على الأخرى أحياناً، وأحياناً تكون السيطرة للأخرى، لكنهما دوماً سلطتان، ولم تكونا يوماً سلطة واحدة<sup>(١)</sup>.

وهو ما يطلق عليه حديثاً في علم السياسة الفصل بين السلطات، يشخص لويس بهذه المقارنة الفرق بين الإسلام والمسيحية ليقدم للقارئ فكرة جاهزة للتلقي، بأن الإسلام يذكي التسلط والديكتاتورية في الحكم، إذ يمنح الصلاحيات المطلقة لرجل الدين في حكم البلاد، فيمكن أن يكون الحاكم والإمام في الوقت ذاته، في حين أن الكنيسة تفصل بينها وبين الدولة.

وهو ما يطرحه لويس في موضع آخر كحلّ لمعضلة تواجه اليهود أو المسلمين، فطالما نُظِرَ للصراع بين الكنيسة والدولة على أنه مشكلة مسيحية محضّة، لا تخص اليهود أو المسلمين، وأنّ الفصل بينهما هو حلّ مسيحي لمعضلة مسيحية بامتياز، لكن عند إمعان النظر في وضع الشرق الأوسط المعاصر، فإنّ الحل ذاته يُطرح على الطرفين اليهودي والمسلم، بعد أن أصابت عدوى المرض المسيحي المسلمين واليهود، ولربما عليهم اعتماد طريقة العلاج ذاتها<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: لغة الاسلام السياسي: برنارد لويس، ١٣. كذلك ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس، ٤٤-

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس: ٦١

على مرّ العصور كانت الكنيسة تعدّ الإسلام خطرًا على كياناتها ومعتقداتها، وأنه سائرٌ في طريق لم يدع منفذًا في بيت الإلّا ولجه لبيت أخلاقه وتعاليمه وقيمه بين الناس، وترى في طروحاته مقبولة كبيرة لدى المتلقين، فكان هذا حافزًا لأن تقف في طريق تقدّمه ومسيرته بمختلف الوسائل والطرائق<sup>(١)</sup>. وقد هيمن الاعتقاد في القرون الوسطى وبدايات عصر التنوير الأوروبي بأنّ الإسلام دين شيطاني رجيم أبرز صفاته النفاق والغموض، والشيء المهم لدى المسيحيين هو أنّ محمدًا نبي كذاب تهيم عليه الشهوانية والنفاق، وداعية تفرقة، وكثيرًا ما وصف بأنه عميل الشيطان، ولم يكن مهمًا لديهم أن المسلمين يعدّون محمدًا نبيًا لا إلهًا<sup>(٢)</sup>.

ويرى لويس: أنّ المسجد كنيسة المسلمين حقًا، بمعنى أنّه مكان عبادة جماعية، ولكن ليس بوسع المرء الكلام عن المسجد، كما يتكلم عن الكنيسة، كمؤسسة ذات هرمية وقوانين خاصة بها في مقابل الدولة<sup>(٣)</sup>.

كما يشير لويس إلى اختلاف الإسلام عن المسيحية من حيث هيكلية التنظيم الديني لرجال الدين، فمن ((ناحية المبدأ لا يوجد في الإسلام كهنوت ولا كنيسة، والأئمة مجرد قادة يئمون الصلاة، والعلامة متفقون بالتعاليم الدينية والشرعية، لكن دون مركز كهنوتي لهم، والجامع هو مكان بكل بساطة))<sup>(٤)</sup>، لكنّ هذا الأمر لم يدم، فمع مرور الزمن ((اكتسب الإمام والعلامة تدريبًا مهنيًا وشهادة، وأصبحوا بالمعنى الاجتماعي إذا لم يكن بالمعنى الثيولوجي\* الديني، طبقة

(١) ينظر: إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين: عادل عباس النصاروي،: ٤١

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٣٥

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٤٧

(٤) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس: ٤٨

\* الإلهيات (Theology) هي: الدراسة المنهجية للطبيعة الإلهية وعلى نطاق أوسع للعقيدة الدينية، تُدرّس كتخصص أكاديمي في الجامعات والمعاهد الدينية، وتشتغل بالمحتوى الفريد لتحليل ما فوق الطبيعة، وتسعى للإجابة على سؤال الوحي. ينظر: ويكيبيديا

أكليروس (رجال دين) وإن يكن من دون أسرار مقدّسة، بقي الجامع عبارة عن بناء، لكن العلامة جمّعوا أنفسهم في تراتبيات فيها صفوف عليا و صفوف دُنيا، وأعطاهم تأويل الشرع والوصاية على القانون المقدّس حيث كانوا هم المسؤولون عنه بشكل أولي، قوةً ومكانةً وتأثيرًا وجلب لهم الثروة أحيانًا<sup>(١)</sup>.

يعزو لويس ذلك التحوّل إلى التأثير بما شاهده المسلمون في الكنائس المسيحية في البلدان التي احتلوها، فذهبوا يقدّون تلك الأنظمة، فبلغت محنة المؤسسة الدينية ذروتها في جمهورية إيران الحالية، ((إذ وللمرة الأولى في التاريخ الإسلامي نجد مكافئات وظيفية للمطارنة، رئيس المطارنة، الكاردينال، وربما حتى منصب البابا، لقد خلق حكام إيران بالفعل هيكلية كنيسة إسلامية، تدّعي حق السلطة الروحية والسلطة الزمانية، ويمكن أن يواجههم قريبًا ضرورة إجراء إصلاح إسلامي))<sup>(٢)</sup>. فهو يرى التقليد الإسلامي للمناصب المسيحية دليلًا على التأثير المباشر وغير المباشر بالفكر الغربي المسيحي.

### تاريخ الإسلام/الواقع:

يتعرّض لويس في كتاباته إلى مفاصل مهمّة في التاريخ الإسلامي، منها كلامه عن "الخلافة"، ووجود هذا المصطلح في شبه الجزيرة العربية، وقد وردت في القرآن مرتين، (البقرة ٣٠، ص ٢٦)، في قرائن تُشير إلى الزعامة بإيحاء شديد<sup>(٣)</sup>، ثم يعرّج على تاريخ الخلافة بقوله: ((مرّت الخلافة عبر قرونها الثلاثة عشر تقريبًا بالكثير من التقلّبات، غير أنّها ظلّت رمزًا فعالًا لوحدة المسلمين، بل لهويتهم، وكان العالم الإسلامي يحسّ باختفائها

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس : ٤٩

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس : ٤٩-٥٠

(٣) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس : ٧٨



تحت الضغط المزدوج لهجوم الإمبرياليين الأجانب ودعاة التحديث الداخليين<sup>(١)</sup>. وهو هنا يؤشّر على علامة فارقة من علامات الصراع الداخلي في التاريخ الإسلامي وهي الخلافة، التي لطالما كانت موضع جدل وخلاف بين المسلمين، منذ العصر الأموي نزولاً حتى آخر خليفة عثماني في عشرينيات القرن الماضي، ففي الحقيقة لم تكن الخلافة يوماً رمزاً لوحدة المسلمين كما يعبر لويس، بل كانت محل اقتتال أحياناً، ومحل تكفير وخروج من الدين والملة أحياناً أخرى، كما يمكن القول بوضوح إنّ ((الخلافة لا تعدّ رمزاً للإسلام، فالرمز يجب أن يكون من طبيعة الرموز إليه، وإذ كان الإسلام في الأصل، عدالة وحرية ومساواة ورحمة فإنه يتعيّن أن تتجسّد في أي رمز عنه معاني العدالة والحرية والمساواة والرحمة،... في حين كانت الخلافة مثلاً للظلم والاستبداد والتفرقة والتعسف، ولا يمكن بهذا أن تكون رمزاً للإسلام))<sup>(٢)</sup>. وهو ما يعاكسه لويس بأنّ الخلافة التاريخية أول مؤسسة ريادية في التاريخ الإسلامي، وأكثرها أهمية وعظمة، وهي تمثّل في الأدب السنّي خلافة رسول الله في رأي الفقهاء وليس خلافة الله في الأرض كما يظن البعض، وأنّ ما تردّد من قصائد مدح بحق بعض الخلفاء الأمويين أو العباسيين يصفونهم فيها بـ"خليفة الله"، هي حالات اعتبارية غير رسمية، وإنّ نعت "خليفة الله" يكشف بجلاء حق المطالبة بشيء يماثل الحق المقدّس في الحكم<sup>(٣)</sup>.

إنّ الخلافة بأصولها وطبيعتها وحقيقتها نظام سياسي، وليست نظاماً دينياً، وهي تحتوي كل الأعيب السياسة ودناياها وكل أخطائها، وكل مساوئها، وإنّ وصفها بأنها إسلامية لم يكن وصفاً حقيقياً يفيد أنها انبنت على قيم الإسلام وأخلاقياته، لكنه كان وصفاً يزعم أنها صدرت عن الإسلام، ويستعمل الدين لخدمة أهدافه لا أكثر، كما يستعمل الشريعة للإساءة

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٣٠

(٢) الخلافة الإسلامية: محمد سعيد العشماوي، سينا للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢ : ٢٧

(٣) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس: ٧٩

إلى الشريعة ويحكم المسلمين بخلاف ما يقضي الإسلام<sup>(١)</sup>. وكما هو حال كلِّ الأحداث والمفاصل التاريخية لأيِّ حضارة أو دين فإن المنعطفات المهمة هي جزء من تاريخ تلك الحضارة، فالخلافة الإسلامية ليست ركناً من الإيمان، ولا حكماً من الشريعة، لكنّها جزء من تاريخ الإسلام، كان من الممكن أن يقع بصورته التي حدثت، أو يقع بصورة مغايرة، أو لا يقع أبداً، إنّما يحدث بدلاً منه نظام آخر مختلف تماماً، والخلط بين الإسلام والتاريخ خطأ فادح وقصور شديد<sup>(٢)</sup>.

وتجمع لفظة الخلافة برأي لويس بين معنيين: "ولي العهد" و"النائب أو الوكيل"، وكانت تعني رئيس المجتمع الإسلامي "خليفة رسول الله" وقد اختصرت لتصبح "خليفة الله"<sup>(٣)</sup>، فهو بهذا القول عن الخلافة يتعمّد الإشارة إلى نسق حيوي في المجتمع الإسلامي، هو نسق التصالح مع الواقع الرسمي السائد على الرغم من علّاته وأخطائه، والاعتراف بالخلافة نظاماً يُنتج ممثلاً سياسياً ودينياً (افتراضياً) للرسول (ﷺ). وهو في هذه الإشارة إنّما ينتقص تهكماً وسخريةً من تاريخ الأمة الإسلامية، باعتبار معرفة الجميع بالتاريخ المظلم من طغيان وجرائم من نصّبوا أنفسهم خلفاء على المسلمين معبّراً عن الخلافة برمز الوحدة الإسلامية وهويتها. فهو يعرف جيداً آلية نشوء الخلافة وطريقة تكونها: ((باعتباره نبياً، لم يكن لمحمد خليفة، فهو "خاتم الأنبياء"، بحسب التعبير الإسلامي، أما باعتباره رئيساً للدولة الجديدة فكان لا بد من وجود خليفة له، وكى لا تنهار الدول الإسلامية وتعم الفوضى ويرتد الناس إلى الوثنية، تحرك بسرعة جماعة من أقرب أصحابه لاختيار "أبو بكر" الذي تولى قيادة الدولة والجماعة وهكذا تأسست "الخلافة")<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: الخلافة الإسلامية: محمد سعيد العشماوي، ١٢

(٢) ينظر: الخلافة الإسلامية: ٢٥

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٣١

(٤) من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٥٨٤

يقول لويس عن مصطلحات الخليفة والاستخلاف والبيعة أنها ألفاظ ترتبط بمراسيم تنصيب الخليفة، في عصر صدر الإسلام والخلفاء المبكرين، والبيعة فيها دلالة على يمين العهد<sup>(١)</sup>. ويذكر لويس أنّ الخليفة في النظام الإسلامي لا يضع القانون، بل هو مقيد به، وله دور الرقابة على القوانين الإلهية فقط، وليس له سلطة التشريع، بسبب ميل الإنسان الطبيعي إلى التخريب وبما أنّ الحاكم "الخليفة" رقيب على القانون السماوي فإنّ طاعته واجب ديني، وعصيانه إثم وجريمة في الوقت نفسه<sup>(٢)</sup>، في لحاظ أنّ الخلافة لم تحقق وحدة العالم الإسلامي، فقد كانت توجد في وقت واحد خلافات ثلاث: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة الأموية في الأندلس، وفي فجر الإسلام وجدت خلافتان: إحداهما لعلي بن أبي طالب، والثانية لمعاوية بن أبي سفيان<sup>(٣)</sup>.

إنّ ما يضطرب في وصفه لويس هو تعبيره حين يتحدث عن الإسلام وهو يقصد واقعة تاريخية معيّنة في التاريخ الإسلامي، أو حادثة ما، أو رواية عن راوٍ ما، أو صفحة من كتاب لأحد الكتاب المسلمين، أو واقع اقتصادي لمرحلة تاريخية من حياة المسلمين، فهو لا يمثّل الإسلام كدين سماوي متكامل منزّه عن كل عيب.

إنّ طموح قريش إلى ملك أو إمارة، وطمع زعماء الحجاز في الملك من جانب آخر، أمران كان لهما أثر شديد النتائج بعيد المدى على فكرة النبوة ثم على نظام الخلافة الإسلامية، ذلك أنّ العرب تحت تأثير هذين الاتجاهين، لم يستطيعوا استيعاب فكرة النبوة أو تمثّل مبدأ الوحي، وإنما نظروا إليهما بمنظار الملك وحكموا عليهما بتأثير الإمارة، ويستشهد بقول عبد الله بن الزبير: لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء لا وحيّ نزل

(١) ينظر: لغة السياسة في الإسلام، برنارد لويس، ٩٢

(٢) ينظر: إسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية: برنارد لويس، ترجمة: سيد رضوان، المملكة العربية السعودية، الدار

السعودية للنشر، ط٢، ١٩٨٢ : ٦٣-٦٤

(٣) ينظر: الخلافة الإسلامية: محمد سعيد العشماوي، ٢٦

وقول الوليد بن يزيد الخليفة الأموي: تلعب بالنبوة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب<sup>(١)</sup>

إنّ الخطأ الذي كثيراً ما وقع فيه لويس هو الحكم على الكل بجزيرة الجزء، دون الاهتمام بحقيقة أنّ الإسلام غير تاريخه، فالإسلام هو المبادئ والتعاليم التي بشر بها النبي (ﷺ) والكائنة في القرآن الكريم أو الموجودة في السنة الثابتة الصحيحة، أمّا تاريخ الإسلام فهو التاريخ السياسي من مناظير مختلفة، والتاريخ الاقتصادي من رؤى متباينة، وتاريخ الحركات الثورية والسريّة، وتاريخ المذاهب من زوايا عدة، وهو بالتأكيد من صنع البشر، يتأثر بالأفكار والمطامع والدوافع والأسباب، إنّه عمل بشري يختلف عن الإسلام. وإذا كانت النبوة ذاتها فهمت من جانب القرشيين على أنّها ملك وإمارة، فلا غرابة أن تكون الخلافة في تقديرهم ملكاً صريحاً وإمارة محضة، ومن هذا المنزع فإن الصراع والتنافس بين الهاشميين والأمويين على سيادة قریش والإمارة عليهم سرعان ما اشتد مع نظام الخلافة واحتدّ واحتدم باسم الدين وتحت لواء الشريعة، حتى أصبحت الخلافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي نفسه حتى وقت قريب نتائج لهذا التنافس وذلك الصراع<sup>(٢)</sup>.

### الإسلام المتطرف/الإسلام المعتدل:

دعمت وسائل الإعلام الغربية برنارد لويس كثيراً وسهّلت عليه مهمته في خلق صورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين مليئة بالقبح والعنف والتخلف والإرهاب، مستثمراً التقنيات والوسائل الإعلامية الحديثة. ((يذكر كارل بروكلمان متناسياً كلّ سماحة الإسلام: يتحتمّ على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين، حيث وجدهم لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني))<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: الخلافة الإسلامية: محمد سعيد العشماوي، ٤٣:

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤٤،

(٣) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د. شوقي أبو خليل، ١٠

بلحاظ صورة الإسلام في نظر الغرب على أنه دين منحرف وعنيف انتشر بحد السيف، الأمر الذي ساعد في تغذية الخيال الغربي المسيحي الذي اطلع على الحروب والحملات الصليبية، وفي إطار التصور هذا عُرست الفوبيا من الخطر الإسلامي الذي تنامي في المخيلة الغربية المسيحية بوصفه دينًا وثنيًا عنيفًا بكل ما يحمله من انحلال ووحشية، وعلى النحو هذا بُني خطاب مسيحي عن الإسلام يحتل فيه الخيال والتضخيم مكانة بارزة<sup>(١)</sup>.

وبشير (لويس) إلى تبني دول الشرق المسلم لأفكار الغرب التي حظيت لديهم بالقبول حتى من أشدّ الناس تطرفًا، وعادةً من دون أن يعرفوا مصدرها، نحو الانتخاب، والحرية السياسية، والتمثيل البرلماني، والحكومات الدستورية، حتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية لها الآن دستور مكتوب ومجلس نواب منتخب وهيأة دينية حاکمة، وهو ما لم يكن موجودًا في التعاليم الإسلامية في الماضي، وأنّ البلدان الإسلامية قد تبنت بعض العادات الاجتماعية والثقافية الغربية، مثل الملابس والمجال العسكري واستعمال الأسلحة الغربية، وعن طريق كل ذلك فإنّ الأفكار الغربية بقيت تحتفظ ببريقها<sup>(٢)</sup>.

### التعصّب/التسامح:

يعرض لويس لظاهرة خطيرة من وجهة نظره يعيشها الفكر الإسلامي تتميز بالتعصّب والتشدد، ((هناك صورتان ذهنيّتان استحوذتا على ما كُتِبَ حتى الآن حول التسامح والتعصّب في العالم الإسلامي، تمثّل أولاهما مقاتلاً متعصبًا، أو فارسًا عربيًا ينطلق من الصحراء على صهوة جواده، والسيف في إحدى يديه والقرآن

(١) ينظر: حوار الحضارات تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا: عبدالله صالح أبو بكر، هيئة الاعمال الفكرية، الخرطوم،

ط٢، ٢٠٠٥: ٣٢

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٣٠

في يده الأخرى، مخيراً ضحاياه بين أحد أمرين: السيف أو القرآن<sup>(١)</sup>. أمّا الصورة الذهنية الأخرى فتتمثّل في أنّ عالمًا مثاليًا متعدّد الأجناس والمذاهب، وفيه رجال ونساء من انتماءات عرقية مختلفة، ويعتقدون مذاهب مختلفة، تتعايش فيه هذه التباينات كلها، جنبًا إلى جنب، في تعاظم لا تشوبه شائبة، يعيش فيه الناس متمتعين بالمساواة في الحقوق وتكافؤ الفرص. وفيما يخص اليهود من هاتين الصورتين بحسب رأي لويس فإنّ إحداها تُظهر الإسلام التقليدي وكأنّه كان مثل أمريكا المعاصرة إنّ لم يكن أفضل، وإنّ الثانية تُظهره مشابهًا لألمانيا الهتلرية، إنّ لم يكن أسوأ. يعقّب لويس على الكلام السابق بأنّ كلتا الصورتين قد حُرّفتا بشكل مشوّه، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ كليهما تحتويان على ما يمكن أن تحوي عليه الصورة غالبًا، أي بعض عناصر الحقيقة<sup>(٢)</sup>.

يتناول لويس التهمة التي كانت توجّه باستمرار ضد الإسلام، التي لا تتمثّل في أنّ تعاليمه كانت تفرض بالقوة، بل تتمثّل في أنّ هذه التعاليم غير صحيحة، وأنّ الدعوة إلى التسامح التي ينادي بها المدافعون عن الإسلام وبيتناها حماة الإسلام، هي دعوة جديدة ومن أصل هجين، وأنّ المدافعين عن الإسلام بدأوا في وقت متأخر جدًّا في التأكيد على أنّ مجتمعهم كان فيما مضى يمنح غير المسلمين وضعًا قانونيًا يتمييز بالمساواة، أمّا المجتمعات الإسلامية الكلاسيكية فلم تكن تمنح مثل هذه المساواة، ولم يزعم أبناؤها أنهم أقدموا على ذلك<sup>(٣)</sup>.

يشير لويس إلى نقطة مهمة في رأيه وهي أنّ ((المساواة في العهد الإسلامي القديم لم تكن تحسب على أنّها استحقاق، بل كانت تعتبر إخلالًا بالواجب، إذ كيف

(١) اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ٩

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٩ - ١٠

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ١٠

يمكن لأمرئٍ ما أن يقدم نفس المعاملة لأولئك الذين يتبعون العقيدة الصحيحة، ولأولئك الذين لفظوها بمحض إرادتهم؟ لا بدّ أن يكون هذا هراء بمفهوميه الديني والمنطقي<sup>(١)</sup>، إنّ الحقيقة كامنة برأي لويس في مستوى ما بين الصورتين اللتين استحوذتا على ما كُتب حول الإسلام، الصورة المواجهة والصورة الأخرى المقابلة لها، وهذه الحقيقة أكثر تعقيدًا وأكثر تنوعًا وضبابية من الصورتين.

وبالنظر إلى مركزية الدين وسيادته في الحياة والثقافة الإسلاميتين، وبملاحظة معنى كلمة "إسلام" التي لا تدل على ديانة وحسب، بل حضارة شاملة، فإنّ العامل الديني هو أعظم وأكبر شأنًا مما هو عليه في المسيحية<sup>(٢)</sup>.

#### دار الإسلام/دار الكفر:

إنّ قراءة لويس للدين الإسلامي تقوم على أنه مؤسس على حقيقة لا يمكن التخلي عنها أو تجاهلها، وهي تحدّد العالم إلى دارين، دار الإسلام إذ تحكم الحكومات الإسلامية وتسود الشريعة الإسلامية، ودار الكفر وهي بقية المعمورة إذ يحكمها الكفار، ولا يوجد وصال بينهما إلّا في أوقات الضعف والاضطرار، تفرضه المصلحة الدينية أو مصلحة المسلمين وتكون دائمًا على شكل هدنة مرتبطة بهما و تزول بزوالهما، ولا تعطلّ فريضة الجهاد إلى أن يؤمن العالم كله بالإسلام أو يخضع للحكم الإسلامي، والمجاهدون أهلّ للجزاء في العالمين، الغنى في الحياة الدنيا، والجنة في الآخرة<sup>(٣)</sup>.

كما يقول في موضع آخر: ((في المنظور الإسلامي الكلاسيكي، والذي يعود إليه اليوم عدد من المسلمين ينقسم العالم على قسمين: دار الإسلام حيث يسود الإيمان والقانون الإسلامي، والباقي معروف بدار الحرب، والتي من واجب المسلم أن يدخل الإسلام إليها،

(١) اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس: ١٠

(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ١٢

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٣

لكن الجزء الأعظم من العالم لا زال خارج الإسلام، ولقد أصبح الإسلام حتى في دار الإسلام حسب نظرة الأصوليين الإسلاميين ديناً مقوّضاً وأصبحت الشريعة الإسلامية بالتبع مقوّضة، إنّ واجب الحرب يبدأ ضمناً في بلاد الإسلام ويستمر في الخارج ضد الكفار أعداء الله<sup>(١)</sup>، ففي تحليل لويس للإسلام كدينٍ شموليٍّ يرى في الآخر مُعارضاً يجب أن يُدعن في نهاية الأمر إلى إرادة الإسلام، نراه يُطلق رأياً خطيراً يُصوّر من خلاله حتمية الحرب في نظر الإسلام ضد الآخر، إذ يُقسّم ويُفرّق الشرع غير المؤمنين لاهوتياً إلى من يمتلك كتباً، ويدين بما يعترف به الإسلام بدينٍ إلهي، وإلى أولئك الذين قبلوا سلطة الدولة الإسلامية، وأولوية المسلمين، وإلى ساكني دار الحرب، الذين بقوا خارج الحدود الإسلامية، وهناك -من حيث المبدأ- حالة حرب دائمة وإجبارية شرعاً ضدهم، إلى أن تتم هداية العالم بأكمله أو إخضاعه<sup>(٢)</sup>.

وإنّ التصنيف الآخر لغير المسلمين<sup>(٣)</sup> هو: ((تصنيف سياسي وعسكري، من تم إخضاعه منهم، ومن لم يخضع بعد، فالعالم مقسّم إلى دار الإسلام ودار الحرب، وتشمل دار الإسلام جميع البلدان حيث تحكم حكومات إسلامية، ويسود قانون الإسلام المقدّس، وهنا يمكن لغير المسلمين العيش في كنف التسامح الإسلامي الإكراهي، بينما يسمى العالم الخارجي الذي لم يتم إخضاعه بعد بدار الحرب، ويدور الكلام هنا عن حالة جهاد مستمرة حرب مقدّسة، تفرضها الشريعة))<sup>(٤)</sup>. إنّ الإسلام الحقيقي بطبيعة الحال ليس بهذه الشمولية التي يصوّره بها لويس، ولا هذا الفكر الإقصائي المتشدّد، ولا هذه العدوانية المستعرة، بل هو دين السماحة، والسلام، وقبول الآخر فضلاً عن أنّه كفل حرية الفرد في العقيدة، وما هذا

(١) جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس.

(٢) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٩١

(٣) تكررت هذه الفكرة في أكثر من كتاب من كتب برنارد لويس، ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٣

(٤) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٩١



الكلام إلا تبرير لأفعال الغرب الاستعمارية، بحجة الدفاع عن النفس في حربٍ لم يُعلنها الشرق.

### الإرهاب/ التسامح:

في ظل معرفتنا لحدّ الإرهاب اللغوي وهو: ((كل تهديد باستخدام القوة والعنف والإكراه والتخويف، ويكون ذلك في العموم لأهداف سياسية))<sup>(١)</sup>، وإنّ الإرهابي ((هو ذلك الشخص الذي يفرض آراءه بالإكراه واستخدام القوة والعنف))<sup>(٢)</sup>، يطرح الكثير من المستشرقين تساؤلاً يهدف الى فهم الوضع المتطرّف الذي يعيشه العالم اليوم: ((لماذا يبدو لنا بديهياً كغربيين أن الإرهاب عربي، والتعصب إسلامي؟ لا يكفي أن نقف ساخطين إزاء هذه الاختزالات الرهيبة، لابدّ من فهم جذورها، هل المطلوب البحث عن تفسير لها لدى المسلمين أم لدينا نحن؟ أي تاريخهم أم في تاريخنا الخاص؟))<sup>(٣)</sup>.

إنّ بعض الأفكار والتوجّهات الإسلاميّة قد أوصلت العلاقة مع الآخر حد الحروب وإراقة الدماء، نتيجة التطرّف وأفكار التشدّد، التي تُبيح هدر دم الآخر واستباحة عرضه وماله، فهو يمثّل -أي التطرّف- إشكاليّة ثقافيّة مترسّخة في وعي المُجتمَع ولا وعيه، وهذه الإشكاليّة متداخلة مع الكثير من الخطابات، إذ ينشأ الفرد ويتطوّر وعيه عبر مقاربات يكوّنها وعيه الخاص مقارنةً بـ ((نسق مترابط من الصور والدلالات والأفكار والأحكام السابقة التي تشكّلها كل فئة أو جماعة أو ثقافة عن نفسها وعن الآخرين، فكل جماعة تشكّل صوراً وأحكاماً عن الجماعات الأخرى ويتم ترسيخ هذه الصور في الوعي واللاوعي الجماعي

(١) قرavanaugh وأباطرة الإرهاب في العالم الحقيقي: نعم تشومسكي، تر: قسم الدراسات في دار حوران للطباعة والنشر، سوريا، ط١، ١٩٩٦: ٦

(٢) ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبد الله الوارد: ٢٠

(٣) الشرق المتخيّل رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي: تييري هنتش، ١١

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

بمرور الزمن وبالقوة المادية أو الثقافية التي يتمتع بها المثيل<sup>(١)</sup>. فالغرب يشكّل هذه الصورة النمطية المتطرّفة عن الإسلام بحكم تأثير وعيه الخاص؛ وهو ما يطرحه لويس بقوله: ((إنّ الإسلام من ديانات العالم الكبرى، وقد منح العرب قيمةً وحياءً لا تُستلب، علّم الناس من شتّى الأعراق العيش في إخوة، وعلّم الناس ذوي الأعراق والمذاهب المختلفة التعايش مع بعضهم بتسامح معقول، كان مصدر إلهام حضارة عظيمة عاش فيها الآخرون إلى جانب المسلمين بوفاق، ولكنّه كبعض الديانات عرف حُقبًا أجج فيها نَفْرٌ من أتباعه مشاعر الكراهية والعنف، وإتّه من سوء حظنا أن نواجه قسمًا من العالم الإسلامي وهو يجتاز حقبةً كهذه وفي زمن تتجّه فيه أكثر تلك الكراهية، لا كلها، نحننا. لماذا؟))<sup>(٢)</sup>.

إنّ هذه الرؤية هي مظهر واضح لتجلي الوعي الاستشراقي، الذي وُلِدَ في أحضان اللاهوت الكنسي، فهو يعمد إلى تبني خطاب تشويه وتضليل القرآن الكريم والتراث الإسلامي، لكن وعلى الرغم من ((تسويق رواد الاستشراق الاميركي الجديد لمسألتي: استعصاء الإسلام على الحداثة، وأنّ المسلمين لا يمكن أن يكونوا إلا متعصبين، فإنّ الحضارة الإسلامية في مراحل اشعاعها تنفي هذه الأفكار كلها، والأزمة التي يعيشها المسلمون اليوم لا تعود إلى الدين الإسلامي))<sup>(٣)</sup>. إنّ الإسلام لا يحضّ على العنف لكن الظروف والأوضاع والأزمات التي تمر بها البلدان العربية الإسلامية، فضلًا عن ما تواجهه من السياسات الدولية تجاه المنطقة هي التي فاقمت من مشهدية العنف ودموية الصراع.

(١) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط : د. نادر كاظم، ٢٠

(٢) أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس: برنارد لويس، ٧٠. كذلك ينظر: جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس.

(٣) الرؤية الاستشراقية الأمريكية للإسلام: ريتا فرج ، صحيفة القدس العربي، ٩ حزيران - ٢٠٠٨

### أزلية الصراع/حتمية التصادم:

إنّ مفهوم الإرهاب الإسلامي هو منتج غربي، يحيلنا إلى بنية الاستشراق الكلاسيكي في إعادة إنتاج الشرق الإرهابي وغير العقلاني والمتوحش، وقد أدّى برنارد لويس دوراً مميّزاً في إعادة بعث المفاهيم التقليدية للاستشراق النمطي، وبناءً على ذلك اعتمدت السياسة الغربية على أساس حتمية الصراع الغربي الشرقي، ومن الواضح أنّ الاستشراق الأميركي ((رؤج لثقافة عالمية قائمة على جدلية صراع الأضداد والأفكار التي قسّمت العالم على محورين: محور الخير ومحور الشر، وعليه فإنّ إيديولوجيته المتأسّسة على الثنوية لا تتعد عن تصويره الإسلام الراديكالي الذي يتهمه بالاستبداد وإلغاء الآخر أو تطويعه))<sup>(١)</sup>. إنّ النظرية ما بعد الاستعمارية تعلمنا أنّ صراع السلطة مليء بالتناقضات، فمن ناحية نجد هناك الرغبة، يقول إدوارد سعيد: ((إنّ الشرق عمومًا يراوح بين ازدياد الغرب والرضا بما هو مألوف، وبين رعشة السعادة بالجديد أو الخوف منه))<sup>(٢)</sup>، وفي هذا المجال يقول لويس: ((إنّ فكرة الحرب المقدّسة تجسّد أكثر الأفكار شيوعًا وارتباطًا في أذهان الغربيين بالفكر السياسي الإسلامي قولاً وفعلاً، فالغرب يرى في الإسلام منذ انطلاقة ديناً مقاتلاً، بل وعسكرياً في حقيقة الأمر))<sup>(٣)</sup>.

إنّ فكرة الصراع دائماً ما تأخذ حضورها في واقع الحياة، بل أنّ الصراع هو قانون الحياة الأزلي، الذي يحكم علاقات الأفراد والجماعات ويحددها، وقد عُنيّت نظرية الصراع بدراسة طبيعة العلاقات بين الأفراد والجماعات التي تتمخّض عن أشكال متفاوتة من التنازع والصدام، فهي تنص على أنّ العالم يشبه بصورة أو

(١) صورة الإسلام في أمريكا الجذور والحاضر: علاء بيومي، جريدة الوطن المصرية، ٩/٦/٢٠٠٤م.

(٢) الاستشراق: إدوارد سعيد : ٥٩

(٣) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس: ١١٩

بأخرى، ساحة معركة مضطربة، فلو نظرنا إلى هذه الساحة من ارتفاع، لرأينا جماعات تصارع بعضها البعض، وهذه تتشكّل ثم تعيد التشكيل، وتقيم التحالفات ثم تتقضيها<sup>(١)</sup>.

إنّ فرض السياسات والأفكار والتوجهات المركزية لا بدّ وأنّ يقابله رفض واستنكار من الهامش وإن لم يكن مُعلنًا، ومركز العالم الغربي اليوم هو الولايات المتحدة الأمريكية، التي تحاول بمختلف الطرق دعم حلفاءها وفرض نفوذها وهيمنتها على العالم، الأمر الذي يخلق العداء بينها وبين شعوب الدول الإسلامية المناهضة لهذه الهيمنة في (الشرق)، إنّ ((السبب الذي يقدم باستمرار كمبرر للمشاعر المعادية لأمريكا بين المسلمين، هو الدعم الأمريكي لإسرائيل، وهذا الدعم بالتأكيد عامل أهمية يزداد بروزًا بالاطراد مع ازدياد التورط))<sup>(٢)</sup>. وهو السبب الأبرز والمبرر الأكبر للعداء الأزلي بين المسلمين والغرب.

وعن الصراع بين الغرب والشرق (الإسلام/المسيحية)، يقول صامويل هنتنغتون: ((يرى بعض الغربيين مثل (بيل كلينتون) أنّ الغرب ليست لديه مشاكل مع الإسلام لكن مع الإسلاميين المتطرفين العنيفين فقط، بينما أربعة عشر قرناً من التاريخ تثبت العكس، فالعلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت دائماً مضطربة، وكل منهما كان آخر الآخر، في القرن العشرين لم يكن الصراع بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية سوى ظاهرة تاريخية مصطنعة بالمقارنة مع العلاقات المتوترة باستمرار بين الإسلام والمسيحية))<sup>(٣)</sup>، وتتطابق أفكار لويس مع أفكار هنتنغتون فقد تنبأ هنتنغتون في كتابه (صدام الحضارات) بأنّ الغرب صاحب الهيمنة العالمية، يتجه نحو نهايته؛ لأنّ الآخرين يلحقون ويسبقون، ولذا

(١) ينظر: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس: إيان كريب، ترجمة محمد حسين غلوم ، سلسلة عالم المعرفة،

الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع ٢٤٤، ١٩٩٩: ٩٥

(٢) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ادوارد سعيد، ١٩-٢٠

(٣) الحرب العالمية الرابعة: باسكال بونيفاس: ترجمة، أحمد الشيخ، مكتبة الشروق الدولية والمركز العربي للدراسات

ستتفوق آسيا على الغرب، وسوف تصبح الصين القوة الاقتصادية العالمية العظمى في القرن الحادي والعشرين<sup>(١)</sup>.

يعلّل لويس الصدام الحضاري بمجموعة من الأسباب، منها ما يرجع إلى الدين الإسلامي ذاته، ومنها ما يتعلق بمشاعر الغضب والكراهية على الغرب، نتيجة الانتقال المفاجئة وغير المتوقعة من التفوق والغلبة إلى التذني والانزهاض، إنّ نظرية المؤامرة الإسلامية والقطيعة بين الحضارات أعطت مفهومًا للعالم إنّّه لم يعد هناك صراع الغرب/الشرق بوصفهما قوتين عظيمتين تدفعهما الأيديولوجية المضادة، لكن ثمة حرب بين الحضارتين، حضارة الغرب المتقدّمة، وحضارة أخرى تأخذ شكل البداية البربرية حسب تصوّر لويس. ويرى أنّ "النزاع الكبير" بين الإسلام والمسيحية بوصفه صدامًا بين حضارتين قائم منذ زحف المسلمين العرب غربا نحو سوريا المسيحية وشمال أفريقيا واسبانيا، والهجوم الصليبي المضاد، واندفاع الأتراك نحو أوروبا، وفي القرنين الأخيرين هيمن الغرب سياسيا وثقافيا واقتصاديا وهذا التأثير هو الذي مزق الأنماط التقليدية في السلوك والفكر، وفي التنظيم السياسي والاجتماعي بحيث أصبح من الصعب إصلاحه، الأمر الذي وضع الشعوب أمام مشاكل صعبة يتعذر معها إعادة التكيف<sup>(٢)</sup>.

إنّ سبب الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب برأي برنارد لويس يعود الى بنية الفكر الإسلامي المقاوم للحدائثة ومنظومة القيم الغربية، ورفضه الاعتراف بتفوقها عليه، والإقرار بهزيمته أمامها، وأنّه لا علاقة لهذا الغضب الإسلامي بالظلم أو التجربة الاستعمارية الغربية في العالمين، الشرقي والإسلامي، وعدّ لويس أنّ

(١) ينظر: تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتغتون، هاراد موللر، تر: إبراهيم أبو هشيش، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م: ٢٥.

(٢) ينظر: من بابل إلى الترجمة، برنارد لويس: ٤٨٨

الصراع العربي الإسرائيلي جزء من هذا الصراع الحضاري الإسلامي مع التراث اليهودي-المسيحي<sup>(١)</sup>

يتحدث لويس عن الغرب الواسع الذي تغذيه التناقضات وتغنيه فهو أكبر من المسيحية وقد تجاوزها، في حين أنّ عالم الإسلام لا يزال غارقاً في الدين والتخلف والبدائية، فهو نظام ذو خصائص ثابتة وغير متغيرة، وهو نظام شامل للعقيدة والعمل يتضمن قوانين صارمة تشرع للحياة اليومية فضلاً عن حوافز تبشيرية تأمر بقتال الكفرة، فضلاً عن رؤية الإسلام لأفكار الغرب مثل الماركسية بوصفها دخيلة ومستهجنة بل يعدها بعض علماء المسلمين ورجال الدين بمثابة الهرطقة<sup>(٢)</sup>.

إنّ المُجتمعات الإسلامية من الصعب اختراقها ولذلك فإنّ أيّ عدوان خارجي من الصعب انتصاره عسكرياً، ما لم يستطع اختراق منظومة القيم لهذه المُجتمعات التي عادة ما تعمل كمصدات لأيّ عدوان أو محاولة اختراق. وقد أدركت هذا الواقع أغلب القوى الاستعمارية التي سيطرت على البلدان العربية، والتي تحاول اليوم فرض الهيمنة من جديد، عبر البحث عن سبل مقبولة لإشاعة منظومة قيم أخلاقية جديدة تتقارب ومفهوم العولمة، وتتلاءم كذلك مع مصالح الهيمنة الجديدة<sup>(٣)</sup>. في ضوء معرفتنا أنّ تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية، عرفت فتراتٍ من الحوار والتفاعل، وفتراتٍ من الصدام والتطاحن، وقد جاء الغزو الحديث للأمة الإسلامية بالمدافع والنهب الاقتصادي، ثم تلاه الغزو الفكري، المرتكز على الثالث المشهور: الاستعمار والتنصير والاستشراق<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس.

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ٤١-٤٢

(٣) ينظر: المعايير الأخلاقية وحقوق الانسان في ضوء التطورات الدولية الراهنة : سلمان الجميلي، مجلة قضايا سياسية ، كلية العلوم السياسية ، جامعة النهرين ، بغداد، المجلد الثالث، العدد ١٨ ، ٢٠٠٩ : ٤٦ .

(٤) ينظر: الغرب والإسلام (حوار أم صراع): زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، بغداد، ٢٠٠٩ : ٦ .

لاشكَّ في أنّ فكرة الحوار بين الحضارات، والثقافات، والأديان المختلفة تشكّل اليوم رهاناً ثقافياً كونياً حقيقياً، وتتبع قيمة هذا الرهان من خطورة الدور الذي تلعبه الفكرة النقيضة، فكرة الصراع والصدام، فمهما كانت رؤيتنا لطبيعة العوامل المؤدّة لوقائع الاستعمار، والهيمنة، والعنف، والقتل، والدمار في عالمنا اليوم، فلا يمكن أن ننكر قيمة الوظيفة التي تؤديها أيديولوجيا الصدام الحضاري<sup>(١)</sup>.

إنّ ذاكرة الشرق تقف عند أهم محطة في تاريخها وهي بزوغ فجر الإسلام في القرن السابع الميلادي، وهو الحدث الأبرز والأخطر في مسيرة العلاقة بينه وبين الغرب، ليبدأ مسار العلاقة في اتخاذ منعطف تاريخي، وليبدأ تمركزها في مجال المواجهة والصراع والتناحر المحكوم بثنائية الإسلام/المسيح<sup>(٢)</sup>. ولم يكن الصراع بين الغرب والإسلام صراعاً هامشياً أو ثانوياً أو بسيطاً، بل هو صراع وجود، فعندما تحطّمت آمال الغرب، وأحلامه على أسوار مقاومة العرب العنيفة، أقام بالخيانة والتآمر الدولي قاعدته المشهورة الممثلة بالصهيونية، التي تعمل ما في وسعها لمحاربة كل ما هو عربي وإسلامي في أنحاء العالم، فلم يعد ما بين العرب وإسرائيل صراعاً على حدود وإنما صراع على وجود<sup>(٣)</sup>.

خلال هذا الصراع الوجودي المستمر بين العرب والغرب ولدت في أوروبا فلسفة الاستشراق التي تسعى جاهدة إلى معرفة حضارة الشرق، المنطلقة من رؤية مفادها أنّ ((لكل فرد موقف وجودي يمثل تلك الحضارة، وقد ولدت الحقيقة التي نحاول جلاءها تعبيراً عن ذلك الموقف، أو تسكيناً له وتخفيفاً، وكل ذلك في حاجة

(١) ينظر: خطاب النقد الثقافي: سهيل الحبيب : ١٩٧.

(٢) ينظر: القراءة الاستشراقية للنص القرآني دراسة معرفية: موسى خابط عبود القيسي، ٢٢

(٣) ينظر: طريق على خريطة الأزمة: محمد حسنين هيكل، الأهرام، ١٠ مارس، ١٩٧٠، كذلك ينظر: ردود على شبهات

المستشرقين: يحيى مراد، ١٩

إلى أن نتبصره ونتدبره))<sup>(١)</sup>. ومن هنا حاول أصحاب الاستشراق التعرف على الشرق والتغلغل في آفاقه الفكرية بدراسة آدابه وثقافته وفق منهاج وأهداف تبدو واضحة عن طريق مؤلفاتهم وترجماتهم وتحقيقاتهم، فأثروا بطريقة أو بأخرى في النهضة العربية الحديثة عامة<sup>(٢)</sup>.

يتطرق لويس إلى تأثيرات الإمبريالية إذ دُعمت سلطة الدولة في تقوية أجهزة القمع والمراقبة، وأضعفت في الوقت ذاته القوى الوسطى التي تحدّ من سلطة النظام الديكتاتوري للحكام، أو قُضي عليها تماماً.<sup>(٣)</sup> كما يتضح للجميع توتر العلاقة بين الغرب والإسلام في وقتنا المعاصر، وهي علاقة تعبّر عن جنون طرفي المواجهة والصراع، فهناك تطرف في كلا الجانبين، الغربي متمثلاً بالامبريالية، والشرقي متمثلاً بالتيارات الراديكالية المتشدّدة.

### الذرية\*/الكلية:

يقول لويس عن هذا المفهوم أنه سيطر في المراحل الاخيرة من تاريخ العرب، وإمكانية إدراكه في حضارتهم، وتعريفه بحسب لويس: ((كثيراً ما تُصطَنع كلمة "ذري" لتصف مسلماً في التفكير واتجاهاً في النظر العقلي ظاهرين في نواح عديدة من الحضارة العربية، بل ومسيطرين عليها في المراحل الاخيرة من التاريخ

(١) دراسات في الأدب العربي : غوستاف فون جرونباوم، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت،

١٩٥٩ : ٦٠

(٢) ينظر: رود على شبهات المستشرقين: يحيى مراد : ١٩-٢٠

(٣) ينظر : أزمة الإسلام، برنارد لويس : ٨٠

\* الذرية أو الجزئية في التفكير هو مرض يمنع صاحبه من أن يربط بين الأحداث والوقائع، بحيث يجعلها تحت قاعدة واحدة أو يستخلص منها حقيقة كلية عامة، فالناس الذين يفكرون بهذه الطريقة ينظرون إلى الوقائع والأحداث حولهم وكأنها ذرات متناثرة لا يربطها أي رباط عضوي أو يجمعها سياق واحد، وبالتالي لا يستطيع هؤلاء أن يستنتجوا قانوناً عاماً يمكن تطبيقه على كل حالة خاصة، فتكون قراراتهم في مواجهة الأحداث قرارات عاطفية لا تركز على مبادئ محددة أو أصول واضحة. ينظر: <https://midad.com/article/214148/> موسوعة مداد على الانترنت.



العربي))<sup>(١)</sup>، فالذرية برأيه هي الميل لرؤية الحياة على أنها سلسلة من الوحدات الجامدة والمنفصلة، أو المتصلة بنوع من الرباط الآلي غير المحكم، أو الرابطة العرضية التي ليس لها علاقات ذاتية، ف((العربي لا يتصور مجتمعه ككل عضوي مركّب من أجزاء متداخلة يؤثر أحدها في الآخر ويتأثر به، لكنّه يراه ارتباطاً بين مجموعات دينية أو قومية أو طبقية منفصلة، تجمعها الرقعة الجغرافية من الأسفل، والحكومة من فوق، فهو يرى مدينته مجموعة من البيوت والأحياء، ونادراً ما يراها ذات وحدة مدنيّة متضامنة بذاتها))<sup>(٢)</sup>. ويمضي في استعراض أمثلة عن سيطرة هذا المفهوم، فالأنظمة عند الفقيه أو الأديب أو العالم ليست أساليب متباينة للوصول إلى ذات الهدف، بل هي أقسام منفصلة مستقلة بذاتها، يحتوي كل منها على عدد محدود من أجزاء المعرفة، وتتكون المعرفة من تجميع هذه الأجزاء بصورة متتابعة، فالأدب العربي خالٍ من الشعر القصصي أو الرواية، فهو إنما يحقق أثره في القارئ أو المستمع عبر سلسلة من الملاحظات والأوصاف المنفصلة، المجزأة على الرغم من دقّتها ووضوحها، لكن لا يربط بينها غير قدرة القارئ والمؤلف.

فالقصيدة العربية تتألف من أبيات منفصلة قائمة بذاتها أشبه باللالئ التي تؤلّف كل منها وحدة كاملة بذاتها، يمكن تبديل مكانها أغلب الأحيان، أما الموسيقى العربية فهي إيقاعية سلمية تتباين في غير انتظام ولا تتميز بالانسجام البتة، والمؤرّخون وكتاب الروايات والسير يعرضون كتاباتهم في سلسلة من الاحداث التي ترتبط ارتباطاً واهياً، يوصلنا ذلك إلى تلمس النزعة الجماعية التي يتصفّ بها النثر العربي، فالكتاب في الغالب لا يُعرض كنتاج شخصي مستقل للمؤلف، بل كحلقة

(١) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٢٠١-٢٠٢

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٢

من السند يخفي المؤلف فيها شخصيته وراء طبقات الرواة والثقات السابقين، ونجد الشعر تعبيراً اجتماعياً عاماً وليس شخصياً صادراً من صميم النفس.

وتظهر هذه النزعة الجماعية في كل ناحية من نواحي الفكر الإسلامي<sup>(١)</sup>. والنتيجة التي يقدمها لويس عن طريق وصف ((العقلية الإسلامية بالذرية هي أنها عقلية جامدة تلتقت الوحي والشريعة دون نقد، ولم تخضع تراثها الديني للنقد كما فعل الغرب، ولم يتطور عندهم علم التاريخ))<sup>(٢)</sup>، وفي هذا الصدد يرى أحد المستشرقين أنّ الفرق بين الشرق والغرب يكمن في العجز عن النظر بثبات إلى الحياة، ورؤية صورتها الكليّة، وتفهم أنّ أيّ نظرية للحياة لا بدّ أن تشمل جميع الحقائق، كما يكمن في التعرض لسيطرة فكرة واحدة وغلبتها، وعدم رؤية أي شيء آخر<sup>(٣)</sup>، فهو يتّهم الشرق بعدم القدرة على النظر للحياة بكليّة، كما يفعل الغرب القادر على رؤية جميع الحقائق واكتشاف العلاقات فيما بينها.

إنّ فكرة الذريّة أدّت دوراً أساسياً في فهم النبوة لدى بعض المستشرقين، ومنهم (جب) أستاذ لويس، وأصل هذه الفكرة عند المستشرق الأمريكي ماكدونالد الذي أثر تأثيراً كبيراً في تفكير جب ومن بعده لويس، فهو يعتقد أنّ العقيدة السامية تأتلف وتتلاءم مع العالم غير المرئي، والمفهوم الذي يعتنقه الشرق حول النبوة، فهو استعداد نفساني مسبق لتقبّل هذه العقيدة من قبل الشرقيين<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٢٠٣

(٢) الاستشراق والاتجاهات الفكرية: مازن مطبقاني، ٣٧١، كذلك ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الجوانب

الفكرية في التاريخ الإسلامي، مازن مطبقاني: ٣٢٣

(٣) ينظر: الاستشراق: إدوارد سعيد، ٤٢٥. نقلا عن نص للمستشرق ماكدونالد.

(٤) نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر: لخضر شايب، مكتبة العبيكة، د. ت: ٢٣٦-٢٣٧

تقدم الغرب/تراجع الشرق:

تتاول المستشرقون ومنهم لويس، موضوع علاقة السلطة بالكنيسة، ومقارنة الكنيسة المسيحية بالكنيسة الإسلامية، أو السلطة الدينية وعلاقتها بالدولة، وعن سبب تأخر العالم الإسلامي اليوم، وهو عدم الفصل بين الدين والدولة، وهذا التحليل ما هو إلا إسقاط من ذهن المستشرق يستوحيه من تاريخ الغرب ومكاسبه التي نالها من عملية الفصل بين الكنيسة والدولة، وأخذ النمط الغربي على أنه هو النمط العام الناجح الذي على أساسه يُعاد بناء كل الأنظمة الأخرى<sup>(١)</sup>.

وإذا عدنا إلى أسّ الموضوع سنجد أن ((جوهر الاستشراق هو التمييز الذي يستحيل اجتثاثه بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية، ثم إن هذا الاستشراق في تناميته وفي تاريخه اللاحق قد عمق هذا التمييز، بل أعطاه صلاباً وثباتاً))<sup>(٢)</sup>، ويرجع ذلك لأسباب عدة، أبرزها بحسب تعبير لويس: ((إن أحد الأسباب الرئيسية للتقدم في الغرب هو الفصل بين الكنيسة والدولة، وإنشاء مجتمع مدني تحكمه قوانين علمانية))<sup>(٣)</sup>.

فيما يرى قسم آخر أن التبعة الأولى تقع على كاهل ثقافة التمييز بين الجنسين عند المسلمين، وإقصاء المرأة بحيث تشغل منزلة أدنى من الرجل في المجتمع، وهو ما يحرم العالم الإسلامي من طاقات ومواهب نصف سكانه، وتكليف نساء أميات مطحونات ليكونن أمهات لتربية النصف الآخر في السنوات الأولى من العمر، وبالتالي نشوء أجيال تتسم بالخطرسة أو بالخضوع، ولن تكون بأي حال

(١) ينظر: التراث والتجديد: حسن حنفي، ٩٠

(٢) الاستشراق: خير الله رشك سعيد، دراسات عربية، مج ٢٦ ع ٩ (يوليو ١٩٩٠): ١٠٤ - ١٢٣.

(٣) أين الخطأ، برنارد لويس: ٢٤٦

صالحة لتكوين مجتمع يتمتع بالتحرر والانفتاح<sup>(١)</sup>. ويمكن لنا بالتالي أن نتعرّف على رؤية لويس في مجال تخلف المجتمع الشرقي التي تتلخص في أنّ العبد في الإسلام لا يمكن أن يتحرر من العبودية وقهرها إلا إذا تحرر من الرق بفضل سيده، وأنّ غير المسلم يمكن أن يخرج من دائرة التمييز السلبي باعتناقه الإسلام، أمّا المرأة فهي الفئة المحكوم عليها بالقهر الأبدي في الدين الإسلامي، كما يرى أنّ الشرق الأوسط يتراجع حالياً، وأنّ نكوصه يعود بالدرجة الأولى إلى أسباب ذاتية كامنة فيه، ناشئة عن الثقافة والدين<sup>(٢)</sup>.

يبدو اختلاف دراسات لويس عند مقارنتها بدراسات المستشرقين السابقين، الذين طرحوا نظرياتهم وفق منهجية محدّدة كلّ حسب فلسفته، والتي توصلوا عن طريقها إلى تقديم صيغة نهائية لتقييمهم الحضارة العربية الإسلامية، ومقومات نهوضها، ومبررات نكوصها<sup>(٣)</sup>، فأفكاره تشبّنت وتشظّت، ليس بسبب قلة الاطلاع بل على العكس، ولكن كانت كتاباته موافقة وخاضعة للتغيّرات السياسية الآنية أولاً، وخاضعة لأيدولوجية لا تسمح بطرح أفكار ورؤى وتفسيرات خارج ثوابتها ثانياً<sup>(٤)</sup>.

وليس المقصود ((أيهم أقرب إلى الحقيقة أو مدى مجانبته للصواب، بل تحديد الخط العام المتماسك والمبني على أسس أكاديمية واضحة))<sup>(٥)</sup>. فعند متابعة ما كتب رودنسون عن الصورة الغربية في الدراسات الغربية الإسلامية، يتوصّل القارئ إلى فكرة متكاملة عن الموضوع، حتى وإن لم تتطابق وجهات النظر<sup>(٦)</sup>.

(١) ينظر: أين الخطأ، برنارد لويس، ٢٤٦

(٢) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ١٦

(٣) ينظر: الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية: قاسم السامرائي، الرياض، ١٩٨٣ م، ٨٧.

(٤) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: الطياوي: ١٢٦. كذلك ينظر: تعقيبات على الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة

صبيحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٦: ١١٩.

(٥) منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي: محمد بن عبود، مجلة المجتمع العربي، المرجع السابق، ٣٤٦.

(٦) ينظر: الصورة الغربية: رودنسون: ٢٧ - ١٠٠.

وكذلك كتابات كلود كاهين الذي اعتمد التحليل المادي وركز على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، وانتهى إلى فكرة التوازي بين المنحنيين الاقتصادي والثقافي، وعلى ضوء هذه النظرية فسّر حالة الانتكاس في العالم العربي الإسلامي، ولعلّ أفضل ما يمثل هذه الفكرة مقالته: (العوامل الاقتصادية والاجتماعية في ركود الإسلام)<sup>(١)</sup>. وكذلك هاملتون جب في كتابه المجتمع الإسلامي والغرب، فإنّ لديه المنهجية التي تعتمد المقدمات المنطقية وصولاً إلى ما يهدف إليه أو ما يعتقد حقائق<sup>(٢)</sup>. ولكنّ لويس قد بدت على كتاباته الانتقائية والتعميم، وخاصة ما يتعلق بدراسته للمجتمع العربي الإسلامي.

### المتحضر غربي/المتخلف شرقي:

يعدّ لويس من المستشرقين المتأثرين بنظرية فصل ونبذ الشرق عن الغرب، والنظر إلى الغرب على أنّه "العالم الحر"، في حين أن الشرق هو "العالم غير الحر"، وهو منحاز إلى وجهة نظر المستشرق رودنسون الذي يرى أنّ ((الإمبريالية كانت العنصر الأساسي في تكوين الصورة الغربية عن العرب وأنها المسؤولة عن تلك الثنائية الأساسية شرق/غرب، التي تعطيها قدرًا من الشرعية في استغلال الأول عن طريق عزله عن العالم المتحضر، وتطبيق قوانين مختلفة لا إنسانية عليه))<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية: كلود كاهين، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٢م: ٢٤١.

(٢) ينظر: المجتمع الإسلامي والغرب، هاملتون جب، هارولد بون: ١٣٤.

(٣) عصب الاستشراق : غسان سلامة، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٣، ١٩٨١: ١٧.

ترتبط فكرة جمود العالم الإسلامي بشكلٍ وثيق بفكرة (الاستثنائية)\* فالاستشراق الجديد ينظر إلى العالم الإسلامي بوصفه كتلة ساكنة ومصمتة، يتشكّل الفرد فيه عبر الثقافة وعبر الدين، المؤطران بأطر الأعراف الاجتماعية، في حين إنّ الغرب ديناميكي متحرّر، حديث ويوفر مساحة وحرية للفرد للإنجاز، وتتمظهر الهوية الإسلامية كحالة ثابتة ومستمرة ويمكن التنبؤ بها<sup>(١)</sup>. ويؤكّد ماكسيم رودنسون وهو الناقد لكتابات لويس (( أنّ النظرة إلى العالم الإسلامي قد تمحورت حول صورتين متعارضتين، هما الحماس لهذا العالم والتي تخالطها النظرة الرومانسية التي تضيء سحرا على الواقع، والصورة العدائية التي ترفض هذا العالم بسبب عدائها للتغيير في مجتمعاتها، مغلفة هذا العداء بغلاف ديني عقائدي<sup>(٢)</sup>، وهو يشير هنا إلى الكيفية التي سادت النظرة الاستعلائية للعالم الإسلامي، مع ظهور الحركة الاستعمارية منذ مطلع القرن التاسع عشر، والتي ترافقت مع سيادة ما سمّي بالثقافة المركزية الأوروبية، والتي قسّمت العالم إلى معسكرين: هما المتحضر الغربي، والمتخلف الشرقي.

كما أنّ هناك ((ثمة تفهّم واسع للفروقات المهمة بين العالم الغربي المتقدم والبقية، سيما الشعوب الإسلامية، وهذه الأخيرة مختلفة فيما بينها، مع الافتراض الضمني بأنهم أدنى موقعا<sup>(٣)</sup>، على الرغم من عدم رضا الشرقيين بذلك، إذ تتزايد شكوى الشرق أوسطيين من أنّ الغرب يحكم عليهم بمعايير مختلفة، فهي معايير أدنى من المعايير التي يحكم بها على

\* الاستثنائية: فكرة تصف الإسلام بالعجز عن مواجهة الحداثة التي لا يمكنها إلا أن تكون غريبة في شكلها ومضمونها، وإن تحديث الممارسات في المجتمع الإسلامي قد يحصل نتيجة تتكرّر تجاه الثقافة المحلية، وأطروحات برنارد لويس تفترض أنّ النموذج الغربي في أصل الحداثة والعلمنة، إنّما تميّزه علاقة محدّدة بين الكنيسة والسلطة العلمانية في الغرب، بينما يتميز الشرق بتحديد للدين والسلطة مسجلة بطريقة لا يمكن أن تُحى من ذاكرة وضمائر المؤمنين، ينظر: تيار الاستشراق الجديد والإسلام من الشرق الشيوعي إلى الشرق الإسلامي: أوليفيه موس، تر: عومرية سلطاني، مكتبة الإسكندرية، مصر،

٢٠١٠ : ٦-٧

(١) تيار الاستشراق الجديد والإسلام: أوليفيه موس، ٦

(٢) الصورة الغربية والدراسات الإسلامية، رودنسون: ٦٣.

(٣) أزمة الإسلام: برنارد لويس، ١١٦

الأوروبيين والأمريكان، وثمة شيء من الحق معهم في هذه التهمة<sup>(١)</sup>. وهو هنا يعترف صراحةً بفوقية الفكر الغربي في تعامله مع الشرق أوسطيين.

ونجد لويس يتطرق إلى حقيقة مهمة يتغافل عنها الكثير من المتخصصين بشؤون العالم الإسلامي وهي: أن ((العالم الإسلامي برمته مُبتلى بالفقر والطغيان، ويعزو المشكلتين، سيّما ذوي الغرض في إبعاد الانتباه عنهم، إلى أميركا، ويردّون المشكلة إلى الهيمنة والاستغلال الاقتصادي الأميركي، الذي يستتر اليوم بالعولمة المهلهلة، فيما تُعزى ثانيتهما إلى الدعم الأميركي لما يسمّى الطغاة المسلمين الذي يخدمون أغراضها))<sup>(٢)</sup>، ثم يبيّن بعض أسباب تردّي واقع العرب ومنها تدني الإنتاجية، وارتفاع معدلات الولادة، ممّا يشكّل خليطاً غير مستقر اقتصادياً، مع الازدياد المضطرد للعاطلين عن العمل، وغير المتعلمين، فضلاً عن اختلاف الدول العربية في مسائل مثل خلق فرص العمل والتعليم والتكنولوجيا والإنتاجية، بحسب مؤشرات الأمم المتحدة والبنك الدولي والمرجعيات الأخرى، بل والأسوأ من ذلك حسب لويس أنّ الأمة العربية تختلف عن أحدث الجماعات السائدة والدول النامية باتجاه التحديث على النمط الغربي، ككوريا وسنغافورة وتايوان<sup>(٣)</sup>.

يشخّص لويس الهوة بين الغرب والشرق، بالنص: ((يتزايد وعي شعوب الشرق الأوسط، بعمق الأخدود وسعته بين فرص العالم الحر خارج بلدانهم، والقمع الرهيب داخلها، ومن الطبيعي أن يوجّه الغضب الناجم عن ذلك إلى حكّامهم، وإلى من يعدّونهم عاملين على المحافظة على أولئك الحكّام في السلطة لأسباب أنانية، لا شكّ أن ممّا له مغزاه أن يكون كل الإرهابيين الذين تمّ التعرّف عليهم في هجمات ١١ أيلول على نيويورك والبنتاغون قد

(١) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس ، ١١٦

(٢) أزمة الإسلام: برنارد لويس ، ١٢٣

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٢٣

جاءوا من العربية السعودية ومصر، أي من دول يُعدّ حكامها أصدقاءً للولايات المتحدة))<sup>(١)</sup>. وهو تشخيص لواقع حال العرب ونظرتهم تجاه أنفسهم ومقارنة واقعهم البائس بالخارج الغربي المتسارع التقدّم.

وبضيف في موضع آخر لقد ((فقَدَ العالم الإسلامي خلال القرون الثلاثة الماضية هيمنته وقيادته، وتخلّف عن كلِّ من الغرب الحديث والشرق الذي يتحدّث بسرعة خاطفة، تفرض الفجوة الآخذة بالاتساع مشاكل حادّة متزايدة، عملية وعاطفية، وهي فجوة لم يجد لها الحكّام ولا المفكّرون ولا الثوريون حلوًّا ناجعًا بعد))<sup>(٢)</sup>، هنا يمكن التعرّف على أكثر من نسق مُضمّر يحتويه النص، فالحديث عن أفضليّة الغرب وتكامل عمله وصحة تخطيطه وجودة تنفيذه، وهي الثقافة السائدة، والنسق المتوغّل في فكر المُجتمَع الغربي، والنظرة الإيجابيّة تجاه الغرب، في المقابل يظهر هامش الذات الشرقية العربيّة المسلمة، الخائفة والمتردّدة، والسلبية، الفاقدة لقيادة العالم التي كانت تحت سطوتها.

### التسلط/الخضوع:

تُفضي ثقافة الاستشراق إلى التسلّط على الآخر، والتمركز حول الذات سعيًا إلى تأصيل ذاتها، وإحالة الآخر "الشرقي" إلى مكوّن هامشي لا ينطوي على قيمة بذاته، أو ذو قيمة متدنيّة، عقابًا له لعدم انصهاره في سياق ثقافتها التي تبنتها، فتحوّله إلى عدو ينبغي التصدي له. فلكل ((ثقافة من ثقافات الأمم مركز وهامش يتبعه أو يحيط به، فالمركز والهامش كمصطلحين إذا كان الأول يحيلنا إلى القوة وحضور السلطة بمختلف أصنافها، فإن الثاني يدلّ على الهشاشة والضعف أو في

(١) أزمة الإسلام: برنارد لويس ، ١٢٧

(٢) المصدر نفسه : ٤٤



بعض الأحيان على الغياب))<sup>(١)</sup>. وهو ما يتجلى في العلاقة بين تسلط الغرب "المركز" وخضوع الشرق "الهامش".

يعبر الاستشراق عن معرفة السلطة لا سلطة المعرفة، أي أن إنتاج المستشرقين يدخل ضمن حيز التمثلات الهادفة إلى تشويه الخصم، فإذا وظّفنا منهج ميشال فوكو\* في المنطوق واللامنطوق، فالمنطوق الغربي يتمثل في العلم والمعرفة بالشرق، لكن اللامنطوق الغربي يتجلى في قناعة الغرب بحقيقة مفادها ((لا يستطيع المسلمون أو العرب، ولا أي شعب من الشعوب الصغرى التي سلبت إنسانيتها أن يتعرفوا على أنفسهم باعتبارهم بشرًا))<sup>(٢)</sup>، وهو الأمر الذي يعني أن الغرب يريد عن طريق الدراسات الاستشراقية أن يعرف شعوب الشرق بحقيقتها، لجدارته بالفهم لامتلاكه العلم والمنهج والعقلانية، والشرقيون قاصرون عن فهم ذواتهم، فهم محكومون بالانفعال والعاطفة والوجدان. فالاستشراق خطاب مفعم بالسلطة التي تخدم سلطانها، فتشيع أفكاره وتجتهد في نصرته مصالحه<sup>(٣)</sup>، وتعمل السلطة عن طريق ممارساتها المباشرة على ظهور خطاب معرفي يخدم أغراضها، ويروج لأفكارها، والسلطة العالمية ذات القطب الواحد تضخ إلى وعي المتلقي ولا وعيه خطابها المعرفي بثتى الوسائل<sup>(٤)</sup>. لقد أدرك الشرقيون أن خطاب الاستشراق الحديث هو خطاب سلطة نابع من حقبة استعمارية<sup>(٥)</sup>، وخطاب المركز يمتلك القوة والهيمنة التي تعطيه التعالي

(١) الثقافة العربية بين المركز والهامش والصراع مع الآخر: صورية جيجخ، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، ٩٤، ٢٠١٦ :

\* ميشال فوكو ١٩٢٦-١٩٨٤م: فيلسوف فرنسي من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، عالج موضوعات الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجن، تنتمي أعماله إلى جيل ما بعد الحداثة، من أشهر كتبه (حفريات المعرفة). ينظر: موسوعة الفلسفة على الانترنت، encyclopedia philosophy.net

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق : إدوارد سعيد، ٥٢٤

(٣) ينظر: قراءة في نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني أنموذجا: حكيمة دريسي، ٢٠

(٤) ينظر: المخفي أعظم رؤية ذاتية وقراءات نقدية: هاشم غرايبة، دار الكندي للنشر الأردن، ط١، ١٩٩٩: ١٩

(٥) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق : إدوارد سعيد: ٥٢٤

على ما دونه من الخطابات الأخرى المهمشة كأن يكون مدعوماً من طرف السلطة فهو "الخطاب الرسمي" الذي لا يقيم وزناً للكيانات الأخرى<sup>(١)</sup>.

لقد استطاع الاستشراق ((تحقيق هذا النجاح بما توفر له من السيطرة على منابر الرأي في العالم الإسلامي والعربي فقد أنشأ الغرب العديد من المدارس كما أن العديد من أبناء الأمة العربية والإسلامية، تلقوا تعليمهم على أيدي المستشرقين في الجامعات الغربية الأمريكية. وكان للاستشراق دوره في مجال الأدب شعراً ونثراً وقصة، فقد استغلت هذه الوسائل في نشر الفكر الغربي العلماني وبخاصة عن طريق ما سمي بـ"الحداثة" التي تدعو إلى تحطيم السائد، والمقدس في ثقافتنا العربية))<sup>(٢)</sup>، إنَّ المستشرقين في ((أغلب الأحيان يسيرون على خط المسلمين التقليديين))<sup>(٣)</sup>، أي اعتماد الروايات والنصوص "السلطوية" التي تخدم مصالحهم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

في ضوء علمنا بأنَّ المستشرق لا يهتم إلا بالتراث المكتوب للإسلام، متجاهلاً بذلك التراث الشفهي، أو إسلام الشعوب التي لا كتابة لها كالبربر والأمازيغ أو الافارقة السود، أو الجماهير الشعبية بشكل عام، وإنَّ الاستشراق لا يهتم إلا بالخطابات الرسمية السائدة متجاهلاً بذلك المكبوت والمسكوت عنه في العالم العربي والإسلامي بسبب الرقابة الرسمية القمعية ماضياً وحاضراً<sup>(٤)</sup>.

كذلك نلاحظ أنَّ الاستشراق حتى أمد قريب لم يكن يهتم إلا بإسلام الأغلبية أي الإسلام السني، ومعلوم أنه هو المهيمن تاريخياً بسبب ارتباطه الوثيق منذ البداية بالسلطات الرسمية التي فرضت نفسها من عهد الأمويين والعباسيين، وحتى يومنا هذا مروراً بالسلاجقة

(١) ينظر: جدلية المركز والهامش: أبكر آدم اسماعيل : ٤٨

(٢) ينظر: تأثير الاستشراق في الفكر والثقافة العربية والإسلامية: محمد بن صالح العلي ، مقال شؤون خليجية:

<https://gulfaaff.wordpress.com/2016/01>

(٣) الإسلام ، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، محمد اركون، دار الساقي ، بيروت ١٩٩٨ : ٩٨

(٤) ينظر: في نقد الاستشراق، محمد المزوغي، ١٥

والأتراك العثمانيين، وهو يهمل بذلك الإسلام الشيعي الذي تعرّض للاضطهاد مدار التاريخ باستثناء فترات متقطعة، منها سيطرة البويهيين في القرن الرابع الهجري أو الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر، أو الصفويين في إيران منذ القرن السادس عشر وحتى اليوم<sup>(١)</sup>.

لقد اقتضت السياسة الاستعمارية الغربية والتفكير الاستعماري أن يكون في كل سفارة من سفاراتها لدى الدول الإسلامية سكرتير، أو ملحق ثقافي من الرجال الذين لديهم باع طويل في الدراسات الاستشراقية ويجيدون اللغة العربية كي يتحملوا مهمة الاتصال برجال الفكر والثقافة والسياسة، والامتزاج بهم والتعرّف على أفكارهم، ومن ثم بثّ الأفكار والرؤى والاتجاهات السياسية فيهم حسبما تريده دولتهم، حتى يكونوا أداة طيعة لكل مخططات الاستعمار وأساليبه، ولم تكن البعثات الغربية القادمة إلى الشرق ذات غرض علمي فقط، بل كان المخفي من وراء قدومها أكبر وأعمق، فقد كان هذا العامل الرئيسي في تفجير الصراعات الفكرية والسياسية في البلدان الإسلامية التي نتج عنها تغيير في الحكومات، أو تغيير في بناء هيكل الدولة أو حدوث انقلابات عسكرية أو الفتن التي تحدث في بعض الدول، يقول بعض الباحثين: لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات لمعرفة القرارات الجديدة، وإنّ هذه البعثات التي يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية وإن ادّعوا ذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: في نقد الاستشراق، محمد المزوعي، ١٦

(٢) ينظر: الاستشراق أخطر تحد للإسلام: شاعر عالم شوق، مجلة دراسات، الجامعة الإسلامية العالمية شيناغونغ

بنغلادش، مج ٣، ديسمبر ٢٠٠٦: ٦٩

لتحديد الأنا بمختلف أبعاده لابدَّ من وجود الآخر\* ((فوجود هذا الكائن داخل ذلك العالم وجود تصاعدي متفجّر باتجاه غيره، فوجود "الآخر" يسهم في إنماء العالم، كما يدخل ضمن مصاديق الآخر كل ما هو غير الذات المعنيَّة، والذات المعنيَّة يمكن أن تكون الذات الإلهية أو ذات أي شيء في هذا الوجود، حيَّا كان أم جمادًا، وماديًّا كان أم معنويًّا، والأمر حين يخص الإنسان سيكون المعني ذلك الإنسان بكل منتجاته سواء الماديَّة أو المعنوية بما فيها الثقافة))<sup>(١)</sup>. فكانت ((الأنا" مثلاً تعمل على تشويه التعامل الإنساني، وتحيل الآخر إلى تابع، وخاضع، فتحصل عملية الاختزال والقولبة والتسيير للفكر العام، مما أسّس مسارًا ينتهج العنف والمُصادرة والإلغاء))<sup>(٢)</sup>.

الأنا مصطلح ذو دلالات مختلفة يتحدد معناه عن طريق السياق الذي يرد فيه، فهو "النفس المدركة" عند الفلاسفة، وقد يطلق على موجود تنتسب إليه جميع

---

\* الآخر في اللغة: هو الغير كقولك رجلٌ آخَرٌ وثوبٌ آخَر. ينظر: لسان العرب: مادة (آخر): ١٢/٤. أمَّا اصطلاحًا فهو مصطلح يعني: "بنية رمزيَّة ولا شعوريَّة تساعد الذات على تحقيق وجودها ضمن علاقة جدليَّة بين الذات والمُقابل لها هو ما يطلق عليه الآخر. ينظر: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي: سعد فهد الذويج، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط ١، ٢٠٠٩م. : ٢١. ويُعرّف مصلح النجار وآخرون (الآخر أو الآخرون) بأنهم: "فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلَّا في ضوء مرجع هو (الأنا) فإذا حدّدنا هويَّة الأنا كان الآخر فردًا أو جماعةً يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز وهو تمايز إطاره الهويَّة أحيانًا والإجراء في أحيانٍ أخرى. ينظر: الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية: مصلح النجار وآخرون، ط ١، الأردن، ٢٠٠٨م. : ٥١.

(١) الآخر الديني في الشعر الاندلسي: حسنين عماد عبد الله، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٣: ٢.

(٢) النظرية والنقد الثقافي: محسن جاسم الموسوي: ١٧، كذلك ينظر: صورة الآخر في التراث العربي: ماجدة حمود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠م: ٢٠-٢١، كذلك ينظر: قصيدة النثر العراقية دراسة في الأنساق الثقافية: ٣٧.

الأحوال الشعورية<sup>(١)</sup>، وأنا الإنسان ((هو الذي يواجه الناس والمجتمع ويتدبر الأمور، وتحقق به الصور الذهنية والأحلام))<sup>(٢)</sup>، فيما يعرف الآخر\* بأنه: ((الكائن البشري الآخر باختلافاته))<sup>(٣)</sup>.

قد تذهب الأنا أحياناً إلى طرح صادم ومستفز ومتمادٍ في تعظيم قدرها، مقابل تهوين مبالغ به في شأن الآخر، ((فالذات المتعاضمة من داخلها لا يمكن أن يبقى فيها مكانٌ للآخر))<sup>(٤)</sup>، وهو ما عليه الفكر الغربي المتعالي حيث الأنا هي المركز، الذي لا يعدو الآخر أن يكون هامشاً قليل الشأن والقيمة أمامه، ولا تقف الأنا الغربية عند هذا الحد في مواجهة الآخر الشرقي، لكنها تمعن في إظهار قواها وقدراتها الكامنة، فتستثمر منجزاتها التقنية والعلمية الحديثة وتطور ماكينتها الصناعية وتكاملها الاقتصادي لإظهار الفوارق الشاسعة بين الخصمين، فهي حريصة على إبراز مكامن القوة لديها وكشف مواضع الضعف لدى الآخر.

كما تذهب الأنا الغربية إلى استحضار قوة فاعلة في صراعها مع الآخر هي قوة الفعل/السيطرة التي وجدت فيها الأنا أداةً نافعةً ومؤثرةً في عالم قائم على منطق الغلبة والقوة والصراع، فالحياة تتطلب القوة سبيلاً في الصمود والمواجهة، إذ يقول صامويل هنتغتون، وهو الذي أخذ عنوان كتابه (صدام الحضارات) من مقالة سابقة لبرنارد لويس بهذا العنوان: إنَّ الهوية الثقافية ((تتحدّد بالتضاد مع الآخر

(١) ينظر: المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ج ١، ١٣٩-١٤٠.

(٢) التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية: فيصل عباس، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٦: ٣٣

\* الآخر: مصطلح شائع في الدراسات ما بعد الكولونيالية وهو في أبسط صورته مثل أو نقيض الذات أو الأنا، وهو تصنيف استبعادي يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسسة، سواء كان النظام قيماً اجتماعية أو أخلاقية أو سياسية أو ثقافية. ينظر: دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٢: ٢١.

(٣) دليل أكسفورد للفلسفة: تد هوندرتش، ترجمة: نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث، ليبيا، ٢٠٠٣، ج ١: ٣٨

(٤) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبد الله الغدامي، ١٢٧

وتترسّخ بالحروب))<sup>(١)</sup>، وهو يكرّس بذلك مفهوم الأنا باعتبارها المركزية الغربية المقابلة للعالم الآخر، التي يجب أن يدور في فلكها الآخرون بالخضوع لقوة السلطة السياسية والعسكرية.

تُمعن الأنا أحياناً في ((صراعها مع الآخر في وصمه بمزيد من الصور المشوّهة والمنقوصة، من أجل الانتقاص منه والإمعان في تسقيطه، فالآخر يتّسم بالضعف والقصور والجهل، وهي صفات سلبية من شأنها أن تزيد من وضاعة الآخر ودونيته، وإذا كانت هذه الصفات السلبية للآخر تأتي على مستوى الحاضر، فإنّها في المقابل يمكن أن تستحضر على مستوى الغياب صفات إيجابية مضادة تتمثل في القوة والطول والعلم، وهي الصفات التي تتحلّى بها الأنا وتتميز))<sup>(٢)</sup>.

فيما يأخذ الآخر عددًا من الأشكال والحوارات بالقياس إلى الأنا فهو الآخر في الهوية، والآخر في الأيديولوجيا، والآخر في الدين، والآخر في السياسة، والآخر في الجنس، ويطرح البازعي تقسيمات الآخر إلى ((الآخر الفلسفي أو الفكري، الآخر النفساني، الآخر الإبداعي، الآخر الثقافي الديني، الشعبي، الحضاري))<sup>(٣)</sup>. وقد نجد ((أنّ الآخر في كثير من الأحيان كان محل رفض وقمع من أجل المحافظة على شكل الثقافة و مؤسساتها وحضورها بقيمتها المختلفة وتراثها الطويل))<sup>(٤)</sup>. ولم تكن ((الهيمنة وليدة ظرف آني، أو مكان دون آخر، بل هي نزعة تمتد عمقاً في التاريخ البشري، وُلدت جزاءها نزعات استحواذية كثيرة، أدت إلى فكرة

(١) صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي: صامويل هنتنغتون، تر: طلعت الشايب، سطور، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩:

١٠

(٢) الأنا والآخر في شعر المتنبّي دراسة في اشكالية الظاهرة: مفلح الحويطات، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج٣٣، ١٣١٤، ٢٠١٥: ١٥٥

(٣) الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف: سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨: ٣٧.

(٤) النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي العراقي أنموذجاً: د. عبد الرحمن عبد الله، مطبوعات بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣م: ٢٦٦.

إزاحة الآخر المختلف، وتصفيته، فبقي نوعٌ من الأفكار والشخص، وانقرض نوعٌ آخر مختلف من الأفكار والشخص))<sup>(١)</sup>.

إنّ القوة العلمية والمادية التي وصل إليها الغرب أدخلت في نفوسهم قدرًا كبيرًا من الغرور فتولّد خطاب الاقصاء وتهميش الآخر، حتى اعتقدوا أن الغرب أصل الحضارات وإنّ العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة الراجحة التي تفكر تفكيرًا منطقيًا سليمًا، أما سواهم من الشعوب والديانات فهي عقليات بسيطة ساذجة<sup>(٢)</sup>.

فكان الآخر المُختلف (الشرقي) محطّ إغناء وتهميش وإقصاء لعقود طويلة من الزمن، قبال تمرّكز "الأنا الغربي" في محور الثقافة، على حين هُمّش الآخر واستُبعد، بلحاظ عدم قدرته على إسماع صوته وإيصال خطابه، ووقوعه تحت تأثير سطوة المركز، فالآخر له ارتباط مع الواقع الذي يعيش فيه والمُتخيّل الجمعي الذي يوطّره، ولعلّ سلبية الثقافة العربية تجاهه، ولا نبالغ إذا قلنا أنّ بعض الأفكار والتوجّهات الإسلاميّة قد أوصلت العلاقة مع الآخر حد الحروب وإراقة الدماء، نتيجة التشدّد وأفكار التطرّف، التي تُبيح دم وعرض ومال الآخر، فهو يمثّل إشكاليّة ثقافيّة مترسّخة في وعي ولاوعي المُجتمّع، وهذه الإشكاليّة متداخلة مع الكثير من الخطابات، إذ ينشأ الفرد ويتطوّر وعيه عن طريق مقاربات يكونها وعيه الخاص مقارنةً بـ ((نسق مترابط من الصور والدلالات والأفكار والأحكام السابقة التي تشكّلها كل فئة أو جماعة أو ثقافة عن نفسها وعن الآخرين، فكل جماعة تشكّل صورًا وأحكامًا عن الجماعات الأخرى ويتم ترسيخ هذه الصور في الوعي واللاوعي الجماعي بمرور الزمن وبالقوة الماديّة أو الثقافيّة التي يتمنّع بها المثل))<sup>(٣)</sup>.

(١) قصيدة النثر العراقية دراسات في الأنساق الثقافيّة: ٣٩.

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي: ٧٨-٧٩

(٣) تمثيلات الآخر: نادر كاظم، ٢٠

كثيرا ما تكون هناك مواجهة حادة بين الأنا التي تستحوذ على صفة الكمال لنفسها، والآخر الذي ينطوي على النقص والدونية، وتتشكل هذه العلاقة الضدية بين الأنا والآخر، لتتخذ لغة مستهجنة ورافضة تُبقي الأنا على مسافة بعيدة من الآخر الذي ترفض التصالح معه.

يرى لويس بأن الإسلام تأثر في مراحل مختلفة، خصوصاً في إيران، بفكرة ازدواجية الصراع الكوني بين الخير والشر، بين النور والظلام وبين النظام والفوضى وبين الحقيقة والباطل وبين الله وخصمه المعروف في مواضع مختلفة بالرجيم وإبليس والشيطان وأسماء أخرى، رغم سمة التوحيد فيه<sup>(١)</sup>. وهنا يعيب لويس على الإسلام تأثره بفكرة ازدواجية الصراع، وهو ما نجده غريباً، فهذه الفكرة حاضرة أيضاً في بقية الأديان والفرق، فالصراع الأزلي بين الخير والشر طالما كان موجوداً منذ بدء الخليقة في معتقدات الناس، وهو واقع لم ينفرد به الإسلام عمّا سواه من الأديان، وكذا صراع النظام والفوضى، والحق والباطل، وغيرها من الثنائيات. إذ تواجه المركزية الكبرى مشكلة في علاقتها مع الآخر، حين تبلغ العلاقة بينهما حدّاً لا يعود التعايش أو التوافق ممكناً معها، وهي هنا تكون قد وصلت حد الاختلاف المُفارق، تعمل أنا التمركز في هذه الحال على إسقاط الآخر في "فخ الاختزال"<sup>(٢)</sup>، أي أن الأنا الغربية تعمل على اختزال الشرق في صورة محددة تتفق وتصوراتها، وتُسقط ثقافتها وتصوراتها ومعتقداتها على الآخر، لأنها ترى في الآخر خطراً مستمرا على مركزيتها.

وكثيراً ما يكون التعبير عن الآخر في الدراسات الاستشراقية التي تتناول صورة الآخر نفيّاً له، فهي تبدو للمتلقي جزءاً من سوء التفاهم (العداء) الثقافي القائم

(١) ينظر: جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس.

(٢) الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف: سعد البازعي، ٣٦



بين الطرفين، فهي تدرس الصورة وفقاً لأفكار مسبقة، فهي تنفي الصورة الحقيقية، وتصنع أخرى بديلة خاضعة لأوهام تورث رؤية متعصبة، ليس لها مصداقية على أرض الواقع.

ينعكس إرث الاستشراق في قدرته على صناعة "الآخر"، ونعته بنعوت سلبية، وهي صناعة لثقافة ثنائية شمولية يقوم بها النخبة الثقافية الغربية انطلاقاً من سعيهم لتهميش ثقافة الآخر وتحجيمها، فكان الأساس العام للاستشراق هو تقسيم العالم إلى عالمين غير متساويين، أحدهما متخلف هو الشرق، والآخر متقدم وهو الغرب، ولطالما وُظِّفت ادوات الاستشراق المعادية للإسلام قديماً وحديثاً لتنميط صورة الإسلام والمسلمين في الفكر الغربي، وغرس الضغينة ورفع منسوب الكراهية العدائية في الضمير الغربي تجاه الشرق والمسلمين، ما يستحيل معه تقبل "الآخر"، ومعظم الدراسات الاستشراقية كانت مسيّسة بهدف تشويه صورة المسلم وتقديمه بصورة بانسة يرثى لها، يشعر الآخر الغربي عن طريقها بتفوقه عليه، كي لا يفكر باعتناق الإسلام<sup>(١)</sup>، ولعل سمته المائزة هي تجسيده لكل ما هو غريب أو غير مألوف أو ما هو غيري بالنسبة للذات أو الثقافة ككل، وتهديده للوحدة والصفاء، ولا شك أنّ مفهوم الآخر يتأسس على مفهوم الجوهر، أي أنّ ثمة سمة أساسية جوهرية تحدّد الذات، ممّا يجعل الآخر مختلفاً عنها، ومن ثمّ لا ينتمي إلى نظامها، فإذا كان الشرق كما في معالجة إدوارد سعيد للاستشراق، هو الآخر بالنسبة إلى الغرب، فإنّ الغرب سيرصد كل السمات التي يختلف بها الشرق عن الغرب، بوصفها سمات دونية وربما غير آدمية<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢١: ٤٧

(٢) ينظر: دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي: ٢١-٢٢

فأنت ((آخر بالنسبة إليّ لا انطلاقاً ممّا يميّزك عني طبيعياً وثقافياً، بل انطلاقاً من كيفية تمثلي لك، فتتحول عندي من كائن وجودي طبيعي إلى كائن تمثلي ارتسامي، وتتحول ذاتك إلى ما أتصورك أنا عليه، لا ما أنت عليه فعلاً، وتتحول آخريتك بالنسبة إليّ إلى صناعة أفتن في تشييد معالمها، وتصير مكوناتك التمييزية لا معطيات موضوعية بل صوراً تمثلية صنعت صناعةً ورُكبت تركيباً في معاهد الدراسات الاستراتيجية ومختبرات البحث والتفكير وعمل الإعلام على تسويقها إعلامياً))<sup>(١)</sup>.

وكثيراً ما يجب الاستشراق الحقائق، ويركز على خلق الآخر وفق معطيات الأنا، ليصيرها تابعاً لها، ويجرده من كينونته، عبر استعراض تصورات أناه وتمثلاتها، فالاستشراق ((خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصور تمثلات أو ألواناً من التمثيل حيث تتخفى القوة والمؤسسة والمصلحة، إنه خلق جديد للآخر أو إعادة إنتاج له على صعيد التصور والتمثيل))<sup>(٢)</sup>. إذ تقدّم الأنا الغربية أحياناً صور مركزية واضحة، مقابل دور هامشي غائم للآخر، إذ تبدو هذه الأنا واثقة مطمئنة بما لديها من إمكانيات وقدرات، تتمثل على نحو واضح بالتأكيد على التميز والتفرد بالسلطة، وهي القيمة الأهم التي حرصت الأنا الغربية على إبرازها للعالم وفي وجه خصومها، كلّما اشتد أوار المواجهة.

ليس بإمكان الباحث التقليل أو تبسيط علاقة الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، علاقة اتّسمت عبر عقود طويلة بالتعقيد والتشعب والغموض وحب السيطرة على الآخر، بل هي علاقة قائمة على ثنائية الحب/الكراهية في الوقت نفسه، رغم وجود ثابت يحكم آليات هذه العلاقة بمجملها، ألا وهو قانون التأثير والتأثر، فكلا الطرفين تأثر سلباً وإيجاباً سواء بما قام به أو توصل إليه الطرف الآخر.

(١) صناعة الآخر، المبروك الشيباني المنصوري: ١٥

(٢) حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٩: ٨

وهو ما يوظفه لويس عن قصد في عبارة "أعداء الله"<sup>(١)</sup> ليشكّل شحنات نفسية سياسية قوية يمكن أن تحيل على صورة الآخر البغيض في التصور الغربي، وليؤكد الانزياح من البعد الإسلامي العقائدي إلى البعد السياسي الدولي، لتقفز صورة المسلم المتشدّد (إيران)، فكان كل المسلمين إيرانيون، وكلّ السياسات الإسلامية نموذجها السياسة الإيرانية، معتمداً على تردد تلك العبارة "أعداء الله" كثيراً في خطاب قادة إيران، مؤكّداً (الآخريّة) الحاقدة الرافضة للحضارة الغربية برمتها.

ويؤكّد في موضع آخر صعوبة فهم فكرة أنّ الله أعداءً وأنّه بحاجة لمعونة البشر لتحديدهم، والتخلّص منهم، إلّا أنّها على أية حال ليست مستهجنة فهذا المفهوم "أعداء الله" شائع في أدبيات العصور الوسطى وما قبلها، وفي العهدين القديم والجديد، كما ترد هذه الفكرة في ديانات إيران الثنوية القديمة، نظرية هذه الأديان عن نشأة الكون تفترض أنّ الشيطان قوّة مستقلة بنفسه، قوّة جبارة من الشر، منغمسة في صراع كوني مع الله، وهو ما ترك أثراً على عدد من النحل الإسلامية في تأصل فكرة الصراع بين الخير والشر، النور والظلمات، النظام والفوضى، الحقيقة والزيف، الله وعدوّه<sup>(٢)</sup>.

إنّ الغرب ((لا يهتم بالإسلام إلا باعتباره قطاعاً هامشياً عنه، لذلك عندما يتوجه المستشرق إلى جمهور غربي فإنه يبسط، ويبخس قيمة معلوماته، حيث أن المرجعية التي يستقيم عليها عالم ذهني بأسره تفقد مركزيتها ومعناها ومغزاها، وتتعارض فوق ذلك مع تأكيد ساذج للـ"أنا الغربي"، أما عندما يتوجه إلى أفق

(١) ينظر: جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس.

(٢) ينظر: الإسلام الأصولي، برنارد لويس : ١٢

إسلامي بحت، فإنه يبقى في صلب الموضوع، وما كان هامشيًا يصبح مركزيًا))<sup>(١)</sup>، فرغم أنّ التاريخ الإسلامي واسع و الفكر الإسلامي متنوع، لكن إيديولوجية برنارد لويس تأخذ منهما ما يتوافق مع فكرة مسبقة لديه تدين العالم الإسلامي و تبرّر ما يُحاك ضده، فهو يذكر الرؤية الإسلامية التقليدية للعالم إذ ((ينقسم إلى فريقين: دار الإسلام حيث تسود الشريعة والعقيدة الإسلامية، والباقي في دار الكفر أو دار الحرب التي من واجب المسلمين في النهاية أن يضموها إلى الإسلام، ولكن الجزء الأكبر من العالم لا يزال خارج الإسلام، وحتى داخل البلدان الإسلامية وتبعًا لرؤية المتشددين الإسلاميين فإن العقيدة الإسلامية ضعفت، والشريعة الإسلامية عطّلت، لذا فإنّ واجب الحرب المقدّسة أن تبدأ في الداخل وتمتد للخارج ضد نفس العدو الكافر))<sup>(٢)</sup>.

تكشف العلاقة الضديّة بين الأنا والآخر في خطاب المستشرقين الغربيين، عن وجود نسقين فكريين ثقافيين متباينين، نسق تركز الذات ونسق تهميش الآخر، وهما على ما بينهما من تباعد ونفور لا يفضي إلى أي وئام أو لقاء، وتتجلّى صورة الأنا لتعبّر عن طريق كتابات لويس عن ذات متعالية تبحث عن السمو والمجد الأسطوري الذي يحقق لها قيمة وجودها، ويرضي غرورها، وإزاء هذه الصورة الفضفاضة للأنا، تظهر في المقابل صورة موازية لها، صورة الآخر الضعيف المهزوز الخائف، تتعالى صورة الأنا لتتصاغر صورة الآخر.

يُنظر إلى الدين الإسلامي في الغرب بوصفه خطرًا حقيقيًا متناميًا، ((بصورة صريحة إنّ "الحدود الإسلامية دامية"، وقد نتجت تصوّرات عن الإسلام من حيث إنّّه خصم، أو عدو، وهذه التصرّوات جاهزة للاستخدام من قبل

(١) ينظر: أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة: هشام جعيط، ٤٠

(٢) الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ١٣

الإيديولوجيين الذين يحتاجون من أجل سياستهم الإمبريالية وطموحاتهم القائمة على السيطرة، بالضرورة إلى عدو<sup>(١)</sup>. لكنهم يُلقون بالتهمة على الآخر ف"يرمونه بدائهم وينسلّون"، ولويس يساير هذا التوجّه بقوله: ((ليس الإسلام من حيث هو عدوّ للغرب، لكن أعدادا مهمة من المسلمين سيما ممن يدعون بالأصوليين، عدوانيون خطرون، لا لأننا بحاجة إلى عدو؛ بل لأنهم هم بحاجة إليه))<sup>(٢)</sup>.

كانت صورة العدو في الغرب تتمثل في الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، والآن يُعد الفكر الإسلامي هو العدو الأول لدى النخب السياسية والاجتماعية لديهم، وهي بحسب أحد المفكرين ذات نفع كبير بالنسبة للكثيرين، على المستوى السياسي والاجتماعي، وصورة العدو تخفّف عن كاهل الغربي، ((لسنا نحن من يحمل الذنب كلا، وإتّما العدو الإسلام، بإمكاننا أن ندفع إلى الخارج مشاعر الذنب الآخذة بخناقنا ومشاعر الاحتقار، وكذلك عدوانيتنا وإحباطاتنا ونسقطها عليه، إنّ صور العدو تضمن لنا فكرة كبش الفداء))<sup>(٣)</sup>.

يتعكّز برنارد لويس على فكرة خلق العدو لتوحيد الصف، ويتم العمل على ذلك بصور شتى، معتمداً على مقولة مفادها أنّ صورة العدو ترسخ فكرة إنّ عدوّاً مشتركاً يجب أن يقوّي التماسك، فإذا كنا (نحن في الغرب) غير موحدين في المواقف، فالعدو يتيح لنا أن نقف معاً موحدين، نقصي من يمارس النقد علينا ونستبعد الخارجين عن طوعنا. فهي تستقطب عن طريق اختزال الإمكانيات إلى إمّا أو، فمن ليس معنا فهو ضدنا. فهو يقول بأنّ الإسلاميين الثوّار يحددون خصومهم بمصطلح يغطي جوانب الحياة كلها، وهو أنهم (أعداء الله) وجريمتهم "الفساد في الأرض"، وهذا المصطلح نجده في صور مختلفة ويشغل موقعا مركزيا في

(١) دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠: ٧٦

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٥٩

(٣) دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، ٧٧-٧٨

أيدولوجية الإسلام الراديكالي<sup>(١)</sup>، وإنّ عالم الإسلام في أوجه يعد نفسه مركز الحقيقة والاستتارة، يحيط به برابرة كفار وإن من الواجب في وقت من الأوقات تنويرهم وتحضيرهم، والمسلمين منذ زمن بعيد يعرفون أنّ منافسهم الحقيقي في الغرب منهم، وهو العالم المسيحي<sup>(٢)</sup>.

لم يلق الإسلام الترحاب في أوروبا أبدًا، على الرغم من وجود شخصيات أدبية وفنية ذات خبرة وتجارب مباشرة مع الإسلام، تميّز إبداعهم الشعري والأدبي والفني بالخيال والرهافة، فمعظم فلاسفة التاريخ الكبار نظروا إلى الإسلام بدون حماسة، وإن قائمة الشخصيات الإسلامية التي يعرفها الأوروبيون المتعلّمون لا تتجاوز السندباد وشهرزاد وهارون الرشيد وصلاح الدين وعمر الخيام، أمّا بالنسبة لمحتوى الدين الذي نشره محمد [صلى الله عليه وآله وسلم] فقد بدا للأوروبيين منذ عهد بعيد شيئًا غير مقبول انطلاقًا من الخلفية المسيحية وإن كان مثيرًا للاهتمام<sup>(٣)</sup>.

يتردّد دائمًا عبر التاريخ الإنساني الميل للتفكير بعالمين، فالناس لديهم غالبًا ما يغريهم بتقسيم المجتمع إلى (نحن) و(هم)، حضارتنا وأولئك البرابرة، الشرق والغرب، المركز والمحيط الخارجي، كذلك المسلمون يقسّمون العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب<sup>(٤)</sup>. إنّ ((الأساس العام للفكر الاستشراقي يرتكز إلى جغرافية خيالية ليست لها جذور على أرض الواقع، إلا أنّها ثنائية خطيرة تقسم العالم إلى شطرين غير متساويين، أكبرهما وهو الشرط

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٦٢٢-٦٢٣

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٣٢

(٣) ينظر: الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ٤٤

(٤) صراع الحضارات: صامويل هنتنغتون، ٥٣

## الفصل الثاني : تجليات المركز .. الأنساق المركزية المهيمنة

المختلف يدعى الشرق، ويدعى الآخر الغرب والذي يسميه الأمريكيون "عالمنا" (١). وإن هذه الثنائية تمثل الأساس العام للفكر الاستشراقي (٢).

لقد كان لهذه الثنائية تداعياتها على الحضارة الإنسانية، وبشكل مباشر على أنماط، وطبيعة العلاقات، التي تسير وتتعايش وفقها مختلف التجمعات البشرية، وهناك من ينظر إلى هذه العلاقة على أنها قائمة أولاً وأخيراً على أسس العنف والصدام، خالية من الحوار، أو الاحترام لخصوصية الآخر، يُحتكم فيها دائماً إلى القوة فهي خاضعة لمبدأ (إما/أو)، إما أن تكون غالباً، أو مغلوباً، ويظهر أنّ أصحاب هذا الاتجاه في التفكير والمؤمنين بهذا المنطق، هم المنتصرون حالياً، وما يدور في المنطقة من أحداث دامية على مدى العقود الأخيرة خير دليل على ذلك.

بالحديث عن أفضلية الغرب وتكامل عملهم وصحة تخطيطه وجودة التنفيذ، وهي الثقافة السائدة، والنسق المتوغّل في فكر المجتمع، ونظرة الإعجاب تجاه الغرب، من ناحية أخرى يظهر هامش الذات الشرقية العربية المسلمة، الخائفة والمترددة، والسلبية، عبر التآنيب والتتكيل والتوبيخ، في سياق حديثه عن العالم العربي يقول لويس: ((إنّ هذه الشعوب غير قادرة على توجيه مجتمع ديمقراطي، وليس لديها لا الرغبة ولا القدرة على احترام حرمة الإنسان، وإنه لا بدّ في كل الأحوال من أن يتولّى حكمهم حاكم فاسد مستبدّ، ليس من واجب الغرب إصلاح حالهم، بل ولا تغييرهم، المهم الوحيد أن يكون الحكام المستبدّون أصدقاء، لا أعداء للمصالح الغربية)) (٣).

نلاحظ ممّا سبق أنّ لويس يتّبع أسلوباً يتسم بالانساق، معتمداً التفوق المرن في الأوضاع بين الغرب والشرق، أي وضعه للغربي في سلسلة من العلاقات الناشئة مع الشرق بحيث

(١) الإسلام الأصولي : برنارد لويس، ٣٤

(٢) ينظر: الاستشراق، ادوارد سعيد: ٧٠.

(٣) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١١٦

تكون له اليد العليا في كل علاقةٍ منها، ولا يمكن إنكار تأثره بالظروف الرئيسية لواقعه الراهن، فهو يتصدى للشرق والإسلام باعتباره غريباً أمريكياً أولاً وباعتباره فرداً ثانياً، ووفقاً لهذين الاعتبارين فإنه لا يمكن أن يكون متجرداً من المؤثرات، ليكون حقيقة خالصة.

قوتهم / ضعفنا:

يذهب لويس إلى القول: ((إن المجتمعات الإسلامية سيتعذر عليها مواكبة الغرب، وإن النجاحات الصليبية تعود في جزء غير قليل منها إلى ضعف المسلمين، وإن المجتمعات الإسلامية منذ القرن الحادي عشر كانت تتحلل بفعل المشكلات الداخلية أساساً من قبيل (التعالي الثقافي) الذي كان حاجزاً بوجه القرض الخلاق لا بفعل الضغط الخارجي كالحملات الصليبية))<sup>(١)</sup>. وهو ما ينطلق منه إدوارد سعيد\* في دفاعه عن الشرق الأوسط في كتابه (الاستشراق) باقتباسه مقولة ماركسية: (الذين لا يستطيعون تمثيل أنفسهم لا بد أن يمثلهم أحد)، أي أنك لو أحسست بأنك قد حرمت فرصة الإدلاء برأيك والتعبير عن ذاتك، فإنك سوف تحاول جاهداً أن تتسنى لك تلك الفرصة، إذ تعرض الشرق لهجومات غريبة وصفته على أنه مكان الهرطقات المتعددة والتخلف، وأن العربي لا يحب السير على خطوط مستقيمة ويكره المشي على الأرصفة وأنه بلا حضارة، إنه يثبت بأن الثانوي يستطيع الكلام، وأن البؤساء بإمكانهم الرد، وهو بمثابة الرد على اتهامات لويس للإسلام والشرق.

(١) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ١٦

\* إدوارد سعيد: كاتب وناقد ومفكر أميركي من أصل عربي ولد في القدس عام ١٩٣٥، وتوفي في أميركا عام ٢٠٠٣، التحق في مطلع حياته بالمدارس الابتدائية والثانوية في القدس والقاهرة، ثم تخصص في الأدب الانكليزي في جامعة برنستون الأمريكية عام ١٩٥٧ وحصل على الماجستير من جامعة هارفارد عام ١٩٦٠، وعلى الدكتوراه من الجامعة ذاتها عام ١٩٦٤، تنقل كأستاذ بين عدد من الجامعات الأميركية الكبرى، حظيت مؤلفاته بالشهرة والانتشار والجوائز، اهتم بالفلسفة، كما ارتبط اسمه بمذهب (النقد الثقافي) الذي ساهم في تدعيم ركائزه، فكانت له نظريته التكاملية في الأدب، له عديد من الكتب والبحوث أهمها: الاستشراق، تغطية الإسلام، الإمبريالية والثقافة، المقصد والمنهج، المثقف والسلطة، العالم والنص والناقد، المسألة الفلسطينية، القلم والسيوف، سياسات السلب والتجريد. ينظر: تصدير كتاب الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ٣١-٣٤



# الفصل الثالث

## تمثّلات الهامش

### (الأنساق الهامشية)

المبحث الأول: استعادة التمرکز ولغة المهمّشين

المبحث الثاني: ثنائيات الهامش

المبحث الثالث: النقابات والطوائف

توطئة:

إنّ فكرة المركز والهامش موجودةٌ منذ بداية الوجود البشري، إلّا أنّ وجودها كان ضمنياً لا اصطلاحياً، وقد بدأ الاهتمام الجاد بالهامش مع بدايات السبعينيات من القرن الماضي في إنجلترا، حين توجّه مركز الدراسات الثقافية للبحث في علاقة وتأثير وسائل الإعلام بالثقافات الشعبية بوصفها إحدى بوابات الدراسات الثقافية، كما ساهمت العولمة في تضيق الفجوة بين الشرق والغرب، وساهمت أيضاً في تقريب المركز من الهامش، ومن أسباب حصول التقارب ((تداخل الفئات والجماعات والطبقات الاجتماعية وتعدّد الوسائط بينها، ولم يعد في مقدور أيّ كان أن يحتكر بعض الوسائط لترويج نتائج أو ممارسة الوصاية على آخر))<sup>(١)</sup>، ممّا سمح للهامش بالنتامي واستعادة التمركز، وهو النسق الذي يسلّط عليه هذا الفصل الضوء، لبيان تمثّلاته في رؤية المستشرق برنارد لويس عن الشرق.

إنّ الاختلاف بين المركز والهامش يُنتج واقعاً مختلفاً بين السلطة وهوامشها، إذ يسعى كلُّ طرفٍ إلى إثبات ذاته، وبيان وجوده على حساب الآخر، مبرزاً لنفسه أحقيّة البقاء، وهذا الاختلاف يدفع نحو التعرّف على الآخر، ومعرفة من أجل فرض السلطة عليه وبالتالي إخضاعه.

إنّ ((معرفة الشرق بذاته تقوده إلى فهمها فهماً عميقاً وبذلك يُحسن مواجهة الاستشراق))<sup>(٢)</sup>، فمعرفة الآخر توجب علينا معرفة ذاتنا أولاً، ليكون الغرب بذلك أمام معرفتين: معرفته بنا، ومعرفةنا بأنفسنا، وهذه المعرفة تُدفعُ الآخرَ لتصحيح

(١) السرد العربي مفاهيم وتجليات: سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦: ٣٤

(٢) نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني نموذجاً: حكيمة دريسي، ٥٠

أخطائه حولنا، وانطلاقًا من هذه المقولة سنبيّن في هذا الفصل تمثّلات \* الهامش في كتابات المستشرق برنارد لويس وفق رؤيته للشرق المسلم، التي يضعه فيها هامشًا بالقياس للغرب "المركز"، إنّ الفكر الغربي يقوم على ثنائيات ضديّة، ترسّخت وصارت بمثابة "صنم" على الجميع عبادته، مثل: العقل/العاطفة، الروح/الجسد، الذات/الآخر، المشافهة/الكتابة، الرجل/المرأة... هذه الثنائيات التي تتأسّس على ثنائية أوسع وأشمل وهي ثنائية المركز والهامش، فهو فكر يمنح الامتياز والفوقية للطرف الأول "المركز"، ويُلقى بالدونية والثانوية على الطرف الثاني "الهامش"، وهذا الانحياز يُطلق عليه جاك دريدا مصطلح "التمركز"<sup>(١)</sup>، فبرنارد لويس يُعطي في كتاباته الموجهة للمتلقّي الغربي تصوّرًا عن الشرق، يعمل على إحداث مقارنة غير ظاهرة بين الواقعيين، وإظهار مقصود للبون الكبير بين المجتمعين، والتركيز على تفوق أحدهما على الآخر.

\* تمثّل لغة: تَمَثَّلَ الشّيءُ: ((تَصَوَّرَ مِثَالَهُ، وَمَثَلَ الشّيءَ بِالشّيءِ تَمَثِيلًا: شَبَّهَهُ بِهِ وَقَدَّرَهُ عَلَى قَدْرِهِ)). ينظر: المعجم الوسيط: ٨٥٣. و((التَّمَثُلُ: التَّمَثِيلُ مصدرٌ مَثَلْتُ: صَوَّرْتُ بِكُتَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ)). ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، راجعه: أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي، مطبعة الكويت، ١٩٩٨م: ٣٠ / ٣٨٤.

(١) ينظر: ثقافة الهامش في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية المغارة الثانية لوسيلة: بن عراب عزيز و بوعظم عبد الفتاح، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل، الجزائر، ٢٠١٨: ٥

## المبحث الأول

### استعادة التمركز :

إنّ الثقافة المركزية هي التي تُفَلح غالبًا في نشر رموزها، ومعاييرها لتسود العالم، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ثقافة الهامش قد تُصبح مركزًا يومًا ما، فتغيّر المركزية وورد في ظلّ معرفة أنّ ثقافة الهامش هي ((كل ثقافة تمارس الخروج الخلاق، وتبني بلاغة الحداثة، والحرية، والانعتاق، وتسعى إلى خلخلة المركز وزحزحته))<sup>(١)</sup>، إنّ التمرد الذي يُظهره الآخر تجاه المركز يمثّل خرقًا لثقافته، وبما أنّ التمركز ظاهرة ثقافية تتدرج ضمن منظور الإنسان لذاته ولغيره، فإنّ كل خروج على ما هو طبيعي فهو مندرج في مجال الثقافي، وهو نسق ثقافي معبئ بمعاني ثقافية فكرية ودينية وعرقية<sup>(٢)</sup>.

وهويّة العالم الإسلامي منذ مدة ليست بالقصيرة تعيش حالة الصراع الوجودي مع ما يُعرف بتيار الـ(عولمة) التي تحاول إعداد نظام عالمي جديد، بثقافة واحدة، وبالتالي طمس معالم وهويّات البلدان الأخرى، والقضاء على الحدود والخصوصيات بعكس الهوية الثقافية التي تسعى للحفاظ على هذه الفروق والخصوصيات والتنوّع والاختلاف.

وقد ازدهر مفهوم الاستبدال خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وقام بعض المستشرقين في تلك المدّة بوضع توظيفات افتراضية لهذا المفهوم، تساعد

(١) المركز والهامش في الثقافة العربية: اعداد مجموعة من الاساتذة الجامعيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، صفاقس تونس، ١٩٩٥ : ١٤

(٢) ينظر: المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات: عبد الله ابراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧ : ١٠

على ايجاد تفسير يوصل الغرب إلى الهيمنة على العالم، سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وأسباب كون تلك الهيمنة جيدة ومناسبة وضرورية<sup>(١)</sup>.

فيما تُمثّل عودة هيمنة العرب والمسلمين على زمام المشهد العالمي، هاجسًا يراود الغربيين عمومًا، ويصرّح به خوفًا المستشرقون خصوصًا، فقد ظلّ الإسلام لما يربو على ألف سنة كما يقول لويس: ((المصدر الأُوحد للقواعد والمبادئ التي تمثّل مجموعة قوانين يقبلها الجميع لتنظيم الحياة العامة، والحياة الاجتماعية، بل ظلّت الأفكار، والمواقف السياسية الإسلامية ذات تأثير عميق وواسع المدى حتى في المدة التي وصل فيها النفوذ الأوروبي ذروته، في البلدان التي تحكمها الدول الإمبريالية، إلى جانب البلدان التي احتفظت باستقلالها، ولاحت بوادر كثيرة في السنوات الأخيرة على احتمال عودة هذه الأفكار والمواقف إلى احتلال مواقع سيادتها السابقة))<sup>(٢)</sup>، وهو ما يثير حفيظة وقلق الغرب بالتأكيد.

وقد أسّس برنارد لويس ما أطلق عليه "الخطر الإسلامي" عبر نشره لفكرة الصدام الوشيك بين الغرب والإسلام، والتي تنبأها فيما بعد صامويل هنتنغتون ليحوّلها إلى نظرية وكتاب بالعنوان ذاته، إذ يرى لويس أنّ الأيديولوجية الإسلامية تشكّل عقبة أمام وجود الليبرالية الديمقراطية وحظوظ تقدّمها، إذ تتعارض مبادئها مع مبادئ الفكر الإسلامي، ممّا يصعب تقبّل تلك القيم الغربية في العالم الإسلامي، وهي بذلك تحتاج إلى وقت طويل لحدوث التغيير، وهو ما يعني أنّ المبادئ الإسلامية تشكّل خطرًا على الليبرالية الغربية يجب معه تغييرها حتى تتوافق مع تلك المبادئ والقيم الغربية، وبذلك تصبح أكثر اندماجًا مع الفكر الليبرالي لتخرج

(١) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لويمان، ١٠٣، كذلك ينظر: الشرق المتخيل رؤية الغرب الى الشرق المتوسطي: تيبيري هنتش، ١٣٣.

(٢) أين الخطأ : برنارد لويس ، ١٦٦.

من إطارها التقليدي وأصوليتها الفكرية<sup>(١)</sup>، يتضح من رأي لويس السابق استشعاره للخطر الإسلامي فهو بذلك يقصي الإسلام من منظومة التقدّم والحضارة الفكرية والتي تمثّل قمة ما وصلت له الإنسانية.

تخضع جميع دول الشرق على حد قول لويس للتغيير، مهما كان شكلها أو تصوّرها لذاتها، عبر عملية التحديث، بسرعات مختلفة وطرائق متباينة، جالبةً هذه العملية أي التغيير محوًا للأمية شاملاً أكثر، وثورة من المعلوماتية الواسعة، وتحريضاً للمرأة ومشاركتها في مجالات الحياة، الذي طال انتظاره من قبلهن، كل هذه العوامل من شأنها في نهاية المطاف تغيير نظرة الشعوب إلى نفسها ورؤيتها للآخرين، ويمكن أن تقود هذه العوامل لظهور مجتمعات منفتحة وحرّة، بيد أن هذا المخاض العسير سيستغرق ردحاً طويلاً من الزمن، تتعذّب فيه هذه المجتمعات عبر تفاعلات هويات متعدّدة ومتصارعة غالباً<sup>(٢)</sup>. من ذلك نستطيع الوصول إلى حقيقة مفادها أن الهامش قادرٌ على الإفلات من سلطة المركز، وكلّما أُميط اللثام عن هامش ظهر آخر، وكلّما أعمل المركزُ قوانين التغييب والتتميط، كلّما ضجّت الهوامش بذواتها، معاني وسلوكيات وخطابات، أفراد ومجموعات.

### المطلب الأول: أنساق استعادة تمرکز الهامش

#### أولاً/ عصيان السلطة:

يعرض لويس لتقديم الإسلام على مدى عشرة قرون المنظومة الشاملة الوحيدة من المبادئ، والقواعد التي تنظّم الحياة العامّة والحياة الاجتماعية، وأنّ الأفكار، والمواقف الإسلامية ظلّت عميقة، وواسعة التأثير حتى في عهد ذروة النفوذ

(١) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، ٥٦

(٢) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس، ٢٢٢

الأوروبي في البلاد التي حكمها الاستعمار الأوروبي، وأنّ هناك العديد من العلامات اليوم تؤشر لإمكانية عودة تلك الأفكار، والمواقف مجدّداً ولو بصيغ أخرى لاستعادة هيمنتها السابقة<sup>(١)</sup>، وهو الأمر الذي يُنذر بعودة محتملة تثير خوف، وقلق السلطة الغربية بالتأكيد. فمنذ وقتٍ طويل ((وجد الغرب عصيانياً متتامياً ضد هذا التسلط الغربي، ودافعاً لإعادة تأكيد القيم الإسلامية وإحياء المهابة الإسلامية، لقد عانى المسلم من مراحل متعاقبة من الهزيمة، أولى الهزائم فقدانه الهيمنة على العالم لصالح الغرب، وثانيها كانت تقليص سلطاته داخل حدود بلاده ذاتها، عن طريق الأفكار الأجنبية الغازية والقوانين وطرق الحياة الأجنبية، وثالث الهزائم كانت تحدي سيادته في عقر داره من الأفكار التحرّرية والتمردية))<sup>(٢)</sup>. وقد كان من الطبيعي أن يوجه ذلك الغضب ضد هذه القوى المخالفة، الكافرة، وفي المقام الأول ضد العدو الذي ناصبه العداء لألف سنة، ويقصد بذلك الغرب.

يَعِي المركز خطورة الهامش، الأمر الذي يستدعي منه محاربتَه باستمرار، عبر مختلف الوسائل والطرق والأساليب، فتخوّفه منه يدفع به إلى ذلك، فهو هاجس يطارده ويلاحقه، وما دامت الحرب قائمة بينهما لن يتحقّق الاستقرار الاجتماعي، فأساس الاستقرار الاجتماعي هو تقبّل المركز لوجود الهامش وأهميته، وبالمقابل فهم حتمية وجود المركز وضرورته التي يفرضها على الهامش، وهو الأمر الذي ينبغي استيعابه وفهمه والتعامل معه.

يسعى تيار العولمة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية إلى تحقيق المركزية الثقافية، وتهميش ما دونها عن طريق فرض رموز، وأنماطٍ تفكيرٍ خاصة على

(١) ينظر: أزمة الإسلام: برنارد لويس، ٤٩-٥٠.

(٢) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، ١٥.

العالم، وطمس الرموز الوطنية، والقومية، والدينية للثقافات، لتظلّ ثقافة الهامش تراوح بين الرفض والقبول، بين البقاء والإقصاء، فأشكاليتها تتمثّل في مدى تأثيرها في المجتمع، ومقاومة الثقافة السائدة/ثقافة المركز، إن هدف ثقافة الهامش هو الخروج من العتمة إلى الأضواء، على الرغم من أنّ هذا الأمر صار عسيرًا في ظل سيطرة تيار العولمة<sup>(١)</sup>، وهو الأمر الذي نلاحظ برنارد لويس يعمل عليه عن طريق كتبه، فهو يحاول طمس هوية الإسلام وإصاق التهم به، وإبقائه داخل دائرة العتمة، ورسم صورته بألوان قاتمة يختارها بعناية تترك انطباعًا سيئًا في نفس المتلقي.

لا تخفى حقيقة أنّ صاحب القرار هو من يفرض نمطًا معينًا من السلوك أو وضعًا اقتصاديًا وما شابه ذلك، عن طريق قرارات مصيرية تؤثر على جميع فئات المجتمع بكل مستوياته، هذا هو المركز الذي ليست له صفة جغرافية، كأن يكون المدينة التي تضع الهامش خارج أطرافها<sup>(٢)</sup>، فالمركز صاحب الهيمنة والسلطة والنفوذ، وبإمكانه اختيار شكل وقوّة قرار التعامل مع الآخر "الهامش"، وفق رؤية المركز الاستراتيجية، ففي كل مجتمع وكل زمان هناك مقصيون ومهمشون ومبعدون قد رُكِنوا ووضِعوا بعيدًا وتمّت إزاحتهم من الدائرة الاجتماعية؛ لأنّ وجودهم بحسب رؤية المركز يهدّد الجسم الاجتماعي ويمثلون خطرًا على نسيجه، فيصبح هؤلاء المبعدون "آخرًا" هامشًا.

تُمثّل السلطة السياسية أبرز مظاهر السلطة المادية، وأوضحها تسلطًا على المستوى الاجتماعي، كما تُمثّل أكثر أشكال السلطة تعرّضًا للنقد أو التمرد من

(١) ينظر: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوي: جيجخ صورية، ٤٢

(٢) ينظر: التهميش الاجتماعي أبعاد الظاهرة ودلالاتها ، الحوار المتمدن ، جواد بشارة، العدد ١٣٧٥،

www.alhewar.org في ٢٠٠٥/١١/١١.



الآخر المختلف، وهو بديهية ضمن إطار المعادلة الاجتماعية لتحقيق التوازن بين السلطة والرأي العام<sup>(١)</sup>، ومكانة السلطة المعنوية لا تتحقّق إلاّ بإلغاء الآخر، وهو الذي لا يتم إلاّ بالظلم<sup>(٢)</sup>.

يظهر عن طريق كتابات لويس تكرار استعماله لمفردات مثل (مسلم، مسيحي، الغرب، الشرق، الإسلام، الحرب، الصدام، النمط الغربي) في غالبية كتبه، بشكل مُبالغ فيه، وهي دلالة على طبيعة النسق المركزي، القائم على وجود حالة صراع مستعر بين الغرب والشرق، وهو ما يلاحظ عن طريق تعبيرات لويس، في تجلٍ واضح لتأثر لويس بمتبنيات الفكر الغربي من تحديد الخلاف مع الآخر الشرقي، وبروز القطيعة بينهما، يقول الشاعر الانكليزي روديارد كبلينغ<sup>(\*)</sup>: ((الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا))<sup>(٣)</sup>، وهو بمثابة حكم قطعي لا جدال فيه، في لحاظ ((أنّ كل معرفة بالآخر هي معرفة تقييمية تستند إلى منظومة قيم معيّنة تمارس تأثيرها على الباحث، فتوجّه تعامله مع الموضوع الذي يدرسه، وتوجّه اختياره للمفاهيم والفرضيات والوقائع))<sup>(٤)</sup>. فالفكر الغربي مؤمن بوجود هذه القطيعة وهذا التباين بين الطرفين، وهو قديم ومستفحل وظاهر للعيان، بل ويشكّل ديدناً بارزا في تعاطيه مع الشرق.

(١) ينظر: المخاتلة السردية تمثّلات ثقافة الهامش في السرد الروائي: علاء عبد المنعم إبراهيم، مجلة العمدة الدولية، مج ٣، ع ٣، ٢٠١٩: ٤٦

(٢) ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغدامي : ١٢٢-١٢٣ \* روديارد كبلنغ ١٨٦٥-١٩٣٠، كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند البريطانية. من أهم أعماله "كتاب الأدغال". مجموعة من القصص، و العديد من القصص القصيرة، حاصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٧، ينظر:

<https://www.marefa.org> موسوعة المعرفة

(٣) دور الأديان في السلام العالمي: محمد سعيد رمضان : ٧

(٤) حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي بيروت، ط١، ١٩٨٩: ١٩

ينكفيّ العالم وفق رؤية برنارد لويس على صراع داخلي، للبحث عن الكيفية الفضلى لمعالجة الأوبئة المنتشرة في الكثير من المجتمعات الإسلامية، ومحاولة حلّها حلًّا نهائيًّا، أوبئة مثل الفقر والتفاوت الاقتصادي الشاسع وهيمنة حكّام مستبدين على السلطة، والعجز عن مجاراة الاقتصادات العالمية، ضغوطات تضع العالم الإسلامي بين حلّين متناقضين: الأول، النشر السلمي للحريات الاقتصادية والسياسية كوسائل حل لهذه المشاكل، والثاني، فهو ما تتبناه التيارات الأصولية المتشددة لاسيما الوهابية، التي ترجع سبب كل هذه العلل والأمراض إلى التأثير الحداثي الغربي على العالم الإسلامي، وتعمل على الرد باستعمال العنف ضد بلدان الغرب ومصالحها<sup>(١)</sup>.

كما يُحدّر برنارد لويس من أنّ نتيجة الصراع الدائر بين الموالين للغرب والمعارضين له في العالم الإسلامي، هي التي ستقرّر إمكانية احتلال العالم الإسلامي مكانته إلى جانب دول العالم، أم ستؤدي إلى التراجع والنكوص والاصطدام حتمًا بالأمم غير المسلمة<sup>(٢)</sup>، فنتيجة الصراع بين الطرفين ومن يواليهما، هي من ستحدّد الحاكم في العالم -برأي لويس- فتحالف الغرب يسعى دائمًا للانتصار ومواصلة تسيّده.

### ثانيًا/ كره الغرب:

يعبّر لويس عما يمرّ به الإسلام من كره وعنف تجاه الغرب بوصفه مؤرخًا له بقوله: ((جاء الإسلام بالاطمئنان والسلام النفسي للملايين من البشر، وأعطى شعورًا بالكرامة ومعنى الحياة للفقراء والمعوزين، وعلم الشعوب التآخي والألفة، لقد

(١) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٢ مقدمة المترجم.

(٢) ينظر: أزمة الإسلام، ١٣ مقدمة المترجم.

ألهم الإسلام لإقامة حضارة عظيمة عاش في كنفها الآخرون، إلا أنّ الإسلام مثل غيره من الأديان، عرف فترات ألهم فيها أتباعه الكره والعنف، ولسوء حظنا أنّ جزءاً من العالم الإسلامي يمر بهذه المرحلة، وإنّ قدراً من هذا الكره موجّه ضدنا<sup>(١)</sup>، فهو يعزو حالة العنف الموجه نحو الغرب إلى بنية العقيدة الإسلامية واحتواءها على ما يؤججه، يقول أيضاً في كلامه عن شعور العرب تجاه الغرب، وما يكتّوه تجاههم، مبسّطاً وبشكل شديد هذه الظاهرة، واصفاً إياها بأنّها حقد وحسد من الأدنى للأعلى: ((إنّ شعور المسلمين المعاصرين بالمهانة نتيجة عجزهم عن اللحاق بالغرب قد دفعهم إلى لوم الغرب تارة، واليهود تارة أخرى، والأترك حينئذٍ ثالثاً، لتبرير تخلفهم وعجزهم، وإنهم يعبّرون عن كراهيتهم وحقدهم على الغرب ناسين ما تورطوا فيه من أفكار، جوهرها رفض الحضارة الغربية واتخاذ موقف المعاداة للسامية))<sup>(٢)</sup>، متغافلاً عن تاريخ العلاقة بين عالم الغرب وعالم الشرق الطويل والحافل بالصراعات والمليء بالأحداث، عازياً أسباب تراجع المسلمين إلى حنقهم وحسدهم للغرب المتفوق، وتخلفهم المرتبط بأفكارهم البالية والقديمة.

يُرجع لويس فكرة كره المسلمين للغربيين بصفة عامّة، إلى بداية الدعوة الإسلامية وبدء تشكّل الإسلام، واستراتيجيته في غرس الكره تجاه الغرب وحضارته، فلم يكن المسلمون يشعرون بخطر تجاه الوثنيين والمشركين في الشرق والجنوب، ((أمّا في الشمال والغرب فقد أدرك المسلمون منذ البدايات الأولى أنّ هناك خصماً حقيقياً، ديناً عالمياً منافساً، وحضارة متميزة بنيت بإلهام من ذلك الدين وإمبراطورية، على الرغم من أنّها أصغر من إمبراطوريتهم فإنّ طموحاتها لا تقل مطلقاً عن

(١) من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس : ٢١-٢٢.

(٢) الإسلام في التاريخ الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط: برنارد لويس، تر: مدحت طه، مر: أحمد كمال أبو المجد، آفاق للنشر القاهرة، ط١، ٢٠١٨ : ١٩.

امبراطوريتهم في تطلعاتها))<sup>(١)</sup>، إنّ رسم لويس لصورة الصراع بين الإسلام والغرب على أساس كره المسلمين لتميّز الحضارة الغربية وعالمية الدين المسيحي، وإنّ الصراع هذا أزلي لن ينتهي إلا بانتصار أحدهما على الآخر، ربّما يعطي الذريعة ويقدم المبرر للغرب في مواجهة هذا الكره والعداء، واتخاذ إجراءات تتلاءم مع هذا العداء والكره. فهو نهجٌ مطلقٌ يمكن تلخيصه في صيغة "أنا على حق، أنت على خطأ، إلى الجحيم بك" وأمثله الأكثر وضوحًا هم الأصوليون وبعض المسيحيين والمسلمين الآخرين، الذين يشتركون في اقتناعهم التام بأنهم الملاك الوحيدون لكلمة الله الأخيرة، وأنّ عليهم توصيلها إلى أولئك الذين لم يمتلكوها بعد<sup>(٢)</sup>.

ويبرّر دوافع هذا "الكره" بإجابته عن سؤال افتراضي يطرحه بنفسه: لماذا يكرهوننا لهذه الدرجة؟ أو السؤال الأمريكي جدا: ماذا فعلنا لكي نغضبهم؟ الإجابة أنّ من الصعب جدا أن تكون قويًا وناجحًا، وتحظى بحب من ليسوا كذلك، فبعد أن كانت الحضارة الإسلامية تهيمن على العالم، انهارت لتغزوها الحضارة والقوة المسيحية، وتسيطر وتهمين عليهم، فكان الغضب والإحباط والكره<sup>(٣)</sup>. فهو تبرير مؤدج يحاول إلقاء اللوم والذنب في استفحال ظاهرة العداء والكره الشرقي للغرب على الشرقيين أنفسهم، فبعد أن خسر المسلمون السلطة العالمية راحوا يواجهون واقعهم بكره الآخر وعدائه، وإنّ الفاشل لا بدّ أن يكره الناجح حسب تعبيره.

يعزو برنارد لويس امتلاك المسلمين شعور العداء للغرب إلى وجود ((شيء ما في الثقافة الدينية الإسلامية ألهم حتى أولئك الناس الأكثر تواضعًا وسذاجة شعورًا بالكرامة والاحترام والتعالي تجاه الآخرين، ولا يزال هذا الإحساس بالكرامة

(١) الإسلام الأصولي ، برنارد لويس : ١٤ .

(٢) ينظر : من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس : ٤٢٣ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه، ٧٢٢ .

والشموخ تجاه الآخرين يعطي -خاصة في لحظات الجيشان والتمزّق حينما يثور الغضب- الوسيلة لخليط ممزوج من الكراهية والمقت الذي يدفع حتى الحكومات العريقة والمتحضرة وحتى المتحدثين باسم ذلك الدين العظيم ليناصروا أعمال الخطف والاعتقال، ويحاولوا أن يجدوا في سيرة نبيهم استحساناً وسوابق لأعمال كهذه<sup>(١)</sup>. وهي محاولة من لويس لغرس الخوف من شيء مجهول "شيء ما" يمثل الخطر، ويهدّد الغربيين دائماً، فأسلوب تخويف الإنسان من المجهول أشدّ أنواع التخويف، إذ تعمل معظم العقليات الاستشرافية ضمن إطار ثقافة الإقصاء، وفق آلية الطرد التي تعبّر عن رغبة هذه الثقافة الإقصائية في تحصين هويتها المغلقة والمتصارعة مع الآخرين<sup>(٢)</sup>.

غالباً ما تكون ثمة عوائق اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية تمارس قهراً على الذات "الغربي"، وتمنعها بالتالي من التفاعل مع الآخر "الشرقي"، وقد تصوّره مدمراً لكيوننتها، لذا يكون رد فعلها تشويهاً للآخر أو تدميراً وإقصاءً له، وهو ما يفعله لويس، فهو تعبّر عن رؤيته لهذا الكره بأنّه نتيجة تاريخية طبيعية لرجحان الخوف والحقّد عندما يتراجع الحب والشفقة، ففي العصور الوسطى كان المسيحيون يدركون أنّ عقيدتهم هي العقيدة الصحيحة الوحيدة، لكنهم على الرغم من ذلك كانوا يشعرون بالخوف من خطر المسلمين الأكثر ثراءً ومهارةً وتسليحاً، الخوف الذي تحوّل إلى كره<sup>(٣)</sup>.

يبين لويس حصول بعض التغييرات في المفاهيم، وبالتالي في التكتيكات في صفوف المسلمين، إذ ((ما يزال البعض يرى الغرب عمومًا، وفي قيادته الحالية

(١) الإسلام الأصولي، برنارد لويس: ٢٩

(٢) ينظر: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم : ١٧

(٣) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٤٢٤

الولايات المتحدة خصوصًا، عدوّ الإسلام القديم الذي لا سبيل إلى مصالحته، والعائق الجدّي الأوحّد الذي يحول دون استعادة الإيمان بالله وبشريعته في الداخل وبنصره الكوني الشامل))<sup>(١)</sup>، وهو ما يدفعهم للتضحية بأنفسهم في سبيل تحقيق ذلك الواجب إذ ((ليس أمام هؤلاء من سبيل سوى الحرب حتى الموت لتحقيق ما يرونه واجبهم الديني))<sup>(٢)</sup>.

يشخّص لويس حالة الشعوب الشرقية المسلمة الحالية الناقمة على مركز الغرب (الولايات المتحدة الأمريكية) مفسّرًا سبب موقفها السلبي تجاهها بقوله: ((إنّ غريزة الجماهير الفطرية في عزو منابع الجوهرية لهذه التغييرات العنيفة والمفاجئة إلى الغرب، وفي عزو سبب تمزق حياتهم القديمة إلى الهيمنة الغربية والتأثير الغربي، هذه الغريزة ليست بالتأكيد أمرًا زائفًا، وباعتبارها الوريث الشرعي للحضارة الغربية والقائد الأوحّد المميز للغرب، فإنّ الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت القبلة التي توجه ضدها الكراهية والامتعاض المكبوتان))<sup>(٣)</sup>، فهي قائد العالم المسيحي بحسب تعبير لويس نقلًا عن (أسامة بن لادن) وهي "بلاد غير المؤمنين" ووريث لقائمة طويلة من الحكم البيزنطي وأباطرة الروم، فهي القوة الوحيدة التي تجابه القضاء الإلهي، وتعرقل انتشار الإسلام، لكنها لن تحول دون نصره النهائي المؤزر الذي لا بدّ منه<sup>(٤)</sup>.

ويقدّم عددًا من الأمثلة على حالات مهاجمة السفارة الأمريكية في مناطق متفرقة من العالم الإسلامي، مبيّنًا أنّ ما يحصل هو مواجهة لتيار وحركة يتجاوزان

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٥٩

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٥٩

(٣) الإسلام الأصولي، برنارد لويس : ٢٩

(٤) ينظر: أزمة الإسلام ، ١٥٦

بكتير مستوى السياسات والحكومات، ((وهو شيء ليس أقل من "صراع الحضارات"، إته ردُّ فعلٍ -ربما غير عقلائي- لكنّه تأريخي لمنافس قديم موجّه ضد ميراثنا اليهودي-المسيحي، وضد حاضرنا الراهن))<sup>(١)</sup>. فهو صراع أزلي متجدّد بين حضارتين بحسب تعبيره، كما نلاحظ أنّ لويس يتحدّث بلسان المسيحيين واليهود معاً في محاولة لتوحيد صفهما على حساب المسلمين.

### ثالثاً/ مقاومة الخضوع:

يمكن تفسير علاقة المركز والهامش بأنّها علاقة جدليّة منعدمة التكافؤ، تؤكّد الهيمنة لطرفٍ على حساب طرفٍ آخر، فهي دلالة على حضور السلطة وغواية المركز، ويمكن تشبيهها بـ ((علاقة اللون بالظل، والكلام بالصمت، ففي العلاقتين معاً تلازم إشكالي، فلا بزوغ للون بغياب الظلال، كما أنّه لا أثر لكلام بدون فجوة صمت))<sup>(٢)</sup>، وهو تماماً ما يحصل بين الغرب والشرق، ويمكن القول إنّ ((الهامش في أغلب الأحيان مجبر على الخنوع والخضوع للمركز، فهذا الأخير يستغل هيمنته وإمكانياته ورموزه لخلق الهامش))<sup>(٣)</sup>، فالعلاقة تمتاز بعدم التكافؤ، وهي قائمة على الهيمنة مقابل الخضوع، والحضور مقابل الضياع.

يُلاحظ أنّ المستشرقين قد اتّخذوا من ماضي المسلمين أداةً لتثويبه حاضرهم، حين عكسوا للمجتمع الغربي أموراً ليست من صلب الحقيقة، بدوافع دينية وسياسية وغيرها، وبالتالي قد وُضِعَ الشرقي في إطار محدّد مرسوم له، لا يستطيع التحدّث عن نفسه فهو مسلوب الإرادة، قاصر الرؤية معتمد دائماً على الغربي، مقتنع بأنّه دون مستوى فهم التراث وأنّه بحاجة لعون الغربي في ذلك، فهو يستمد الأفكار منه

(١) الإسلام الأصولي، برنارد لويس : ٣٠

(٢) الفتنة والآخر أنساق الغيرية في السرد العرب: شرف الدين مجدولين، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٢: ١٧

(٣) المركز والهامش في روايات عز الدين جلاجي: جيجخ سورية: ١٠٧

لفهم نفسه وحضارته وتراثه<sup>(١)</sup>، وعلى هذا الأساس يؤكد المستشرقون على طبيعة الروح العربية التي لا تميل إلى المستقبل وإنما تكتفي بالحاضر فقط<sup>(٢)</sup>.

في هذا الاتجاه يقول لويس: ((كان واجب الطاعة في الأيام العظيمة للتاريخ الإسلامي القديم قاصراً على الخلفاء الشرعيين الذين هم وكلاء الله في الأرض، ورؤساء المجتمع الديني وفي حالة تمسكهم بالشرع فقط، ولكن مع تراجع الخلافة ونمو الدكتاتورية جعل الفقهاء والمشرعون المسلمون تعاليمهم موافقة للحالة المتغيرة، وجعلوا واجب الطاعة يمتد لأية سلطة فعلية مهما كانت عاصية أو متوحشة، وقد سيطر على الفكر السياسي الإسلامي في الألف سنة الأخيرة مبدأ الطغيان أفضل من الفوضى، ومن اشتدت وطأته وجبت طاعته))<sup>(٣)</sup>، فهو يشير إلى الضعف الذي سيطر على العالم الإسلامي طوال القرون العشرة الأخيرة، فهو مجتمع مسلوب الإرادة، خاضع للسلطة مهما كانت صفتها وعدالتها، وإنّ الطاعة لولي الأمر وصاحب السلطة -في تعاليم الإسلام- واجبة، ما دام الشعب غير قادر على مواجهته، فالحاكم الطاغي خير من فوضى تضرب المجتمع.

وفي نسق تحليلي للنصوص القرآنية؛ نجد لويس يعرض النصوص التشريعية بقراءة ثقافية غربية، يستطيع عن طريقها فهم تلك النصوص وإيصال غاياتها للمتلقي الغربي، فنراه يتناول مسألة الخضوع للسلطة والخروج عليها، ((يعطي القرآن مثل الكتابات الدينية الأخرى، مجموعة من التوجيهات، ومنذ إعلانها حتى الآن [توسّع] مجال الاختيار توسّعاً متتابعاً عبر تجارب الأجيال الكثيرة في مختلف البلدان وتأويلها لهذه التوجيهات، فهناك في الإسلام تقليد

(١) ينظر: المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي: ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) ينظر: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، مشتاق بشير الغزالي: ١٤٦.

(٣) مقالات في الاستشراق: مازن مطبقاني، ٢٠١٣: ١٣٤. نقلاً عن: الشيوعية والإسلام في العالم، برنارد لويس، شؤون،



بالخضوع غير المشروط للسلطة، وهناك أيضا تقليد بالتمرد ضد السلطة كسلطة جائرة وغير شرعية، وكلا التقليدين عميقي الجذور في الكتابات والتقليد، وجرى توسيع وتطوير كلا التقليدين على صعيد النظرية والممارسة على يد أجيال لاحقة من المسلمين<sup>(١)</sup>، فلويس يعرض لتوجّه المسلمين في تعاملهم مع السلطة، وتفاعلهم مع كلا الحالتين، من ناحية الخضوع والتمرد، ويستمدّ المسلمون برأي لويس ذلك من وجهي حياة النبي محمد (ﷺ) اللذين كان أحدهما يُخضع الأفراد لمصلحة الدولة بهدوء، والآخر راديكالي ناشط<sup>(٢)</sup>.

وليس من الصعب -برأي لويس- إيجاد نصوص في القرآن الكريم تدعم الدعوة للحرب، أو تتادي للسلم مع الكافرين، فقد حدّد القرآن أعداء الله وهم الكفار، المحكومون بنار جهنم، بالآيات: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٩٨)، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (فصلت ١٩)، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (القصص ٤١)، وإنّ المؤمنين مأمورون بـ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال ٦٠)، لكن الصراع ليس بالضرورة حتى الموت، إذ يقول القرآن: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال ٦١)، ويرد المقطع القرآني المدهش بحسب تعبير لويس مرات عديدة في القرآن: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (هود ١١٨)، وفقاً لإرادة الله ومشيئته ينقسم الناس على شعوب وديانات

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٢٠٣-٢٠٤

(٢) ينظر: أزمة الإسلام ، ٤٩

مختلفة، وحده الله يحدّد من يهتدي إلى الحقيقة ومن يضلّ، بالتأكيد إنّ في هذا الكلام حجة بالغة القوة للتسامح والرأفة<sup>(١)</sup>.

لكنّه في الوقت ذاته يرى بأنّ للمهمشين في الإسلام فسحة من الوجود المجتمعي، يمكنهم الإطالة عن طريقها إذا ما وظّفوا قدراتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم، وإصلاح شأنهم وتغيير واقعهم، فهو يرى بأنّ دُعاة الإصلاح والطامحين إليه قد وجدوا في القرآن والسنة ما يشجّعهم على ذلك، بقوله: ((لقد عثر الراديكاليون، مثلهم مثل الفاشيين، على آيات قرآنية وأحاديث نبوية لتوكيد الدروس التي استقوها من سيرة النبي، فهناك عدة آيات في القرآن ولا سيّما تلك الآيات التي تتحدث عن فرعون مصر، يأمر فيها الله شعبه بعدم طاعة الحكام الوثنيين والشريرين))<sup>(٢)</sup>، مشيرًا إلى الآيات: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٥٠-١٥٢ الشعراء)، ومضمون الآيات الكريمة عدم وجوب طاعة الحاكم الآثم، والحث على عصيانه، والثورة ضده.

#### رابعًا/ عقدة الشعور بالنقص:

تتباعد الذات المتمركزة عن الآخر، بانتهاج خطابٍ يتميّزُ بتقديم ذاتٍ تسلكُ طريق السمو والمجد الذي تجد فيه ما يحقق طموحها، ومجدها، وغايتها، مؤمنةً وعاملةً بمبدأ القوة الفاعلة، وثقافة الاستحواذ والهيمنة، فيما يتصّف خطاب الآخر المهمّش بالضعف، والركّة، والخضوع، وعدم القدرة على التأثير، وفقدان الشجاعة، والحكمة، وعلوّ الهمة، وهي القيم التي يفقدها الإنسان كل قيمة إيجابية.

(١) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٢٠٤

(٢) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس: ١٥٢

قد تكون هذه الجزئية ممّا يدخل في علم الاستغراب فهو ((حقل لتشكّل الصور أو التمثّلات حول الغرب، بوصفه آخرًا للثقافة العربية الإسلامية))<sup>(١)</sup>، والذي مهمّته ((فكّ عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركّب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذاتٍ دارسٍ إلى موضوعٍ مدروسٍ))<sup>(٢)</sup>، لقد طغى على العالم العربي والإسلامي في الآونة الأخيرة شعور بالنقص والضعف وعدم الثقة بالنفس تجاه الغرب المتطور وتجاه التقنيات الحديثة والتكنولوجيا والتطور المتسارع الذي يعيشه الغرب، وظهر حالة من التبعية الثقافية وشيوع الانهزام الفكري وضياع الشخصية وفقدان الهوية الإسلامية<sup>(٣)</sup>، ممّا وّلد حالة من إعظام الآخر وتبجيله وهو ما بهر أبصار المثقفين المسلمين واستولى على ألبابهم، وخاصة عندما قارنوا بين أسلوب الغربيين وأساليب العرب في الكتابة والطرح والحجاج والطريقة العلمية، فاندفعوا إلى الأخذ والاقْتباس من كتب المستشرقين دون تدقيق أو تحليل أو شك، مؤمنين بانهم الأصوب رأيًا، من غير الرجوع إلى المصادر الإسلامية وكتب الحديث والروايات وكتب الرجال التي اعتمدها المستشرقون، رغبة في الحصول السريع على الانتاج العلمي، أو للإتيان بحقائق مخالفة للسائد في الأوساط العلمية والدينية وغيرها<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول لويس: ((أصبح الناس في الشرق الأوسط بل وفي ديار الإسلام كلها وعلى امتداد القرن العشرين يدركون بوضوحٍ وجلاء أنّ الأحوال قد ساءت إلى حدٍ بعيد، إذ غدا العالم الإسلامي أن قورنَ بالعالم المسيحي الذي

(١) دليل الناقد الأدبي : ميجان الرويلي وسعد البازعي، ٤٠

(٢) المصدر نفسه ، ١٦٠

(٣) ينظر: المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: ٢٤٧

(٤) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ٨٢

دأب على منافسته طيلة ألف عام فقيرًا وجاهلاً وضعيفًا، وتبدّى للجميع في القرنين التاسع عشر والعشرين تفوق الغرب ومن ثمّ هيمنته، إذ غزا المسلم في كل جانب من جوانب حياته العامة، بل وحتى في حياته الخاصة أيضًا وذلك أشدّ إيلاّمًا<sup>(١)</sup>، فهو يصرّح بواقع الشرق المليء بالخيبة نتيجة الضعف والفقر، بعد قرون من القوة والسيطرة والغنى، وهو ما يوّلّد الشعور بالنقص والخيبة والإحباط لدى الفرد الشرقي، ويقول أيضًا في سياق كلامه عن بقاء الشرق عمومًا والعرب على وجه الخصوص، متخلفين وغير مواكبين لركب الحضارة الغربية، ما لم يتوافقوا مع الاتجاهات الغربية: ((إنّ الشرق لن ينجح في تحسين أحواله إلّا إذا أصبحت نزعتة القومية على استعداد للتصالح مع الغرب))<sup>(٢)</sup>، فهو يدفع نحو خلاصة تتضمن فشل الشرق ودونيّته من دون الغرب، وأنّه لا بديل من التصالح مع الغرب لتحقيق التقدّم والنجاح.

خَلقت النظرة الإقصائية العنصرية التي ترى الإسلام من واقع الخوف لا من حقيقة الإسلام دينًا وحضارةً، فجوة بين الإسلام والمسيحية، كما أنّها ترتبط بفكرة الأنا الغربية التي تعد الحضارة الغربية مركزًا جوهريًا يستوجب معه تبعيّة الآخر لها وانخراطه في منظومتها الفكرية، فالحضارة الغربية تؤمن بفوقيتها وتفوّقها على بقية الحضارات، فهي لا تتبذ الحضارات غير المتكيّفة معها فحسب، بل تصرّ على تطبيق قيمها ومبادئها على الحضارات الأخرى انطلاقًا من قوتها وسلطتها، الأمر الذي يعيق فرص التعرّف على الآخر، وهو ما ينعكس على واقع الحوار بين الجانبين<sup>(٣)</sup>، فهناك تراجع في ملف الحوار بين العالم الإسلامي والعالم الغربي

(١) أين الخطأ، برنارد لويس : ٢٣٥

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ٤٨٨ .

(٣) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، ٦٦

بشكل ملحوظ بعد أحداث ١١ سبتمبر، كما يتوقع تراجمه أكثر في السنوات القادمة، نتيجة للتطوّرات التي أعقبت تلك الأحداث، والتي تنامت معها الاستراتيجيات الغربية الداعية للهيمنة دون الالتفات الجادّ للحوار والتعددية، فقد ((أصبح العنوان الرئيسي للحملة الدولية (مكافحة الإرهاب)، ولم يعد هناك اهتمام بالحوار، بل هناك سعي لتطوير الأفكار في العالم العربي والإسلامي وفقًا للإملاءات الغربية، التي تحاول جعل العالم الإسلامي أكثر ملاءمةً للتصورات الإيديولوجية الغربية))<sup>(١)</sup>.

إنّ الحوار الإنساني الحضاري تمثّله الأغلبية في المجتمعات الشرقية والغربية، إلّا أن السياسة وأهدافها تدفع باتجاه الصدام، خدمةً لأهداف محددة عنصرية تمييزية، وكتابات إدوارد سعيد عن الاستشراق توضّح تلك الكيفية التي صنّع بها الغرب الشرق بطريقة تزيد من التباعد والانفصال بينهما، ووصفه على أنّه اختراع غربي وغايته أن يمثّل الشرق ويعبّر عنه بما يخدم المصالح الاستعمارية الغربية وأن جميع المعارف الاستشراقية اعتمدت أساسًا على (الإنشاء) والتخيّل دون تصوير الواقع الحقيقي<sup>(٢)</sup>، فالشرق الذي صوّره المستشرقون ليس واقعياً، إنّما صنّع كما أريد له أن يكون، لذلك أحدث تطبيق هذا التصرّو المتخيّل أزمة أدّت إلى الشعور بالتفوق الغربي، ويؤكد أنّ الاستشراق ليس إلّا إسقاطاً غريباً على الشرق، وأنّه على علاقة مشبوهة مع الأنظمة الكولونيالية والنظريات العرقية العنصرية التي

(١) نحو حوار بناء بين الحضارات مبادئ الحوار الإسلامي المعاصر في التعامل مع الحضارة الغربية: فهمي هويدي،

الوعي الإسلامي، ع٤٧٦: ٤٤

(٢) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد: ٣٩٢.

قسّمت العالم إلى شرق وغرب افتراضيين، فهو نسخة منحنّة من الثقافة المسيحية<sup>(١)</sup>.

لقد كانت الثقافة العربية ولا زالت هدفًا للمتريصين من أعدائها في الجانب الآخر (الغرب) بهدف زعزعة كيان ووجود هذه الأمة، وبرنارد لويس أحد أبرز مهاجميها في العصر الحديث، فالثقافة هي ما يمنح الخصوصية لشعبٍ ما ويميّزه عن سواه من الشعوب ويحدّد هويته، باعتبار تعريفها: ((مجموعة مترابطة من المعتقدات والأيديولوجيات، والمعارف والخبرات، والآداب والفنون، والسنن والأعراف، والقوانين والأخلاقيات، والنظم والتنظيمات، والعادات والتقاليد والشعبيات، في أي مجتمع))<sup>(٢)</sup>، وهي ما يسعى المستشرقون ومنهم برنارد لويس للنيل منها، وكيل التهم لها.

يُظهر لويس براعته في التنقّل بين أفكار موضوعاته المتعلقة بالعرب، ممزوجة بسعة الاطلاع وامتداد الزمن الذي استعرض فيه بحوثه، وصولاً إلى النتائج التي يمكن وصف بعضها بعدم ملائمتها للواقع أو السيرورة التاريخية لهويّة العربي، فعلى سبيل المثال يطرح لويس تساؤلات تتركز على ثلاثة محاور، المحور الأول ما هو مركز العرب في التاريخ الإنساني؟ والثاني ما هو أصلهم وما أثرهم؟ وأخيراً ما الخصائص التي تميّز تطوّرهم؟<sup>(٣)</sup>، وقد اعتمد في ذلك منهجًا ذكيًا لوصف الأحداث مخلّفًا كيفية يتم بها إنتاج الوعي العربي للواقع الشرقي، وهذا ينطبق على جميع فصول كتابه. ليس هذا فحسب بل يعزو لويس سلوك ومواصفات العربي إلى أنّها حصيلة لشخصيته المتّصفة بمواصفات ثابتة لا يمكن أن تتطوّر، ويستشهد

(١) ينظر: تعقيبات على الاستشراق: إدوارد سعيد، ٢٨.

(٢) أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير: صلاح فضل وآخرون، دار الفارس، عمان، ط١، ٢٠١٠: ١٠٩-١١٠.

(٣) العرب في التاريخ، برنارد لويس: ٥.

على ذلك بقوله: ((إنّ السلوك العام الذي اتفقت عليه المصادر منذ أقدم نص ظهر في نقش آشوري بتاريخ (٨٥٣ ق. م) إلى أسفار العهد القديم وحتى الوثائق الفارسية واليونانية كلها، تؤكّد أنّهم الرّحل، فهم يأتون من البلاد النائية وهمهم النهب والثأر فقط))<sup>(١)</sup>، وهو انتقاصٌ سافرٌ وخطيرٌ لشخصية الإنسان العربي، وتجنّ كبير يعدم لويس عن طريقه العربي مكانته وحضوره وشخصيته، بل حتى إنسانيته، ويصوّره على أنّه بدويّ بعيد عن الحضارة كثير الترحال، ناهبٌ وسالب ويبحث عن الثأر والدماء، متغافلاً عن قيم الإسلام الحقيقية الصادقة والحقّة، قيم التعايش والسلام والمحبة والود التي طالما دأب ينادي بها الإسلام.

#### المطلب الثاني: لغة المهمشين وحضارتهم

يتناول لويس كلمة "العربي" بالقول: ((أن كلمة (عيرب) تعني الحياة غير المنظمة))<sup>(٢)</sup>، وبضيف في موضع آخر: ((ولم يصلنا شيء عن استعمال الكلمة في وسط جزيرة العرب وشمالها إلّا عند ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع، فالعرب عند محمد [صلى الله عليه وآله وسلم] وأهل زمنه هم بدو الصحراء، ويرد لفظ "الأعراب" في القرآن بهذا المعنى دون غيره، ولا يرد أبداً ليبدل على الحضرم من أهل مكّة والمدينة وغيرهما من المدن))<sup>(٣)</sup>، قاصداً قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (التوبة ١٢٠)، وهي غمزة توحى باستدلال غير محمود للكلمة، يُراد منه القول بأن أصل الكلمة للدلالة على البدو، والتي وردت في قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٩٧)، كما يذهب

(١) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٧٠-٧١.

(٢) العرب في التاريخ، برنارد لويس: ٩.

(٣) المصدر نفسه، ١٢

إلى أنّ العربية ليست جنسية، وأنّ اللغة لا تصلح أن تكون بديلاً لها، وكذلك الدين لا يمكن أن يشكّل قومية، لذا يرى أنّ أصل كلمة عربي تبقى غامضة<sup>(١)</sup>.

في هذا الرأي تجنّ واضح على تاريخ الكلمة ودلالاتها، فهو يتغافل عن معنى (العربي) في المعاجم؛ إذ ورد في التهذيب: ((العرب العاربة: الصريح منهم، والأعريب جماعة الأعراب، ورجل أعربيّ: إذا كان بدويّاً صاحب نجعة وانتواء وارتباد للكأ وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم، ويجمع الأعربيّ على الأعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربيّة وغيرها ممّا ينتمي الى العرب: فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء، فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم قيل قد تعرّبوا أي صاروا أعراباً))، وورد في مقاييس اللغة: ((عرب: أصول ثلاثة، أحدها الإبانة والإفصاح، والآخر - النشاط وطيب النفس، والثالث فساد في جسم أو عضو، فالأول - قولهم: أعرب الرجل عن نفسه، إذا بيّن وأوضح، فأما الامّة التي تسمّى العرب: فليس يبيد أن يكون سمّيت عرباً من هذا القياس لأنّ لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان))<sup>(٢)</sup>، وهو ما أكّده القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup>، مع اقتران اللفظ بـ "مبين" للدلالة على الوضوح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) ينظر: المصدر نفسه، ٩-١٢.

(٢) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: حسن المصطفوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط٣، ٢٠٠٩: ج٨، ص٨٧-

٩٠. نقلاً عن التهذيب ٢/ ٣٦٠، ومقاييس اللغة لابن فارس: ٤/٢٩٩-٣٠٠

(٣) سورة النحل ١٠٣

(٤) سورة الشعراء ١٩٣-١٩٥

(٥) سورة يوسف ٢



وفي قول لويس بأن العربية تعبّر عن حياة البدو، وانها استعارت من اللغات الأخرى حين أصبحت لغة الحضارة، بزعمه أنّ بعض الكلمات في القرآن الكريم غريبة على العربية، وهو ميزة للعربية لا عيب فيها، فهي تفي بحاجة مستخدميها والناطقين بها، وتتسع لتكون لغة دين وحضارة وعلم لتنتشر في العالم أجمع، وهو ما عدّه البعض غريباً ((من أغرب ما وقع في التاريخ وصعّب حل سرّه انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، ثم ظهرت فجأة بهذا الكمال، سلسلة أيّ سلاسة، غنيّة أيّ غنى، كاملة لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامّة مستحكمة))<sup>(١)</sup>.

يرى الباحث بأن لويس إنما يبيّن هذا النسق بشكل مباشر أو غير مباشر لتعزيز رأيه في اعتماد حضارة الشرق على الغرب بشكل أساسي سواء لغة أم غيرها، وأنّ العالم الإسلامي مدين للثقافات القديمة كاليونانية وغيرها، وإنّما ما كانت لتقوم دون اتكائها على الغرب، وهو ما يتجلّى اليوم من اعتماد الشرق على العلوم والتقنيات، والصناعات الحديثة الغربية.

يصوّر لويس المسلمين على أنّهم ذوي فكر وعقل سياسي عاجز عن إنتاج لغة تداول سياسي، وأنهم يجترون المفردات السياسية للغات الديانات الأخرى مثل الفارسية واليهودية والمسيحية، وما هم إلّا مستخدمين أو مطورين لتلك المصطلحات، وهو تصوير غير منصف، إذ لا تخلو أيّ لغة من مفردات مستعارة من لغات أخرى، وينسب متفاوتة، وإنّ تراث أيّ حضارة لا يقوم من العدم؛ بل هو تراث تراكمي يتأثر ويؤثر في الحضارات الأخرى، ومن جهة أخرى فإن لويس في

(١) الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨: ١٨٠. نقلاً عن الفيلسوف الفرنسي رينان من كتابه تاريخ اللغات السامية

هذا الشأن، لا يرجع لأي مصدر لغوي يُثبت ذلك بل ينسبها ذاتيًا وعلى مزاجه للغات الأخرى، كما في كلمتي الحرية، والاستقلال<sup>(١)</sup> اللتين ينسبهما للتركية.

يتحدّث لويس عن انتشار اللغة العربية السريع في البلاد الإسلامية بعد البعثة النبوية، وفضل القرآن الكريم في ذلك بيّن وواضح، إذ يقول: ((في غضون مدة قصيرة من الفتوحات العربية الكبرى في القرن الميلادي السابع، أصبحت اللغة العربية التي كانت من قبل محدودة بشبه الجزيرة العربية وعلى التخوم الصحراوية للهلال الخصيب، هي اللغة المسيطرة وصارت مع مرور الزمن لغة الأغلبية لمعظم بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فقد جعل القرآن منها لغة مقدّسة، وجعلتها الشريعة لغةً لها، وجعلتها الامبراطورية العربية لغة الحكم ولغة الإدارة في نهاية المطاف))<sup>(٢)</sup>، كما ساهم التطور الحضاري الإسلامي في دعم اللغة العربية باعتبارها اللغة الرسمية لهذه الحضارة ذات النفوذ والسيطرة على مناطق شاسعة من العالم، ((فحوّلتها الحضارة الغنية والجديدة التي ازدهرت تحت حكم الخلفاء إلى لغة الأدب والدراسة والعلم، فاستبدلت وبشكل دائم اللغات المكتوبة الأقدم للحضارة وحلّت إلى درجة كبيرة مكان اللغات المحلية المحكية في المدن والأرياف، وحتى من احتفظوا بعقيدتهم اليهودية أو المسيحية، تبنّوا مع مرور الزمن اللغة العربية، ليس فقط بسبب الضرورة كلغة للتواصل والتجارة، بل كلغة لكثير من آدابهم الدينية الخاصة))<sup>(٣)</sup>.

أدبيًا فإنّ اللغة العربية هي الآن ((اللغة الرسمية في أكثر من عشرين دولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولجميع الدول أعضاء الجامعة العربية، وفي

(١) ينظر: لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٧٥-١٧٩

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٧٩

(٣) المصدر نفسه: ٧٩

إسرائيل هي إحدى اللغتين المعتمدتين للدولة إلى جانب العبرية، وفي تركيا وإيران على الرغم من وجود أقليات هامة تتحدث العربية لكنها لا تتمتع بوضع رسمية<sup>(١)</sup>. فهو يتحدث عن العربية على أنها لغة حية ومستمرة ومتطورة، ويتحدّث بها مئات الملايين من البشر في شتى أنحاء العالم.

في إشارة تحمل الكثير من الضغينة والانتقاص من اللغة العربية؛ يشير لويس إلى ما يسميه بـ"مرونة اللغة العربية"، وغناها في مضمار السياسة الذي زاد بالكلمات الدخيلة، وبالاستعارات من الفارسية واليونانية واللاتينية، ودور الترجمات القديمة إلى العربية في إثراءها بالمفردات والعبارات، من قبيل التعبير القرآني عن مكة بـ "أم القرى" ((وما هذا التعبير إلا ترجمة حرفية للكلمة اليونانية "Metropolis" التي تعني الحاضرة، وكذلك الأمر بالنسبة للـ"صراط المستقيم" الذي يُؤمر المسلمون بالسير على هديه، والذي هو الطريق الروماني المستقيم، كما أنّ كلمة صراط ليست إلا الكلمة اللاتينية "strata" التي نشق منها نحن الإنكليز كلمة "street".

وإن كلمة "الإسلام" تعني التسليم والخضوع، وهي إشارة لتسليم المؤمن بإرادة الله، وهي اسم الدين التوحيدي الذي أسسه "محمد" غربي الجزيرة العربية، وهي بالمفهوم الغربي مقابلة لكلمة "المسيحية" أو "النصرانية"<sup>(٢)</sup>، وإنّ كلمة المحتسب التي تعني المسؤول عن مراقبة الآداب العامة والأسواق، هو ذلك الإنسان الذي ورث مهمات المراقب البيزنطي للساحة العامة "agoranomos"<sup>(٣)</sup>، كما يتطرّق إلى دلالة بعض المفردات لدى العرب والمسلمين، مثل مصطلح "العالي" التي ((تبدو

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: ٨٧-٨٨

(٢) من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٦٣

(٣) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٩-٢٠

أكثر تردداً في الاستعمال الفارسي والعثماني في سياق الحديث عن الألقاب ولغة التشريفات، كما تستخدم لوصف المباني أو الأبواب، كالباب العالي العثماني الشهير على سبيل المثال، فهو يُشير جُزئياً إلى العلوّ الفعلي للمباني، ذلك العلوّ الذي يقوّم ما عداه باستثناء أماكن العبادة.

وإنّ الاستخدام العربي لمفردتي (العالي، الواطئ) شائع جداً للتعبير عن المنزلة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، أمّا بالنسبة للعلاقات مع السلطة فإنّ وسيلة التعبير الإسلامية عنها هي على الأغلب استخدام صور البعد والقرب، والداخل والخارج، أو المركز والهامش<sup>(١)</sup>، ثم يمرّ لويس على توظيف اللغة العربية لهذه المفردة للدلالة على العلاقات مع السلطة، ف((الطامحون إلى السلطة قد يرتفعون وقد يهونون، فالأفعال التي تعني "يرتفع" تستعمل للإبلاغ عن خبرة دينية باطنية، وقلّما يكون استخدامها للإبلاغ عن الارتقاء السياسي، فالمسلمون الطامحون للسلطة يتحركون داخلياً أكثر ممّا يتحركون تصاعدياً، والمسلمون الثائرون ينسحبون من النظام القائم أكثر ممّا ينهضون ضده<sup>(٢)</sup>).

كما يُشير إلى لغة اليمين واليسار المستعملة على نطاق عالمي، التي يعدّها لويس تلميح تاريخي مُستوحى من استعارة قديمة جداً مُستقاة من الجسد مفادها أنّ اليمين شيء طيب، واليسار شيء مشؤوم، وإنّ هذه الصورة القديمة لليمين واليسار صورة فيزيولوجية أكثر ممّا هي مكانية، فهي جزء من مجموعة كبيرة من الاستعارات المستمدة من الجسد البشري، منها "الرأس" و "الصدر" التي تدلّ على المركزية، والبروز والقيادة.

(١) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس : ٢٨

(٢) المصدر نفسه: ٢٩

أمّا الساعد والعضد فيدلان على المساعد أو الوزير، في حين دلّت اليد على الحيازة والسيطرة، في حين تلبّي العين الحاجة الدلالية في غرضين هامين؛ الأول كناية عن الجواسيس، والآخر دلالتها على الأعيان أو الشخصيات المرموقة<sup>(١)</sup>.

ويتعرّض لويس أيضاً إلى مفردات أخرى مثل "أمة" بقوله: ((من المحتمل أن تكون الكلمة القرآنية "الأمة" بمعنى الشعب أو الجماعة، التي ترتبط بالكلمة العبرية "الأم" وما هي في حقيقة الأمر إلا كلمة هجينة جاءت للعربية من العبرية أو الآرامية))<sup>(٢)</sup>، وكذلك كلمة "مدينة" التي أُطلِقت على يثرب، يقول عنها لويس بأنها ((دخيلة وبكل وضوح مستعارة من الآرامية أو العبرية))<sup>(٣)</sup>، وكذا الكلمات (الوالي، الولاية، السلطان، الدولة، الحكم) فهي مستعارة بحسب رأي لويس<sup>(٤)</sup>.

إنّ فكرة لويس التي يريد إيصالها هي أنّ لسان العرب السياسي الحاضر والماضي، لم يسلم من الألفاظ الأجنبية المُستعارة من بيئات مجاورة، وهذه الاستعارات تتجاوز المفردات اللغوية إلى الرموز المادية، نحو استعمال العصا في خطبة الواعظ في صلاة الجمعة، الذي ((يعد رمزاً للسلطة عند العرب القدماء، وهو دخيل ومستعار من الفارسية))<sup>(٥)</sup>، نخلص ممّا سبق أن رأي لويس في هذه المفردات أنها وافدة إلى العربية من غيرها، ولم تنتج البيئة الإسلامية شيئاً منها، وهي الغاية التي يسعى لها لويس لغرض اتهام العربية بالقصور عن خلق مفردات جديدة تعبر عن المفاهيم الحديثة.

(١) ينظر: لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ٣٠-٣١

(٢) المصدر نفسه: ٣٥

(٣) المصدر نفسه: ٥٨

(٤) المصدر نفسه: ٥٨-٦٠

(٥) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ٤١

لا شكَّ بأنّ لويس قد تأثّر في كتاباته بكبار المستشرقين السابقين ومن هؤلاء المستشرق جولدتسيهر الذي ذكر أنّ في القرآن كلمات دخيلة مأخوذة من لغات أجنبية نحو (ناشئة، سامدون)<sup>(١)</sup>، وهو أمر على الرغم من أنّه مختلف فيه، إلاّ أنّ إثباته لا يطعن في فصاحة القرآن الكريم، لأن وجود ألفاظ سريانية أو آرامية أمر طبيعي لأنها صادرة من منبع واحد، ربما استعملتها لغة معيّنة ولم تستعملها لغة أخرى، ثم جاء بها القرآن، فلم تعد أجنبية بعد أن التهمت العربية بقية اللغات السامية<sup>(٢)</sup>.

إنّ قضية الألفاظ غير العربية التي يُشكّل المستشرقون على وجودها في القرآن الكريم، قد بحثها العلماء قديما وحديثا وكان لهم فيها وقفات كثيرة، ومنها أسماء الأنبياء، وبعض المسميات كسندس وإستبرق ونمارق وما شاكلها، فمن العلماء من يرى أنّ توظيف القرآن لهذه الألفاظ باعتبارها كلمات انتقلت إلى العرب قبل نزول القرآن وأخضعت لقواعد العربية ومقاييسها اللغوية، وشُدّبت وهُدّبت واصطبغت بصبغة العربية، واستعملها العرب ردحًا من الزمن، وهي قليلة لا كما يُصوّرُها المستشرقون، وهي لا تخرج القرآن في أساليبه وتراكيبه عن العربية، ولا عن كونه بليغًا فصيحًا معجزًا، بل لا يمكن لأحد توظيفها كما وظّفها القرآن الكريم.

ومن المحققين من يرى أنّ هذه الكلمات ليست إلاّ كلمات عربية في أصلها، وورودها في لغات أخرى لا يُثبت أنّها أجنبية، خصوصًا إذا لاحظنا التشابه الكبير بين الكلمات في اللغات السامية<sup>(٣)</sup>. من جانبٍ آخر فإنّ بعض علماء اللغات يرون

(١) ينظر: مذاهب التفسير الإسلامي: إيجناس جولدتسيهر، ترجمة: علي حسن عبد القادر، تعليق: عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م : ٩٠

(٢) ينظر: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمها: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٩م: ٤٤

(٣) ينظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: فضل حسن عباس، دار البشير، عمان : ٩٥-٩٦

أنّ العربية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة، وهي تشتمل على عناصر لغوية قديمة جدًا، وقد عضد هذا الرأي الكثير من علماء اللغات الفرنسيين، على أنّ هناك كلمات مشتركة في جميع اللغات السامية يرجّح أنّها كانت مادة من اللغة السامية الأصلية مثل الضمائر والعدد وأعضاء الجسم وحروف الجر وأسماء الإشارة وكثير من الألفاظ<sup>(١)</sup>.

وتشابه بعض الكلمات بين اللغات وتقاربها من الأمور البديهية، وهو ما يشير إليه ابن الأثير في المثل السائر بأن اللغة العربية هي سيدة اللغات وأشرفهن مكانًا وأحسنهن موضعًا، وأنها قد خفّفت ثقل الكلمات العبرية "المستبشع" لتحوّله حسنًا خفيًا، ونفت القبيح منه وأخذت الحسن بتصرف وقد ذكر أمثلة كثيرة على ذلك<sup>(٢)</sup>، مع ملاحظة أنّ العربية أثرى اللغات من ناحية عدد الأصول فلو قارناها بالسريانية مثلا نجد عدد أصول اللغة السريانية اللغوية (١٨٠٦) أصل لغوي، في حين أنّ عدد الأصول اللغوية للعربية (٨٢٢٠) وهو دليل على غنى العربية وسعتها<sup>(٣)</sup>.

للغرب في تاريخهم حضارة وإنجازات كبيرة، قدّموا فيها للإنسانية خدمات جليلة تتعلق بعلوم الطب والكيمياء والاجتماع واللغة والرياضيات وغيرها، وهو ما يحاول لويس سلبه منهم صراحةً بقوله: ((نمت خلال مدة الأوج التي بلغتها الامبراطوريات العربية والإسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط حضارة زاهرة تعرف بالحضارة العربية، ولم يأت العرب بها معهم من الصحراء جاهزة، لكن خلقها بعد

(١) ينظر: تاريخ اللغات السامية: إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ط١، ١٩٢٩م: ٧-٨

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه: احمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د.ت: ج ١ : ١٩٨

(٣) الوشائج بين السريانية والعربية: بنيامين حداد، هيئة اللغة السريانية في المجمع العلمي، منشورات المجمع العلمي،

الفتوح تعاونُ أمم عديدة من عرب و فرس و مصريين وغيرهم، بل لم تكن إسلامية خالصة، إذ كان بين مبدعيها نصارى ويهود و زرادشتيون كثيرون، إلا أنّ أداة التعبير الرئيسيّة فيها كانت اللغة العربية، كما أنّ نظرة الإسلام سيطرت عليها، وكان هذان الشيطان أي اللغة والدين أعظم ما قدّم العرب الفاتحون للحضارة الجديدة الأصليّة التي نمت تحت لوائهم))<sup>(١)</sup>، فهو يعطي الفضل في بناء الحضارة الإسلاميّة لاحتكاك المسلمين بالحضارات المجاورة، واقتراضهم العلم والفن والأدب من الفرس والمصريين القدماء واليونانيين والهنود وغيرهم، وأنّ الصحراء التي يعيشون فيها لم تمنحهم منه شيئاً، وهو رأي فيه الكثير من الصحة ومقارب للواقع، وهو ما أكّده الدارسون لمراحل تطور الأدب والفنون في التاريخ الإسلامي بمراحله المختلفة، فقد أخذ المسلمون من الحضارات الأخرى كما فعلت هي بالمثل، وهو

ديدن الحضارة الحيّة المتفاعلة

(١) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ١٨٦



## المبحث الثاني

### ثنائيات الهامش

أمة مركز/أمة هامش:

تظهرُ جلياً نزعةُ التفوّقِ الغربيّةِ في محاولة الاستشراق لإظهارِ تفوّقه على الشرق في جميع ميادين الحياة، وهي بالتأكيد نزعةٌ تعسّفيةٌ، سعى أصحابها لاستهداف الإسلام لأسباب كثيرة، فقد ((أرجعوا نجاح الأمم الأوربية إلى الدين المسيحي، وتخلّف العالم الإسلامي إلى الإسلام، فالمسيحية بحكم طبيعتها تساعد على التقدم، في حين أنّ الإسلام بحكم طبيعته يؤدي إلى الركود والتخلّف الحضاري، وكان الهجوم على الإسلام عدواناً إلى أقصى حد ممكن))<sup>(١)</sup>، في محاولة لتصوير الإسلام سبباً رئيساً في تردي حال المسلمين وتراجعهم، وسبباً في تخلّف الدول الإسلامية بما يحمل من قيود سلوكية اجتماعية واقتصادية، في حين تعطي المسيحية الحرية للغربي في التطور والانطلاق إلى الأمام، فأمة المسيحية هي "مركز" وهي أمة ناجحة ومتقدّمة، فيما تقبع أمة الإسلام في "الهامش" بتراجعها وضعفها وخنوعها.

تحلّ دول "المركز" في الحضارات الرئيسة ((في السياسة الكونية الجديدة محل القوى الكبرى في الحرب الباردة، وتصبح أقطاب جذب وطرّد بالنسبة للدول الأخرى، وتنبثق تجمّعات تضم دول "مركز" ودولاً أعضاء لها نفس الثقافة، ثم شعوباً من ثقافة أخرى في الدول المجاورة، وتتزع إلى أن تكون دوائر متحدة المركز حول دولة أو عدة دول مركزية، ولأنّ الإسلام يفتقر إلى دولة "مركز" فإنّه يقوم بتوسيع وعيه المشترك ولكنّه لم يحقق حتى الآن سوى بنية ناقصة))<sup>(٢)</sup>، وقد ازدادت

(١) الاشتراكية والإسلام: ر. جارودي، دار الطليعة، ١٩٧٠: ١٥٢

(٢) صدام الحضارات: صامويل هنتنغتون، ٢٥٣

هيمنة المركز الغربي على الهامش الشرقي بسقوط المعسكر الشرقي وبروز الثقافة الأحادية الغربية، وزادت هيمنتها أكثر مع العولمة، فصار الخطاب الغربي ينظر إلى الشرق بصفته "الآخر" لا بصفته جزءاً من الثقافة العالمية، في حين أنّ لكلّ فئة اجتماعية مشروعها الثقافي والفكري والاقتصادي، وهو ما جعل المجتمع منقسماً بين المركز والهامش، فمن يصنع القرار هم من المركز، وغيرهم من الهامش، ويعمل الصنفان على نشر وعيها ومشروعها وثقافتها، فبحسب قول (غرامتشي)\*: لكل طبقة اجتماعية متفوها الذين يرتبطون بها عضوياً وينشرون وعيها وتصوّرها عن العالم<sup>(١)</sup>.

### الوطن والدولة بين الغرب والشرق:

يحدّد برنارد لويس بعض المفاهيم العليا لدى المجتمع الشرقي، وفق رؤيته وقراءته لتصور الشرق عنها، ومن تلك المفاهيم الوطن والدولة والحكومة واللغة.

**الوطن:** كانت تعني هذه الكلمة في الاستعمالات القديمة "مكان ولادة المرء أو منزله"، كما شاع استعمالها بمعنى "موطن المرء"<sup>(٢)</sup>، ويقدم لويس ديباجة عن مفهوم الوطن في وجدان الفرد العربي والشرق أوسطي، ((استغرقت كلمة (وطن) ومشققاتها جميع المعاني السياسية والعاطفية للبلد، من وطن، وأرض الأجداد والبقية، كما ترد في التسميات المتنوعة للجمعيات والنوادي وللأحزاب السياسية وحتى في أسماء البنوك، واستلهمت في الأدب والشعر، وتتبض في عشرات

\* انطونيو غرامتشي: فيلسوف ومفكر وناقد ايطالي ولد عام ١٨٩١ صاحب فكر سياسي داخل الحركة الماركسية ويطلق على فكره اسم الغرامشوية التي هي فلسفة البراكسيس وهو النشاط العملي والنقدي (الممارسة الإنسانية والمحسوسة) توفي عام ١٩٣٧. ينظر: غرامشي حياته وأعماله: جون كاميت، ترجمة: عفيف الرزاز، ٢٥٣.

(١) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن للمنطلقات المرجعيات: حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف، الجزائر،

ط١، ٢٠٠٧م: ١٥٣

(٢) ينظر: لغة الاسلام السياسي: برنارد لويس، ٦٩

الأناشيد الوطنية<sup>(١)</sup>، وعندما كانت لا تحمل سوى المعنى البسيط للبلد أو البيت تحمل في طياتها تداعيات عاطفية كثيرة، على الرغم من أنّ الوطن في الأدب الكلاسيكي لم يكن أكثر من بلدة أو قرية، أكثر من كونه بلدًا بالمعنى الحديث للكلمة، فكلمة وطن يمكن أن تستثير عاطفةً وحنينًا، وهي غالبًا ترتبط مع مشاعر أسف على شباب مضى، وعلى أصدقاء تفرقوا، وعلى ديار بعيدة<sup>(٢)</sup>، أمّا المعنى الجديد لهذه الكلمة فيرجع به الزمن إلى أواخر سنوات القرن الثامن عشر... ثم شاع استعمال الكلمة، كما شاع استعمال اشتقاقاتها منها لتدل على الوطني والوطنية، وهكذا فإنّ التأثيرات الأيديولوجية الوافدة من أوروبا بعد الثورة الفرنسية طفقت توحى بمفاهيم جديدة عن الانتماء والسلطة استنادًا على الولاء للبلد، لا استنادًا على الولاء للطائفة أو السلالة الحاكمة، كما كان عليه الحال في قديم الزمان<sup>(٣)</sup>، يمضي لويس بالكلام عن فهم العرب لكلمة (وطن) مستندًا على حديث نبوي يقول عنه بأنّه مشكوك في صحته ينص على (حب الوطن من الإيمان)، عادًا هذه المشاعر خالية من المدلولات السياسية، فالوطن سياسيًا مجرد مكان، بل وإنّ الدلالة السياسية مرفوضة بكل وضوح وتعد نوعًا من التصغير لهذه المشاعر<sup>(٤)</sup>.

ينسب لويس نبالة القتال والموت فداءً لبلد الإنسان للغربيين، وأنها كانت مألوفة لديهم، وأنها لم تكن معروفة في الشرق إلى أن جلبتها الثورة الفرنسية بتأثيرها الأيديولوجي والفكري الحقيقي على العالم الإسلامي، كما لم تكن فكرة القومية كأساس للهوية السياسية والسيادة معروفة لمعظم الشرق أوسطيين، إذ لم يحدّد العرب قضيتهم ولا قضايا أعدائهم بكلمة (الوطن)، على الرغم من وجود علاقة

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٨٩

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٨٩

(٣) ينظر: لغة الاسلام السياسي: برنارد لويس، ٦٩-٧٠

(٤) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٩٠

طبيعية وارتباط بين المرء والمكان الذي يولد فيه، والفخر بالانتماء لبقعة معيّنة في الأدب الإسلامي مماثل لما موجود في الأدب الغربي، لكنه كان خاليًا من أي رسالة سياسية، و((يمكن ملاحظة الفرق بين الاستخدام المسيحي والمسلم بأوضح وجوهه في الألقاب والتسميات الرسمية وعمليات تدوين التاريخ، فلقد حكم الملوك الفرنسيون والإنكليز كملوك لإنكلترا وفرنسا، وكتب مؤرخوهم تاريخ هذه البلدان، بينما أعلنت السلالات الإسلامية الحاكمة عن نفسها كحكام على المؤمنين))<sup>(١)</sup>. وهو ما حصل في حادثة تبادل رسائل الإهانة بين سلطان تركيا وشاه إيران تحضيرًا للحرب بينهما التي يستشهد بها لويس في هذا السياق، إذ لم يُطلق أي منهما على نفسه مثل هذه الألقاب، بل استعمل كلّ منهما هذه الألقاب ضد الآخر للتقليل من شأن غريمه، وكلّ واحد منهما حمل لقب الحاكم الشرعي والوحيد لدار الإسلام، وأنّ الآخر ليس سوى حاكم محلي ثانوي قليل الشأن، وتحت تأثير الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، بدأ الحكام المسلمون بوصف حاكمياتهم بمصطلحات قومية أو إقليمية، أي بمصطلحات غربية<sup>(٢)</sup>.

يتّضح من طرح لويس لفكرة الوطن في المتخيّل الشرقي، سعيه لإيصال فكرة فضل الغرب على الشرق في تعليم الشرق أوسطيين الكثير من القيم الغائبة عنهم ومنها حب الوطن، والشعور بالانتماء له، والدفاع عنه، وإطلاق اسمه في الاستعمالات الرسمية، بديلاً لاستعمالهم التوصيفات السابقة، كما يطرح الانقسام الذي تعيشه الشخصية الشرقية بين تاريخها الإسلامي بشخصيتها الإسلامية، والشخصية الأخرى الوطنية أو المناطقية أو القومية أو الإقليمية، ويعدّه شعورًا جديدًا ومختلفًا بالهوية.

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس : ٩١

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٩١

في تعبيره عن مصطلح "الدولة" يقول لويس: بأنّه الأقرب كمصطلح إيجابي يستعمله العرب لوصف تغيير الحكم بالقوة، ومعناه الحرفي "التعاقب"، والذي تطبّق على الإطاحة بالأمويين وحلول العباسيين محلّهم في الخلافة، ولكن سرعان ما تحوّل المصطلح إلى معنى "الحكومة"، ليفقد مضمونه الثوري نهائيًا<sup>(١)</sup>، يرى لويس أنّ واجب البشر المستحقّ عليهم الولاء للدولة التي تجمع الضرائب وتتولّى إدارة الموظفين والمدنيين، وتنهض بالجيش، وتفرض القانون، وتوزع المنافع والفوائد، على الرغم من أنّ البشر يمكن أن يحدّدوا هويتهم بحسب البلد والثقافة والدين، وهو الأمر الذي لطالما كان بهذا النحو. وفي الدول الإسلامية التقليدية، كان العمل الحكومي يتمّ تنفيذه عن طريق جماعتين رئيسيتين تعرفان بـ"أرباب السيوف" و"أرباب الأقلام"، الأولى رجال القوات المسلحة، والثانية الموظفون المدنيون<sup>(٢)</sup>.

يسرد لويس رؤيته عن تاريخ الدولة في الشرق وعوامل نجاحها وقوتها، ((كانت الدولة البيروقراطية في الشرق الأوسط أقدم على الأرجح ممّا في أي مكان آخر من العالم، وجرى تعزيز قوتها عبر مراحل تطوّرها المختلفة، من العصور القديمة إلى أيامنا الحاضرة، بواسطة الماء والنفط، بالماء عبر التحكم بالسقاية والري في المجتمعات القائمة حول الأنهار، وبالنفط في الاقتصاديات المعتمدة على عائدات النفط، ثم جاءت التقانات الحديثة في مجالات النقل والاتصالات والمراقبة والقمع لتعزّز أكثر من سلطة الدول على رعاياها))<sup>(٣)</sup>. وبالانتقال إلى الوقت الحاضر يمكن تحديد هويّة الإنسان حسب الدولة التي تحكمه أكثر من أي عامل آخر، سواء في الشرق الأوسط أم في أماكن كثيرة أخرى في العالم.

(١) ينظر: لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٥٦-١٥٧

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ١٦٥

(٣) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس: ١٤٣

يؤمن لويس بأنّ رغبة إعادة تحقيق نموذج الدولة الإسلامية الواحدة الشاملة بقيت موضوعة متكرّرة الظهور، وهي دافع قوي عبر التاريخ الإسلامي لظهور حركات تدعو إلى تحقيق هذا الحلم، فلم يشهد المسلم منذ ظهور الإسلام حتى اليوم دولاً سوى الدولة الإسلامية، فقد انهارت الإمبراطورية الفارسية بالكامل، واضمّحت نظيرتها البيزنطية شيئاً فشيئاً، ولا يزال يحلم المسلم بحسب لويس - في دولة واحدة تجمع الدين والشرع الإسلامي وتحكمها سيادة مفردة هو الخليفة، لكنّ الواقع هو دول متعدّدة وحكّام متعدّدون.

يمرّ لويس في إطار سرده لتاريخ الحكم الإسلامي على ما جرى بعض الأحيان من بسطٍ لاسم العائلة الحاكمة وتوسيعه لتسمّى به الدولة والبلد كما حدث قديماً مع الإمبراطورية العثمانية، وحديثاً المملكة السعودية، لتشمل حتى الجنسية، وكلا التسميتين مأخوذتان من أسم مؤسس الحكم وأصل السلالة الحاكمة<sup>(١)</sup>.

ويذكر لويس نظام الحكم في المنطقة، ويستعرض طريقتين للحكم فيها، في إشارة لغياب الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة عبر الاختيار أو الانتخاب بقوله: ((لقرن كثيرة، لم تعرف المنطقة سوى طريقتين فقط لتغيير الحكم، طريقة التوريث داخل العائلة الحاكمة، والطريقة الثانية هي طريقة الإزاحة واستبدال الحاكم بالقوة أو عبر التهديد باستخدامها... وللديمقراطية في الشرق الأوسط تاريخ وجيز ومقلّب... فالأنظمة إما ملكية، أو أنظمة مستبدّة، وأخرى جمعت توليفة بين النظامين))<sup>(٢)</sup>. فالمنطقة لا تعرف الديمقراطية الغربية برأي لويس، بل ترزح تحت حكم الديكتاتوريات المتسلطة.

(١) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٥١

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣

كما يرى لويس أنّ المجتمعات الإسلامية تُدرك بأنّ محاولات الغرب متمثّلاً بالولايات المتحدة الأمريكية في تشجيع الدول الإسلامية على انتهاج درب الديمقراطية الغربية، محاولات وقتية وشكالية ومصيرها الفشل، فهو يصفها بأنّها نوع من الانحراف غير الطبيعي، وأنّها انتهت في الدول التي حاولت تطبيقها، لأنّ المسلمين مقتنعون بأنّ الحل لمشاكلهم يتحقق عبر العودة إلى ماضيهم الإسلامي الحقيقي<sup>(١)</sup>. ويتعرّض لويس أيضاً إلى الفرق بين المسيحية والإسلام بشأن النظرة للدولة، فقد كانت الدولة بالنسبة للقديس أوغاستين\* ومفكرين مسيحيين آخرين هي الشر الأصغر، بينما كانت الدولة بالنسبة للمسلمين شيئاً حسناً، وسموياً يأمر بها الشرع المقدّس من أجل نشر دين الله، ولفرض شريعة الله، وزيادة شعب الله وحمايته<sup>(٢)</sup>.

يعزف لويس على وتر حسّاس للغاية يتعلّق بوضع الدول العربية المنقسم، على امتداد الشرق الأوسط بالكامل، إذ تتألّف الأمة العربية من عدد من الدويلات المنفصلة حالها حال دول أمريكا الجنوبية، ورغم أنّها تمتلك مقومات مشتركة كثيرة كاللغة والدين والثقافة والمجتمع والتاريخ والمصير، لكنها لم تشكّل وحدة أكبر، فيبدو أنّ قدرها هو بقاؤها في وضع دول منفصلة سياسياً<sup>(٣)</sup>، يعقّب لويس على معوقات وحدة أمة العرب قائلاً: ((لقد تقسّمت وتصلّبت تلك الخطوط التي رسمها جنود الاستعمار الأوروبيون والدبلوماسيون الامبرياليون على خارطة الشرق الأوسط

(١) ينظر: لغة السياسة في الاسلام : برنارد لويس، ١١

\* القديس أوريليوس أوغستين (٣٥٤-٤٣٠م) : كاتب وفيلسوف روماني لاتيني، من أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية، وأعظم الفلاسفة المسيحيين في العصر الوسيط، يعد أحد آباء الكنيسة البارزين لدى الكنيسة الكاثوليكية والأنتغليكانية، وصاحب التأثير الأكبر في الثقافة الغربية. ينظر: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم،

مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، ٢٠١٤ : ٢٥-٢٦

(٢) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس، ٤٥-٤٦

(٣) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس، ١٢٣

وشمال أفريقيا، ومن المرجّح أن تستمر قوة تلك الخطوط على الاغلاق والتقسيم لمدة زمنية قادمة<sup>(١)</sup>. وهو هنا يشير إلى عوامل تفتت، وأسباب تشتت دول الشرق، والحدود السياسية والاقتصادية التي وضعها الاستعمار بينها، والتي ستستمر لتعمل وفق خطة مرسومة على زيادة هذا التفتت والتشطي.

### الحكومة الإسلامية:

في سياق نظرتّه للحكم الإسلامي، يرى لويس بأنّ ((الحكومة الإسلامية التي وُلدت من جماعة محمد في المدينة، غدّتها ملكيات الشرق القديمة المقدّسة، كانت من الناحية النظرية وفي تصوّر الناس لها، حكومة دينية، والمصدر الأوحد للسلطان، والقانون فيها هو الله، كما أنّ حاكمها كان نائب الله على الأرض، والعقيدة هي الدستور الأساسي للنظام القائم، كما كانت العبادات هي الرمز الخارجي المنظور لوحدها وتماسكها<sup>(٢)</sup>). فهي حسب رأيه حكومة تتخذ من الدين غطاءها الشرعي، وهي ممثّل الله في الأرض، تحكم بقانونه، وهو هنا إذ يُنكر على الإسلام هذه الميزة، ينسى بأن الأمر مشابه لما هو موجود في المسيحية، فهي أيضًا تستمد قدسيّتها من تمثيل الكنيسة لله، والحاكم هو نائب الله.

إنّ صراع الخير والشر في الإسلام برأي لويس قد اكتسب بسرعة أبعادًا سياسية، بل وعسكرية أيضًا، فالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) لم يكن فقط رسولًا أو معلمًا على شاكلة غيره من مؤسسي الأديان أو بقية الأنبياء، فهو أيضًا ((قائد الحكومة والمجتمع، حاكمًا ومقاتلاً، ومن ثمّ فإنّ كفاحه استلزم دولة وقوات مقاتلة، وإذا كان المقاتلون في سبيل الإسلام -الحرب المقدّسة في سبيل الله-

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٢٣

(٢) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ١٣٩



يقاتلون من أجل الله، فإن ذلك يستتبع القول أنّ خصومهم يقاتلون ضد الله، وبما أنّ الله هو المهيمن ومصدر السلطات من حيث المبدأ، وهو أيضاً القائد العلوي للدولة الإسلامية والنبى (وخلفاؤه من بعده) وكلاء مباشرون عنه، فإنّ الله إذاً هو راعي الجيش وقائده، الجيش هو جيش الله، والأعداء هم أعداء الله، فواجب جنود الله إذاً إرسال أعداء الله بأقصى سرعة ممكنة إلى حيث سيتولى الله بنفسه معاقبتهم وتأديبهم، أي إلى الآخرة))<sup>(١)</sup>.

فهو يتحدّث عن نسقين كثيراً ما يبيّنها في كتاباته وهما أولاً: فكرة اعتداد المسلمين بالإسلام وإيمانهم بأنّه الدين الأوحّد، إذ يقول ((كان العمل بموجب هذه العقيدة والعبادات مهما كان ظاهرياً، برهاناً مانعاً على الاخلاص، وكان التدينّ عبارة عن قبول النظام القائم، وكان المروق على الدين والإلحاد هو التدينّ بهذا النظام ورفضه))<sup>(٢)</sup>، فهو يمهد عن طريق سرد التاريخ وتحليله لطرح أفكاره التي تؤكّد إقصائية الفكر الإسلامي وإيمان المسلمين بأنّهم الوحيدون على صواب وهداية، ومن يخالفهم فهو ملحد، وثانياً: فكرة الأخذ من الديانات السابقة.

يتطرّق لويس كذلك إلى القدرة التي يمتلكها القادة الدينيون الإسلاميون في التأثير على العامّة، بقوله: ((لا يوجد بلد مسيحي في الوقت الراهن يستطيع قاداته الدينيون التحكّم بدرجة الإيمان الديني وسعة المشاركة الدينية لأتباعهم كما هو الحال في الديار الإسلامية عموماً، كما أنّهم لا يدعون لأنفسهم دوراً سياسياً مماثلاً لدور نظرائهم المألوف بل والمقبول على نطاق واسع على أنه دور مناسب في

(١) أزمة الإسلام: ٥٨، كذلك ينظر: الإسلام الأصولي: ١٣.

(٢) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ١٣٩

الديار الإسلاميّة))<sup>(١)</sup>. فهم يمتلكون صلاحيات تؤهلهم للتحكم في درجة إيمان الأفراد والحكم على ذلك، في حين تفتقد المسيحية لهذه الصلاحيات.

بيّن لويس بأنّ شرعيّة الحكام بالنسبة للمسلمين، لا بدّ بأن يستمدونها من الإسلام، أكثر من دعاوى الوطنية أو القومية، فضلاً عن ذلك ((لا يزال الإسلام يوفر كما دلّت الأحداث مرارًا وتكرارًا منذ عهد قريب، منظومة رموز من أكثر المنظومات فاعليّةً للتعبئة السياسية، سواء أكانت الغاية استنهاض همم الناس للدفاع عن نظام يحوز على الشرعية الضرورية، أو للوقوف في وجه نظام يفتقر لتلك الشرعية، أي ذلك النظام الذي ليس إسلاميًا، أو الذي لم يعد إسلاميًا))<sup>(٢)</sup>، فهو يعطي الإذن للحركات الثورية في ممارسة فكرها الثوري والإصلاحي، وفق رؤيتها وتقييمها لحاجة المجتمع لذلك.

وضمن نطاق المقارنة بين حضارتي الغرب والشرق من ناحية الدولة والحكم، يطرح لويس رأيه القاضي بأنّ الغرب منذ العصور القديمة قد شكّل مؤسسات تسعى إلى وضع فكرتها الخاصة عن الحكم الرشيد، إذ تكون مشاركة المواطن مباشرة كما في بلاد الإغريق القديمة، ويختار المشاركون بعض الأشخاص لتمثيلهم، وغالبًا ما تكون هذه المؤسسات والهيئات ذات دور في صنع القرار وسنّ القوانين، كما في النُظم الرومانية، وهناك أدلّة على أنّ مثل هذه المجالس والتنظيمات كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، لكنها اختفت بظهوره، ومنذ زمن النبي وحتى ظهور ما يمثّل المؤسسات الغربية في العالم الإسلامي لم يكن هناك نظير لمؤسسات الشورى أو الجمعيات التشريعية أو مجلس النواب

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس: ٤٢

(٢) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٧

المزدهرة في العالم الغربي المسيحي، فجميع مظاهر الحكم الإسلامي تقريباً ذات طابع شخصي بشدة، فلا توجد أية دولة، بل حاكم فقط<sup>(١)</sup>.

كما يرى لويس أنّ المسلمين قد أدركوا منذ البداية أنّ الحقيقة الدينية والسلطة السياسية مرتبطين ارتباطاً لا انفصام له، فقد أسبغت الأولى القدسية على الثانية، وساندت الثانية الأولى، ومن هنا لم يأمر الإسلام أتباعه بأن يديروا خداهم الآخر\* أو أن يحرثوا الأرض بسيفوفهم، وتشكّل هذه الخلفيّة التاريخية في اعتقاد (لويس) المعين الذي استقى الإرهابيون أفكارهم منه، فالإسلام في مخيّلته هؤلاء لم يعرف طوال تاريخه سوى منطق القوة وليس له تجربة مماثلة لتجربة الاستضعاف والاضطهاد المسيحية<sup>(٢)</sup>.

يتعرّض لويس لبعض الآيات القرآنية التي تشكّل الصفة الفارقة للإسلام عبر الوصايا المتكررة أكثر من مرة، منها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤ آل عمران)، و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١٠ آل عمران)، و﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (١٥٧ الأعراف)، و﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٤١ الحج)، معقّباً بالقول: ((كان هناك تداخل منذ البداية للدين مع الحكم، فقد وردت العديد من الآيات التي تنص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو واجب تفرضه جميع الأديان، الأمر الذي يعني ممارسة السلطة لتحقيق هذا الهدف، ففي المرحلة التشكيلية للعقيدة الإسلامية (عهد الخلفاء الراشدين)

(١) ينظر: الإيمان والقوة: برنارد لويس، ٨٤-٨٥

\* في إشارة إلى السلوك المسيحي طبقاً لوصية السيد المسيح (لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر) (مت ٣٩/٥)، ينظر: نظرة في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، محمد توفيق صدقي، مكتبة الناظرة،

د.ت. ١٤٤:

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٤٤

غدّت الدولة إمبراطورية غزا المسلمون فيها بلدانا، وأخضعوا غير المسلمين، فهو تداخل للإيمان والسلطة<sup>(١)</sup>. وهو برأي لويس من مميزات الإسلام التي تُعاب عليه، فهو تداخل غير محمود يؤدي بالنتيجة إلى تشابك السلطتين الدينية والسياسية.

### تحديد الهوية/تحديد الذات:

يعدّ الخط الفاصل بين الذات والآخر، هو الجزء الأساسي في تحديد الهوية، إذ ((تتطلب التحديدات المختلفة للهوية خطوطاً مختلفة، ويمكن للخطوط أن تتغير عبر أزمنة مختلفة، لتتراكب وتتقاطع ولكن ما أن ترسم هذه الخطوط حتى تشكّل على الدوام، في أذهان الناس على الأقل، تقسيماً واضحاً يحدّد من (نحن) ومن (هم)، وعملية تحديد الآخر هي جزء رئيسي من عملية تحديد الذات<sup>(٢)</sup>، وفي رأي لويس فإن الشرق الأوسط لا يمتلك ((هوية جمعية، بخلاف الهند والصين وأوروبا، وكان منذ الأزمنة المبكرة حتى يومنا الحاضر نموذجاً في التنوع في الدين أو اللغة أو الثقافة وفوقها جميعاً في إدراك الذات، على الرغم من أنّ الإسلام الوحيد الذي منح المنطقة هوية جمعية لم تعرف غيرها<sup>(٣)</sup>).

لدى لويس رؤية خاصة تتعلق برمز الهوية في العالم، فهو عالم مليء برموز الهوية، البصري منها أو السمعي، فلدى الأمم أعلامٌ ورموز وعلامات وأناشيد وطنية، وهناك في العالم الغربي لدى المنظمات والأحزاب السياسية، والاتحادات، والنوادي الرياضية، والمعاهد شعارات وعلامات خاصة، تحدّد هويتهم ويفرّقون أنفسهم بها عن الآخرين، وترجع لغة الهوية والتعارف الرمزية -حسب لويس- إلى جذور عميقة، فهي ثمرة تطوّر طويل، أمّا في الشرق الأوسط فالكثير

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس، ٤٣

(٢) المصدر نفسه: ١٧٥

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٦

منها جديد، ومنسوخ من الخارج ومفروض أحياناً، ومن جملة ما ((استورد من الغرب هو العلم الوطني، الذي يرمز إلى الهوية الوطنية من حيث التصميم واللون، على الرغم من أنّ استخدام الاعلام مثلثية الشكل في الحرب معروفة منذ زمن قديم في الشرق الأوسط، وكانت تمثّل حاكم بعينه أو سلالة حاكمة، فكانت راية الأمويين بيضاء، والعباسيين سوداء، وبيت الرسول خضراء، وهذه الألوان الثلاثة التي مثّلت السلالات العربية الأساسية، جرى جمعها بطرق مختلفة في أعلام الكثير من الدول العربية الراهنة))<sup>(١)</sup>. وهو هنا يعلن بشكل مباشر استتساخ الشرق لهذه الرمزية من الغرب في توظيف العلم والشعار للتعبير عن الهوية، وأن ((دول المشرق اليوم تتخذ أعلاما على شاكلة الغرب، وإنّ استخدام تركيا وبعض البلاد الإسلامية للهلال نوع من توكيد مركزية الإسلام في هويتهم فالهلال رمز الإسلام))<sup>(٢)</sup>.

ثم يعرّج على نقطة مركزية مهمة أخرى يحاول أن يطرحها للمتلقى تتعلق برمزية الصليب المسيحي، والفارق بينه وبين الهلال الإسلامي ودرع داود بقوله: ((بالنسبة للمسيحيين فالصليب هو تذكير قوي، يرمز إلى جوهرية الهوية الدينية- العقيدة المركزية لدينهم، والحدث المركزي في تاريخ هذا الدين، أما بالنسبة للهلال ودرع داود فهما رمزا الديانتين الإسلامية واليهودية، لكنهما يفتقران إلى أية دلالة مماثلة في السابق كما هي في الحاضر، وكلاهما استُخدم لأغراض تزيينية فقط، وبطريقة خاطئة تم إضفاء القداسة على هذين الرمزتين من المسيحيين المعتقدين بأن محمد بالنسبة للمسلمين مثل المسيح بالنسبة للمسيحيين، وبالطريقة ذاتها أعطوا

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس: ١٦٦-١٦٧

(٢) المصدر نفسه: ١٦٨

القداسة للهلال ودرع داوود ومكانة مساوية للصليب))<sup>(١)</sup>. في إشارة إلى رمزية كل من الصليب والهلال، وتوظيف كليهما في جوانب معيّنة لتحقيق غايات محددة.

يحاول لويس بشتي الطرائق تمكين الغرب المسيحي من اعتلاء سطوة المجد الحضاري الأسطوري أو المبالغ فيه، عبر جعله الأساس المركزي في كل فعاليّة أو حدث أو سلوك، فهو هنا يقدّم الغرب المسيحي بنظرته التقديسية للصليب على أنها التجربة المركزية الرائدة في خلق الهوية الرمزية للشعوب، ومنها استُنسخت بقية السلوكيات في تقديس الرمز، سواء كان الهلال بالنسبة للمسلمين أم درع داوود بالنسبة لليهود، على الرغم من خلوهما من الدلالة التي يتمتع بها الصليب على حد قوله، فهو يذكر صراحة بأن الغرب هو من خلق الرموز الدينية وتقبلها المسلمون، ((لم يقبل المسلمون بمصطلح المحمديين، لكنهم قبلوا بالهلال كرمز لهم...مع الزمن، في عالم سيطر عليه الغرب، بالتالي المسيحيون إلى هذا الحد أو ذلك، قبل المسلمون واليهود وتبنّوا الرموز التي عُينت لهم، وفي اليوم الحاضر حظيت هذه الرموز على الاعتراف بها بشكل عام من قبل أتباع الديانتين))<sup>(٢)</sup>.

وعلى مستوى اللباس الذي يعدّه لويس ممارسة الدلالة على الهوية لتأكيد الذات، فإن الحجاب أحد الرموز التي تتميز بها المرأة المسلمة ((فالخمار الذي يُخفي الوجه، والحجاب الذي يغطي الشعر، عبارة عن رموز، للتقيّات منهن رموز للخضوع، وللمتحررات رموز لحالة القمع، أما للمرأة المسلمة في الغرب فقد أصبحت هذه الرموز إشهارًا للهوية وتوكيدًا لها))<sup>(٣)</sup>. فهو رمز القمع برأيه واستلاب الحرية، وهذا القول يتردّد كثيرًا ضمن إطار الحديث عن حرية المرأة، والدفاع عن

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس: ١٦٨

(٢) المصدر نفسه: ١٦٩

(٣) المصدر نفسه، ١٧٣

حقوقها الذي تقول به بعض المنظمات، والناشطات العاملات في هذا المجال، نكايَةً بالعقيدة الإسلامية في هذا الشأن، التي تدعو للحجاب وستر المرأة.

### الحياة/الانتحار:

يتعكّز لويس على نصوص قرآنية تدعو المسلمين للاستشهاد والتضحية من أجل الدين والمقدسات، بوصف الشهادة حياةً أخرى في نظر الإسلام، ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (١٥٤ البقرة)، وينص الإسلام على ((فكرة الاستشهاد بكلمة تحمل المعنى نفسه، فالكلمة الإسلامية التي تعني (الشهيد) مشتقة من الجذر اللغوي (شهد)، وبذلك تكون ذات صلة بالعبارة اليونانية (مارتيروس Martyros)، وكلمة شهيد مشتقة من هذا الجذر، فالشهيد في الإسلام هو الذي يقتل في المعركة وهو يجاهد في سبيل الإسلام، ومن يقوم بهذا الواجب الديني المفروض على المؤمنين مؤهل لنيل ثواب الشهادة))<sup>(١)</sup>، ويُدعى ((الذين يُقتلون في الجهاد شهداء (Martyrs) وتتحدر مفردة Martyr الانكليزية من Martys اليونانية وتعني شاهد، لتصف في الاستعمال اليهودي المسيحي من يعاني العذاب حتى الموت دون أن يتكّر لعقيدته، استشهاده إذن بيّنة أو شهادة على إيمانه واستعداده للمعاناة حتى الموت في سبيله، ويُفسّر مصطلح الشهادة في الاستعمال الإسلامي اعتيادياً بمعنى الموت في الجهاد، وثوابه نعيم الآخرة))<sup>(٢)</sup>؛ وهو يريد هنا إيصال فكرة أن الإسلام لا يبالي بموت الإنسان المسلم إذا كان لغاية معينة، أمّا ((الانتحار - بالمقابل - فمن كبائر الإثم، ويستحق اللعنة الأبدية حتى لو كان مقترفوه - لولاه - يستحقون الجنة، ميّز الفقهاء القدماء بين مواجهة موت

(١) اليهود في ظل الإسلام، برنارد لويس : ٩٨

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٧

محقق على أيدي العدو وقتل المرء نفسه بيديه، يؤدي أحدهما إلى الجنة، ويؤدي الآخر إلى الجحيم))<sup>(١)</sup>. فهو تمييز بين الشهادة والانتحار حسب رأي لويس.

وفي السياق ذاته يبرّر لويس للشعبة فعلهم في سلوكهم طريق الشهادة فقد أعطت الهزيمة والاضطهاد للشعبة مفهومًا للمعاناة، والآلام، والشهادة قريباً من مفهومها المسيحي، فهي استثناء جزئي على النزعة الانتصارية لمعنى الشهادة، الذي ينص على أنها الموت في حرب مقدّسة من أجل الدين، فهم الفريق المهزوم في الصراعات المبكّرة على الخلافة في الإسلام، لقد تراكبت معاني الشهادة في الأزمنة الحديثة، وتلاقت مع أيديولوجيات معاصرة، مستفيدةً من التقنيات الحديثة لتنتج قوة اجتماعية انفجارية هائلة<sup>(٢)</sup>.

في إشارة مهمة يّوح لويس بتمييز المرجعيّات الإسلاميّة بين الانتحار والاستشهاد، بالقول: ((ميّزت المرجعيّات المبكّرة تمييزاً واضحاً بين مواجهة موت محقق على أيدي الأعداء وموت المرء بيديه))<sup>(٣)</sup>. فهي تدفع المسلمين للاستشهاد عبر إغراء المسلم بالثواب الكبير والجزاء اللامحدود له في نعيم الجنة الموعودة، وتتفّر بالمقابل من الانتحار وتعدّه جريمة تودي بصاحبها للجحيم، ويربط بين العمليّات الانتحارية والاعتقال بقوله: يمكن أن نقول أن القتل والاعتقال ظهر في المجتمعات الاستبدادية فله تأثيره فيها، والقاتل في هذه المجتمعات شخص متطوع مكرّس لذلك، أي أنه ليس مجنّداً ولا مرتزقاً لكي يقوم بهذا العمل، وهو لا يأمل

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٧-٦٨

(٢) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ٤٥

(٣) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٥١



النجاة ولا يتوقع البقاء على قيد الحياة بعد تنفيذ مهمته، بل من العار ألا يموت، فمن ذلك نفهم أنّ الانتحاري والذي يفجر نفسه له تاريخ طويل<sup>(١)</sup>.

يعقّب لويس على هاتين الظاهرتين (الانتحار، الاستشهاد) متطرّقًا لأحداث ١١ أيلول وأشباهاها من عمليات تميّز مرتكبوها بحسب رأي لويس بإرادتهم الانتحار وعدم رافة من أرسلهم لا على مبعوثيهم ولا على ضحاياهم، وقد ((كانت ردّة فعل الكثيرين من العرب والمسلمين على الهجوم على المركز التجاري العالمي جزئيًّا التشفي بصمت، وهي العاطفة التي كانت واسعة الانتشار، كانت فرحة حقيقية لبعضهم أن يروا الأميركيان الأغنياء المعتدّين بأنفسهم وقد لُقِّتوا درسًا))<sup>(٢)</sup>، فهو يعطي الانطباع للمتلقّي الغربي بأن العرب فرحون بهذه الأحداث الدميّة ويعدونها انتقامًا من الغرب المتسلّط، وهي جزء من ثقافتهم العدوانية.

كما يتعرّض لويس لمفردات تتعلق بالحرب ليسلّط عليها الضوء، ويبرزها للقارئ على أنّها لغة الإسلام الاعتيادية، من تلك المفردات (الحرب المقدّسة، الجهاد، والمحارب، والكافر، والمؤمن، والمرتدّ) وغيرها<sup>(٣)</sup>، ويعرض لمعانيها التي ترتبط بالتعصّب واستعمال القوة، وهي ما تُنتج رؤية غريبة للإسلام إذ يقول: ((يرى الغرب في أشياع الإسلام أنّهم أولئك الناس المُحاربون المتعصّبون والمنهمكون بنشر عقيدتهم وشريعتهم بالقوة المسلّحة))<sup>(٤)</sup>. فالجهاد جزء من حياة المسلمين كما يقول لويس، بل وأساس من أسس شريعتهم.

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٣٢

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ١٥٢

(٣) ينظر: لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس: ١١٩

(٤) لغة الإسلام السياسي، برنارد لويس: ١١٩

فالجهاد من الفرائض التي عهدّها النبي ﷺ إلى المسلمين، ومعناها الأساس الكدح والنضال، وبذل غاية الجهاد، وتستعمل بمعنى القتال، وعادة ما أوردّها القرآن الكريم بصيغة "جهاد في سبيل الله" مثلاً: (التوبة ٢٤، الممتحنة ١) وقد فسرت بطرق شتى لتعني القتال المسلح والجهاد الروحي<sup>(١)</sup>. ويؤكد لويس أنّ المصطلح (الجهاد) لا يزال مستعملاً بالمعنى العسكري والأكثر ذبوعاً إلى العصور الحديثة، وقد أعاد الاستعمال الحديث الحياة للمعنيين العسكري والمعنوي للكلمة، وتفهمهما وتطبّقهما اليوم المجموعات المختلفة بطرق مختلفة، ومن الواضح أنّ المجموعات والمنظمات التي تدّعي الجهاد اليوم في مناطق متفرقة من العالم الإسلامي لا تستعمل الكلمة في دلالتها المعنوية<sup>(٢)</sup>.

ويضيف متحدثاً عن الجهاد في موضع آخر: ((جرى منذ عهد مبكرة التمييز شرعاً بين المناطق التي ضُمَّت بالقوة "عنوة"، والمناطق التي ضُمَّت صلحاً، أي بشكل من أشكال الهدنة، أو الاستسلام دون قتال، وتختلف القوانين المتعلقة بالثروات في معاملة سكان المناطق المضمومة حديثاً من بعض الوجوه، كما كان يرمز إلى الفرق بينهما استناداً إلى السنة النبوية، في المسجد كل جمعة، يحمل الخطيب في المناطق التي أخذت عنوة سيفاً، وفيما أخذت صلحاً عصاً، تظل صورة السيف مهمة حتى يومنا هذا، يحمل علم السعودية شعارين في حقل أخضر، أحدهما النص العربي لعقيدة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والآخر تمثيل لا تخطئه العين للسيف))<sup>(٣)</sup>. وهو هنا يلمح إلى أنّ السيف شعار بارز وعلامة

(١) أزمة الإسلام : برنارد لويس: ٦١-٦٢

(٢) المصدر نفسه، ٦٦

(٣) المصدر نفسه: ٦٩

أساسية للإسلام في نظر المسلمين، فهي مقترنة بـ"لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وهو شعار الإسلام الأول.

يشير لويس أيضا إلى ما تحتويه الثقافة الإسلامية من دوافع ومبررات تُبيح للفرد المسلم، أو حتى الحكومة المسلمة ممارسة سلوكيات القتل والخطف وغيرها، بداعي الثورية، ((هناك شيء في الثقافة الدينية للإسلام، والتي ألهمت في الفلاح المتواضع والبائع المتجول الكرامة والكياسة تجاه الآخرين، ولم تُتجاوز أو تضاهى في حضارات أخرى، لكن في أوقات الثورات والقطيعة، وعندما تُثار العواطف العميقة، تترك هذه الكرامة والكياسة المجال لخليط متفجر من الغضب، يدعو حتى حكومة بلد عريق ومتحضر، حتى المتحدّث باسم الديانة الأخلاقية والروحية العظيمة لتقبل الخطف والتقتيل، إنهم يُجاهرون اليوم بالدعوة للبحث في حياة رسولهم الموافقة وحتى السبق في مثل هذه الأفعال))<sup>(١)</sup>. إذ يفترض لويس وجود نصوص شرعية تبيح للإرهابي القتل، بحجة الجهاد، وذلك يشمل حتى بعض الحكومات العريقة، فهو أمر مُباح إذا ما كان هناك مبرر.

فهو يصف الجهاد بـ"الحرب المقدسة" خارج حدود السلطة الإسلامية، أي في ما يسمى بـ"دار الحرب"، وهي أراضٍ لا يسكنها غير المسلمين وحسب؛ بل يحكمها غير المسلمين، ومن واجب المسلمين الديني والأخلاقي تبليغ وحي الله الأخير للبشرية أجمع، سلماً أو حرباً، وهو واجب "الجهاد"، فهي كلمة تعني حرفياً النضال والكفاح<sup>(٢)</sup>، إنّ هذا الوصف هو محاولة لإظهار صور مشوّهة عن الإسلام والمسلمين، والترويج لمصطلح الإرهاب الذي استخدمه الغرب لتصوير المقاومة

(١) جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس. كذلك ينظر: الإسلام الأصولي، ٢٩

(٢) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٧٢-٢٧٣

بشكل مُشين ودموي ومجنون، وأنه نتيجة للشر المتأصل في النفس العربية المسلمة، والكرهية المفطورة عليها، وإنّ الإرهاب ما هو إلا امتداد لظاهرة كُره ومُعاداة السامية واليهود عبر التاريخ<sup>(١)</sup>.

يشير (لويس) إلى نقطة مهمة وهي أن "فريضة الجهاد" غالبًا ما تستعمل بمعنى قريب من النضال، ولذلك تستعمل بمعنى القتال، وقد كانت في العهد المكي من البعثة تعني الجهاد المعنوي، فيما أصبحت للسور اللاحقة معاني أكثر عملية ووضوحًا، لا جدال في معناها العسكري ومن أمثلة ذلك الآية (٩٥) من سورة النساء ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ونجد مثل تلك الآيات في الأنفال (٧٢)، والتوبة (٤١، ٨١، ٨٨)، و التحريم (٩) وغيرها، وقد فسّر الجهاد طوال الأربعة عشر قرنًا من التاريخ الإسلامي بمعنى "الصراع المسلّح دفاعًا عن السلطة الإسلامية"<sup>(٢)</sup>.

يتعرّض لويس لتفصيل فريضة الجهاد لدى المفسرين المحدثين، ومعناها الروحي والمعنوي، إذ فسّرت أغلبية المرجعيات الإسلامية المبكرة بالمصطلحات العسكرية، ((تجيز الشريعة الإسلامية شنّ الحرب على أصناف أربعة من الأعداء: الكفّار والمرتدين والعاصين وقطّاع الطرق...وقد ميّز الفقهاء المسلمون القدامى في مسألة الحرب المقدّسة بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية، الجهاد في الحرب الهجومية فريضة على المجتمع الإسلامي ككل، لذا قد يؤديها المتطوّعون

(١) ينظر: في الخطاب والمصطلح الصهيوني: عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥ : ٢٤٣

(٢) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ٦١-٦٢

والمحترفون، بينما الجهاد في الحرب الدفاعية فريضة على كل قادر عليه بدنيًا، هذا هو المبدأ الذي ذكّر به أسامة بن لادن في إعلانه الحرب على الولايات المتحدة<sup>(١)</sup>، فبرنارد لويس هنا يقدّم الحجج التي يبرّر بها المتطرفون أعمالهم الإرهابية، فالشريعة الإسلامية بحسب فهمهم تُجيز لهم القيام بهذه الأعمال تحت لافتة الجهاد ضد الكفار، وهو بتقديمه لهذه الحجج إنّما يريد تعرية هؤلاء أمام الرأي العام الغربي، ومحاولة منه لإعمام هذا الفهم المغلوط للشريعة الإسلامية على المسلمين ككل.

يفترض برنارد لويس مُسبقًا وجود خلل بنيوي ثابت لدى المسلمين عامة، والعرب خاصة، تتمثّل أساسًا في عدائهم الفكري، والعقائدي لمكوّنات الثقافة الغربية ذات الأسس اليهودية-المسيحية، وبالتالي فإنه يستحيل التوصل معهم إلى اتفاق، أو الدخول معهم في حوار، وبالتالي -حسب رأي لويس- فإن أسامة بن لادن يمثل التعبير الأصدق عن حقيقة ثقافة المسلمين.

يسترسل لويس في الحديث عن أسامة بن لادن ونظرته لأمریکا بصفتها ممثلة (الصلبيين) المعاصرة في نظر بن لادن، على الرغم من أنّ الصليبيين - برأيه- لم يكونوا أمريكيان ولا يهود بل كانوا مسيحيين يخوضون حربًا مقدّسة ليستردوا أماكنهم المقدّسة التي ضاعت منهم<sup>(٢)</sup>، ويسرد نصوصًا لابن لادن يهاجم فيها الولايات المتحدة ((أنتم أمة اختارت بدلًا من الحكم بشريعة الله ودستوره وقوانينه اصطناع قوانينها كما تشاء وترغب، إنكم تفصلون الدين عن السياسة، مناقضين الفطرة السليمة التي تؤكّد على أنّ السلطة المطلقة لله خالقكم))<sup>(٣)</sup>. بتركيز

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٦٢

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٤

(٣) المصدر نفسه: ١٥٥

لويس على خطابات الإرهاب المتشدّدة، ومنها رسائل ابن لادن فإنه يحاول تضليل المتلقي برسم صورة دموية للإسلام متمثلة بهؤلاء، وهو أمر غير منصف لباحث استراتيجي ذو رأي مهم، وثقل كبير كالمستشرق برنارد لويس.

بتعبيرٍ مليءٍ بالشحنات السلبية التي يعمل لويس على ضخها في الفكر الغربي وتحشيدته تجاه المسلمين، يقول: ((إنّ أمريكا تعدّ الآن قائد الغرب والعالم المسيحي أو بصفة أعمّ (بلاد غير المؤمنين) الرئيس الأمريكي بهذا المعنى وريث قائمة طويلة من الحكّام الأباطرة البيزنطيين في استانبول، أباطرة الروم المقدّسين في فيينا، الملكة فيكتوريا وزملائها وورثتها الإمبرياليين في أوروبا، يعدّ عالم غير المؤمنين المسيحي اليوم كما بالأمس القوّة الوحيدة التي تجابه القضاء الإلهي، بانتشار الإسلام، وتعرقله، تقاومه، وتؤخّره، لكنها لن تحول دون نصره النهائي المؤرّر الذي لا بدّ منه))<sup>(١)</sup>. يتحدّث لويس بالإنبابة عن المسلمين محوّلًا تمثّلاته الثقافية عن نظرة المسلمين المفترضة لأمريكا إلى خطاب يحاول عن طريقه إيهام وتضليل المتلقي الغربي بأنّه واقعي، في حين أنّ هذه الفكرة بعيدة عن تصوّر معظم المسلمين.

يواصل لويس فتحه ملفّات (الجهاد) الإسلامي واسمًا بعضًا منها بالاعتقالات، إذ اتّخذ المسلمون على مدى التاريخ موقفًا واضحًا من أعدائهم - بحسب لويس - فهم ليسوا ممّن يحتمل أن ((تتحول سيوفهم إلى سكك محراث، ورماحهم مناجل)) (اشعيا: ٢: ٤)<sup>(٢)</sup>، إذ يبيّن هذا الاقتباس حنق لويس على

(١) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٥٦

(٢) الإشارة هنا إلى المسيحيين الذين يؤمنون بالسلام والعودة إلى العمل وقت السلم والهدنة، وتحويل توجهاتهم للزراعة والحرب، وهي غمزة تجاه المسلمين الذين يصفهم بالتشدد، فهم لا يتركون سيوفهم مطلقًا، ومستعدون للحرب دائما.

المسلمين، لولعهم الدائم في مقاتلة اعدائهم، فموقف الدين الإسلامي الواضح من استخدام القوة والعنف، كان يقابله في الوقت ذاته جرم الارتداد في الشريعة الإسلامية التي تعد من الكبائر وعقوبته القتل، وفي الفقه الإسلامي لا إعدام من دون محاكمة، وإعطاء الفرد فرصة للدفاع عن نفسه فإن كان المتهم مذنبًا حُكم بالعقوبة، لكن ثمة رؤية أخرى تقول بها أقلية من الفقهاء، هي أنّ جريمة الإساءة إلى النبي من الكبّر أنّها تتيح للمرء تجاوز شكليات الإحضار إلى المحكمة، والتوجه إلى الإعدام مباشرة<sup>(١)</sup>.

كما يتحدّث عن الاغتيالات في موقع آخر، معبرًا عن أنّ القتل ليس اختراعًا جديدًا؛ بل هو قديم قدم الجنس البشري، لكن القتل السياسي ظهر مع ظهور السلطة السياسية، وإنّ الاغتيالات التي تحصل بدافع إزاحة سلطان أو حاكم ليحل محله آخر شائعة في التاريخ سواء في الشرق أو الغرب، وفي بعض الأحيان ينظر القاتل للاغتيال كواجب له مبرراته الأيديولوجية، إذ يبدو الضحية مغتصبًا أو ضحيةً أو طاغية، وما قتله إلا فضيلة، وهو تبرير بصيغ سياسية أو دينية<sup>(٢)</sup>.

يقول لويس في خلاصة رأيه عن الاغتيال في الإسلام إنّ عدة أديان لها مواقف من الإرهاب، وإنّ بعض الديانات المتعصّبة تدعو بين حينٍ وآخر لممارسة القتل بالمفرد أو الجملة، لمن تعدّه عدوًا لعقيدتها، وإنّ ظاهرة الاغتيال نشأت منذ وقت مبكر جدًا في المجتمع الإسلامي<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٤٤

(٢) الحشاشون: برنارد لويس، ١٨٣

(٣) ينظر: أزمة الإسلام برنارد لويس، ١٤٥

الراديكالية\*الإسلامية/ التسامح الغربي:

أُطلقَ على الراديكالية الإسلامية مسمّى الأصولية الإسلامية بحسب قول لويس، وهو أمرٌ أصبح معتادًا، وهي ليست حركة متجانسة واحدة، فهي على أنواع مختلفة في بلدان مختلفة، بل تختلف حتى في البلد الواحد أحيانًا، وتتمتع برعاية بعض الدول التي تعمل على نشرها، وتستخدمها تلك الحكومات الإسلامية وتروّج لها لأغراضها الخاصة، بعض تلك الحركات راديكالي، والآخر محافظ، وكناتهما "حركات مدمّرة وإجهاضية"، كما يشير إلى نوع آخر من الحركات وهي حركات شعبية تسعى إلى السلطة ويضرب مثلًا إيران والسودان وأفغانستان<sup>(١)</sup>.

ويضيف في حديثه عن الأصولية الإسلامية، ((لا يتخلف الأصوليون\* الإسلاميون عن التيار الرئيس قيد البحث في مسائل الألوهية وتفسير الكتاب، أمّا النقد المجتمعي الموجّه إليهم فنقد مجتمعي بالمعنى الواسع، فقد نحا العالم الإسلامي من وجهة نظرهم منحىً مغلوّطًا، ويدّعي حكامه بأنهم مسلمون، لكنهم في الواقع مرتدّون، أبطلوا الشريعة، واعتمدوا قوانين وعادات شائعة، الحل الوحيد أمامهم العودة إلى المنهج الأصيل للإسلام في الحياة، وأولى خطوات تحقيق ذلك إزالة الحكومات المرتدة))<sup>(٢)</sup>.

\* الراديكالية: مصطلح يدل على توجّه سياسي قائم في شتى أبعاد المجتمع، كما أنه يدعم الحرية في جميع الاتجاهات الإنسانية. ينظر: معجم المصطلحات السياسية ، وضاح زيتون، دار أسامة للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٤: ١٩٢. كذلك

ينظر: معجم اللغة العربية المعاصر: أحمد مختار عمر، م٢: ٨٤١

(١) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٥٧

\* الأصوليون: هم "الرافضون للقيم الديمقراطية وثقافة الغرب المعاصرة، الراغبون في دولة متسلطة تطبق الشريعة تطبيقًا منظرًا". ينظر: الإسلام الديمقراطي المدني: شيريل بينارد، تر: ابراهيم عوض، تنوير للنشر والإعلام، القاهرة، ط١،

٢٠١٣ : ١٤-١٥

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس: ٥٧



يُصنّف لويس الإسلاميين اليوم إلى قسمين الأول: الأصوليين الذين يرجعون الفشل والقصور في ديار الإسلام الحديثة إلى اكتساب أهلها أفكارًا وأساليب عمل غريبة، فابتعدوا عن الإسلام الأصيل ومن ثم فقدوا ما بلغوه من عظمة في سالف الدهر، والقسم الثاني هم دعاة التحديث والإصلاح الذين يرون أن سبب فقدان لا يرجع إلى التخلي عن الأساليب القديمة بل إلى الاحتفاظ بها، وخصوصًا مع جمود رجال الدين الإسلامي ووجودهم في كل موقع، ويرون أنّ هؤلاء مسؤولون عن استمرار العقائد والطرائق التي ربما كانت خلّاقة وتقدمية قبل ألف عام لكنّها اليوم لا خلّاقة ولا تقدّمية<sup>(١)</sup>. وهو رأي يقترب من الواقعية كثيرًا، فمتغيرات الزمن وتطوراته على مختلف الأصعدة، تحتم على المجتمع المسلم التفاعل مع هذه المتغيرات بما يتلاءم ووضع الفرد المسلم وتغيير الأساليب البالية في التعاطي مع الأحداث، بأخرى خلّاقة تضمن حقوق الإنسان الشرقي المسلم، وتوفر متطلباته وأساسيات عيشه الكريم، دون المساس بقيمه وعقيدته ومقدساته.

لا يعتمد منهج دعاة التحديث والإصلاح الإسلامي بحسب رأي لويس على مهاجمة الدين، ناهيك عن الإسلام خصوصًا، بل على توجيه الانتقاد إلى التعصّب، فالتعصّب وبصفة خاصة تعصّب السلطات الدينية- ينسبون التسبّب في تعطيل وتجميد الحركة العلمية الإسلامية التي كانت عظيمة يومًا ما وخنق حرية الفكر والتعبير<sup>(٢)</sup>، يوافق لويس الرأي القائل بأنّه ينبغي على علماء المسلمين والمستشرقين من إثارة تساؤل قبل كل شيء عن مقارنة التعصّب الإسلامي مع التسامح الغربي، أو مقارنة الروح العسكرية الإسلامية مع الروح الغربية محبة

(١) ينظر: أين الخطأ، برنارد لويس : ٢٤٥

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٢٤٥

السلام، أو الديمقراطية الغربية والحداثة والتقدم مع التخلف الإسلامي<sup>(١)</sup>. ويصرّح لويس في موضع آخر من كتابه أزمة الإسلام بأنّ ((الأصوليين معادون للغرب بمعنى أنّهم يعدّونه أصل الشر الذي يؤدي إلى تآكل المجتمع الإسلامي، لكن هجومهم الأساس موجّه ضدّ حكاهم وقادتهم))<sup>(٢)</sup>، ويضرب أمثلةً على ذلك بنظام إيران والحركة التي أسقطت الشاه عام ١٩٧٩، والحركة التي قتلت الرئيس السادات عام ١٩٨١ في مصر.

### الديمقراطية بين الغرب والشرق:

يتعرّض لويس لمفهوم الديمقراطية، والفرق بين تطبيقه الغربي وتمثيله في الشرق، بقوله: ((تبقى الديمقراطية بالمعنى الغربي للكلمة ذلك النظام السياسي الذي تجرى فيه انتخابات حرة في فواصل زمنية منتظمة، والذي تتغير فيه الحكومات وفق قرار الناخبين نادرة في الشرق الأوسط، كثير من بلدان هذه المنطقة عقدت انتخابات لضرورة وجود شكل من الانتخاب لتأهيل هذه الأنظمة للحصول على مساعدات دولية وفوائد أخرى أحياناً، ولكن في معظم هذه الأنظمة تُغيّر الحكومات الانتخابات، ولا تُغيّر الانتخابات الحكومات، وهناك دولتان فقط في المنطقة تُجريان انتخابات حقيقية وتتبدل حكوماتها عبر الانتخابات هما تركيا وإسرائيل))<sup>(٣)</sup>، فهو يكشف زيف ادعاءات الكثير من الأنظمة الشرقية في تطبيق الديمقراطية بشكلها المثالي، وغاياتها في الاستمرار بالحكم والحصول على المنافع والأموال، والفرق الشاسع بين الغرب والشرق في ذلك.

(١) ينظر: دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، ١١٥

(٢) أزمة الإسلام: ٥٧

(٣) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: ٢٠٦-٢٠٧

ويطرح في موضعٍ آخر رأيه عن نظرة الإسلاميين للديمقراطية ومحاولتهم تجنب استعمال هذا المصطلح، فهم يفكرون بالطريقة الكلاسيكية للحكم، بقوله: ((من الواضح أنّ الأصوليين الإسلاميين يعتبرون الديمقراطية خروجًا عن الموضوع... وهم نادرًا ما يستخدمون هذه الكلمة... وهم لا يُخفون ازدرائهم للإجراءات السياسية الديمقراطية، ونيّتهم أن يحكموا وفقًا للأحكام الإسلامية إذا ما تولوا السلطة))<sup>(١)</sup>. فهم حسب لويس لا يؤمنون بالديمقراطية بل يعدّونها خروج عن النظام الإسلامي، ثم يطرح لويس سؤالًا بشأن الديمقراطية في العالم الإسلامي هو: ((هل الديمقراطية الليبرالية متوافقة أساسًا مع الإسلام؟ أم أنّ قدرًا ما من الاحترام للقانون وبعض التقبّل للنقد هما أقصى ما يمكن توقعه من الحكومات الأوتوقراطية؟.. وهل يمكن للشعوب الإسلامية أن تطوّر شكلًا ما للحكم يكون متوافقًا مع تقاليدها التاريخية والثقافية والدينية، ويأتي فوق ذلك بالحرية الفردية وحقوق الإنسان إلى المحكومين حسب مفهوم هذين المصطلحين في المجتمعات الغربية الحرة؟))<sup>(٢)</sup>. يحاول لويس بنسقٍ مُضمّر أن يدمج عدة قضايا في هذه الفقرة الصغيرة، ويحجّم مسائل عدّة غاية في الدقة والأهمية، للوصول إلى تصوّر يبدو للقارئ الغربي موضوعيًا، لكنه مشحون بالجينات التي تسكن فكر لويس والتي تصب كلّها في صالح إدانة الإسلام والمسلمين، فهو مجتمع كما يبدو من تساؤلات لويس المطروحة غير قادر على ذلك، فلا المجتمعات تستطيع تطوير شكل الحكم، ولا الحكومات تستطيع تطبيق الديمقراطية.

اتّخذ هذان النهجان الأيديولوجيّان (الإسلام والديمقراطية) بحسب لويس صورًا مختلفة ومتنافسة، ففي الوقت الذي كانت كل الأساليب التي استوردها أو

(١) الإيمان والقوة ، برنارد لويس: ٧٩

(٢) المصدر نفسه: ٨٢-٨٣

قلّدها المسلمون عن الغرب قد فشلت، كان الرأي يتعاضد بأنها أساليب الكفار والأجانب، ولم تجن سوى الضرر، وينبغي مغادرتها والعودة إلى عقيدة وشريعة الإسلام، كان الأصوليون والديمقراطيون على طرفي نقيض، فالأصوليون كانوا دائما أقوى، ويحظون بالفرصة والدعم ولديهم شبكة من العلاقات والوسائل ومحالّ الاجتماعات كالمساجد والزوايا، ولا ينافسهم أحد أو جماعة أخرى، بينما كان دعاة الديمقراطية أقل وأضعف وأكثر تشتتًا، فهم بين علمانيين يجاهرون بضرورة الفصل بين الدين والدولة، أو ليبراليون مستضعفون<sup>(١)</sup>.

### مركزية الذكورة وهامشية المرأة:

يتحدث لويس عن نسق مركزية الذكورة في المجتمع الشرقي وسيادته لوقت طويل وبشكل طاغ، إذ تتحدّد القرابة والموقع والمرتبة والهوية الدينية عبر هذا الخط، ((ففي القانون الإسلامي يُسمح الزواج المختلط مع الديانات التوحيدية الأخرى، ولكن بين الذكر المسلم والأنثى غير المسلمة فقط، ويعد الزواج بين الذكر غير المسلم والأنثى المسلمة إساءة كبرى، ويعلّل المختصون بالشرع ذلك بأنّه عند التقاء العقيدة الإسلامية مع أيّة عقيدة أخرى، يجب أن تكون السيطرة للعقيدة الإسلامية، وفي مؤسسة الزواج الرجل "الذكر" هو المسيطر))<sup>(٢)</sup>. ثم ينتقل إلى جزئية أخرى من الموضوع ذاته تتعلق بامتلاك السلاطين والحكام المسلمين للمحظيات والرقيق، حتى صارت هذه المسألة حالة مألوفة، وصارت أمهات السلاطين في العادة من المحظيات والإماء، اللاتي كنّ من الأعراب بشكل أساسي، فهنّ من أصول متعددة من شركس وقوقاز ومن أوروبا الشرقية والغربية

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٤٦٨

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط، برنارد لويس: ٦٤

وغيرها، وامتدت هذه الممارسة وسط العائلات المسلمة المتنفّذة والغنية، فالرجال الأغنياء يميلون لامتلاك محظيات جميلات بيضاوات البشرة، بينما يكتفي ملاك الرقيق الأقل نفوذًا بمحظيات أقل ثمنًا يُستقدّمَن من أفريقيا وبلاد النوبة<sup>(١)</sup>.

في تقييمه لوضع المرأة في الإسلام يقول لويس صراحةً: ((من الواضح أن وظيفة النساء الأساسية هي الجنس والأمومة، وهو ما يظهر جليًا في أدب العبيد ومصادر أخرى، لكنهنّ كنّ يقمن بمهام أخرى كالأعمال المنزلية للزوجات والأمهات من تربية الأطفال وإدارة شؤون المنزل))<sup>(٢)</sup>، فهو يؤمن كحال الكثير من الكتاب الغربيين بأن الإسلام يقمع المرأة ويهمّش دورها ويقصره في الإنجاب والعمل في المنزل، فهي الهامش دائماً، وشخصية الظل على الرغم من قيامها بأدوار كبيرة ومهام لا يؤديها إلا هي.

ويقع هذا النسق ضمن البنيات الاجتماعية التي تجعل الرجل هو المركز، هو الإنسان، والمرأة جنسًا ثانيًا أو آخر في منزلةٍ أدنى<sup>(٣)</sup>، نتيجة النظرة السائدة عن ضعف المرأة جسديًا، وسوء فهم النصوص الدينية التي تتحدث عن المرأة، ممّا أنتج هيمنة ذكوريّة واضحة في الثقافة العربيّة والإسلامية. إنّ هذا النسق الثقافي يضع الرجل في القمة، بينما يضع المرأة في القاع، "فالأصل التذكير"<sup>(٤)</sup>، وهويّة المرأة ((تتبع دائماً من ارتباط المرأة بالرجل فتصبح المرأة آخر "موضوعًا ومادة" يتّسم

(١) ينظر: الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس: ٦٤-٦٥

(٢) الإيمان والقوة، برنارد لويس: ١٢٤

(٣) ينظر: أنثوية العلم، ليندا جين شيفرد، تر، يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠٠٤م: ١١ .

(٤) المرأة واللغة: عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٦م: ١٦.

بالسلبية، بينما يكون الرجل ذاتًا سمتها الهيمنة والرفعة والأهميّة<sup>(١)</sup>. وغالبًا ما نجد أنّ النسق الذكوري يتكأ على سلطة النصّ الديني، ويستدلّ بأدلة تشير إلى "دونيّة" المرأة، فالأنثى مخلوق يتّسم بالدونيّة والسلبية فيما يتّسم الذكر بالعلو والإيجابية<sup>(٢)</sup>.

يعتقد الكثير من الكتاب والمفكرين الغربيين أنّ الإسلام يتجلّى للعالم الغربي عن طريق صفات عدّة منها: النزعة الحربية ضد الآخر، بوصفه دينًا يقود حروبًا مقدسة للسيطرة على العالم وإخضاع جميع الناس لسلطانه، وعدم التسامح نحو الداخل فهو دين كليّ ينتج الهوس واللاعقلانية، والتعصّب والهيستيريا، كما يقمع برغبة عارمة الأقليات ويلاحق بدموية المنشقين عنه، فضلًا عن اتّصافه بالرجعية، فهو دين متصلّب، ضد التمدن ويحتقر المرأة ويرفض الحوار<sup>(٣)</sup>.

يبحث لويس قضايا مهمة تتعلّق بالمرأة والعبد والكافر، وأوضاعهم في الإسلام وكيفية معالجتها، معلقًا بأنّ الإسلام لم يمنح الفرص المتكافئة لأعضاء المجتمع، فلم يكن التساوي في الوضع الاجتماعي مطلقًا، بل مقيدًا، فالعضوية الكاملة في المجتمع الإسلامي كانت للأحرار المسلمين الذكور فقط، أمّا من تتقصهم إحدى هذه الصفات الثلاث فكانوا غير متساوين مع الآخرين، وهذه الحالة من عدم المساواة لم تكن غريبة أو غير مقبولة، بل مُقرّة ومثبتة في الشرع الإسلامي، وهؤلاء الثلاثة (المرأة، العبد، الكافر) كان يُنظر إليهم على أنهم حاجة ضرورية ولهم أماكنهم ووظائفهم، وللمجتمع حاجة للعبيد والنساء، فلهم عدة أغراض مفيدة معظمها في الاقتصاد<sup>(٤)</sup>. فالمرأة والعبد في المجتمع الإسلامي في نظر لويس

(١) دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، ميجان الرويلي وسعد البازعي،

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ٢٠٠٧ م: ٣٣٠.

(٢) المرأة واللغة: عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٦ م: ٤٨، ٥٧.

(٣) ينظر: دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، ٨٢

(٤) ينظر: اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ١٦

في مكانة دونيّة إجباريّة، لأنّهما غير قادرين على تغيير وضعهما، فليس بوسع المرأة أن تكون رجلاً، والعبد لا يمكن أن ينال حرّيته إلاّ بموافقة سيّده، أمّا دونيّة الكافر فهي اختيارية إذ بوسعه أن يضع لها حدًا في أي وقت بعمل إرادي بسيط، باعتناقه الإسلام يكون قد تحوّل إلى عضو في الفئة الاجتماعية المتسيّدة، وينهي بذلك وضعه الدوني المقرّ شرعًا.

يُرجع لويس السبب في تغيير وضع المرأة الأعمق والأبعد، نتيجة التأثير بالنموذج الغربي، ومن تلك التغييرات إلغاء الاسترقاق وتجريم بعض الدول لتعدد الزوجات مثل تركيا وتونس وإيران حتى سقوط الشاه، وحتى الدول التي لم تفعل فإنها وضعت عليه القيود القانونيّة، وأصبحت حرية العمل بالنسبة للمرأة ضرورة اقتصادية ملحّة، لظروف الحروب والتحديث الاقتصادي، لقد قطع التحرر أشواطاً كبيرة في الدول ذات الأنظمة البرلمانية، لكنه لم يمضِ قدما في الأنظمة الديكتاتورية، فقد ظلّت أنظمة ذكورية، إنّ هذه التغييرات وما تلاها من تحولات قانونية واجتماعية وثقافية ساهمت في تدعيم مكانة المرأة في المجتمع، وجاءت لها بالخلاص، فيما فتحت الباب في رأي الرجل الشرقي أمام المجهول<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٤٧٤

### المبحث الثالث

#### النقابات والطوائف

**مدخل:** يظهر الهامش عن طريق بروز طوائف مختلفة كانت في الغالب مُبعّدة، لتكوّن شكلاً من أشكال الهامش الناقم المنتفض ضد الاستبداد الحاكم "المركز"، في النظام السلطوي التقليدي، وليظهر الهامش بصور جديدة من التعبير الجماهيري بلغة مختلفة وجريئة، بلغت بها أحياناً حد الاصطدام وإشهار السلاح بوجه السلطة "المركز"، فيما عملت السلطة على إسكات هذا الصوت الثائر، وقمع وسائل تعبيره، دون التفكير مطلقاً في الاستجابة له. ولعل ما نشهده اليوم من "الربيع العربي" وثورات الشعوب هو ما يمثّل ثورة "الهامش" على "المركز" فهي ثورة مضادّة.

يركّز برنارد لويس كثيرًا على عرض سلبيات المسلمين، وإظهار ذلك من خلال دراساته المستفيضة للمتشدّدين والفرق المتطرّفة كالحشّاشين والوهابية والخوارج، إنّ تناول لويس للأقليات والفرق الإسلامية وفق ما طرحه بشكل وطريقة احترافية، هو حلقة من مخطط كبير لتحريك المياه الراكدة في التراث الإسلامي الممتلئ بمواضع الفتن، فهو يصنع التاريخ بكيفية توائم متطلّبات الحاضر الغربي من أجل إنتاج مشروع للفوضى والفرقة، عبر توظيف الحشّاشين وغيرهم من الفرق المتطرّفة، وتقديمهم كقدوة لجيل إسلامي متشدّد يحارب طرفي الإسلام وطائفتيه (الشيعة والسنة) معًا، وخلق حروب أهلية داخلية واقتتال طائفي يمزّق المجتمع الإسلامي، وبالتالي تحقيق الهيمنة على الشرق الأوسط، ومن تلك النقابات والطوائف سنتطرق إلى أبرز ما بحثه لويس في هذا المجال.



### النقابات \* الإسلامية:

يسعى المستشرقون عبر تسليط الاهتمام على الفرق والنقابات الإسلامية إلى تعظيم دورها من أجل النيل من الإسلام وتقسيمه على طوائف وفرق وتيارات، وتقديم صورة سلبية يظهر فيها المسلمون منقسمين مفتتين متناحرين، وينفون عن طريق ذلك وحدة الأمة الإسلامية، وأنّ المسلمين أمم اجتماعية متعددة ذات عقائد مختلفة.

كما يمكن ملاحظة التطابق بين رأي برنارد لويس ورأي لويس ماسينيون، في العديد من جوانب هذا الموضوع، وبالخصوص الطعن في الإسلام، ومنها ما رآه ماسينيون في أنّ النقابات الإسلامية هي أساس التركيبة الهيكلية للمدينة الإسلامية، وعمدوا إلى مدح هذه الفرق وتصويرها على أنها الممثل الحقيقي للإسلام، لذا ركّز في دراساته على التفاعلات الوظيفية للنقابات، وهذه الفكرة تبنّاها لويس في طرحه عن تقسيم الطوائف، وأصحاب الحرف والمهن في المدينة الإسلامية ودورها في تحديد الطبقات الاجتماعية وانتماءاتها وولاءاتها<sup>(١)</sup>.

اعتمد لويس في بحثه حول النقابات الإسلامية على مصادر ذات تفسيرات ورؤى مشتركة ومتقاربة زمنًا وتوجهًا، وذات نقاط التقاء تتفق ثقافيًا مع المؤثرات المهيمنة على تلك المرحلة لإظهار نتائج تتماهى وطروحات دراساتهم للمدن والنقابات الغربية فنظرية الثنائية التي تؤكد على المقارنة بين قطبين أو نقيضين

---

\* نقابة: مصدر نقب، والنقابة جماعة يختارون لرعاية شؤون طائفة من الطوائف، منهم النقيب ووكيله وغيرهم، والنقابة: الرئاسة، يقال لكبير القوم نقيب، أو رئيس، والنقابة قيام النقيب مقام من يمثلهم في رعاية شؤون طائفة من الطوائف. ينظر: العامي الفصيح من إصدارات مجمع اللغة العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ج ١٢: ٢٤ كذلك ينظر: المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وأحمد الزيات، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، ١٩٩٨م: ٩٤٣/٢ باب النون.

(١) ينظر: النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ٦٩٨

كوسيلة لإيضاح بعض المفاهيم للنظرية الرئيسة، إذ تهتم بتوضيح خصائص وميزات أحد القطبين، وهي محصورة زمنياً بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كدراسات جولدتسيهر وغيره<sup>(١)</sup>.

كما يتعمّد لويس الانتقائية في تناول الموضوعات في كتاباته فمثلاً يكتب عن الاسماعيلية والحشاشين وعن الباطنية والخوارج والشيعة، ويمر في بعض ما يكتب على الخلافة أو إقصاء الشيعة، إذ يركّز برنارد لويس على إخراج المخفي للعلن وإظهاره بعد أن كان مغيباً، عبر سرد أفكار وتوجهات تلك النقابات والطوائف، وعقائدهم المغالية والمتشددة ليجعلها واجهة للإسلام يبرّر عن طريقها ظهور حركات التطرّف الحديثة وعمليات القتل والاغتيال التي يقف وراءها المتشدّدون الإسلاميون بحسب رأيه، إذ يقول: ((كان الشعور الديني قوياً بين الطبقات العامة، وقد تجلّى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن الميلادي حتى الفتح المغولي، وتتصّف جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة خاصة تحتوي عناصر مقتبسة من فرق سبقت العصر الإسلامي كالأفلاطونية الحديثة والماسونية والمزدكية وبفلسفة اجتماعية ثورية فيها عامل المساواة بين الأفراد ويتنظيم سري يشبه النظام الماسوني))<sup>(٢)</sup>، إن تعمّد لويس التركيز على هذه الأقليات هو بهدف تشويه صورة الإسلام، وإظهاره في صورة دينٍ متعصّبٍ، يحارب بقية الطوائف غير المسلمة.

يفتح لويس بحثه (النقابات الإسلامية) في القرون الوسطى، بحديثه عن نقطة جوهرية تقول بعدم وجود مدينة بالمعنى الحقيقي في العالم الإسلامي، معتمداً

(١) ينظر: النقابات الإسلامية، برنارد لويس : ٦٩٦-٦٩٨

(٢) المصدر نفسه ، ٦٩٧

على الرأى القائل إنّ المجتمعات الإسلاميّة تتميز بتركيبية فسيفسائية من خليط من المجتمعات العرقية والدينية والإقليمية، وبشكّل الدين الإسلامي قوام هذه التركيبة، و((يندر أنّ يجد الإنسان أثرًا لما نسميه روحًا مدنيّة، نسبةً إلى مدينة، أو تنظيمًا بلديًا في البلاد الإسلاميّة، فقد كانت المدن وقتية الظهور على الأغلّب))<sup>(١)</sup>، وهذا الرأى يردّه في أكثر من مكان مدعيًا أنّ المسلمين أقوام جاءوا من الصحراء، يمتازون بالطابع البدوي، ولا يعرفون للمدنيّة سبيلًا. إنّ هذا الرأى ما هو إلّا نسق ثقافي مُضمر يعكس تعالي الغربي ونظرته الدونيّة للمسلم الشرقي.

وأما النقطة الأخرى التي يبينها لويس، فهي أنّ الثبات والجمود من أهم صفات المدن الإسلاميّة، ويعود ذلك بحسب رأيه إلى فقدان روح الإبداع والاعتماد على التقليد والكلاسيكية، ويرى ذلك واضحًا في أصول النقابات المأخوذة من البيزنطيين والساسانيين<sup>(٢)</sup>، فهو يسلب المدنيّة الإسلاميّة إرثها ويمنحه للآخر، مدعيًا أنّ المسلمين يأخذون صفات مدنهم عبر محاكاة المدن البيزنطية وغيرها.

يمكن أنّ نشخص أهمّ النقاط التي احتواها بحثه حول النقابات الإسلاميّة، سواء السياسيّة منها أم الاجتماعيّة، والتي تتمحور حول حالة الاستبداد المتمثّلة بمؤسسة الخلافة، إذ عدّها سببا أساسياً في نشوء حركات المعارضة، التي اعتمدت بسبب الظلم والقسوة، المبادئ الباطنية والتأويل، والذي يراه نظامًا إبداعيًّا في التفسير، وقد يعود السبب وراء اطرائه على الأسلوب الباطني لتمثّله وتطابقه مع الصيغ التي اتّبعتها اليهود في أكثر مراحلهم، وقناعته أنّ هذه الحركة شكّلت المثاليّة العقلانية، وبذلك استطاعت جذب مختلف الطوائف في العالم الإسلامي، سواء

(١) النقابات الإسلاميّة ، برنارد لويس: ٦٩٦

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٦٩٦.

الشيعة منها أم السنية، النصرانية واليهودية، الزرادشتية والمزدكية والمانوية، تحت شعار الحرية النقابية والعدالة الاجتماعية<sup>(١)</sup>.

### السنة والشيعة:

في إطار تناوله لمسيرة الإسلام التاريخية، والانحراف الحاصل عن خط الإسلام الرئيس، يلقي لويس الضوء على انقسام المسلمين على جزئين أساسيين هما السنة\* والشيعة\*\*، عاداً هذا الانقسام تجربةً خاضها المجتمع الإسلامي منذ مدة بعيدة ولا يزال يعيشها، وهي برأيه انحراف عن التيار الأساسي، وميل إلى مذهب أو معتقد خاص، ((تكشف تجربة الإسلام في الماضي والحاضر، عن وجود مجموعات كثيرة من المنحرفين، الذين اختلفوا عن إسلام التيار الرئيس في الإيمان أو الممارسة أو في كليهما، وهناك أدب جدلي غني جداً موجّه ضد هذه المجموعات، يفوق في تركيزه وشدة تعقيدته جميع ما كُتب من جدل موجّه ضد غير المسلمين، فالانحراف مسألة جدية وخطيرة، ولطالما مثّل خصومة حقيقية، مثل هذا الجدل الديني الأساسي بين السنة والشيعة، الجزءان الرئيسان في الإسلام، وقد بدأ

(١) ينظر: النقابات الإسلامية، ٦٩٨

\* السنة : في اللغة تعني الطريقة والمنهاج، وسنة رسول الله معناها طريقته، وفي لسان العرب السنة والتسنن الطريقة المستقيمة المحمودة، يقال فلان من أهل السنة، بمعنى من أهل الطريقة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن، واصطلاحاً: تعني كل ما صدر عن رسول الله من قول وفعل وتقرير، ويسمى مذهب أهل السنة والجماعة أي هم أهل السنة ومن يدينون بسنة رسول الله (ﷺ).

\*\* الشيعة: هم الذين قالوا بإمامة علي (عليه السلام) على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً. ووصية، إمّا جلياً وإمّا خفياً، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم من غيره، أو بتقية من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصيبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول عليهم السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجود التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، وهم خمس فرق: كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وإسماعيلية. ينظر: الملل والنحل: أبي الفتح محمد عبد الكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨، الجزء الأول:

في فترات مبكّرة جداً، ولا يزال مستمرّاً حتى يومنا هذا<sup>(١)</sup>، في تعبير عن حالة الفُرقة بين المسلمين، والتي كُتِبَ فيها الكثير، ربّما أكثر ممّا كُتِبَ عن غيرهم، وهي إشارة خفية للطعن والتكيل، يحاول منها لويس القول بأنّ المسلمين فرق شتّى، وبالتالي فإنّ فرقتهم هذه دليل على خطأ عقيدتهم.

يتطرّق لويس إلى انقسام الإسلام على هذين المذهبين، وتوزيعهما على البلدان بحسب تأثيرات وعوامل معيّنة بالقول: إنّ الهوية الإسلامية ليست وحدة مترابطة ومتماثلة، ففي مصر وشمال أفريقيا كان الإسلام هو إسلام سنّي بشكل ساحق، ولأن الشيعة كطائفة غير معروفة فعلياً هناك، فإنّ الفرق لا يبدو مهمّاً، وكانت تركيا لوقت طويل تعدّ بلدًا سنّيًا حصراً، لكن في السنوات الأخيرة وبفضل نمو المؤسسات الديمقراطية، أصبحت الطوائف الشيعية التي كانت تلوذ بالصمت في السابق أكثر تمايزاً ومسموعة الصوت، وكذا الحال في آسيا الوسطى والهند، وفي إيران فإنّ المذهب الشيعي هو الدين الرسمي والمهيمن هناك، أمّا عرب غرب آسيا فالفلسطينيون والأردنيون هم من السنّة، وفي لبنان تشكّل الشيعة المجموعة الأكبر عدداً لوحدها، وفي العراق يشكّلون غالبية عدد السكان، لكنهم كانوا دوماً يخضعون لهيمنة سنّيّة، هيمنة استمرت دون تبدلات كبيرة منذ زمن الأتراك إلى الأزمنة البريطانية إلى الملكية المستقلّة وصولاً إلى الجمهورية الحالية<sup>(٢)</sup>.

وبالمضي في تحليله التاريخي للصراع بين السنّة والشيعة يقول: ((لقد جرى تشبيه الاختلاف بين السنّة والشيعة بالانشقاق بين البروتستانت والكاثوليك، وهذا التشبيه له معنى واحد فقط إذا أخذ بالاتجاه العام والفضفاض لحالة الانقسام الواسع

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٩٢-١٩٣

(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ٥٠-٥١

إلى معسكرين دينيين رئيسيين، فالخلاف الأساسي بين السنّة والشيعّة لا يكمن في العقيدة أو السلطة الدينية، بل كان في الأصل اختلافًا بين الفرقاء حول قضية سياسية، حول من يجب أن يكون رئيسًا للدولة، وبموجب أي حق<sup>(١)</sup>، فهو يحدّد الخلاف بكونه سياسي وليس عقائدي، وتعني كلمة شيعة بالعربية ((حزبًا، وتدلّ على شيعة (علي) اللذين اعتقدوا أنّ (عليًا) لكونه قريب النبي يجب أن يكون وريثه وخليفته ورئيسًا للجماعة الإسلامية))<sup>(٢)</sup>، فالشيعة يرون أنّ أمير المؤمنين وأبناءه من بعده، هم الأحقّ بتولي الحكم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ((وقد عُرفَ أتباع الإمام الثاني عشر بالشيعة الإثني عشرية، وهم يمثّلون الجناح الأكثر اعتدالًا في الفرق الشيعية، واختلافاتهم مع السنّة محدودة في عددٍ من النقاط))<sup>(٣)</sup>.

لقد أكّد لويس أفكاره تجاه مكونات المجتمع الإسلامي وسعيه لتميطها واعطاؤها صورة ثابتة، فعندما يصل به الكلام عن العراق فإنّه يصرّح بأنّ ((العراق بلد مقسّم بشكل عميق، فمن الناحية الدينية يسيطر السنّة في الحكم على الشيعة الأكثرية، ويشارك الشيعة على الرغم من أنّهم عرب الفارسيين بالدين))<sup>(٤)</sup>، وهي غمزة مؤثّرة وطاعنة بجسد مكوّن أساسي من مكونات المسلمين وهم الشيعة، عبر اتهامهم بمشاركة الفرس في دينهم على الرغم من أنّهم عرب، مُعتبرًا عقيدتهم في الولاية دين مختلف عن دين أهل السنّة، الذين يسيطرون على دفة الحكم كونهم الأكثرية.

(١) الهويات المتعددة للشرق الأوسط: ١٩٧

(٢) المصدر نفسه، ١٩٧-١٩٨

(٣) الحشاشون: برنارد لويس، ٤٩

(٤) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس ، ١١٠

وللشيعة رأيهم في مسألة تولّي الحكم -بحسب لويس- ينصّ على ضرورة امتلاك الحاكم المسلم المؤهلات الضرورية، ويكون تنصيبه وفقاً للشرع، كما ((يعدُّ الشيعةُ الحكامَ السنّةَ غاصبين؛ كونهم ليسوا من سلالة علي ولم يجبر تعيينهم من قبل أحد أحفاد علي))<sup>(١)</sup>، وهو يتعرّض لمواصفات الحاكم وفق رأي الشيعة، وأهمّها أن يكون من سلالة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ويمتلك المؤهلات المطلوبة للحكم؛ كالعدالة، والعقل، والحكمة، والشجاعة، وغيرها. كما يعرّج لويس على رأي الشيعة المؤمن بأنّ ((رئاسة الجماعة الإسلامية تخص أحفاد النبي بالحق، وأنّ حكام الإسلام لا يتمتعون بالنسب وهم مغتصبون للعرش، وفي أفضل الحالات من ناحية المبدأ على الأقل، هم بدلاء مؤقتين، بينما يرفض السنّة نظرياً مبدأ الوراثة في قيادة الجماعة، ووضعوا لذلك قاعدة انتخاب، لكن عملياً انتهى الخلفاء المنتخبون الأوائل نتيجة القتل المتوالي والحروب، وتحوّلت السلطات إلى أيدي سلالات حاكمة في كل دولة إسلامية))<sup>(٢)</sup>، مشيراً إلى الفرق بين رأيي الطائفتين في الحكم، فالسنّة برأيه يعتقدون بالانتخاب قاعدةً للقيادة، فيما يؤمن الشيعة بالوراثة لأحفاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما يتحدّث لويس عن انقسام الشيعة داخلياً، بقوله: ((وحدث الانقسام الحاسم...بعد وفاة جعفر الصادق...فقد كان لجعفر ابن أكبر هو "إسماعيل" تبعته جماعة من الشيعة، واعترف قطاع كبير من الشيعة بأخيه الأصغر "موسى الكاظم" باعتباره الإمام السابع، واستمر نسل موسى حتى الإمام الثاني عشر الذي اختفى عام ٨٣٧م، ولا يزال هو الإمام المنتظر أو المهدي))<sup>(٣)</sup>.

(١) لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ١٦٥

(٢) الهويات المتعددة للشرق الأوسط : برنارد لويس: ١٥١

(٣) الحشاشون: برنارد لويس، ٤٩

يمكن أن نتلمّس منهجًا في الواقع الشيعي يفصل بين الدين والسياسة، في معظم الأحيان، فالاتجاه العام في الفكر الشيعي أنّه فكر مدني يؤسس لدولة مدنية، ولم ينتبه معظم المستشرقين إلى هذه الخصوصية، وأهمّ لها بعضهم، فقد نقل آراء الشيعة من مصادر سنّية دون التقصي والبحث في مصادر الشيعة، فوقعوا في الوهم الذي أوصلهم إلى نتائج غير صحيحة. وعن سيطرة السنّة كطبقة أرستقراطية حاكمة، يقول لويس في هذا الخصوص: ((بدأ المستشرقون في السنوات الأخيرة يتأكّدون أكثر أنّ المذهب السني في العصر الأول لم يكن أبدًا مذهب الطبقات العامة، وكلّما ازدادت دراسة الباحث في الأدب الإسلامي في القرون الوسطى ازداد الاتّضاح من أنّ المذهب السني كان يُنظر إليه في كل محل كدين طبقة مهيمنة، دين الدولة وميزة الأرستقراطية الحاكمة))<sup>(١)</sup>، ولم تكن هذه النظرة مقتصرة على البلاد العربية فقد كانت الأكثرية الساحقة بين رعايا الخليفة في البلدان التي فتحها المسلمون و -لقرون عديدة بعد الفتح- غير سنّية وتكره المذهب السني كرمز لسطوة طبقة أجنبية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة<sup>(٢)</sup>.

وقد تواجه السنة والشيعة طيلة القرون الأولى وعاشوا الصراعات والحروب الأهلية، ولم تكن النتيجة حاسمة لكليهما لقيادة العالم الإسلامي والهيمنة عليه، إلى أن ترسّخت السنة في القرون الوسطى، وتراجع الشيعة شيئًا فشيئًا ليكونوا أقلّيّة مرتبطة بانشقاقات فكرية وسياسية تتعلق برؤية السني وعقيدتهم في طاعة ولي الأمر التي يعدونها مقدسة من مبدأ "الاستبداد أفضل من الفوضى"، فيما يرى

(١) النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ٦٩٧

(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ٦٩٧



الشيعة وجوب مقاومة الظالم، وإن طاعة السلطة القائمة اضطرار سياسي في حال عدم القدرة على مواجهته من مبدأ "التقية"<sup>(١)</sup>.

#### هامشية الشيعة:

يزعم لويس أنّ الشيعة بدأت كفرقة سياسية محضة تؤيد مطالبات "ادعاءات" علي في الخلافة، وقد كانت عربية محضة، تفصح عن مطامح شرعية، وقد حافظ التشيع في النصف الأول من القرن الأول الهجري على هذه الطبيعة غير الدينية<sup>(٢)</sup>، ولكنها تطوّرت بسرعة إلى فرقة دينية، وبهذا عكست تطلعات وطموحات طبقة اجتماعية هي الموالي، وهؤلاء لم يكونوا عرباً كلهم، بل كانوا يوالون القبائل العربية، وقد أعطتهم مشاركتهم في معارك الفتوحات كجنود بمهارتهم المتفوقة وخبراتهم، مكانة مهيمنة في الحياة اليومية في إدارة حكومة الإمبراطورية، وقد أدّى وعيهم بأهميتهم في جعلهم ينكرون العجز الاجتماعي الذي فرض عليهم من قبل الأنظمة الأرستقراطية العربية، وجعلوا تأييدهم لصورة من الإسلام الذي يتحدى الدولة العربية الأرستقراطية، وإنّ التطور الحقيقي لهذه الحركة قد بدأ بعد حادثة كربلاء، فحينما فشلت الحركة كحزب عربي بحثت عن النصر كفرقة إسلامية<sup>(٣)</sup>.

وكان قد ذكر في كتاب آخر أنّ الموالي حققوا سعيهم في التحالف مع الشيعة لإنشاء فرقة إسلامية جديدة تضم الكثير ممن لم يُسلموا بشكل صحيح، أو دخلوا الإسلام قسراً بقوله: ((كان استيلاء الموالي وما تعرّضوا له من مظالم يشكون منها مرتعاً خصباً لكل حركة ثورية، فما أن اتجهت الحركة الشيعية إليهم اتجاهاً قوياً حتى التفّ حولها جمع غفير منهم في أجزاء كثيرة من الإمبراطورية، وكان لزاماً أن

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٥٨٦-٥٨٧

(٢) ينظر: أصول الاسماعيلية: برنارد لويس، ٥١

(٣) ينظر: العرب في التاريخ: برنارد لويس، ٩٩

يؤدي انضمام عدد كبير ممّن لم يصح إسلامهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم من الفرس والأرمن والشاميين وغيرهم إلى تغيير جوهره من حيث العقائد والأغراض<sup>(١)</sup>. فهو يرى أن الشيعة حركة سياسية غيرت جوهر الإسلام. فيما يذكر انقسام الشيعة أنفسهم إلى تيارين بالقول: ((انقسم الشيعة إلى اتجاهين أحدهما معتدل حظي بالتأييد العربي، وله قليل من الأهداف السياسية، بينما غلب على الاتجاه الآخر الموالى ذوو العناصر الثورية، وقد أُدخلت بعض العناصر الشعبوية في الصراع، ولكن الموالى لم يكونوا فرسًا فقط بل كان من قادتهم بعض العرب، وكانت المشكلة أساسًا اجتماعية أكثر منها قومية<sup>(٢)</sup>)، مؤكدًا فكرته عن الشيعة بأنهم ثورة ضد الأرسنقراطية العربية وعقيدتها ودولتها وليست ثورة قومية ضد العرب.

كما يتعرّض لمقاومة الشيعة طيلة قرون طويلة لأنظمة الحكم بالقول: ((لقد ظلّ الشيعة قرونًا طويلة لا يبخلون عن إنفاق كل جهد ودماء من أجل أئمتهم دون جدوى، وقاوموا بهبات لا تحصى تتراوح بين التضحية بالذات التي تُقدّم عليها جماعات صغيرة من الأنصار المتحمسين، إلى العمليات العسكرية المدبّرة تدبيرًا جيدًا، وقد فشلت جميعًا فقد سحقته القوات التابعة للدولة أو النظام<sup>(٣)</sup>)، وإنّ حتى المجموعات القليلة منهم، التي نجحت في الوصول إلى سدّة الحكم، فإنّها سرعان ما انقلبت على مؤيديها وسحقتهم.

(١) أصول الإسماعيلية بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية: برنارد لويس، تر: خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب،

تق: عبدالعزيز الدوري، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ط١، ٢٠١٧: ٥١

(٢) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ١٠٠

(٣) الحشاشون: برنارد لويس، ١٩٠

كان الشيعة في تصورهم الخاص هم المعارضة في الإسلام، وهم حماة المظلومين والمضطهدين، ونقّاد السلطة وخصوم ذوي الامتيازات، وقد اتخذ التاريخ وجهة خاطئة في رأيهم بعد وفاة النبي، وإن الجماعة الإسلامية تعيش في الخطيئة منذ ذلك الحين<sup>(١)</sup>. وقد ظلّ الشيعة أقلّيّة في العالم الإسلامي، ومذهبهم ليس معروفًا على نطاق واسع في القارة الأفريقية، وهو موجود بين المهاجرين الهنود والباكستانيين، وشرق أوروبا، وأكبر التجمعات السكانية الشيعية موجودة حول إيران أو قريبة منها، في شبه القارة الهندية وأفغانستان والعراق والخليج<sup>(٢)</sup>.

#### الإسماعيلية\*:

يتعرّض لويس إلى عدد من الفرق الإسلامية، إذ يتطرّق إلى المصادر والنصوص والروايات التاريخية التي أحصت تلك الفرق وسردت تأريخها، وخضوعها للعصبية والأهواء والغايات المختلفة، فيقول عن الإسماعيلية: ((إنهم طوائف ثانوية متعددة، فرع من الشيعة، كانوا هم الفرع الأكثر نشاطا وأهمية على مدى قرون في الشرق الأوسط، ألهموا الخلافة الفاطمية التي حكمت مصر، وجماعات "الحشاشين" الرهيبة في إيران وسوريا، لكنها سرعان ما تدهورت لتصبح مجرد طائفة ثانوية في عالم الشيعة))<sup>(٣)</sup>، كما يصف هذه الطائفة بقوله: ((الحركة

(١) ينظر: من بابل إلى الترجمة، برنارد لويس: ٥٨٦

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٩٢

\* الإسماعيلية: "فرقة من الشيعة الإمامية تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (١٤٨ هـ)، وأتباعه يعتقدون أنّه هو الإمام السابع برغم أنّه مات في حياة أبيه، لأنّه الابن الأكبر لجعفر الصادق، ويسمون بالسبعية، أي الذين يعتقدون بسبعة أئمة: علي، فالحسن، فالحسين، فعلي زين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق، فإسماعيل، وقد امتازت عن الموسوية وعن الإثنى عشرية بهذا". ينظر: الملل والنحل: أبي الفتح أحمد الشهرستاني، ١/ ١٩١، كذلك ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة و كامل المهندس، ٤٢

(٣) من بابل إلى الترجمة، برنارد لويس: ٥٩٠

الإسماعيلية تميّزت بأراء حرة عجيبة، إذ وجّهت دعوتها إلى مختلف الفرق الإسلامية وغير الإسلامية باسم الحركة الثقافية والعدالة الاجتماعية، ويصعب البتّ في فلسفتها الحقيقية لأن مصادرها إمّا سنيّة فتكون شديدة العداوة متحيّزة، أو إسماعيلية تنتمي إلى عصر متأخر عندما طرأ تعديل واسع على المبادئ (الأولى)<sup>(١)</sup>، وهو هنا يقارب الواقع؛ فالنصوص التاريخية معظمها متحيّز وغير منصف، أو منتّم إلى عصر متأخر فهو مُجافٍ للحقيقة أو بعيد عنها.

عن طريق دراسة وتمحيص كتابات لويس عن الفرق الإسلامية يتبين وقوع لويس تحت التأثير المباشر للتركيز الذي أولاه الاستشراق الأميركي لجوانب معينة في الدراسات الاستشراقية، ومن أهم الجوانب المؤثرة في استشراق لويس الأخذ بمناهج العلوم الاجتماعية إذ يظهر أثر ذلك في تحليلات لويس الاجتماعية فيما يخص بنية المجتمع الإسلامي، ودراسة الأصول الاجتماعية للفرق الإسلامية، وردّ نشأة الفرق إلى أسباب اجتماعية، كما يتّضح ذلك التوجه عبر اهتمام لويس بالبنية الاجتماعية الداخلية لبعض الفرق مثل الاسماعيلية والفاطمية والحشاشين، ودراساته الخاصة عن بعض النقابات، وكتاباتهِ عن المرأة وتعدّد الزوجات، والطبقات الاجتماعية، والرق<sup>(٢)</sup>.

يعدّ لويس دراسة الإسماعيلية محاولةً لإعادة تركيب الأحداث السياسية والمؤسّساتية القديمة، عن طريق التحليل النقدي للوثائق والمصادر الأولية، وقد حظيت الإسماعيلية باهتمام خاص، شغل كثيراً من المهتمين بالتاريخ الإسلامي، فكانت دراسة لويس محاولة للإجابة على أسئلة ظلّت طويلاً مبهمة، وإزالة الغموض

(١) النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ٦٩٨

(٢) ينظر : منهج المستشرق برنارد لويس: مازن مطبقاني ، ٦٥

عن آراء مزجت بين الفرق والشعب التي تتصل بالإسماعيلية، فهي دراسة على ضوء بعض المصادر الجديدة، أو التي لم يطلع عليها من قبله<sup>(١)</sup>، كما أنّها دراسة يقصد منها تسليط الضوء على أقلّيّة منقسمة، يقول عنها: ((ابتدأت الحركة الإسماعيلية في القرن الثاني الهجري من مزيج من نحل صوفية وهرطقة غالية، جلّها من الشيعة، وربما كان بعضها من أصول فارسية قديمة أو سريانية غنوصية، وهي حركة دينية اجتماعية فلسفية سياسية معًا، توقّفت عندما بلغت ذروتها خشية أن تنشئ خلافة مناوئة للخلافة العباسية السنية في بغداد))<sup>(٢)</sup>، فهم جماعة من الشيعة تبعت إسماعيل ابن جعفر الصادق ونسله، وهي فرقة "بزّت" كل منافسيها في تماسكها وتنظيمها وجاذبيتها العقلية والعاطفية<sup>(٣)</sup>.

كثيرًا ما يتوافق (لويس) مع آراء استاذة ماسينيون بخصوص الإسماعيلية وأنّها هي التي أوجدت الطوائف الإسلامية [النقابات] وأعطتها ميزتها الخاصة التي حافظت عليها حتى الآن، إذ يقول: ((إنّ الطوائف الإسلامية كانت قبل كل شيء سلاحًا شهرة الإسماعيليين في كفاحهم، لضم الطبقات العاملة في العالم الإسلامي لتكوين قوة منهم تستطيع قلب الخلافة وكل ما تمثّله، وللتوصل إلى استغلال أصحاب الحرف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها))<sup>(٤)</sup>.

يبين (لويس) ما صنعتته الحركة الإسماعيلية في العصور الوسطى من تغيير وتأثير على البيئة الاجتماعية الإسلامية، فهي برأيه إحدى الظواهر الهامة في تاريخ الإسلام، فقد أوجدت الدولة الفاطمية (العظيمة) في مصر وأفريقيا،

(١) ينظر: أصول الإسماعيلية بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية: برنارد لويس، ١٩

(٢) المصدر نفسه: ١٧

(٣) الحشاشون: فرقة ثورية في تاريخ الإسلام: برنارد لويس، تعريب: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢،

٤٩، ٢٠٠٦

(٤) النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ٧٣٥.

والدولة القرمطية في البحرين، وأنّ هذه الحركة عبّرت عن التناقض والتصادم كما هو حال كل حضارة نامية معقّدة واسعة الانتشار، وعن طموح الإنسان لتحقيق المساواة، كما أنّها قد أثرت المجال العقلي فأغنت التفكير وساهمت في ولادة جماعة من الكتّاب والشعراء، كالمتنبي وابن هانئ والمعري وأصحاب رسائل إخوان الصفا، يذكر أيضا رأي (المتدينين) في الحركة الإسماعيلية وعدّهم لها زندقة، ولهذا فقد أعفي الكثير من تاريخها، لا سيّما غير الديني<sup>(١)</sup>.

كانت الظروف مواتية لاستئناف الحركات الثورية، وظهور الحركة الإسماعيلية، فقد أدّى تسلّم العباسيين للحكم (١٣٢هـ) إلى تغييرات أهمها فوز الحزب الهاشمي الذي يمثّله العباسيون، وبهذا اصطبغت الفرقة بطابع رسمي، الأمر الذي يقول عنه لويس أنه سبب ظهورها وقوتها، فهي تنتسب للدولة الحاكمة في ذلك الوقت<sup>(٢)</sup>.

يبحث (لويس) في كتابه أصول الإسماعيلية أصل السلالة الفاطمية ويتضح له بعد أن قرأ وحلّل وخرج بخلاصة مفادها أنّ السلالة الفاطمية بعد فاجعة كربلاء سنة (٦٠ هـ) أصبحت في حالة من الهمود المؤقت لفقدان الدعاة البالغين، وإنّ أول ثورة وحركة خطيرة بعد هذا الهمود كانت هي ثورة زيد بن علي، وابنيه يحيى وعيسى، وقد أطلق اسمه على (فرقة) شيعية هي الزيدية، لا تزال محافظة على تقاليد التشيع العربي، ولا تختلف عن المذهب السني إلا قليلاً<sup>(٣)</sup>.

تأسست الدولة الفاطمية في تونس عام (٢٩٨هـ)، ثم امتدت إلى مصر، لتستقل عن الدولة العباسية، وكان يمثّل الفاطميون سلسلة النسب الحقيقي لورثة

(١) ينظر: أصول الإسماعيلية بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية: برنارد لويس: ١٣

(٢) المصدر نفسه، ٦٢-٦٣

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٦٠

النبي، ومذهبهم الإسماعيلي هو الذي يمثل صحيح الإسلام، وليشهد القرنان الرابع والخامس الهجريين صراعًا كبيرًا للسيطرة على العالم الإسلامي، ومع قدوم الفاطميين عام (٩٦٩م/٣٥٨هـ) تعاضم دور مصر في العالم الإسلامي، وكان ظهورهم معلمًا بارزًا في تاريخ مصر، فقد كان ما يحزّك الحكام الجدد ليس الدافع الشخصي أو السلالي كما كان مع دولة الطولونيين والإخشيديين السابقتين للدولة الفاطمية، وباعتبارهم شيعة إسماعيليين فقد رفضوا إعلان الولاء الرمزي للخلفاء العباسيين باعتبارهم آثمين ومغتصبين للسلطة، معتبرين أنفسهم الأحق بالخلافة فهم الأئمة الحقيقيون، والوحيدون للجماعة الإسلامية كلها، لكن الفاطميين كانوا منغمسين في صراع ديني أيديولوجي، وكان المذهب أحد أسلحتهم الأقوى فيه، أي أن الفاطميين حبسوا أنفسهم في دائرة مفرغة مما اضطرهم للعزلة عن الإجماع الرئيس للإسلام، وهكذا كفّلوا هزيمتهم الكاملة واختفاءهم النهائي<sup>(١)</sup>.

وقد كان ((الحركة الإسماعيلية فرصة حسنة لتوجيه موجة الاستياء الديني والاجتماعي التي كانت تسود في بلاد الخلافة وقتئذٍ، وذلك باستخدام حق العلويين الشرعي منهجًا سياسيًا لها))<sup>(٢)</sup>، فقد استثمرت السخط الشعبي تجاه السلطة الحاكمة، لتكوين رأي عام يطمح في العدل ونيل الحقوق الاجتماعية وحرية العقيدة، متخذةً من حق آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منهجًا لها، وكانت تبدو بالنسبة للكثيرين قادرة على تقديم مثل هذا المبدأ، وهو وضع نظام عالمي عادل جديد تحت الإمام، فقد كان الإسماعيليون يحملون رسالة طمأنة وأمل ملائمة لاحتياجات كل فئة، فهي بالنسبة للمخلصين عقيدة روحانية عميقة مستدامة بمعاناة الأئمة وتضحيات أتباعهم، وبالنسبة لأهل الفكر تفسير شامل للكون يجمع بين

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ١٦١، ١٦٦

(٢) أصول الإسماعيلية، برنارد لويس: ١٨

فلسفة الوحي وعلمه وصوفيته، وبالنسبة للشوار حركة واسعة جيدة التنظيم يدعمها حاكم قوي وتحمل وعدا بالتغيير الثوري<sup>(١)</sup>.

ثم يمرّ لويس على نقاط جوهرية تخص عقيدة الإسماعيلية، منها تشكيل فصيل مسلّح يدعى بالفدائيين، وإنّ (( الإسماعيليين عندما كانوا يعيشون فدائيهم لقتل الحكام الآثمين وبطاناتهم كانوا يحيون تقليدًا إسلاميًا قديمًا، حقًا لم يكن بالتقليد المألوف بل كان في طور السبات منذ أمدٍ طويل، ولكنّه ظلّ محتفظًا بمكانة خاصة في دائرة الفرق المنشقة والمتطرّفة))<sup>(٢)</sup>، في إشارة إلى أنّ الاغتيال والقتل هو تقليد إسلامي قديم لدى الفرق المعارضة، لكنّه كان مندثرًا وقد أحياه الإسماعيليون، كما يعدّهم أول من أسس الفكر الإرهابي، وهو ما نجده في قوله: ((الإسماعيليون كانوا بحق "الإرهابيين الأول" الذين استطاعوا تطويع الإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية...ويمكن أن يُقال أنّ الوسيلة التي اختارها (حسن) هي "الإرهاب" الذي تعرّفه دائرة معارف العلوم الإجتماعية بقولها: الإرهاب تمارسه منظمة محدودة صغيرة، وتلّهبه أهداف واسعة النطاق يضمها برنامج متماسك ترتكب من أجله الاعمال الإرهابية))<sup>(٣)</sup>.

يصف لويس الحركة بالدموية بقوله: ((اتبّع الاسماعيليون نهجًا دمويًا مع من يعارضهم، فتاريخهم في معظمه تاريخ للاغتيالات التي قاموا بها))<sup>(٤)</sup>، ويرى أنّ

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ١٦٨

(٢) الحشاشون ، برنارد لويس: ١٨٦

(٣) المصدر نفسه، ١٩٠

(٤) المصدر نفسه ، ١٤٩



ممارسة الفرقة للإرهاب بسبب قلة أنصارها، أو تحديهم لعدو يتمتع بتفوق ساحق، فلم يكن أمامهم إلا خلق عناصر يؤمنون بعقيدة تلهمهم مواجهة الموت<sup>(١)</sup>.

يطرح لويس سؤالاً: ماذا تعني الاسماعيلية؟ من وجهة نظر حديثة، ويجب عن هذا السؤال بالقول: ((إنّ الدعوة الجديدة للإسماعيلية ما هي إلا ظهور لاتجاهات إحدانية مناقضة للإسلام، ومثل هذه الاتجاهات كانت شائعة في التاريخ الإسلامي ولها ما يماثلها وربما ما يسبقها في الأديان الأخرى، ولكن عندما يمتنع الإنسان المعاصر عن إعطاء المركز الأول في اهتماماته للدين فإنه يتوقف عن الاعتقاد بأنّ الناس في العصور الوسطى كانوا يفعلون ذلك حقاً، وهكذا فإنّه يبدأ في إعادة فحص الحركات الدينية الكبرى في الماضي بغرض البحث عن اهتمامات ودوافع تكون مقبولة لدى الذهن الحديث))<sup>(٢)</sup>. ويضيف إلى أسباب نشوء الفرقة عامل الفوضى والصراع المتزايد في العالم الإسلامي، وصدمة الصليبيين - كما يصفها - بدخولهم إلى سواحل المشرق، ودخول السلاجقة كقوة فتية يصعب مقاومتها، كل ذلك كما يراه كان وراء مضاعفة شعور المجتمع بالإحباط مما جعله أكثر استعداداً للترحيب بأي حركة تبشّر بالأمل<sup>(٣)</sup>.

يذكر لويس أنّ المصادر الشيعية الإثنا عشرية والسنيّة متفكة على أنّ (إسماعيل) شخص شرير، ولا يستحق الانتساب إلى والده، وأنّه توفي في حياة أبيه، الذي نزع عنه الإمامة بسبب مفسده ورذائله، وعرض جثته على الملاك لا تتسج عنه الأساطير والخرافات، وهو ما حصل فعلاً فقد نسجت الأساطير عن عدم

(١) ينظر: الحشاشون ، ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ١٤٧

موته، وإتيانه بالمعجزات واستناره عن الملأ، وصلته بالجهات الثورية والمتطرّفة التي أوجدت الفرقة باسمه، والتي عزله الإمام جعفر الصادق بسببها<sup>(١)</sup>.

يقول لويس عن نهاية هذه الفرقة: ((لقد ظلّت الإسماعيلية منذ القرن التاسع إلى الحادي عشر بمثابة قوة فكرية كبرى في الإسلام، وكانت تمثّل تحدياً خطيراً لأذهان وقلوب معتقيها، أما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقد بدأ بريقها يخبو، حتى توقفت مرة واحدة وإلى الأبد عن أن تكون بديلاً جاداً للفكر السنّي الجديد الذي بدأ يسيطر على الحياة الفكرية في المدن الإسلامية))<sup>(٢)</sup>. فهي فرقة مهمة ومؤثرة في تاريخ النقابات والفرق الإسلامية، ولاتزال فروعها ممتدة في الفكر الشيعي تحت مسميات مختلفة، لكنها لم تتمكّن من مقارعة الفكر السنّي الذي احتل السلطة والمجتمع الإسلامي.

### الحشاشون\* :

يسعى لويس عن طريق سبر غور هذه الحقبة التاريخية والخوض في الأحداث التي تدور في المنطقة العربية الإسلامية إبان تلك المدة التي تمثل جزءاً

(١) ينظر: أصول الإسماعيلية، برنارد لويس، ٧٤

(٢) الحشاشون: ١٩٨

\* الحشاشون: ورد في تعريفهم أنهم طائفة من الإسماعيلية الفاطمية، انشقت عنهم لتدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء من نسله، أسسها الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة (الموت) في فارس حصناً ومركزاً لنشر دعوته، وترسيخ أركان دولته، ينظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة: ناصر العقل وناصر القفاري، دار الصمعي، الرياض، ١٤٣٣ هـ : ١٢٦. كذلك ينظر: دولة الإسماعيلية في إيران: محمد السعيد جمال الدين، دار الثقافة، ١٩٩٩م: ٤٢. وهو الاسم الذي يطلق على ذلك الفريق من الإسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية في الشام وغيرها من ربوع المسلمين، والذين جروا على التخلص من عدوهم بالاغتيال. ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية: تحرير: م. هوتسما، ت. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، ترجمة: مجموعة من العلماء، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١٩٩٨، ج١، ١٠: ٣٩٠٤. وهم جماعة متطرّفة ظلّت تمارس نشاطها في الاغتيال، أنشأها الحسن بن الصباح حوالي (٤٨٠ هـ)، وقضى عليها جيش التتر أيام غاراتهم العاصفة على بلاد المسلمين. ينظر: مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع، مجمع اللغة العربية، المطابع الاميرية القاهرة، ١٩٧٩، المجلد ٢١: ١١٩.

من مسار عرضي للحضارة العربية الإسلامية نسبةً لعمقها الزمني ولمساحتها الجغرافية، فنجده يحاول لفت الانتظار إلى جانب غامض أمام المتلقي الأوروبي والأمريكي من الأحداث المثيرة والتي يعتقد أنها استمرار لفكر قد تغلغل في نفوس الشرقيين وبالخصوص المسلمين الذين يرى أنّهم يعدونه جزءاً من الأصول الدينية<sup>(١)</sup>، ومقارنته المستمرة للأحداث مع ما حصل في أوروبا يثبت بشكل قطعي أنّ المعني بالكتابة هو الغربي<sup>(٢)</sup>.

عندما يتحدث لويس عن "الحشاشين" ((يسلّط الضوء دائماً على الجذور التاريخية لكره المسلمين، كما يشير إلى هويتهم الانتحارية، وذلك من أجل دعم فكرته عن الإرهاب الإسلامي، وهو ما يتبادر إلى الذهن من ترجمة عنوان كتابه "الحشاشون The Assassins" القتل أو المدمنون على تناول الحشيش، والقصد فرقة الإسماعيلية التي كانت مسيطرة على قلعة الموت))<sup>(٣)</sup>، فهو يرى بأنّ أساليب الحشاشين هي النماذج الأولى لما يمكن أن يطلق عليه "إرهاب الدولة"، فلم يكونوا يفعلون ذلك باعتبارهم معارضة غير شرعية؛ كانوا يقومون بالاستيلاء على المدن والقلاع وبقومون ولايات صغيرة لحسابهم وكانوا يحصلون أحياناً على مساعدة وتواطئ حاكم محلي ما، كانوا يدفعون له مقابل ذلك، مقابل الوعد بالتستر والحماية، كما كانوا يقومون بعمليات اغتيال عرضية ليست على أجدنتهم قد تكون لصالحه، بهذا الأسلوب كان يوجد أمام الإرهابيين وتحت تصرفهم شكلاً من أشكال الدولة<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: الحشاشون: برنارد لويس، ٣٣-٣٩

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤٢، ٢٠٢، ٢٤٢.

(٣) الاستشراق في التاريخ: عبد الجبار ناجي، ٢٥٦

(٤) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٣٣-٢٣٤

يؤكّد لويس بحسب ما اورده في كتابه أصول الاسماعيلية أنّ الحشاشين يمثلون الخط الثوري، والذي يراه جزءاً من الفهم أو التفسير لسيرة الرسول (ﷺ) في المدينة<sup>(١)</sup>. وأنهم فدائيون يضحون بأنفسهم بهدف عقيدتهم التي يؤمنون بها، بقوله: ((يسمّي الحشاشون أنفسهم فدائيين من المفردة العربية فدائي وهو الفرد المستعد للتضحية بنفسه من أجل قضية))<sup>(٢)</sup>، ويشير لويس إلى اختفاء هذه التسمية بعد القضاء على الحشاشين في القرن الثالث عشر، ولم يعد المصطلح مستعملاً، حتّى ظهر المصطلح مجدّداً في إيران أواسط القرن العشرين، فيما يُدعى بـ"فدائيي الإسلام" ونفذوا عدة عمليات بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٥٥، حين فُعمت الحركة وأُعيد قائدهم، ثم أعاد الجناح العسكري المسلح لمنظمة التحرير الفلسطينية الحياة للمصطلح مجدّداً في الستينيات فلاحقاً، لوصف العمليات الإرهابية للمنظمات الفلسطينية<sup>(٣)</sup>. ولويس في هذا إنّما يتقصد الإشارة إلى فواعل العنف والاعتقال في تاريخ المسلمين من وجهة نظره- لغرض إحالة الإرهاب بمفهومه الحديث إلى عمق تاريخي إسلامي عقدي يُقصي الآخر جسدياً ويميل لاستخدام العنف بدل الحوار في تصفية خصومه السياسيين، وهو جزء مُخاتل من نسق مركزي فاعل يصف العرب والمسلمين بالعنف والدموية.

يسند لويس إلى الحشاشين نزعة القتل والاعتقال المتأتية من أصول إسلامية ثابتة في التكوين التشريعي للدين ويدعم رأيه بتفسيرات لأحداث تاريخية لا يمكن قبولها بسهولة، فيرى أنّ الإسلام يعترف إلى حدٍ ما بمبدأ الثورة المشروعة، اعتماداً على حديث الرسول (ﷺ) (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، إلاّ أنّه يجد أنّ

(١) لغة السياسة في الإسلام، برنارد لويس: ١٤٢.

(٢) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٤٦

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ١٤٦

هذه القاعدة تمثل السطحية لأنها لم تمكّن المسلمين من إرساء قاعدة محدّدة وواضحة للفصل بين الحاكم الجائر الذي يجوز الخروج عليه والحاكم واجب الطاعة، ويضرب مثلاً على ذلك باستشهاد الخليفتين عثمان وعلي بقوله: ((لقد اغتالهما عرب مسلمون، الأول اغتاله عدد من الثوار الغاضبين والثاني اغتاله خارجي متطرف، وفي الحالتين كان الفاعلون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم قاتلي طغاة، يخلصون الجماعة من حاكم غير عادل، وكانوا يجدون من يتعاطف معهم في هذا الاتجاه))<sup>(١)</sup>. في التفاتة مسمومة يعبر فيها عن القتل بـ(العرب المسلمون)، وأنهم مدعومون ممّن يتعاطفون معم وأنّ فعلهم هذا هو ضمن إطار مقاومة الطغاة، كما يشير إلى أنّ ممارسة الاغتيال حدثت إثر الاختلافات بصدد القيادة السياسية للمجتمع الإسلامي، فمن أوّل أربعة خلفاء مسلمين قُتِلَ ثلاثة، قَتَلَ الخليفة الثاني عبد مسيحي ناعم، وقَتَلَ الخليفتين الثالث والرابع مسلمان مؤمنان متمردان<sup>(٢)</sup>، وهو بتعبيره هذا إنّما يريد تثبيت رأيه في اختلاف المسلمين العميق وتناحرهم بسبب السلطة، وشيوع ثقافة القتل والاغتيال في المجتمع الإسلامي.

يصف لويس سلوك الحشاشين بما يطابق السرية التي امتازوا بها، والتضحية التي اشتهروا بها، إلّا أنّه خرج من سرد التاريخ إلى التحليل الأنثروبولوجي للإسلام بشكل عام، وهو بهذا يعطي صبغة خاصة لهذه العمليات النوعية، إذ يتحدّث عن الإرهابي الانتحاري الموعود بالجنّة وله في الآخرة نعيم أبدي غير محدّد الملامح، وفي الدنيا لعائلته الهبات والنفقات<sup>(٣)</sup>، وإن عمل الحشاشين السريّ المنظم قد يستغرق مدة طويلة في التخطيط لاغتيال شخص أو

(١) الحشاشون ، برنارد لويس: ١٨٥

(٢) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٤٥

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ١٥٠-١٥١.

حاكم، ويتم التحضير له بالتدريب والتحصير والتتكر والتسلل، وهو يتشابه كثيرا مع عمل الفصائل الإرهابية الحديثة، لكن المفارقة أنّ معظم ضحايا الحشاشين كانوا مسلمين وقلة قليلة من "الصليبيين"، لقد كان هدفهم قلب النظام والاستيلاء على السلطة، فقد كانوا رافضين للإسلام السنّي، ويجرّمون القائمين عليه، كانوا بمثابة معارضة ثورية<sup>(١)</sup>

يبرّر لويس ظهور الحركات والتنظيمات الإرهابية الحديثة، لاستنادها إلى خلفيات تاريخية منتجة لهذا الفكر الدموي، بقوله: ((يبدو أنّ عدداً من أعضاء الفرقة الإسلامية المعروفة بالحشاشين قد نشط في إيران ثم في سوريا، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، وحولوا الفعل الذي سُمّي باسمهم إلى نظام وأيديولوجيا، توجّهت جهودهم أساساً بعكس ما يذهب إليه المعتقد الشعبي، لا إلى الصليبيين، بل إلى الحكّام المسلمين الذين عدّوهم مغتصبي عروش فسّقة، والحشاشون بهذا المعنى الأسلاف الحقيقيون للكثير ممّن تُطلق عليهم اليوم تسمية الإرهابيين))<sup>(٢)</sup>، فالحشاشون هذه الفرقة المتطرّفة بحسب لويس، هم أساس التيّار الدموي الذي نشهد انعكاساته اليوم من فصائل إرهابية ومجموعات ثورية تتخذ من الدماء وسيلة لتحقيق أهدافها.

إنّ هذا التحليل والتفسير الذي استند عليه لويس في أسباب ظهور وانتشار الحشاشين أصبح النظرية التي يقيم بها الحضارة الإسلامية بشكل عام، وردة الفعل الإسلامية تجاه الغزو الأوروبي للعالم العربي الإسلامي بشكل خاص، وهناك كثير من المقاربات التي تربط بين الحشاشين والقاعدة، لوجود مشتركات منها الصورة النمطية التاريخية التي صنعها التاريخ الرسمي عن الاسماعيلية والمنشقين عنها

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢٣٤

(٢) أزمة الإسلام: ١٤٥ - ١٤٦

كالقرامطة والحشّاشين، وهو ما وظّفه لويس في كتابه الحشّاشون عبر إشارات لهذا التقارب.

وهو النقطة التي انطلق منها لرؤية مكونات وطبيعة المجتمع الإسلامي، والكيفية التي أرساها الشارع الإسلامي في تحديد الحقوق والواجبات بين تلك المكونات. من الممكن اكتشاف أن داعش والتنظيمات الإرهابية المشابهة له هي فكرة تلائم الخيال الغربي، وتتسجم مع ما يُعرف بالفوضى الخلاقة التي يوحي بها برنارد لويس في كتاباته، إذ ستكون هذه التنظيمات المتطرّفة بمثابة الحشّاشين في التراث الإسلامي.

### الخارج:

الخارج فئة ظهرت في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وبالذات في معركة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية<sup>(١)</sup>، يرى لويس ((أنّ الخارج اعتمدوا على التأييد البدوي وعبروا عن عداوة البدو للرحل للدولة التي انتهكت حقوقهم، وليس ضد الدولة الأموية على وجه الخصوص، بل أنّ الخارج يعارضون فكرة الدولة مطلقاً، الدولة التي تمارس الإكراه أو القسر والحد من حريتهم الكلية في المجتمع القبلي... إنّ نظرية الخلافة لدى الخارج تحمل عقيدة الإجماع إلى حد الفوضى، كما يصف الخارج بأنهم الجناح الفوضوي من المعارضة الثورية))<sup>(٢)</sup>.

إنّ رؤية لويس لحركة الخارج على أنّها اجتماعية رؤية غير صحيحة، فهي حركة لفرقة من المسلمين خرجت عن الجماعة في النواحي السياسية بدوافع عقدية،

(١) ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢١١

(٢) الهرطقة في تاريخ الإسلام المبكر: برنارد لويس، ٥٢. كذلك ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة

الجوانب الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، ١٥٤

دفعتهم لتكفير من يخالفهم بالعقيدة، ثم سرعان ما انشقت على نفسها لتصبح فرقًا متعدّدة يكفّر بعضها بعضًا، على الرغم من أنّ الدين الإسلامي واضح التعاليم بعيد عن التكفير<sup>(١)</sup>.

### الوهابيون<sup>(٢)</sup>:

ضمن إطار تناوله للفرق والجماعات الإسلامية يتعرّض لويس للوهابية متحدّثا عن محمد عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) فهو عالم ديني من نجد في الجزيرة العربية، قاد حملة عام ١٧٤٤ للتطهير والتجديد، كان هدفه المعلن العودة إلى الإسلام المؤسس النقي، وإزالة ما ألحق به من الإضافات والتشويبات وعند الضرورة تحطيمها، وقد اعتنق هذه الحركة حكام نجد وروجوا لها بقوة السلاح، ووسعوا دولتهم ونشروا عقيدتهم وشنوا عددا من الحملات وأغاروا على الهلال الخصيب وسلبوا كربلاء<sup>(٣)</sup>، ويضيف عن تشدد هذه الفرقة بالقول: ((فرض الوهابيون -حيثما تمكّنوا- معتقداتهم بأبلغ صور العنف والقوة، مهديمين المراقد المقدّسة، منتهكين حرمة ما أسموه الأماكن المقدّسة الزائفة، ومواضع تقديس الأشخاص حدّ الوثنية، مطيحين بأعناق أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين أخفقوا في بلوغ متطالباتهم للنقاء والأصالة الإسلاميين))<sup>(٤)</sup>، ويضيف بأنّ الوهابيين قد ندّدوا بالكتب وأحرقوها، والتي شملت الإلهيات والشريعة، ممّا عدّوه مناقضًا لمذهبهم، وغالبًا ما كان يرافق إحراق الكتب إعدام لمؤلفيها والقائمين على

(١) ينظر: منهج المستشرق برنارد لويس : مازن مطبقاني، ١٥٥

(٢) الوهابيون: "الوهابية" دعوة أسسها محمد بن الوهاب في القرن الثامن عشر، تعطي لنفسها حق احتكار الدين الإسلامي وترفض المذاهب الأخرى، وتعتبرها منحرفة عن الدين الصحيح، كما تعتبر الشيعة بشكل خاص غير مسلمين. ينظر: من بابل إلى التراجمة، برنارد لويس: ٢١١

(٣) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس: ١٢٩

(٤) أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٣١



تعليمها، وهو بهذا يمرّ على مفصل خطير من مفاصل تاريخ المذاهب الإسلامية، نحا فيه المتشددون منحىً خطيراً في فكرهم ومعتقداتهم، أدّى إلى خلق صورة نمطية متزّمة عن الإسلام لدى الغرب، صورة المسلم الإقصائي المتشدّد الذي لا يمكن أن يتقبل الآخر، ولا يتفاهم أو يتعايش معه.

في السياق ذاته يوضح لويس رأيه في نشوء وبروز تيارات متطرّفة كالهابية، معلّلاً ذلك بأفول التيار العروبي الذي أتاح فرصة للأصولية الإسلامية لتتخذ شكل البديل الأقوى والأكثر جاذبيةً، لكل الذين شعروا بضرورة وجود ما هو أفضل، وأكثر صدقاً، وعوداً، من طغيان حكّامهم العاجزين، ونتيجةً لإفلاس الأيديولوجيات المدسوسة عليهم من الخارج، إذ تتغذى هذه التيارات والحركات على الحرمان والازدراء، وعلى ما تثيره من حنق وسخط، وبعد فشل كل العلاجات الاقتصادية والسياسية، وإخفاق الرأسمالية والاشتراكية في وضع الحلول للفقير، والطغيان، وتتمتع الأصولية الإسلامية بمزايا عدة، مقارنةً بالأيديولوجيات المنافسة، فهي واضحة وسهلة الفهم عند المسلمين، ومؤثّرة في حشد التأييد، وتشكيل تيار ناقد لكل ما هو مغلوط ووضع برنامج تصحيحه، كما تمتاز بعدم القدرة على السيطرة عليها، فإذا كان بوسع الحكّام الديكتاتوريين حظر الأحزاب السياسية، أو حظر الاجتماعات، فإنهم لا يسعهم حظر العبادات والمواعظ الدينية، فالمجموعات الدينية المعارضة هي المجموعات الوحيدة التي يكون لديها أماكن اجتماعات محددة ومنتظمة خارج سيطرة الدولة<sup>(١)</sup>.

ويضيف أيضاً بأنّ الاصوليين الإسلاميين عمومًا هم الذين يشعرون أنّ مشاكل العالم الإسلامي حاليًا، ليست بسبب نقص التحديث، بل نتيجة فرط

(١) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٣٧-١٣٨

التحديث الذي يعدّونه خيانةً للقيم الإسلامية، وإنّ العودة للإسلام الحق هو العلاج برأيهم، وذلك يشمل إلغاء كل القوانين والاستعارات الاجتماعية الأخرى التي أخذت من الغرب والعودة إلى القانون الإسلامي المقدّس، بصفته القانون الفعّال، وإنّ الصراع برأيهم ليس مع الدخيل الغربي، وإنما مع الخائن الموالي للغرب في الداخل، وإنّ أكثر أعدائهم خطورةً هم المسلمون المزيفون والخارجون عن الإسلام الذين يحكمون بلدان العالم الإسلامي، واستوردوا مناهج كافرة فرضوها على شعوبهم المسلمة<sup>(١)</sup>.

يمرّ لويس على حقيقة أنّ أغلب المسلمين ليسوا أصوليين، وأغلب الأصوليين ليسوا إرهابيين، ولكن أغلب الإرهابيين مسلمين، وبصفتهم هذه هم فخورون، يشكو المسلمون من وسائل الإعلام بأنّها تتحدّث عن الحركات الإرهابية واصفةً إياها بالـ(إسلامية)، متسائلين عن تجاهل وصف الإرهابيين الايرلنديين أو الباسكيين بصفتهم (مسيحيين)، ويعلّق على ذلك بأنّ ((الإجابة بسيطة، هم لا يصفون أنفسهم بتلك الصفة، أسامة بن لادن وأتباعه من القاعدة لا يمثّلون الإسلام، وأفعالهم وتصريحاتهم تناقض مبادئ الإسلام، لكنهم ظهروا في إطار الحضارة الإسلامية))<sup>(٢)</sup>، وهو استدلال غير مقنع من جانب لويس، فادعاء الانتماء للإسلام من قبل الإرهابيين لا يبيح لهم القتل باسم الإسلام، وأفعالهم مرفوضة ومستهجنة لدى أغلب فرق ومذاهب المسلمين، وادّعائهم بتمثيل الإسلام باطل، كما أنّ عدم وصف الانفصاليين المسيحيين بالإرهاب لا يعفيهم من ذنب عملهم. على الرغم من أنّ الوهابية مثّلت لمدّة ليست بالقصيرة المذهب الرسمي لدول كبيرة تمثل النّقل الأكبر للإسلام لدى الغرب.

(١) ينظر: أزمة الإسلام، برنارد لويس : ١٣٨-١٣٩

(٢) المصدر نفسه: ١٤١

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المضنية في نتاج المستشرق برنارد لويس يمكن أن نستجمع النقاط المهمة التي استخلصناها من هذه الدراسة، وهي:

١. يشكّل المركز والهامش ثنائية ضديّة، وعلاقة جدلية ضاربة في القدم، تشمل هذه الثنائية مختلف المجالات الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لكن بتظافر الهوامش يمكن تفتيت المركز وإضعافه، وبحسب النظريات النقدية الحديثة كالنقد الثقافي فإنّه يمكن إسقاط المركز لصالح الهامش، ليتحول الهامش إلى مركز.
٢. يصعب تحقيق التوافق بين المركز والهامش، فلكلٍ منهما ثقافته الخاصة به، التي يؤمن بها ويعمل وفق قيمها وثوابتها لتأصيل ذاته، على الرغم من أنّ وجود أحد أطراف الثنائية مرتبط بالآخر فلا وجود لأحدهما بغياب الآخر، والعلاقة بينهما قوامها الصراع والمنافسة.
٣. معظم نصوص لويس عن الشرق والإسلام تتحرّك وفق ثنائيات المركز/الهامش، القوة/الضعف، السلطة/الرعية، إذ نجد إعلاء ملحوظاً للذات على حساب الآخر، وتضخماً واضحاً للأنا، ممّا يرسّخ نسق الهيمنة الغربية في خطاب لويس الاستشراقي.
٤. إنّ فعل التهميش متعمّد ومقصود عند لويس، بهدف اختزال الآخر الشرقي وتضخيم وإعلاء الأنا الغربية، وطغيان المثاقفة السلبية وحضور الثقافة القيمومية بإزاء الآخر المسلم، هو لون اصطبغت به القراءة الاستشراقية للويس وظهرت به جلياً.
٥. تمثّل المستشرق برنارد لويس تمثلاً جوهرياً لمقولات الاستشراق الأمريكي التي كان له شخصياً دور بارز في صياغتها، فكتاباته تعبير جلي عن الوعي الغربي لقيمة الشرق، وإمكانية توظيفه التوظيف المناسب لخدمة للأهداف السياسية والفكرية التي يسعى لها.
٦. أعدّ لويس نفسه الإعداد المناسب واستطاع أن يهيئ الملكات التي يحتاجها المستشرق، عن طريق تعميق خبرته الفيلولوجية داعمًا ذلك بإعداد تاريخي لم يتمتع به الكثير من المستشرقين، فاستطاع أن يجمع بين المؤهلات اللغوية التقليدية للمستشرق وإمكانات المنهج البحثي التاريخي، وكان ثمرة ذلك عمله المبكر وهو أطروحته في الدكتوراه عن الإسماعيلية.

٧. إنَّ نظرة لويس وطموحاته، ثم تعمق وعيه بالإمكانيات الجديدة لقيمة ما يحمله من تخصص وانخراطه في العمل العسكري والاستخباري؛ جعله يخطط للخروج من إطار القوالب الأكاديمية الجامدة، والانفتاح على جماعات جديدة من المثقفين أو المحتاجين للبضاعة التي يمتلكها.

٨. ركّز لويس على الانتقائية في دراسة التاريخ العربي الاسلامي، مدفوعاً بدوافع إيديولوجية وسياسية تتسجم مع تطلعات وأهداف البريطانيين والأمريكان، لأنّه مثلّ الجانب الفكري للأيديولوجية السياسية في الغرب، وهو يتقن فن تطويع الأفكار لخدمة من يعمل معهم وبما يمتلك من قدرات لا تتوفر عند غيره من المستشرقين، ولذلك جاءت كتاباته عن الموضوعات التي اختارها في التاريخ العربي الاسلامي وقدمها بطريقة تؤكد إخلاصه لموجهيه.

٩. لا يختلف إثنان على أنّ لويس يمتلك مقومات الكاتب الناجح بالمعنى التقليدي للكلمة، أي الإمساك بناصية اللغة بما في ذلك علم اللسانيات، والإلمام بالتاريخ محتوىً ومنهجاً، ولهذا فإننا نستبعد عنه شبهة الخطأ، وبالتالي فإنّ برنارد لويس يدرك تمام الإدراك ماذا يكتب، ممّا يستدعي بالضرورة إضفاء صفة العمد على كتاباته، أمّا المبهم من نواياه في كتاباته، وغامضها، وما توصل إليه من أحكام، فهو أمر متروك استنتاجه أولاً وأخيراً لذكاء القارئ أو المثقفي.

١٠. إنّ المستشرقين ومنهم لويس ينطلقون من الكنائس والأديرة فهم تبع لها، وهو النسق المركزي السائد في جلّ الدراسات الاستشراقية وهو ما يؤكّد الخلفية الدينية القابعة خلف الاستشراق.

١١. يرسم المستشرقون ومنهم لويس ضمن أنساق ثقافية مضمرة، سلسلة من الصفات التي يعنقدون أنّ الغرب يمتلكها متميزاً عن الحضارات الأخرى، كالحرية، والعقلانية، والعلم، والتقدم، وروح الاختراع وغيرها، معتبرين هذه القيم والصفات قيم مركزية للحضارة الغربية، يفتقدونها الشرق مطلقاً.

١٢. إنّ الاستشراق الجديد الذي يمثله لويس مكمل للاستشراق التقليدي القديم في استهدافه الأمة الإسلامية وضربها بكل الوسائل، والانتقاص من شأنها بغية إضعافها، وخاصة فيما

يتعلّق بعقائدها ومقدساتها وضرب مكامن قوتها متمثلاً بالقرآن الكريم سبيلاً للنيل من الدين ككلّ.

١٣. إنّ التاريخ المثقل بالإسقاطات والشبهات غير البريئة على الإسلام والشرق والحضارة والتراث العربي، أنتج بشكل طبيعي ظاهرة العداة والتطرّف تجاه الآخر بينيته الفكرية والدينية، وهو ما أتحفنا به الاستشراق الجديد، والمستشرقون المتشدّدون بخطابهم الاستشراقي المعاصر، المُجاهر بعداوته للإسلام مجاهرةً صريحةً لا غموض فيها، وأكثر ما يميّز هذا الخطاب معلّمين، الأول ديني، والثاني ثقافي عرقي.

١٤. حاول المستشرقون الجدد وعلى رأسهم برنارد لويس، وفوكوياما، وصامويل هنتنغتون، تأكيد النسق السلبي للإسلام في متخيّل الغرب، عبر رسم الصورة السلبية للإسلام وتفعيل أمور ثلاثة: توظيف نتائج دراساتهم الاستشراقية في خدمة السياسة الغربية، وإشاعة تلك الطروحات في وسائل الإعلام، وتبني الإدارة الأمريكية، وبعض النخب الأوروبية لتلك الدراسات.

١٥. إنّ الاستشراق لا يهتم إلّا بالخطابات المركزية الرسمية السائدة متجاهلاً بذلك المكبوت والمسكوت عنه "الهامشي" في العالم العربي والإسلامي بسبب الرقابة الرسمية القمعية ماضياً وحاضراً.

١٦. يمكن استنتاج أن دراسات لويس الاستشراقية هي استجابة معرفية وسياسية واقتصادية مواجهة للثقافة الشرقية السائدة في العصر، بلغة استعلائية ذات تمظهر سلطوي يعكس شعور التفوق لدى الغرب، إذ يدرس المستشرقون المعاصرون وقوتهم لويس مجتمعاتنا بهدف تقديم تقارير أو إضاءات إلى البيت الأبيض أو الإدارة السياسية أو المؤسسة العسكرية لكي تعرف كيف تتصرف تجاهنا، والموضوع غير مقتصر على الأمريكان منهم بل يشمل معظم الجنسيات الغربية إنّ لم تكن جميعها.

١٧. لبرنارد لويس دور كبير وفاعل في توجيه الفكر الاستشراقي المعاصر، ضمن منهج ملغم يميل للنزعة العرقية التعصبية، التي ورثها من أساتذته، فهو بذلك خاضع لنظام استشراقي تراكمي، يُثبت أنّ الاستشراق لم يمُت، وهو ما يؤكّد أنّ الاستشراق الديني لم يتخلّص من الانتماءات العقديّة والأيدولوجية.

١٨. الاستشراق قديماً وحديثاً منتج إنسانيّ محكومٌ بظروف المواجهة بين مُنتجِه (الغرب)، وموضوعه (الشرق)، وبأهواء مَنْ صنعه، لكنّ هذا لا يخفي حقيقة استنتاجها الباحث هي أنّ كتابات لويس محمّلة بأجندة أيديولوجية، تجمع بين المركزية الغربية الأوروبية والمركزية العالمية الصهيونية، ممّا جعلها مثاراً للجدل والنقاش والاهتمام والمتابعة والتنفيذ من قبل دوائر القرار الغربي على مدى الثلاثين عاماً الأخيرة.

١٩. تتباين كتب برنارد لويس في حدّة خطابها فمنها ما تجده موضوعياً نوعاً ما مثل (الإسلام في التاريخ) و(العرب في التاريخ)، ومنها ما تجده يمثل الوجه الآخر لبرنارد لويس فهو يتحول من الاستشراق العلمي إلى الاستشراق السياسي مثل (أزمة الإسلام) و(جذور الغضب الإسلامي) و(أين الخطأ)، وكثيراً ما يعتمد تجربة الدولة العثمانية كمحور رئيسي لأبحاثه وكتاباته، وتحولّ علاقتها بالغرب من التفوّق والانتصار العسكري العثماني (الإسلامي) إلى التراجع والانكسار وهو ما خلق الشعور بالمرارة والعجز والحدق والكراهية تجاه الغرب المنتصر، يفسّر على ضوءه مجمل التجارب الإسلامية، وهو الأمر الذي يشكّك في دقة وصحة وسلامة النتائج التي يخلّص إليها في تحليله لواقع الإسلام والمسلمين، لابتعادها جغرافياً وتاريخياً.

٢٠. يشوب منهج برنارد لويس القصور في الإحاطة بالمجتمع الإسلامي تاريخياً وثقافياً، فهو يعمّم الحالة العثمانية على جميع المجتمعات الإسلامية الأخرى متناسياً تعدّد الشعوب والمجتمعات خارج الدولة العثمانية، ومعتمداً على وجود صورة نمطية للإسلام ونموذج نمطي للمسلم، وهو تصوّر غير واقعي، ويقدم نتائج مضللة وخاطئة وغير دقيقة.

٢١. إنّ سبب الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب برأي برنارد لويس، يعود إلى بنية الفكر الإسلامي المقاوم للحدثة ومنظومة القيم الغربية، ورفضه الاعتراف بتفوقها عليه، والإقرار بهزيمته أمامها، وأتّه لا علاقة لهذا الغضب الإسلامي بالظلم أو التجربة الاستعمارية الغربية في العالمين، الشرقي والإسلامي، واعتبر لويس أنّ الصراع العربي الإسرائيلي جزء من هذا الصراع الحضاري الإسلامي مع التراث اليهودي-المسيحي.

٢٢. يبني لويس تحليله للتاريخ الإسلامي على أساس المسلّمات التي يعتقد بها ومنها أنّ هناك عداءً مستحكماً بين المسيحية والإسلام، وأنّ الإسلام يرفض الثقافات والأديان الأخرى، وأنّ المسلمين يعادون السامية، وحكمه هذا مبني على موقف العرب من إسرائيل،

وهو خلط متعمد بين معاداة السامية ومعاداة كيان صهيوني غاصب يشكّل خطراً على العرب والمسلمين .

٢٣. يتعمد لويس صدم القارئ الغربي -وهو ما يظهر جلياً في كتاب أين الخطأ-بفرضية وجود (لاءات) ثلاثة في فكر المسلم: لا تعايش، لا اعتراف، لا تعامل مع غير المسلمين، وأنّ المسلمين عنصريون لا يعترفون إلاّ بمن اعتنق الإسلام وتبنّى ثقافته.

٢٤. إنّ تأثر برنارد لويس ببيئته ومزاجه وفكره وثقافته ودينه، وصل به في دراسة بعض الفرق والنقابات الإسلامية إلى نتائج غير صحيحة، لأنّه وظّف المنهج الوصفي التحليلي في دراسته عبر تفتيت الظواهر الفكرية إلى عوامل نشوئها، وعناصرها الأولية مثل الظروف الاجتماعية أو الدينية أو السياسية، في حين أنّ الفرق الإسلامية لم تنشأ بسبب المعايير السياسية وحدها، لأنّ الدين الإسلامي لا يميّز بين العامل الديني وغيره من العوامل.

٢٥. يقر لويس بفشل بعض المستشرقين في اختبار الموضوعية، إذ يقول: إنّ بعض المستشرقين ينساقون وراء تعصّبهم خلف الصفحات المنقولة بالهوامش والاقتراسات، وهو بهذا القول إنما يدين نفسه، فقد وقع بالخطأ ذاته، حينما ابتعد عن الموضوعية وممارستها كدافع علمي.

٢٦. يُمارس لويس عملية السرد التاريخي للأحداث، إنّ السرد التاريخي للأحداث والأخبار وجمعها وتحقيقها لا يؤدي بنا إلى نتائج جديدة، لأنه ترديد للماضي، وهو ما يعاب على برنارد لويس في منهجه لدراسة التاريخ الإسلامي، وكان يجدر به إرجاع الظواهر الفكرية الإسلامية التي تناولها إلى أصولها التي خرجت منها لمعرفة كيفية ولادتها وخروجها منها.

٢٧. استغلّ لويس الاحتقان التاريخي الذي أصاب الشرق، وحوّله من ذات فاعلة إلى موضوع متداول، وكان لويس على قدر من الفهم لطبيعة التناقضات الثقافية والتاريخية العربية والإسلامية، إلاّ أن موقفه السياسي كان أكثر حدّة وتطرّفًا وتحريفًا للحقيقة.

٢٨. يعلّق برنارد لويس أمله على جملة من التوقعات، فهو يعتقد بأنّ الوضع في المنطقة ينبئ بحروب لن تتوقف أبداً، وأنّ الحرب القادمة ستكون حروب حول المياه، بعد نضوب النفط في المنطقة، كما أنّه يضع أملاً في تغيير المنطقة على إسرائيل وتركيا، فيما تغيّر المرأة المجتمع الشرقي، وإنّ التفكك هو مصير شعوب المنطقة، ونجد أيضاً الروح



"الحشاشية" المتخيّلة لبرنارد لويس حاضرة بقوة في نهج "داعش" التي شكّلت النموذج الأفضل المنسجم مع أفكار لويس.

٢٩. الملاحظ على برنارد لويس أنّه في تحليله لحقل من حقول المعرفة الإنسانية الشرقية أو التراث الإسلامي والعقيدة الإسلامية، يضع نصب عينيه مخططاً مسبقاً وهدفاً محدداً، قد توصل إليه أو فكّر به أثناء عملية جمعه المعلومات، أو عند استطلاع التاريخ الإسلامي، فهو يمارس الأفكار المسبقة مستنداً إلى أحداث وحقائق تاريخية من المصادر الإسلامية أو من كتابات المستشرقين السابقين.

٣٠. يمكن أن يدرك القارئ الحصيف المدقّق بكتابات لويس عن الإسلام والشرق، أنّ لويس كان يعيش حالة من المواجهة بينه وبين الآخر، يحاول الانتصار فيها بشتى الطرق، عن طريق نمطه السردى أو البناء التركيبي، أو الصور والموضوعات والأفكار التي يزرعها في أثناء النص، بهدف احتواء الشرق ومن ثمّ تمثيله بالشكل المطلوب والتحدّث نيابةً عنه.

٣١. على العلماء والباحثين والكتّاب الدفاع عن الإسلام، والقرآن الكريم، والدين الحنيف، والتصدي لهذا الزيف الفكري الاستشراقي وفضح المخططات العدائية الرامية الى تفتيت الإسلام وتسقيطه، والنيل منه، وضربه في الصميم، بصورة علمية منهجية بعيداً عن العاطفة والتشنج.

# المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: الكتب

١. أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد - حسن حنفي - عبدالله العروي: نديم قاسم نجدي، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م.
٢. أثر الفكر اليهودي في كتابة التاريخ الإسلامي: محمد زغروت، دار النشر الإسلامية ١٤٠٨ هـ.
٣. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير الاستشراق الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه دراسة منهجية شاملة للغزو الفكري: عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، ط ٨، ٢٠٠٠ م.
٤. الأحزاب السياسية ودورها في أنظمة الحكم المعاصرة: نعمان الخطيب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٣ م.
٥. الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف: سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٨ م.
٦. إدوارد سعيد ناقد الاستشراق قراءة في فكره وتراثه: خالد سعيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠١١ م.
٧. آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة ونقد: عمر بن إبراهيم رضوان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٩٢ م.
٨. أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المندس: برنارد لويس، تر: حازم مالك حسن، ميزوبوتاميا للطباعة والنشر بغداد، ط ١، ٢٠١٣ م.
٩. أساطير أوروبا عن الشرق - لقق تسد: رنا قباني، تر: صباح قباني، دار طلاس، سوريا، ط ٣، ١٩٩٣ م.
١٠. استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية: برنارد لويس، تعريب وتعليقات نقدية: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر، ط ٢، ١٩٨٢ م.
١١. الاستشراق أهدافه ووسائله: محمد فتح الله الزيايدي، دار قتيبة، ط ١، ١٩٩٨.
١٢. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: قاسم السامرائي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٨٣ م. الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين: مصطفى المسلاتي، منشورات دار اقرأ، طرابلس، ليبيا، ط ١، ١٩٨٦ م.
١٣. الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء: إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط ٧، ٢٠٠٥ م.
١٤. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.

## المصادر والمراجع

١٥. الاستشراق بين دعائه ومعارضيه: محمد أراكون وبرنارد لويس وآخرون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، ط٢، ٢٠٠٠م.
١٦. الاستشراق صور الشرق في الآداب والمعارف الغربية: ضياء الدين ساردار، ترجمة فخري صالح، هيئة ابوظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، ط١، ١٤٣٣هـ.
١٧. الاستشراق في أفق انسداده: سالم حميش، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الدراسات الرباط، ١٩٩١م.
١٨. الاستشراق في التاريخ الإشكاليات الدوافع التوجهات الاهتمامات: عبد الجبار ناجي، المركز الاكاديمي للأبحاث، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
١٩. الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي: محمد ابراهيم الفيومي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٢٠. الاستشراق ما له وما عليه (بين دعائه ومعارضيه) من رسالة لكلود كاهين يرد على انور عبد الملك رئيس تحرير مجلة ديوجين، دار الساقى ، بيروت ٢٠٠٠م.
٢١. الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: مازن مطبقاني، مطبوعات مكتبة الملك فهد، الرياض، ١٩٩٥م.
٢٢. الاستشراق والإسلام في المراجع العربية، علي إبراهيم النملة، بيسان، الرياض، ط١، ٢٠١٠م.
٢٣. الاستشراق والتاريخ الإسلامي القرون الإسلامية الاولى: فاروق عمر فوزي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط١، ١٩٩٨م.
٢٤. الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة: محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.
٢٥. الاستشراق والحوار الثقافي: ناديا انجيليسكو، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة ، ١٩٩٩م.
٢٦. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : محمود حمدي زقزوق، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٩٧م
٢٧. الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت، ط٢، ١٩٧٩م .
٢٨. الاستشراق والوعي السالب: خيرى منصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٩. الاستشراق وكتابة التاريخ : علي شعيب، الفكر العربي ، يناير ١٩٩٠م.
٣٠. إسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية: برنارد لويس ، ترجمة : سيد رضوان، المملكة العربية السعودية، الدار السعودية للنشر، ط٢، ١٩٨٢م.
٣١. الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام على عبد الواحد وافي ، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦م.

## المصادر والمراجع

٣٢. الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٣٣. الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية: برنارد لويس وادوارد سعيد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٣٤. الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة: محمد اركون، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٥. الإسلام الديمقراطي المدني: شيريل بينارد، تر: ابراهيم عوض، تنوير للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
٣٦. الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، دار العلم، ١٩٨٧م.
٣٧. الإسلام في التاريخ الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط: برنارد لويس، تر: مدحت طه، مر: أحمد كمال أبو المجد، آفاق للنشر القاهرة، ط١، ٢٠١٨م.
٣٨. الإسلام في تصورات الغرب: محمود زقروق، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
٣٩. الإسلام في الفكر الأوروبي: ألبرت حوراني، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤م.
٤٠. الإسلام في مرآة الغرب محاولة جديدة في فهم الإسلام كارين ارمسترونغ، تر: محمد الجوار، دار الحصاد، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٢م.
٤١. الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، دار الإرشاد بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
٤٢. الإسلام والغرب بين أساطير الصدام وحقائق الانسجام: بشار بكور، تقديم: عبد النبي أصطيف، ٢٠٠٨م.
٤٣. الإسلام والمستشرقون: عبدالجليل شلبي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٧م.
٤٤. الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر: مونتغمري وات، تر: عبدالرحمن عبد الله الشيخ، ١٩٦٨م.
٤٥. الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى: جوزيف نسيم، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، ط١ ١٩٨٦م.
٤٦. أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير: صلاح فضل وآخرون، مراجعة وتقديم: خالد الجبر، دار الفارس، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٠م.
٤٧. أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر مقاربات نقدية: علي حرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٤٨. الاشتراكية والإسلام: ر. جارودي، دار الطليعة، ١٩٧٠م.
٤٩. إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين: عادل عباس النصراوي، مطبعة الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

## المصادر والمراجع

٥٠. أصول الإسماعيلية بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية: برنارد لويس، تر: خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، تق: عبدالعزيز الدوري، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
٥١. الأصولية المسيحية والصحة الإسلامية: يوسف العاصي الطويل، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ٢٠١٧م.
٥٢. أضواء على الاستشراق والمستشرقين: محمد أحمد دياب، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٩ .
٥٣. إعجاز القرآن: محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر، ط٥، ١٩٩٧م.
٥٤. الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩م.
٥٥. اكتشاف المسلمين لأوروبا: برنارد لويس، تر: ماهر عبد القادر، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، ١٩٩٦م.
٥٦. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، دار الارشاد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
٥٧. الانزياح في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب، عباس رشيد الدده، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط١، ٢٠٠٩م
٥٨. الأنوار في سيرة سيد الأنام: فراس سليم الحسيني السامرائي، ط١، دار الرياحين للنشر والتوزيع، الحلة، العراق، ٢٠١٧م.
٥٩. أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة: هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
٦٠. أوروبا والشرق الأوسط الحديث: اليرت حوراني واخرون، مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٦م.
٦١. الأوضاع الاجتماعية التاريخية بالأندلس: ميغل كروث إيرناندث، محاضرات المؤتمر الدولي الأول الإسلامي المسيحي، قرطبة ١٠-١٥ سبتمبر ١٩٧٤م.
٦٢. أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين: برنارد لويس، ترجمة محمد عناني، تقديم: رؤوف عباس، اصدارات سطور، ط١، ٢٠٠٣م.
٦٣. أين هو الفكر الإسلامي: محمد اركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، ط١، ١٩٩٣م.
٦٤. برنارد لويس : سياف الشرق الأوسط ومهندس سايكس بيكو، عادل الجوجري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠١٣م.
٦٥. برنارد لويس صهيئة الغرب وتترك الإسلام: جهاد سعد، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، ط١، ٢٠١٨م.
٦٦. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٩٧٢م .
٦٧. بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي: بشرى موسى صالح ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط١، ٢٠١٢م.

## المصادر والمراجع

٦٨. البيان في تفسير القرآن: أبو القاسم الموسوي الخوئي ، أنوار الهدى، ط٨، ١٩٨١م.
٦٩. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق : مصطفى حجازي، راجعه: أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي ،مطبعة الكويت ،١٩٩٨م .
٧٠. تاريخ الادب العربي : أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة. د. ت.
٧١. تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لويمان، ترجمة يونس شريف، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٨م.
٧٢. تاريخ حركة الاستشراق : يوهان فوك، ترجمة :عمر لطفي، دار المدار الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٧٣. تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٤م.
٧٤. تاريخ القرآن: ثيودور نولدكه : مكتبة نيترديتش، ٢٠٠٦م.
٧٥. تاريخ اللغات السامية: إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ط١، ١٩٢٩م.
٧٦. تاريخية الفكر العربي الإسلامي: محمد اركون، دار الشروق، ٢٠٠٧م.
٧٧. التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي محمد وبلاد الإسلام : محمد عزت الطهطاوي، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠م.
٧٨. تحرير الوعي الاسلامي نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة : محمد اركون ، دار الطليعة بيروت، ٢٠١١م.
٧٩. التحقيق في كلمات القران الكريم: حسن المصطفوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.
٨٠. تحليل الخطاب السردى، عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٥م.
٨١. التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية: فيصل عباس، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٨٢. تحولات الفكر الفلسفي المعاصر أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل: عبد الرزاق بلعقروز، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩م.
٨٣. التراث والتجديد: حسن حنفي، مؤسسة هنداوي، ط٤، ٢٠١٩م.
٨٤. تراثنا بين ماض وحاضر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، معهد البحوث والدراسات، ١٩٨٦م.
٨٥. تصويب بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في الغرب: عبدالله محمد حريري منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، الرباط، ط١، ٢٠١٥م.
٨٦. تطور الصراع الغربي مع الإسلام: محمد الفيومي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.
٨٧. تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون، هاراد موللر، تر: إبراهيم أبو هشيش، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

## المصادر والمراجع

٨٨. تعقيبات على الاستشراق: إدوارد سعيد، تر: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٦.
٨٩. تغطية الإسلام: إدوارد سعيد، ترجمة سمير خوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٣.
٩٠. تفكيك الاستشراق: صلاح الجابري، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط ١، ٢٠٠٥م.
٩١. تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٤م.
٩٢. التناص ومرجعياته في نقد ما بعد البنيوية في الغرب: اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ٢٠١٠م.
٩٣. التهديد الاسلامي خرافة أم حقيقة: جون اسبوزيتو، ترجمة قاسم محمد قاسم، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م.
٩٤. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ترجمة: حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٩٠م.
٩٥. تيار الاستشراق الجديد والإسلام من الشرق الشيوعي إلى الشرق الإسلامي: أوليفيه موس، تر: عومرية سلطاني، مكتبة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٠م.
٩٦. جاذبية الاسلام: مكسيم رودنسون، ترجمة الياس مرقص، دار التنوير، ط ٢، ٢٠٠٥م.
٩٧. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: مؤسسة الرسالة - ط ١، ٢٠٠٦م.
٩٨. جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان: أبكر آدم اسماعيل، ط ٢، منظمة حقوق الإنسان والتنمية، الخرطوم، ٢٠١٥م.
٩٩. جذور الغضب الإسلامي: برنارد لويس، تر: عبد الباسط منادي ادريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ٢٠١٨م.
١٠٠. جزيرة العرب: جان جاك بيربي، ترجمة: نجدة هاجر وسعيد الغر، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦٠م.
١٠١. جمع القرآن الكريم عند المستشرقين جون جلكريست أنموذجا: رباح صعصع الشمري، دار الكفيل للطباعة والنشر: ط ١، ٢٠١٤م.
١٠٢. جمع القرآن من وجهة نظر بلاشير: تر: محمود راميار، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، ١٣٦٣هـ.ش.
١٠٣. الحركة الاستشراقية مراميها وأغراضها: رشيد العبيدي، أنوار دجلة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٣م.
١٠٤. حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.
١٠٥. حقائق أساسية في الإيمان المسيحي: القس فايز فارس، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م.



## المصادر والمراجع

١٠٦. حقائق هامّة حول القرآن الكريم: جعفر مرتضى العاملي، دار الصفوة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.
١٠٧. حوار الحضارات تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا: عبدالله صالح أبو بكر، هيئة الاعمال الفكرية، الخرطوم، ط٢، ٢٠٠٥م.
١٠٨. حول الاستشراق الجديد مقدمات أولية: عبد الله عبد الرحمن الوهبي، البيان للبحوث والدراسات، الرياض، ط١، ١٤٣٥ هـ.
١٠٩. خرافة الإسلاموفوبيا: الدراجي زروخي، منشورات مخبر الدراسات الأنثروبولوجية، ط١، ٢٠٢١م.
١١٠. خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر معالم في مشروع آخر: سهيل الحبيب، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٨م.
١١١. الخلافة الإسلامية: محمد سعيد العشماوي، سينا للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
١١٢. الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية: إدريس مقبول، د.ت، د. ط.
١١٣. الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية: مصلح النجار وآخرون، ط١، الأردن، ٢٠٠٨م.
١١٤. الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
١١٥. الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: رودى بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
١١٦. دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمها: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٩م.
١١٧. دراسات في الأدب العربي: غوستاف فون غرنباوم، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م.
١١٨. دراسة في السيرة: عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ.
١١٩. دراسة المعنى عند الأصوليين: طاهر سليمان حمودة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م.
١٢٠. دلالة الألفاظ: د. ابراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م.
١٢١. دليل أكسفورد للفلسفة: تد هوندترتش، ترجمة: نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، ٢٠٠٣م.
١٢٢. دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: سمير الخليل، مر: سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤م.
١٢٣. دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٢م.

## المصادر والمراجع

١٢٤. دور الأديان في السلام العالمي: د. محمد سعيد رمضان و هانز كينغ، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠١١ م.
١٢٥. دولة الاسماعيلية في ايران: محمد السعيد جمال الدين، دار الثقافة، ١٩٩٩ م.
١٢٦. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: عبد العزيز محمد الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠ م.
١٢٧. رحلة الى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي: ديدويه، ترجمة: محمد خير البقاعي، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ٢٠٠١ م.
١٢٨. الرحلة والنسق دراسة في انتاج النص الرحلي، بو شعيب الساوري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧ م.
١٢٩. رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، المنتدى الإسلامي، لندن، ط ٢، ١٤١١ هـ .
١٣٠. السرد العربي مفاهيم وتجليات: د. سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦ م.
١٣١. الشخصية في قصص الأمثال العربية: ناصر العجيلان، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩ م.
١٣٢. الشرق المتخيّل رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي: تيري هنتش، ترجمة غازي برو و خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٤ م.
١٣٣. صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي: صامويل هنتغتون، تر: طلعت الشايب، سطور، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩ م.
١٣٤. الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية: أبي الحسن الندوي، مطبعة التقدم، ط٣، ١٩٧٧ م.
١٣٥. صراع التأويلات دراسة هيرمنوطيقية: بول ريكور، تر: منذر عياش، دار الكتاب الجديدة، طرابلس، ط١، ٢٠٠٥ م.
١٣٦. صناعة الآخر، المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا: المبروك الشيباني المنصوري، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٤ م.
١٣٧. صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها: علي إبراهيم النملة، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨ م.
١٣٨. صهينة الغرب وتترك العالم الإسلامي: جهاد سعد، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، ط١، ٢٠١٨ م.
١٣٩. صورة الآخر في التراث العربي: ماجدة حمود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠ م.
١٤٠. صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي : سعد فهد الذويح، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٩ م.

## المصادر والمراجع

١٤١. صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ريتشارد سوزنر، ترجمة وتقديم: رضوان سيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٤٢. صورة العالم الإسلامي في أوروبا: مكسيم رودنسون، دار الطليعة، ١٩٧٠م.
١٤٣. طبقات المستشرقين: عبد الحميد صالح حمدان، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٩م.
١٤٤. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٤، ٢٠٠٠م.
١٤٥. العرب في التاريخ: برنارد لويس، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤م.
١٤٦. العقل العربي وإعادة التشكيل: عبد الرحمن الطرييري، مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، ط١، ١٩٩٣م.
١٤٧. عقيدة التثليث عند النصارى عرض ونقض: إعداد: نظير محمد عماد، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، د.ت.
١٤٨. العقيدة والشريعة في الإسلام تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الإسلام: إيجناس جولدتسيهر، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد يوسف موسى وآخرون، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م.
١٤٩. العقيدة والشريعة في الإسلام: إيجناس جولدتسيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى وعلي حسن وعبد العزيز عبد الحق، طبع الهيئة العامة للمطابع الاميرية، القاهرة، ٢٠١٣م.
١٥٠. علم الاكتناه العربي الإسلامي: قاسم السامرائي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠٠١م.
١٥١. علم الدلالة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٤م.
١٥٢. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
١٥٣. غرامشي حياته وأعماله: جون كاميت، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت.
١٥٤. الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، إعداد: علي عبد الحليم محمود، بحوث المؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، طباعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، الرياض، ١٩٨١م.
١٥٥. غوستاف لوبون في الميزان: شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٥٦. الفتنة والآخر أنساق الغيرية في السرد العربي: شرف الدين ماجدولين، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٢م.
١٥٧. الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه: محمد الدسوقي، مؤسسة التوحيد للنشر الثقافي، قم - ايران، ط١، ١٩٩٦م.

## المصادر والمراجع

١٥٨. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، مكتبة وهبة القاهرة، ط ١٢، ١٩٩١م.
١٥٩. الفكر الإسلامي في مواجهة الحضارة الغربية: محمد الشفاقي، ج ١، ١٩٩٥م.
١٦٠. الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه: محمود عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ١، د.ت.
١٦١. فلسفة الاستشراق في ضوء فكر القرن الواحد والعشرين: جمال الدين فالح الكيلاني، مراجعة: كمال مظهر أحمد، مكتبة المصطفى للنشر، القاهرة، ٢٠١١م.
١٦٢. فلسفة الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر: أحمد سمايلوفيتش، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.
١٦٣. فلسفة الفن في الفكر المعاصر: زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة ، ١٩٨٨م.
١٦٤. الفهرست: محمد بن إسحاق النديم، تح: أيمن فؤاد، دار المعرفة بيروت، ٢٠٠٩م.
١٦٥. فويبا الإسلام والسياسة الإمبريالية: ديبا كومار، تر: أماني فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٥م.
١٦٦. في الخطاب والمصطلح الصهيوني: عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٥م.
١٦٧. في نقد الاستشراق: محمد المزوعي، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٧ م.
١٦٨. قاموس الكتاب (المقدس): بطرس عبد الملك وآخرون، دار الثقافة ، القاهرة، ط ١١، ١٩٩٧م.
١٦٩. القاموس المحيط: محمد ابراهيم الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
١٧٠. قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي: فاروق عمر فوزي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
١٧١. قراءة النص وسؤال الثقافة استبدال الثقافة ووعي القارئ بتحويلات المعنى: عبد الفتاح أحمد يوسف، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م.
١٧٢. قراءة في نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني أنموذجا: حكيمة دريسي، دار البشير للثقافة والعلوم، ط ١، ٢٠٢٠م.
١٧٣. قرصنة وأباطرة الإرهاب في العالم الحقيقي: نعوم تشومسكي، تر: قسم الدراسات في دار حوران للطباعة والنشر، سوريا، ط ١، ١٩٩٦م.
١٧٤. القرآن الكريم في الفكر الاستشراقي المعاصر مقاربات نقدية لموسوعة القرآن (ليدن) مجموعة مؤلفين، العتبة العباسية المقدسة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، ط ١، ٢٠٢١.
١٧٥. القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله تدوينه وجمعه، مشتاق بشير الغزالي دار النفائس سوريا ، ط ١، ٢٠٠٨ م.

## المصادر والمراجع

١٧٦. القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ريجيس بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
١٧٧. القرنان السادس عشر والسابع عشر: رولان موسنييه، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، المجلد الرابع، سلسلة: تاريخ الحضارات العام، إشراف: موريس كروزيه، منشورات عويدات، بيروت، باريس.
١٧٨. قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم: محمد أركون، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت.
١٧٩. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، د.ت.
١٨٠. الكليات: أبو البقاء الكفوي، بيروت، ١٩٩٢ م.
١٨١. كنه الاستشراق المفهوم الاهداف الارتباطات: علي إبراهيم النملة، دار بيسان للنشر والتوزيع بيروت، ط٣، ٢٠١١م.
١٨٢. لسان العرب: ابن منظور الافريقي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م.
١٨٣. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة: عبد الفتاح احمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠ م.
١٨٤. لغة الإسلام السياسي: برنارد لويس، ترجمة عبد الكريم محفوض، تقديم طيب تيزيني، دار جفرا للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠١م.
١٨٥. لغة السياسة في الإسلام، برنارد لويس، ترجمة ابراهيم شتا، دار قرطبة للنشر والتوثيق، دمشق، ١٩٩٣م.
١٨٦. لمحات من الثقافة الاسلامية: عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٧٩م.
١٨٧. ما بعد الاستشراق - الغزو الامريكي للعراق وعودة الكولونيات البيضاء: فاضل الربيعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
١٨٨. ما بعد الإسلام السياسي مرحلة جديدة أو أوهام أيديولوجية: محمد أبو رمان، مؤسسة فريدريتش ايبرت، عمان، ٢٠١٨
١٨٩. المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي: الميلودي شغموم، مطبعة فضالة، المغرب، ط١، ١٩٩١م.
١٩٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه: احمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د.ت.
١٩١. مجمع البيان في تفسير القرآن: ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار العلوم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥ م.

## المصادر والمراجع

١٩٢. مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرّها المجمع، مجمع اللغة العربية، المطابع الاميرية القاهرة، ١٩٧٩م.
١٩٣. محمد النبي ورجل الدولة: مونتغمري وات، تر: حمّود حمّود، دار التكوين، دمشق ٢٠١٤ م.
١٩٤. محمد في مكة: مونتغمري وات، ترجمة عبد الرحمن الشيخ و حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.
١٩٥. المخاتلة السردية تمثلات ثقافة الهامش في السرد الروائي: علاء عبد المنعم إبراهيم، مجلة العمدة الدولية، مج ٣، ع ٣٤، ٢٠١٩م.
١٩٦. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٨م.
١٩٧. المخفي أعظم رؤية ذاتية وقراءات نقدية: هاشم غرابية، دار الكندي للنشر، الأردن، ط ١، ١٩٩٩م.
١٩٨. مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن المنطلقات المرجعيات: حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٧م.
١٩٩. مذاهب التفسير الإسلامي: إيجناس جولدتسيهر، ترجمة: علي حسن عبد القادر، تعليق: عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٠٠. المرأة واللغة: عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٦م.
٢٠١. مرجعيّات بناء النص الروائي: عبد الرحمن التمار، ورد الأردنية للنشر، عمان، ط ١، ٢٠١٣م.
٢٠٢. مرجعيّات الجماعات - المرجعيّات وأثرها في تقرير توجهات الافراد، محمود شمال حسن، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٠م.
٢٠٣. المركز والهامش في الثقافة العربية: اعداد مجموعة من الاساتذة الجامعيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، صفاقس تونس، ١٩٩٥م.
٢٠٤. المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات: عبد الله ابراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٧م.
٢٠٥. مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٦م.
٢٠٦. المستشرقون: نجيب العقيقي، دار المعارف، مصر، ط ٣، ١٩٦٤ م.
٢٠٧. مستشرقون في علم الآثار: محمد الأسعد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
٢٠٨. المستشرقون والتصوير: علي بن إبراهيم النملة، مكتبة التوبة، الرياض، ط ١، ١٩٩٨م.
٢٠٩. المستشرقون والدراسات القرآنية: محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

## المصادر والمراجع

٢١٠. المستشرقون والسيرة النبوية: عماد الدين خليل بحث مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٢١١. المستشرقون والقرآن الكريم: محمد امين حسن محمد بن عامر، دار الامل للنشر والتوزيع، الاردن، ط١، ٢٠٠٤ م.
٢١٢. المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الاول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية، ١٩٨٦، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية.
٢١٣. المسيحية: أحمد شلبي، مكتبة النهضة، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٨ م.
٢١٤. المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزية الثقافية: عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ م.
٢١٥. معجم الدخيل في اللغة العربية ولهجاتها: ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠١١ م.
٢١٦. المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ م.
٢١٧. معجم اللغة العربية المعاصرة: احمد مختار عمر، دار الكتب، ٢٠٠٨ م.
٢١٨. معجم المصطلحات الأدبية: سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م.
٢١٩. معجم المصطلحات السياسية: معهد البحرين للتنمية السياسية، سلسلة كتب ٢٠١٤ م.
٢٢٠. معجم المصطلحات السياسية، وضاح زيتون، دار أسامة للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٤ م.
٢٢١. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة و كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤ م.
٢٢٢. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤ م.
٢٢٣. معجم متن اللغة : الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٨ م.
٢٢٤. معجم مصطلحات الثقافة: طوني بنيت ولورانس غروسبيرغ، ترجمة سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط١، ٢٠١٠ م.
٢٢٥. المفصل في تاريخ الأدب العربي: احمد الاسكندري واخرون، دار احياء العلوم بيروت، ط١، ١٩٩٤ م.
٢٢٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ط٢، ١٩٩٣ م.
٢٢٧. مفهوم المخيال عند محمد أركون: محمد الشبة، دار الأمان، لبنان، ط١، ٢٠١٤ م.
٢٢٨. مقالات في الاستشراق: مازن مطبقاني، ٢٠١٣ م.
٢٢٩. مقاييس اللغة : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م.

## المصادر والمراجع

٢٣٠. مقدمتان في علوم القرآن : العاصمي ، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٤م.
٢٣١. مكونات الأدب المقارن في العالم العربي: سعيد علوش، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب العالمي، ط١، ١٩٨٧م.
٢٣٢. الملل والنحل: أبي الفتح محمد عبد الكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨م.
٢٣٣. من آفاق الاستشراق الأمريكي المعاصر: مازن صلاح مطبقاني، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ.
٢٣٤. من بابل إلى الترجمة تفسير الشرق الأوسط: برنارد لويس، ترجمة وتقديم: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
٢٣٥. من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة - دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة: عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٧م.
٢٣٦. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية: مجموعة من المؤلفين، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، ١٩٨٥م.
٢٣٧. المنجد الوسيط في اللغة العربية المعاصرة: انطوان نعمة وآخرون، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٣٨. المنجد في اللغة والاعلام : دار المشرق، بيروت، ط٣٣: ١٩٩٢م.
٢٣٩. منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية: محمد محمد أمزيان ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية ، سلسلة الرسائل الجامعية، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
٢٤٠. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي: عبد العظيم الديب ،سلسلة كتاب الأمة، ط١، مطابع مؤسسة الخليج ، قطر ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤١١هـ.
٢٤١. المهمشون بين الفئات الدنيا في القوى العاملة: عادل عازر وثروت اسحاق، المركز القومي للبحوث، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.
٢٤٢. الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة: ناصر العقل وناصر القفاري، دار الصميعي، الرياض، ١٤٣٣ هـ .
٢٤٣. موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي: مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحرير: عامر عبد زيد الوائلي وطالب محيبيس الوائلي، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م.
٢٤٤. الموسوعة الإسلامية الميسرة، هاملتون جب وكالمرز، تر: راشد البراوي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٥م.



## المصادر والمراجع

٢٤٥. موسوعة السياسة: عبد الوهاب الكيالي وآخرون، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م.
٢٤٦. الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة، لبنان، ١٩٨٠م.
٢٤٧. موسوعة العلوم الاجتماعية: ميشيل مان، ترجمة عادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩.
٢٤٨. موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
٢٤٩. موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الانسانية والفلسفة: محمد سبيلا، نوح الهرمزي، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الانسانية، المغرب، ط١، ٢٠١٧م.
٢٥٠. موسوعة علم الاجتماع: جوردن مارشال، ترجمة: محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، ٢٠٠٧م.
٢٥١. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.
٢٥٢. نظرة في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، محمد توفيق صدقي، مكتبة الناظفة، د.ت.
٢٥٣. النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس: إيان كريب، ترجمة محمد حسين غلوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع ٢٤٤، ١٩٩٩.
٢٥٤. النظرية والنقد الثقافي: محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.
٢٥٥. نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية: عبد الاله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
٢٥٦. النقد الثقافي بين العلم والمنهج قراءة في كتاب عبدالله الغدامي: منذر العياشي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٢٥٧. النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي: عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.
٢٥٨. النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي العراق أنموذجاً: عبد الرحمن عبد الله، مطبوعات بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣م.
٢٥٩. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبد الله الغدامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م.
٢٦٠. نقد الحقيقة: علي حرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٢٦١. نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.

## المصادر والمراجع

٢٦٢. نقد الخطاب الاستشراقي مازن مطبقاني نموذجاً: حكمة دريسي، دار البشير للثقافة والعلوم، ط١، ٢٠٢٠ م.
٢٦٣. نقد الخطاب الاستشراقي: ساسي سالم الحاج، دار المدى الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٢ م.
٢٦٤. الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيو ثقافية: هويدا صالح، رؤية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٥ م.
٢٦٥. الهويات المتعددة للشرق الأوسط: برنارد لويس، تر: حسن كامل بحري، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٦ م.
٢٦٦. الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان: محمود شريف بسيوني، مج٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
٢٦٧. وجهة الإسلام: هاملتون جب، ولويس ماسينيون، ترجمة محمد عبد الهادي، المطبعة الإسلامية، د.ت.
٢٦٨. وجهة العالم الإسلامي: غوستاف لوبون، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠ م.
٢٦٩. الوحي والقرآن الكريم: محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٦ م.
٢٧٠. الوثائق بين السريانية والعربية: بنيامين حداد، هيئة اللغة السريانية في المجمع العلمي، منشورات المجمع العلمي، ٢٠٠٠ م.
٢٧١. اليهود في ظل الإسلام: برنارد لويس، ترجمة حسن احمد بسام، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٥ م.

### ثانياً: الرسائل والأطاريح

١. الآخر الديني في الشعر الاندلسي: حسنين عماد عبد الله، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٣ م.
٢. الأنساق الثقافية في كتاب الأغاني رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، ٢٠١٣ م.
٣. ثقافة الهامش في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية المغارة الثانية لوسيلة: بن عراب عزيز و بوعظم عبد الفتاح، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحيى- جيجل، الجزائر، ٢٠١٨.
٤. خطاب المركز والهامش في الرواية الجزائرية باللغات العربية، الامازيغية، الفرنسية من منظور النقد الثقافي: ذهبية أشابوب، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي أوزو، الجزائر، ٢٠٢١ م.

## المصادر والمراجع

٥. ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبد الله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة قطر، ٢٠٢١.
٦. القراءة الاستشرافية للنص القرآني دراسة معرفية: موسى خابط عبود القيسي، أطروحة دكتوراه، جامعة بابل كلية التربية للعلوم الانسانية، ٢٠١٢ م.
٧. قصيدة النثر العراقية دراسة في الأنساق الثقافية: هيثم كاظم صالح، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٥ م.
٨. المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوي: جيجخ صورية، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٦ م.
٩. المركز والهامش في أدب عيسى لحيلح: دليلة الباح، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠١٦ م.
١٠. المركز والهامش في المجموعة القصصية قصص خارج السياق لسعيد شمش قراءة في التجليات: غطوط سعاد، رسالة ماجستير، جامعة جيجل، الجزائر، ٢٠٢٠ م.
١١. منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الجوانب الفكرية في التاريخ الاسلامي: مازن مطبقاني، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد بن سعود، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤ هـ.
١٢. هاملتون جب دراسة نقدية لتطور مواقفه من التاريخ والحضارة العربية الاسلامية، ناصر عبد الرزاق الملا جاسم: أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، ١٩٩٨ م.

### ثالثاً: المجلات والدوريات

١. الآخر في الأدب العربي الحديث - نقد لنظرية ما بعد الاستعمار: كريستينا فيلبس، ترجمة: خيرى دومة، مجلة نزوى: العدد ٨٦، ابريل ٢٠١٦
٢. استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي: عبد الفتاح أحمد يوسف، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٣٦، ٢٠٠٧ م.
٣. الاستشراق: خير الله رشك سعيد، مجلة دراسات عربية، مج ٢٦ العدد ٩ يوليو ١٩٩٠ م.
٤. الاستشراق أخطر تحد للإسلام: شاكر عالم شوق، مجلة دراسات، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ بنغلادش، مج ٣، ديسمبر ٢٠٠٦ م.
٥. الاستشراق الجديد صراع مصالح أم صراع حضارات: وفاء مرزوق، ثقافات إلكترونية، ٢٠١٤ م.
٦. الاستشراق المعاصر وأثره في ظاهرة التناول على الإسلام: مازن مطبقاني، مجلة البيان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية السعودية، اعمال مؤتمر تعظيم حرمان الإسلام، ٢٠٠٧ م.
٧. الاستشراق بين النشأة والأهداف: اسماعيل عبد الفتاح مصطفى، مجلة (حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية) جامعة الأزهر، العدد ٨، ٢٠١٦ م.

## المصادر والمراجع

٨. الاستشراق في الأدبيات العربية: علي إبراهيم النملة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مجلة المشكاة المغربية، العدد: ٢٩، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٩. الاستشراق قراءة في المنهج وقصدية الخطاب: فارس عزيز المدرس وزاهدة الشيخ، مجلة آداب الرافدين، العدد ٦٠، ٢٠١١م.
١٠. استشراق مستحدث الإسلاموفوبيا بما هي أطروحة أيديولوجية ما بعد حداثة: محمود حيدر، مجلة دراسات استشراقية، العدد الثالث، شتاء ٢٠١٥م.
١١. الاستشراق والتطرف: حسن أحمد الهادي، مجلة دراسات استشراقية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد ٢٧، السنة ٢٠٢١م.
١٢. الاستشراق وبواعثه وماله وما عليه: يوسف عز الدين، مقال منشور في مجلة المشكاة المغربية، العدد ٢٩، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
١٣. الاستشراق ومملكة التطرف: محمد سعدون المطوري، مجلة دراسات استشراقية، العدد ٦، شتاء ٢٠١٦م.
١٤. الإسلام والشعر: سامي مكي العاني، سلسلة ثقافية شهرية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٦٦، آب ١٩٩٦.
١٥. الإسلاموفوبيا رؤية الآخر الإسلامي من منظور غربي: خلف محمد عبدالسلام، مجلة كلية الآداب والعلوم السياسية، جامعة السويس، مصر، ع ٢٥، ٢٠١٨م.
١٦. الأسلوبية والنص الأدبي: حسين بو حسون، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد ٣٧٨، تشرين الأول، ٢٠٠٢م.
١٧. إسهامات النقد الثقافي في إحلال التقارب بين ثقافة المركز والهامش: صالح جديد، مجلة كلية الآداب جامعة خنثلة، العدد ١، ٢٠١٥م.
١٨. اشكالية المركز والهامش في الأدب: عبد الرحمان تبرماسين وصورية جيجخ، مجلة أبحاث في اللغة والأدب العربي، جامعة بسكرة، الجزائر، ع ١٠، ٢٠١٤م.
١٩. الأنا والآخر في شعر المتنبي دراسة في اشكالية الظاهرة: مفلح الحويطات، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج ٣٣، ع ١٣١، ٢٠١٥م.
٢٠. تجليات الإسلاموفوبيا في خطابات الوسائط الاعلامية الفرنسية: رابح الصادق، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، ع ٣٠، ٢٠٠٨م.
٢١. الثقافة العربية بين المركز والهامش والصراع مع الآخر: صورية جيجخ، مجلة قراءات جامعة بسكرة، الجزائر، العدد التاسع، ٢٠١٦م.
٢٢. جدلية الآخر والنسق الثقافي في الشعر العراقي (١٨٧٥-١٩٤٠): د. جاسم حميد جودة الطائي، حسنين عماد الطائي، مجلة كلية التربية الأساسية جامعة بابل، العدد ٤٣، نيسان، ٢٠١٩م.

## المصادر والمراجع

٢٣. جمع القرآن الكريم وموقف المستشرقين منه: حكمت عبيد الخفاجي، عصام هادي كاظم، مجلة دراسات استشرافية، العدد ٢١، شتاء ٢٠٢٠ م.
٢٤. الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي: علي الشامي، مجلة: الفكر العربي بيروت العدد ٣١، السنة الخامسة، مارس ١٩٨٣ م.
٢٥. حوار الثقافة والقيم والمُجتمعات النَّقَافِيَّة: عبدالله ابراهيم، ثقافتنا للدراسات والبحوث، مج ٥، العدد ١٧، ٢٠٠٨ م.
٢٦. الخلفية التاريخية للاستشراق ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي: محمد بركات البيلي، مجلة المنهل العدد ٤٧١، السنة ٥٥، إبريل ومايو ١٩٨٩ م.
٢٧. الخلفية الدينية والفكرية للمستشرقين في دراستهم للإسلام دراسة تحليلية: محمد سعيد السرحاني، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، العدد ٣، مج ٢٩، ٢٠٢١ م.
٢٨. الدوافع الدينية للاستشراق: محمد ياسين عريبي، مجلة رسالة الجهاد، ٨٤ع، السنة الثامنة، ١٩٩٠ م.
٢٩. الشيوعية والإسلام في العالم، برنارد لويس، مجلة شؤون، العدد ٣٠، ١٩٥٤ م.
٣٠. صورة الاسلام في أمريكا الجذور والحاضر: علاء بيومي، جريدة الوطن المصرية، ٢٠٠٤/٦/٩ م.
٣١. صورة المركز والهامش في الخطاب الروائي النسوي الجزائري المعاصر (نادي الصنوبر) لربيعة جلطي أنموذجاً: فتيحة شفييري، مجلة المدونة، المجلد ٨، العدد ٣ سبتمبر ٢٠٢١ م.
٣٢. طريق على خريطة الأزمة: محمد حسنين هيكل، الأهرام، ١٠ مارس، ١٩٧٠ م.
٣٣. العولمة والاقتصاد غير الرسمي، ابراهيم التوهامي وآخرون، مجلة الانسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٤ م.
٣٤. الغرب والإسلام (حوار أم صراع): زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهريين، بغداد، ٢٠٠٩ م.
٣٥. قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبدالله الغدامي: يوسف حامد جابر، مجلة دراسات اللغة العربية وآدابها، العدد ٩، ربيع ٢٠١٢ م.
٣٦. القضايا الكبرى في كتابات إدوارد سعيد: عبد القادر بو عرفة، مجلة دراسات استشرافية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد ٢٩، السنة ٢٠٢٢ .
٣٧. لقد ربح الغرب: فرنسيس فوكوياما، ترجمة ايلي شلهوب، صحيفة غارديان، ٢٠٠١/١٠/١١، عبر صحيفة السفير، بيروت، ٢٠٠١/١٠/١٣، العدد ٩٠٢٨.
٣٨. لويس بطريك الاستشراق: خليل الصغير، مقالة منشورة في دراسات عربية، العدد ٤، الأحد، ٢٦ ك ١، ٢٠٠٤ م.

## المصادر والمراجع

٣٩. المركز والهامش في الأدب: حنان بن قيراط، جامعة عبد الحميد بن باديس، كلية العلوم الاجتماعية، مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي، الجزائر، مج ٦، العدد ١، ٢٠١٦م.
٤٠. المركز والهامش في الخطاب الغربي الدوافع والبدائل: مخلوف عباس وبن برة عبد السلام، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، العدد ٩، ٢٠٢١ م.
٤١. المركز والهامش في الشعر الجاهلي دراسة نقدية بين الفحولة والأنوثة: إيمان محمد إبراهيم، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ١٧، السنة ٧، ٢٠١٥م.
٤٢. المركز والهامش في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي في ضوء سيمياء الثقافة: زاهي نجيب رشيد، اتحاد الجامعات العربية، الجمعية العلمية لكليات الآداب، الاردن، مج ١٦، العدد ٢، ٢٠١٩م.
٤٣. المسار الفكري للاستشراق: آصف حسين، تر: مازن مطبقاني، مجلة جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ٧ع: ١٤١٣هـ.
٤٤. المستشرق برنارد لويس ومنهجه في دراسة التاريخ الإسلامي: صبحي عبد المنعم محمد، مجلة كلية دار العلوم، العدد ١٣، يونيو ٢٠٠٨ م.
٤٥. المعايير الاخلاقية وحقوق الانسان في ضوء التطورات الدولية الراهنة : د. سلمان الجميلي، مجلة قضايا سياسية ، كلية العلوم السياسية ، جامعة النهريين ،بغداد، المجلد الثالث، العدد ١٨، ٢٠٠٩م.
٤٦. المعرفة الاستشراقية دراسة في علم اجتماع المعرفة، مجلة العلوم الاجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة الكويت، المجلد ١٧، العدد ٣. خريف ١٩٨٩م.
٤٧. نحو حوار بناء بين الحضارات مبادئ الحوار الإسلامي المعاصر في التعامل مع الحضارة الغربية: فهمي هويدي، الوعي الإسلامي، ع ٤٧٦، ٢٠٠٩م.
٤٨. النقابات الإسلامية: برنارد لويس، ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة الرسالة، القاهرة السنة الثامنة، العدد ٣٦٢، ١٠/مايو/١٩٤٠.
٤٩. نهاية الاستشراق: وليد نويهض، جريدة الحياة، العدد ١١٥٤٥ ، الثلاثاء ٢٧ أيلول ١٩٩٤م.
٥٠. يخوفون الغرب بالإسلام؟ مازن مطبقاني، مجلة المسلمون، عدد ٣٠٧، ٢١/١٢/١٩٩٠م.
- رابعاً: مواقع شبكة المعلومات الدولية الانترنت
١. أدب الهامش نسق الهيمنة مركزية الخاصة وهامش العامة: جمال مجناح، <https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html>
٢. إسلام أون لاين <https://islamonline.net/> برنارد لويس المعرفة في خدمة الامبريالية، فاطمة حافظ.

## المصادر والمراجع

٣. تأثير الاستشراق في الفكر والثقافة العربية والاسلامية: محمد بن صالح العلي ، مقال شؤون خليجية : <https://gulfaaff.wordpress.com/2016/01>
٤. تركة برنارد لويس الملتبسة: مارتن كرامر، نقله الى العربية: عبد الرحمن ابو ذكري : [www.nama-center.com](http://www.nama-center.com)
٥. التهميش الاجتماعي أبعاد الظاهرة ودلالاتها ، الحوار المتمدن ، جواد بشارة، العدد ١٣٧٥، [www.alhewar.org](http://www.alhewar.org) في ١١/١١/٢٠٠٥.
٦. ردود على شبهات المستشرقين: د. يحيى مراد، كتاب منشور في موقع كتب عربية على شبكة الانترنت <https://www.kotobarabia.com>
٧. الرؤية الاستشراقية الأمريكية للإسلام: ريتا فرج ، صحيفة القدس العربي، ٩ حزيران - ٢٠٠٨ <https://www.alquds.co.uk/>
٨. صحيفة الحوار المتمدن - العدد ١٦١٥، ٢٠٠٦ <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp>
٩. قاموس المورد البعلبكي، : ويكيبيديا <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
١٠. قراءة النسق والسباق، مُحَمَّد زِيَّان، مقال <https://www.djazairress.com/djazairnews/>
١١. المرجعيات ودورها في تشكيل المصطلح بين الرؤية التراثية والحداثة الغربية: شادلي عمر، بحث منشور، ٢٠١٣ : <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=38065>
١٢. مقال بعنوان: عن برنارد لويس، مروان قبلان، موقع العربي الجديد. <https://www.alaraby.co.uk/>
١٣. من حوار حول الواقع المعاصر للدراسات الاستشراقية مع المستشرق الألماني د. ميكوش موراني [www.tafsir.net](http://www.tafsir.net) 7/2/2005
١٤. المهمشون في الأدب: سعاد العنزي، مقال، جريدة عمان، ٨/ فبراير / ٢٠١٤، الموقع الإلكتروني: <https://alantologia.com/blogs/42808> الأنطولوجيا، الهامشيون ١٣/٤/٢٠٢١.
١٥. موسوعة مداد على الانترنت. <https://midad.com/article/214148/>
١٦. موسوعة المعرفة <https://www.marefa.org>
١٧. موسوعة ويكيبيديا على الانترنت <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

## Abstract

---

### **Abstract:**

This study falls within the field of cultural criticism, based on the reading of the implicit in the discourse, and the migration of the classical approach in text criticism, cultural criticism works to transform the critical reader from a mere cultural creation controlled by closed formats and directing their movement, to an active element and examiner of each text according to strict methodological controls.

This study seeks to uncover the issues of (center) and (margin) in Orientalist thought, and highlight their manifestations in the writings of the Anglo-American orientalist Bernard Lewis, and analyze his Orientalist culture to identify the hidden aspects behind them, and show the underlying ones, which targeted the East in general and Islam in particular, if we note that the center is fixed in a culture in the relative sense of a fixed concept.

This is formed by the consolidation of beliefs, philosophies, customs and traditions, while the margin is what lies outside the periphery of the intellectual circle, it is the thought and discourse of the isolated minority outside the scope of the dominant culture, it is a cultural study that tries to answer many



## Abstract

---

questions, perhaps the most important of which is: How does the West view Islam?

This study represents a critical step that undertakes the central Western discourse, and confronts it with some shocking detection of implicit patterns and bringing them out into the open, as it works on presenting the center and marginal formats in order to undermine the falsity of central Western discourses, and the grand narratives that dominate the Western imaginary, and the Western colonial media machine, which portrays the Muslim (the other) as backward, bloody, violent, with an exclusionary thought, who does not believe in dialogue and coexistence with the opposite, and to show the marginal in the orientalist discourse and reveal what was hidden from it behind the center's discourses, as the process of Polarization and conflict between the center and the periphery.

The study comes in response to the orientalist central discourse, and to prove that orientalism is only a weapon in the hands of the West, not just science, to impose the hegemony of the Western ego on the Eastern other.

**Researcher**



**University of Karbala  
College of Islamic Sciences  
Department of Arabic Language**

# **The Center and the Margin in Orientalist Islamic Studies**

**Bernard Lewis as a model**

**Thesis submitted to the Council of the College of Islamic  
Sciences / University of Karbala**

It is part of the requirements for obtaining a doctoral degree

In Arabic – the language of the Qur'an

Written by student

**Ali Jawad Kadom Al- Jubouri**

Under the supervision of Assistant Professor Dr.

**Safaa Hussein Latif Al , Massoudi**

**2023 A.D.**

**1444 A.H.**